المعلوم والمجهول

تأليف

ولي الدين يكن

دار صادر
بيروت

المعلوم والمجهول

تأليف

ولي الدين يكن

الجزء الأول

مطبعة الشعب بشارع درب الجماميز بمصر

سنة ١٣٢٧ هـ — ١٩٠٩ م



قائد كتائب الحرية والأحرار

الامير المرحوم مصطفى فاضل باشا الشهير

الى القراء

بهذا الكتاب أشياء . وقد فاتته أشياء . وفى أحوال العالم مايمنع الافصاح بكل ما يدور بالخلد . على أننى لا أحب أن أخرج من هذه الدنيا قبل اظهار ماعندى من الخوافى . فاذا وفقنى الله الى أمنيتى تلك كنت سعيدا .

حين تذهب دول الظلم ويذوق الناس نعيم العدل يقرأون مثل كتابى هذا بارتياح .

واذا وهب الله أقوامنا من الترقى أكثر مما نالوه وبقيت أنا حياً بينهم كلمتهم بما يخالج صدرى تصريحا لا تلميحا .

مؤلف الكتاب

الى مؤسس بناء الحريه

الامير الجليل المرحوم مصطفى فاضل باشا

أيها الامير

أنطقت كمالاً واصحابه واخترت الصمت . ولدت بنفسك غنياً ومت لوطنك فقيرا . علمت محب الحرية كيف يغنيها فغنا ها . ثم طربت فشربت كاساً هى الحمام . فى حب حبيب هو الوطن . ما كنت شاعراً ولكن خلقت الشعراء . فلما جئت فى لداتى لم نجد ما نقول بل كررنا ما قاله الاسلاف من تلامذتك .

لو أمست البلاد العثمانية كلها قبرا لك وحدك . وخيط كفنك مما يتسرب من آماق بنيها من الاشعة . وأقيم لك تمثال من الذهب أطول من برج (ايفل) عشر مرات . وكتب مدحك على أديم الارض من شمال البالقان الى جنوب اليمن لكان ذلك دون قدرك .

هذا كتاب فصوله كثيرة ولكنها فصلان . لى فى كليهما شؤون . اما الفصل الاول فبيان لمحنة الامة . واما الفصل الثانى فاستخراج العبرة من تلك المحنة . وقد ذهب الشر وجاء الخير ولكن ضعت انت فى الفترة .

هذا كتاب اهديه الى اسمك الخالد . لا تقرباً اليك بأمل دنيوى اذ لا سبيل اليك . بل تشريفاً لى ولكتابى ثم اعترافا لك بفضل لا يخالفنى فيه أحد ، فليطب مضجعك . ولتتغمدك الرحمة . وليسق ثراك الغيث . أيها الامير الفاضل الجليل م؟

ولى الدين يكن



مقدمه

— ١ —

كتابى سر فى الارض واسلك فجاجها
وخل عباد الله تتلوك ماتتلو

فما بك من اكذوبة فاخافها
ولا بك من جهل فيزرى بك الجهل

سيشهد من يتلوك ان كان عادلا
بأن بنى حواء مابينهم عدل

للمؤلف

بين فروق ومصر نجى من الغيب تتراوح به الرسل ، فتقصر فى بلاغه . وتتحمله النسائم ، فتعجز عن تأديته . لكل عند صاحبتها لبانة ، ولكل لدى الأخرى مكانة . شدت أواصر القربى بينهما فأحكمت ، ثم رثت فتراخت ، ثم دبت بين الأم وبنتها عقارب الجفوة ، فكادت تنفرج مسافة الخلف . وتنفصم عرى الوُد ، ولكن تدوركتا من حيث لم تحتسبا ، فباتتا على ريب من أمريهما . فمتأمل فى حاليهما يقول :

وكل مظهر للناس بغضاً * وكل عند صاحبه مكين

ومتسل بواحدة عن الاخرى ينشد :

تسلى باخرى غيرها فاذا التي * تسلى بها تغرى بليلى ولا تسلى

أما فروق ، فهى الغانية ، بزت حليها وحلاها . واستغنت بجمالها عن تجملها . عروس الطبيعة الناشز . المنعمة الممنعة . تهب الصبابة وتسلب الجلد . للملوك مصارع من حسنها وللرعايا مصارع من ظلمها . يقيم على غرامها الى الأبد من نظر اليها نظرة واحدة .

واما مصر ، فهى الفتاة ، أدنيها قريب وملالها أقرب . أكبر من أمها سناً وأقدم منها بالحضارة عهداً . رائعة الخلق والخلق . عروب ، لعوب ، نؤوم ، مكسال صادق حبها ، كاذب وعدها ووعيدها .

الفاتنتان تتباينان ، فتتراجعان . ولا تستمران على قطيعة .

أما بنوفروق ، فمغلوبون على أمرهم . قضى عليهم أن لا يتحاصوا من الحياة الدنيا الا الهموم . يعيشون فيها ، لا يرون بها شمساً ولا زمهريراً (ولا يسمعون لغواً ولا تأثيما) عاليهم ثياب من نار ، كلما شوت منهم جلوداً بدلوا بها جلوداً . تتعاقب الآناء وهم سكارى ، حيارى ، كأن عهدهم بالحشر قريب ، ينظرون من خلل اليأس الى بارق الامل

وكأنه برق تألق بالحمى * ثم انضوى وكأنه لم يلمع

يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا . أوصدت دونهم أبواب القبول وحيل بينهم وما يشتهون . فايد بسطت ضارعة بالذلة ، ووجوه عنت منقبة بالمسكنة ، وأبصار زاغت وفى لواحظها نعاس الخمول ، وقلوب شقت وفى أشطارها معانى الشكوى . وما

يغنى التطلب ! أقعدت العزمات وصغرت الهمم ، وفاضت النفوس . وراحت الآمال ، وبوعد بين الشباب وبين الوصال .

أما لو أن زهور الرياض مقل ، وقطرات الطل دموع ، وأنفاس النسائم زفرات ، وأغاريد الطيور نحيب ، والأقاحى ثغور تناجى ، والبراكين أفئدة تتقد ، والقيامات أنات الضمائر ، وخطوب الدهر أحزان بنيه ، لقل ذلك عند وقوف المتأمل على أجداث اخواننا الشهداء . ألا بنفسى تلك اللحود ، صمت نازلوها ونطقت صناديقها . . ألا ما لمثل هذه الافئدة البشرية هذه الشجون . بلى هى قوى كهربائية لها من كل ويل تيار .

أما بنو مصر ، فمغلوبون على أمرهم . ذاقوا مرارة الذل أولا ، ثم بدلوا منها أريا شهياً وأوتوا رخاء وعيشاً معللا جانبه . أسفرت لهم الحرية ، عدوة الملوك وحبيبة الشعوب . راموها زرقاء ، فأتت حمراء . وماتلك بحمرة خجل ولا حمرة دم ، ان هو الا الحياء يورد الخدود ويقصر الخطى ، فهم مغبوطون وهم حاسدون . ذلوا لها حين استعصت ودلوا عليها حين سلست ، وأنساهم عذب الوصال مر الهجران .

ليقف من شاء من أبناء حواء على منارة من منارات فروق . وليدع طرفه يرود تلك الهضاب فى أبرادها السندسية وليفسح له مجالا في مسارح خلت من أوانسها ، وليرم به الى قرارات كالدراهم . تلمع بكرة وتلتهب أصيلا . مراودها الغزل ومسالكها العفاف . فاذا بدا له (البوسفور) فى ازرقاق عبابه ، وتجعد أديمه ، وازدهار شطيه ، واطلاع اقماره . فليرجع البصر الى منازل كأنها لعب أو علب ، كأنها بنيت بعضها فوق بعض . فلينصت هنالك

قليلا ، وليسأل بعدها عما سمع ورأى أما والله ليصيحن بملء فيه ، منشداً
قول المعرى

خفف الوطء ماأظن أديم ال * أرض الا من هذه الأجساد

رب دار كأنها قفص البلبل . فى وسط حديقة كأنها طبق زهر . ثم فتاة
أفرغ الله نوره فتكونت منه . يدخل عليها داخل وهى غارقة فى هواجسها
فتقول له ماأخر أبى ؟ ماأبطأ بأخى لم لم يحضر هو . . . ؟ وهو معلوم . . . .
فيقول لها أبوك نفى وأخوك سجن وهو . . . . . ضاع بين الأزرقين ، السماء
و (البوسفور) . فلا أدرى ، بل لاأود أن أدرى ما يكون من لحظيها اذا
أسبلا بكاء وما يكون من ذلك الوجه اذا رفع فى يأسه وحزنه الى السماء
وقال فمه مرة واحدة : آه !!!

وليقف بعد ذا من أراد على قمة الهرم الكبير فى مصر ، وليتأمل بنت
ايزيس وأوزريس ؛ أما والله لايلبث ان يرى الوجوه الضاحكة . خلال
المغانى الآهلة فيبدو لتأمله فرق مابين العاصمتين .

- ٢ -

بفروق قصر وبمصر قصر . القصران مصدران للأحكام وموردا
للآمال . هما كشقى المقص : اذا افترقا أحاطا واذا تجمعا فرقا . هماالصرحان
تطل منهما المعالى ويشرف سلطان القوة . يقلبان ولا يتقلبان : على أيهما وقف
البصر خشع وأيهما حضر بخيال النفس هالها ؛ ياداري العزة ماالخورنق

والسدير . ماايوان كسرى وما قصر الحمراء . ماربع مية يطيف به غيلان وهو
معمور . بل ما ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد .

تطاولت الأيدى حتى انتهت اليهما فما بقى مكان خالياً الا وطرقه طارق
منتاب . أحيطا ، فنما ، فعزا ، فأرهبا . ثم اغترا ، فأعملا ، فأذلا ، فأغضبا .
ثم زادا ، فأفنيا ، فأثارا . وما هى الا صيحة أخذتهما فتساقطت تلك اللبنات
الذهبية وتقعقعت هاتيك العروش وقضى الأمر . وكذلك يستدرج ربك
بعباده من حيث لايعلمون .

مضى زمان العمل وجاء زمان الحساب . وقد قال شاعر العرب :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه * ليس الكريم على القنا بمحرم

القاضى هو الحق . والمخاصم هو الامة . ومن كان نصيره تاجه وصولجانه
فالأمة نصيرها الله .

- ٣ -

قلت (له) قبل اليوم بنحو الثلاث عشرة سنة من ابيات لى :

ضع الامر فى موضع الاعتبار
فان الزمان زمان العبر
ولا يفرحنك زوال الخطوب
فكم اثرها من خطوب أخر

مصاب مرير اذا ما انقضى
تلاه مصاب عليك أمر
حياتك أمست حياة التساوى
فلست تساء ولست تسر
اذا ما أمانى الهوى برزت
وكل خفى بها قد ظهر
وشام بصير وأصغى سميع
وراحت ترود المعانى الفكر
وقال زمانك كيف التحامى
وناداك دهرك أين المفر
هنالك تشكو كما كنت تشكى
ويجرى بما لاتشاء القدر

واليوم لا أجد ماأزيد على هذا المقال .

- ٤ -

اضحت مصر منذ سنة ١٥١٧ ولاية عثمانية . عاشت سلسلة القياد ، لينة العريكة ، الا ما كان يأتى به بعض المتغلبين ، من بقية السيف ، من ساداتها الاول منذ سنة ١٧٦٦ .

وفى سنة ١٧٩٤ أخرج نابوليون الأول من الجيش العامل فى فرانسا . فهم أن يقصد الى الملك العثمانى لينظم مدفعيات العثمانيين . لكنه استبقى لفرانسا حتى سلط مدفعياتها على الهرمين فى سنة ١٧٩٨ وهزم عنهما مراد بك وابراهيم بك . ثم أجفل الى بلاده وأخرجت جنوده الجنود العثمانية والبريطانية .

وقد شاءت الاقدار أن يغنم مصر سليم الاول ويخسرها سليم الثالث . كما رفع فرانسا نابوليون الأول ووضعها نابوليون الثالث . وشتان بين سليمنا الثالث ونابوليونهم الثالث . ان سلطاننا كان حراً وحكيما وعادلا ولكن جنى عليه الجانون .

فلما اطمأنت مصر بعض الاطمئنان الى محمد على الأول ، بعد سنة ١٨١١ ، دخلت فى تاريخ جديد .

فاذا تأملناها منذ أخذها العثمانيون الى يومنا هذا ، رأينا الغرابة فيها من ابتداء سنة ١٨٩٢ وما تلاها من السنين . وسيأتى الكلام على بعض تلك النوائب ايثاراً لتخليدها .

- ٥ -

وهبتنى مصر تجارب ووهبتنى فروق تجارب . وكتابى فيه مواهب العاصمتين ومختصر من تاريخ القطرين وعبر من وقائع القصرين . فمن قال فيه أنه دفتر الحسنات والسيئات فقد صدق ، ومن قال فيه انه ديوان

السياسة فما أخطأ . على انى أتمثل بقول أبي الطيب :

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت
منى بعلمى الذى اعطت وتجريبي

﴿ الجرائد المصرية فى سنة ١٨٩٢ وما قبلها وما بعدها ﴾

كانت الجرائد المصرية الى سنه ١٨٩٢ معتدلة السياسة على اختلافها في مذاهبها . ولم تكن السياسات الا ثلاثة ضروب : عثمانية محضة مسالمة للاحتلال الانكليزى وهى التى امتازت بها جريدتان يوميتان (المقطم) و(النيل) وفرنساوية مصرية وهى التى اختصت بها (الاهرام) و (المؤيد) ومصرية محضة مع انصاف المحتلين وهى التى سارت عليها جريدة الوطن .

فأما (المقطم) فقد ثبت على سياسته الى يومنا هذا ولم يبد منه ادنى تغير فيوآخذ عليه. وأما (النيل) فقد تغير فى أواخر أيامه وظهر تغيره للعيان. وما غيره صاحبه بل غيرته أنا . على انه لم ينتقد السياسة البريطانية ذاتها بل استكبر حمايتها للاحرار العثمانيين ، ممن هبطوا مصر ليستمتعوا بحريتها ويحتشدوا بها على حرب الحكومة المستبدة المنقرضة . فكنت أنا وصاحب النيل رحمة الله عليه ننكر على الاحرار مساعيهم ونأبى مشاركتهم فيها . ومن هنا يتبين للمتأمل ان اختلاف (المقطم) مع (النيل) لم يكن الا من الوجهة العثمانيه الداخلية . وذلك لأن أصحاب (المقطم) نشأوا فى أعظم مدرسة غربية أسست في الشرق وهى الكلية الاميريكية الكائنة ببيروت ، وأخذوا

علومهم عن أعظم حكيم غربى قطن الشرق وهو طيب الذكر الدكتور كارنيليوس ڤانديك. فعرفوا التمدين المصرى وبرعوا فى العلوم الجديدة وأشربوا الحرية فشبوا عليها وكأنهم ولدوا فى أوطانها. وصاحب (النيل) لم يكن كذلك. فان الرجل كان من الراسخين في العلوم العقلية والنقلية مما نحله اياها أحزاب الفكر القديم. فكان مؤرخاً فقيها وكاتباً ألمعياً ولكن لم يخل قلبه من التعصب. كانت نفسه الكبيرة لاتستحب النزوع عن القديم ولا تستطيب شيئاً من الجديد. فاهتديت أنا برأيه ولكن وقعت في خطائه.

وأما (الاهرام) فكان صاحباه رحمهما الله محميين بقوة فرانسا. فلم يريا من المروءة أن يخالفاها فى سياستها الاستعمارية. ولولا ماسبق منهما من الافراط فى التعصب لها لكان عذرهما أوسع. على أنهما سعيا لخير مصر من حيث ظنا أنه صواب. ولم ينصفا الانكليز بل أصرا على حربهم ولم يذكرا للقوم يداً وان جلت ولم يسترا لهم هفوة وان صغرت. وأما (المؤيد) فقد ظهر واهى القوى ، شديد العزيمة ، خلق الجلباب ، جديد الهمة ، رابط الجأش ، جميل الصبر يعانى الشدائد ويعاين المهالك ، رحب الصدر باسم الثغر. فكان يزداد كل يوم شهرة ويجد من اقبال الناس عليه وموآزرتهم له ما يبعث نشاطه ويستعيد فتوته. ولم يرض صاحبه أن يمشى فى الأرض مكباً بل سار في مناكبها شامخ العرنين ، سامى الطرف ، بادى الخيلاء. ثم جنح الى السياسة الفرنساوية شيئا على يد صديقه من قبل وخصمه من بعد المرحوم مصطفى كامل ، رئيس الحزب الوطنى الأول ومؤسسه وصاحب الموسيو (دلونكل) أحد ساسة الاستعمار فى فرانسا اذ ذاك. وقد أمسى (المؤيد)

محالف (الاهرام) كما أصبح (النيل) مخالف (المقطم.)

فكانت جريدة (الوطن) وحدها تغنى مصر كما تهوى مصر ، بل كما يجب عليها لمصر. حفظت العهود ، عهود أجدادها الصيد الاول ، نسل الشمس وخدمت قومها كما أراد قومها. ولما كان الأقباط ، أولو مصر ، قوماً امتازوا بحب وطنهم وشرف نفوسهم وبعد هممهم ومحبتهم الجد ومجانبتهم المعايب ، لم تثن هماتهم عداوات البعض من مواطنيهم المتعصبين. وكما حموا مجدهم على قلتهم وكثرة حسادهم وظلم حكامهم أعانوا جريدتهم فعاشت لهم واستفادوا بها.

على أن هذه الجرائد لم تكن متمتعة بمثل حريتها اليوم. فان قانون المطبوعات الذى وضع فى سنة ١٨٨١ ونصب معه البارون مالورتى الشهير مديراً لقلم المطبوعات ، ضيق الخناق على أرباب الصحف والأقلام وسلب الأمة المصرية حريتى الفكر والسياسة.

فكانت الجريدة من الجرائد تنشر الخبر لايوافق سياسة الحكومة فيأتيها الانذار من الداخلية تنشره فى أول عدد يصدر منها بعد وروده. واذا أنذرت مرتين ألغيت فى الثالثة. وقد يحكم عليها بتعطيلها شهراً أو أكثر أو أقل وقد تلغى بغتة. وكل ذلك على مايبلغ ذنبها وجنايتها السياسية. ولكن لم يطل أمدُ هذا الظلم. وأعلنت حرية المطبوعات فى وزارة الرجل الحر مصطفى باشا فهمى وكان ذلك فى أواخر سنة ١٨٩٢ على ما اظن. ثم أتت الوزارة الرياضية فهمت برفع هذه الحرية فلم تفلح وذهبت غير مأسوف عليها.

غير ان الجرائد المصرية لم تشبه اخواتها فى الغرب بحال من الاحوال لا فى عهد أسرها ولا بعد عتقها. وسبب هذا النقص اتحاد الصحافيين على

استرضاء الشعب . فهم يرون أن الشعب المصرى لايحب فى صحفه الا أن تكون هكذا . وفاتهم أن الجرائد هى ألسن العقلاء تنطقها الحكمة ولا يستميلها الهوى وأن الواجب عليها أن تقود لا أن تقاد .

وكم أسف أجده عند ما أتذكر ماضى الشباب . أيام كان الفتى منا شغله مقالة يكتبها أو قصيدة ينظمها لتذكرها له الصحف السيارة ناعتة اياه بالفاضل والاديب . أيام كان الشاب منا يقضى ليله فى معاقرة ولهو وسماع ثم يصبح فينادى فى الصحف باسم الوطن ويدعو الى مكارم الاخلاق . واذا صادف من أديب غرة انبرى له طالباً مناضلته طامعا فى مساجلته ، اقتساما لشهرته ولكى يقال انه ناظر فلانا فغلبه . كانت أمامنا ساحات المطبوعات متباعدة الاطراف ، مباحة الحمى . نجول فيها كما نحب . نقول فنجد من يسمعنا ونهذر فنلقى من يشاركنا . فيوماً نحن أعداء (قوم) نحض الناس على مقاتلتهم ونزين لهم مناوأتهم ونحبب اليهم بغضتهم . ويوما نحن أنصارهم نفديهم بالأرواح ونبغض من يريدهم بسوء . ذلك باننا دخلنا أبواباً لم نكن اهلا لدخولها وادعينا السياسة وما كنا الا فتياناً لايعلم الواحد منا أحوال نفسه . فكيف كان يتسنى لنا كشف غوامض حارت فيها الدهاة وأخطأها أهل الصواب .

هكذا ، يأتى على المرء حين من الدهر يؤلمه تذكر ماضيه ويخجله . وما أشد عصر الشباب اغراء للشباب . وليت هذه العظات تنال رخيصة فيستعاض بها ماخسرته الحياة على قصرها . الا أنها غاليه أثمانها الاعمار .

وهنا لا أجد بداً من الاعتراف بأن حرية الجرائد اليوم بلغت أقصى

غاياتها . ولكنها أساءت الى الأدب والأديب . فقد منحت الجرأة لقوم من الأميين والبعيدين عن معالى السياسة قصرت الاقلام بما يضر وعجزت عما يفيد .

❊ السياسة الانكليزية بمصر ❊

فى سنة ١٨٩٢

فى ٨ يناير سنة ١٨٩٢ جاء من (ڤينا) الى رئاسة مجلس النظار بمصر تلغرافا هذا نصه :

« ان نبأ وفاة سيدى ووالدى قد أدهشنى . فهو مصيبة عظيمة »
« على عائلتى وعلى القطر المصرى بأجمعه . ومتى وصلتنى منكم الاخبار »
« الاكيدة عن الوابور الذى سيعد لسفرى من تريستا ، أسافر بلا »
« ابطاء وأخبركم بالتلغراف عن ساعة السفر . وانى على يقين أن ألاعمال »
« تستمر سائرة على أحسن محور بهمة عطوفتكم ورفقائكم ريثما أصل »
« اليكم » .

كان هذا التلغراف رجع الصدى لآخر مثله نعى توفيقا العادل الى عباس البار . فرددت ألسن الكهول قول الشاعر القديم :

هناء محا ذاك العزاء المقدما ... فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام فى ثغور مدامع ... شبيهان لايمتاز ذو السبق منهما

وكررت ألسن الفتيان قول الشاعر الجديد شاعر الاميرين :

بين ماضى الأسى وآتى الهناء ... قام عذر النعاة والبشراء
نبأ معذر نفى بعضه به ... ضاً فكان السفيه فى الأنباء

حتى اذا ازدحمت الجموع وتأهبت عابدين للترحاب بالأمير الفتى ، ألهم جنىّ القريض ذاك الشاعر الجديد الهامه فقال :

ان خيلا حملن سيزوستريس الـ ... ـمصر أولى الجياد بالخيلاء

فردت الشبيبة المصرية بقوله :

وطنى قبلتى وأنت امامى ... بك فيه لوجه ربى اقتدائى

ثم خفتت الأصوات وتطلعت الأعناق فدوت المدافع من القلعة . فاذا هى تحيات يزفها محمد على الكبير ، من مرقده العالى لابنه الامير ، بالنيابة عن أبنائه المصريين.

هنا اضطرت انكلترا أن تغير سياستها التى سارت عليها بمصر من سنة ١٨٨٠ الى هذا التاريخ المتقدم ذكره . وكانت تلك السياسة قائمة على تأييد المقام الخديوى وحفظ القطر المصرى من أن تمد اليه يد الطامع ، وأن تصلح شؤون مصر ويزداد عمرانها . وقد رأت من ود الخديو المرحوم توفيق باشا وصدق ولائه ماذلل لها الصعاب . فاشتركت معه واستعانت به على القيام بجلائل الأعمال . وبات العرابى ومن خدعهم في سيلان يتحسرون على مصر ولسان حالهم يقول :

فهيهات هيهات العقيق ومن به ... وهيهات خل بالعقيق نواصله

فأما السياسة البريطانية الجديدة ، فلم تزد فى تغيرها على زيادة الانتباه لسياسة عابدين الجديدة . هنالك شرح الشباب وخطر المقام وقلة التجربة

وكثرة المطامع استدعت ذلك الانتباه حتى قال طيب الذكر اللورد (سالسبرى) فى ١٠ فبراير سنة ١٨٩٢ :

« ان الحكومة الانكليزية لاتدع مصر فتتسلط عليها دولة أخرى أو تقوم فيها الفتنة . »

ولقد قال (أرل ددلى فى خطبة خطبها في ٩ فبراير سنة ١٨٩٢ بعد خطبة العادلة الفاضلة الشهيرة فيكتوريا ملكة بريطانيا العظمى : (انا على ثقة أن سمو الأمير الجديد سيكون كفؤا للقيام بأعباء ملكه على توالى الأيام) .

على أن المعية المصرية أخذت تتهيأ لسياسة جديدة بما تدرجت فيه من التغيير الجديد ، قبل ذلك بأيام.

ففى ٢٥ يناير سنة ١٨٩٢ عزل المرحوم خليل بك ثابت التشريفاتى الثانى بالمعية ، وموسى بك عصمت معاون التشريفات. وفى ٢٧ يناير سنه ١٨٩٢ صدر امر عال بقبول استعفاء ثابت باشا وذى الفقار باشا . وقبل ذلك أى فى ١١ يناير أحيل على المعاش احمد باشا الياور الخديوى الأول وعين بدلا منه عبد الله باشا فوزى . وأحيل على المعاش أيضا على بك ثابت قوماندان المراسلة الخديوية وعين مكانه محمد بك توفيق (هو محمد باشا توفيق الذى توفي بعد أن نال رتبة الفريق.) وفى ٥ فبراير من السنة عينها أحيل على المعاش على بك حافظ رئيس قلم الترجمة وعين مكانه احمد بك شفيق (هو الآن احمد باشا شفيق) .

ثم حلت النقمة بسبعة من عملة التلغراف بالمعية ، فصدرت الارادة بفصلهم جميعا من أعمالهم وعينت ادارة السكة الحديد فى القاهرة سبعة

غيرهم وذلك فى ٨ يونية سنة ١٨٩٢ .

وكان الناس يستشعرون بتجدد فى أحوال المعية كلها كما وقع ذلك التجدد فى تغيير رجالها . فباتوا يتوقعون يومه بصبر اضطرارى ونظر اختيارى حتى آذن صبحه بابتسام . وانى لذاكر فى هذا الفصل ، قبل الدخول فى بيان شىء ، صورة التقرير الذى سيره السير أفلن بارنج (هو اللورد كرومر) الى طيب الذكر ماركيز (سالسبوري) ليكون توطئة لما سيتلوه من الكلام .

صورة التقرير

منقولا تعريبه عن مجموعة المقطم الشهير

مصر القاهرة فى ٩ فبراير سنة ١٨٩٢

مولاى .

كانت عادتى قبل سنة ١٨٩١ ، أن أبعث الى فخامتكم أو الى أسلافكم بتقرير سنوى فى مالية الحكومة المصرية ولكنى فى السنة الماضية كتبت أول مرة تقريرين ، أحدهما فى الماليه المصرية فقط والآخر فى تقدم الاصلاح الادارى الذى تم بوجه الاجمال فى القطر المصرى مدة السنين اليسيرة الماضية . وقد قصدت فى هذا التقرير الذى أتشرف بعرضه على فخامتكم أن أوضح ، بالايجاز ، النتائج التى أدركتها مصر ، سواء كان فى المالية أوفى الادارة العمومية بعد تقريرى الماضى فى ٢٩ مارس سنة ١٨٩١ .



المغفور له الخديو السابق

أهم الحوادث السياسية التى حدثت بعد كتابة تقريرى الماضى فى ٢٩ مارس سنة ١٨٩١ ، وفاة سمو الخديو السابق رحمه الله : وذلك في ٧ يناير سنة ١٨٩٢ ، بعد أن مرض أياما قلائل .

وقد كان رحمه الله فى مقام عظيم المصاعب طول أيام اشتغاله بالسياسة . فانه ارتقى سرير الخديوية فى شهر أغسطس سنة ١٨٧٩ وهو يومئذ ابن سبع وعشرين سنة ، كانت البلاد قد أمست على شفا الدمار ، بسبب الاسراف

والتبذير في المالية وسوء الادارة العمومية. وكان نظام الجيش قد اختل اختلالا عظيما ، بسبب الحوادث التى جرت قبل تنازل اسماعيل باشا . فثار الجيش وتمرد بعد ارتقائه رحمه الله بزمان قصير ، واقتضت الأحوال مجيء جيش أجنبي لرد النظام . ولم أكن أنا بمصر فى الثورة العرابية . ولكنى كثيرا ماسمعت الثقاة الأكفاء يتكلمون عن تصرف الخديو المرحوم فى تلك الشدة ويطنبون في مدحه اطنابا عظيما . ولم يزل مركزه بعد الاحتلال البريطانى محفوفا بمصاعب عظيمة ، وان كانت مختلفة عن المصاعب الاولى فى نوعها . فان سموه امتاز بكونه مصلحا معتدلا . وكان خبيرا بأحوال بلاده ، يعلم حق العلم بأن اصلاحها يجب ، بحكم الضرورة ، أن يتم تدريجا . وكان يدرى جيداً أنه لابد من استخدام عدد يسير من الأوروبيين المنتخبين ، مدة من الزمن . وذلك مع شدة رغبته فى ترقية أبناء وطنه الى المناصب التى يكونون فيها محل الاعتماد وتلقى عليهم العهدة والمسؤولية . أما الخدمة التى خدمها الموظفون الأوروبيون فى الحكومة المصرية للقطر المصرى ، فالناس كلهم يعترفون لهم الآن بها . وهم أقل كرهاً لوجودهم عندهم. وأقل حذراً وتخوفا منهم ، بالنسبة الى ما كانوا عليه قبلا .

فاقتضى فى غضون ذلك أن يكون هناك شيء كثير من حسن السياسة والتمييز لاجراء معظم الاصلاح على يد الأوروبيين بلا اساءة الى أهالى البلاد ولا مس حاساتهم . وحسن السياسة هو ما اشتهر به الخديو المغفور له وفاق فيه . فكان من جهة يشد أزر مشيريه الأوروبيين ويؤيدهم تأييدا لولاه ، لما جاءت مساعيهم فى تحسين أحوال البلاد بنتيجة تذكر. ومن جهة لاينسى

ان النظامات الاوروبية الشوروية والادارية يجب أن تتغير فى الصورة والجوهر وتكيف بحيث تصير صالحة لحاجات الأمم الشرقية .

وكان رحمه الله ، يعلم أيضا أن أعظم المخاطر التى يجب اجتنابها هى الاسراف والتبذير فى المالية ، والاستبداد في الحكومة . فلذلك جعل علم الزمان الماضى نصب عينيه . فكان فى معيشته العمومية أول من يكره غيره الاسراف والتبذير ويؤيد سلطة القانون ، كما كان أيضاً فى معيشته الخصوصية التى هى حرية بأن يقتدى بها من كل الوجوه .

فلهذه الأسباب وغيرها مما تيسر سرده يحق لأبناء مصر ولكل الذين يهتمون بأمورها أن يندبوا فقيد مصر الذى عاجلته منيته فاخترمته قبل أوانها . لاسيما وأنها وافته حينما زالت المصاعب التى خصت بخديويته فى بداءتها ، وابتدأ يجنى ثمار جده الدائم الشديد وجهده الثابت الجهيد ، لتحسين أحوال مصر فى السنين اليسيرة الماضية .

وزد على ذلك أيضا أنه منذ سنة أو سنتين ، زاد نصيبه الخصوصى فى تولى الأمور وادارتها بنفسه ، فتوفر الخير والفائدة لبلاده . وكانت الثقة به آخذة فى الازدياد والتعاظم ، فى نفوس الموظفين والوطنيين والأوروبيين الذين مازجوه ، وفى نفوس الأهالى عموما ، وكانوا يزيدون كل يوم اعتباراً لصدقه واستقامته وصحة حكمه وحسن تمييزه . والحق يقال ، إن الناس على اختلاف طبقاتهم ، حزنوا حزنا حقيقيا على وفاته في شبابه .

وأضيف على ماتقدم ، أن سموه طالما شكر وأثنى فى حديثه معى على مافعلته حكومة جلالة الملكة لانقاذ بلاده من الفوضى فى أيام الفتنة العرابية .

وقد كان سموه طول أيام حكمه على غاية الصداقة والمودة مع حكومة جلالة الملكة ومع الانكليز الموظفين فى الحكومة المصرية . وكان يعلم حق العلم أن الغاية الوحيدة من السياسة الانكليزية فى الديار المصرية انما هى خير المصريين ورفاهتهم . وعلى ذلك كان يجرى فى معاملاته معهم ومع سواهم.

ومما يزيدنى رغبة فى ايفاء سموه حقه بهذه الشهادة هو أنه نظرا الى صعوبة مركزه أخطأ كثيرون حقيقة تصرفه ولم يصيبوا في فهم البواعث التى كانت تبعثه على أفعاله . واذا قلت ذلك فانى أقوله عن ثقة بعد تقادم عهد العلاقة الشديدة التى كانت بينى وبين سموه .

ولما توفي الى رحمة ربه خلفه بكره سمو البرنس عباس باشا حلمى على عرش الخديوية عملا بنص الفرمان الشاهانى الصادر في ٨ يونيو سنة ١٨٧٣ . أما الفرمان الناطق بتولية سموه فلم يأت من الآستانة حتى الآن ولكن جلالة السلطان بادر بعد وفاة الخديو السابق فاعترف له بالخلافة الشرعية على الخديوية الخ ... ويتلو هذا الكلام ثناء على مقام الامارة الجديدة . ولولا طول التقرير لذكرته برمته في هذا الفصل .

ويستدل من هذا وما يتلوه ، أن السياسة البريطانية كانت الى عام ١٨٩٢ سياسة ود وصفاء . قام العرابيون على أمير البلاد عصياناً وطغياناً ووقفت الحكومة العثمانية وقفة الغريب لاتدرى أى طريق يجب عليها أن تسلكه . وقد عرضت عليها انكلترا ارسال جنودها العثمانية ارهاباً للعاصين وعقاباً ، ووعدتها ان تحرس لها جنودها بدوارعها . فصدرت الارادة السلطانية بارسال عدد كاف من الجنود العثمانية التي كانت اذ ذاك بجزيرة كريد . الا أن المرحوم

الشيخ أسعد ، وكيل الفراشـة ، وشى الى السلطان بأن الأسرة الخديوية اتحدت مع الانكليز على اعلان الاستقلال المصرى والنداء باسم الخلافة لتوفيق باشا . فصدرت ارادة سلطانية ثانية نسخت الأولى . وبقى الجنود فى كريد كما كانوا . وكتب الشيخ أسعد الى العرابى وأعوانه يحضهم على الثبات ويعدهم بجعل الامارة المصرية فى نصابهم ، اذاهم تمكنوا من طرد هذه الأسرة من مصر . فلما يئس الانكليز من انتباه الحكومة العثمانية وارعواء المتمردين كلموا الثغر الاسكندرى بألسنة المدافع وهبطوا مصر ان شاء الله آمنين .

فلما كانت الامارة الجـديدة التى ظهرت فى عام ١٨٩٢ ، وسبق منها ما سبق من التغيير الدال على تغير القلوب ، وجب على الانكليز الانتباه .

ولما سقطت الوزارة الفهمية الأولى وحلت محلها الوزارة الرياضية ، حسب المخلصون لمقام الامارة أن قد تمّ لهم ما يريدون وأن الزمان رجع الى شيمة الوفاء وتاب عن الغدر . ولكن لم تلبث هذه الوزارة أن أشارت على الامارة برأى كله خطل . فكان انتقاد الامارة على الأعمال الجندية بما لا يوافق المجاملات السياسية مغضبا للقواد الانكليز الذين يدربون الجيش المصرى ويصلحونه . فاستعفى السردار كتشنر باشا ومن هم تحت أمره من الضباط واضطرت الامارة الى الاعتذار خطاً وشفاهاً . وكانت الامارة استدعت رئيس الوزارة الرياضية بالتلغراف سائلة اياه رأيه . فأشار عليها بالاعتذار وقفل راجعا من ساعته .

ولم تكتف الامارة المصرية بهذا القدر من اعلان العداء للمحتلين واظهار

الاخلاص لجماعة من اهل البطالة والعرّافين . فاتخذت بدار الامبراطورية العثمانية من تعتمد عليهم وتحمل الهدايا اليهم . ومن هؤلاء عزت العابد وعبد الله النديم والمرحوم جمال الدين الأفغانى ولا إخال أن في أكثر الفضلاء ، من المشتغلين بمثل هذه الأشياء ، من يكون نسى سفر الامارة الى الآستانة ، متقدمة جماعة من أهل الشبيبة المصرية ، معتمدة على آراء من ذكرت من رجالها . وقضية المضبطة التى قامت لها القيامة اذ ذاك معروفة . وما أريدَ من هذا كله الا تجديد الصلة بين التابع والمتبوع فى الظاهر ، وبث الفتن فى الباطن .

ثم ظهر مصطفى كامل وراح ينتصر بالمسيو دلونكل أحد أعضاء مجلس الامة الفرنساوى وناظر المستعمرات فى فرانسا فى أواخر سنة ١٨٩٤ تقريباً وكان هذا الوزير ووزير الخارجية اذ ذاك ، المسيو هانوتو ، من أضداد الاستعمار الانكليزى . ولم تكن فرانسا اقتنعت بنصيبها من البلاد المغربية بدل البلاد المصرية . فرحب الوزيران بالشاب المصرى واستخدماه فى آرابهما . فكان لهما أشد من البنان طوعا وأكبر من الظل انقياداً . فخلق مصطفى كامل من العدم وخلقت السياسة البريطانية الجديدة معه . ولما بدت على تلك السياسة التي كانت آية في الولاء والسلم آثار الاشمئزاز ، بلغ الخوف من القلوب مبلغه ، حتى لقد اضطر جماعة من أولى الحماسة الى انكار المضبطة متقدمة الذكر وكانوا يريدون الاحتجاج بها على الاحتلال عند القصر السلطانى .

فرأى كبار الساسة فى انكلترا بذل النصح أولا والارهاب ثانيا . فكلم اللورد كرومر مقام الامارة مراراً ، ناصحاً غير مخادع . فلم يجد ذلك

الشيخ أسعد ، وكيل الفراشة ، وشى الى السلطان بأن الأسرة الخديوية اتحدت مع الانكليز على اعلان الاستقلال المصرى والنداء باسم الخلافة لتوفيق باشا. فصدرت ارادة سلطانية ثانية نسخت الأولى. وبقى الجنود فى كريد كما كانوا. وكتب الشيخ أسعد الى العرابى وأعوانه يحضهم على الثبات ويعدهم بجعل الامارة المصرية فى نصابهم ، اذاهم تمكنوا من طرد هذه الأسرة من مصر. فلما يئس الانكليز من انتباه الحكومة العثمانية وارعواء المتمردين كلموا الثغر الاسكندرى بألسنة المدافع وهبطوا مصر ان شاء الله آمنين.

فلما كانت الامارة الجديدة التى ظهرت فى عام ١٨٩٢ ، وسبق منها ما سبق من التغيير الدال على تغير القلوب ، وجب على الانكليز الانتباه.

ولما سقطت الوزارة الفهمية الأولى وحلت محلها الوزارة الرياضية ، حسب المخلصون لمقام الامارة أن قد تمّ لهم ما يريدون وأن الزمان رجع الى شيمة الوفاء وتاب عن الغدر. ولكن لم تلبث هذه الوزارة أن أشارت على الامارة برأى كله خطل. فكان انتقاد الامارة على الأعمال الجندية بما لا يوافق المجاملات السياسية مغضبا للقواد الانكليز الذين يدربون الجيش المصرى ويصلحونه. فاستعفى السردار كتشنر باشا ومن هم تحت أمره من الضباط واضطرت الامارة الى الاعتذار خطاً وشفاهاً. وكانت الامارة استدعت رئيس الوزارة الرياضية بالتلغراف سائلة اياه رأيه. فأشار عليها بالاعتذار وقفل راجعا من ساعته.

ولم تكتف الامارة المصرية بهذا القدر من اعلان العداء للمحتلين واظهار

الاخلاص لجماعة من اهل البطالة والعرّافين. فاتخذت بدار الامبراطورية العثمانية من تعتمد عليهم وتحمل الهدايا اليهم. ومن هؤلاء عزت العابد وعبد الله النديم والمرحوم جمال الدين الأفغانى ولا إخال أن في أكثر الفضلاء ، من المشتغلين بمثل هذه الأشياء ، من يكون نسى سفر الامارة الى الآستانة ، متقدمة جماعة من أهل الشبيبة المصرية ، معتمدة على آراء من ذكرت من رجالها. وقضية المضبطة التى قامت لها القيامة اذ ذاك معروفة. وما أريد من هذا كله الا تجديد الصلة بين التابع والمتبوع فى الظاهر ، وبث الفتن فى الباطن.

ثم ظهر مصطفى كامل وراح ينتصر بالمسيو دلونكل أحد أعضاء مجلس الامة الفرنساوى وناظر المستعمرات فى فرانسا فى أواخر سنة ١٨٩٤ تقريباً وكان هذا الوزير ووزير الخارجية اذ ذاك ، المسيو هانوتو ، من أضداد الاستعمار الانكليزى. ولم تكن فرانسا اقتنعت بنصيبها من البلاد المغربية بدل البلاد المصرية. فرحب الوزيران بالشاب المصرى واستخدماه فى آرابهما. فكان لهما أشد من البنان طوعا وأكبر من الظل انقياداً. فخلق مصطفى كامل من العدم وخلقت السياسة البريطانية الجديدة معه. ولما بدت على تلك السياسة التي كانت آية في الولاء والسلم آثار الاشمئزاز ، بلغ الخوف من القلوب مبلغه ، حتى لقد اضطر جماعة من أولى الحماسة الى انكار المضبطة متقدمة الذكر وكانوا يريدون الاحتجاج بها على الاحتلال عند القصر السلطانى.

فرأى كبار الساسة فى انكلترا بذل النصح أولا والارهاب ثانيا. فكلم اللورد كرومر مقام الامارة مراراً ، ناصحاً غير مخادع. فلم يجد ذلك

نفعاً ولم ينتبه أحد الى مافى هذه السياسة العوجاء من الخطاء العظيم. ثم تبدلت وزارتان ، احداهما لم تدم أكثر من الأربع وعشرين ساعة ، ورجعت الوزارة الفهمية فى حكمتها وسداد رأيها . فعاشت تعانى الشدائد وتجاهد فى فى الاخلاص للبلاد جهاداً . غير أنها لم تفز كل الفوز ، اذ كانت الحيل التى يتدبرها جماعة خافية عنها . ولو خيرت لاختارت طريق الاصلاح مع الوقار .

وانى لأعجب من قوم حببوا الى الامارة الاستمرار على سياسة العداوة للمحتلين . وأذكر جيدا أنى لاقيت بعض وجهائهم (والأمانة تقضى بستر اسمه فى هذا الكتاب) . فقال أتدرى مايراد بالمحكمة المخصوصة ؟ قلت وما أدرانى ذلك . قال هى ضربة على الامارة . ولو بقى عبدالله نديم بمصر الى اليوم لما أقدم هؤلاء على أمر كهذا . قلت له اقدامهم على طرده من مصر دليل على احتقارهم له ولشيعته . وتركته لايحير جوابا . ومثل هؤلاء أسسوا الاحن فى قلوب المصريين ولقنوهم أقوال السوء وغشوا الامارة وآلوا بها الى مالا أحب بيانه فى هذه الفصول .

على أن المحتلين أصروا فى طلب العفو عن العرابيين من الامارة ، وما زالوا بها حتى اجابتهم اليه . وقد أرادوا أن يعرفوا الامة أنهم قوم لاتحمل صدورهم دخلا وأنهم لايستثمرون أحقاداً . ولاأظن أن رجلا يشفق على بنيه اشفاق اللورد كرومر على المصريين . فهو أبو حريتهم ومصدر انصافهم ومورد سعدهم الا أنه كان يخدم من لايحبونه .



﴿ المرحوم عبد الله النديم وأستاذه ﴾

لاأذكر هنا ترجمة الرجل لكى لاأخرج عن الصدد . فليلتمسها من يطلبها في مظانها . وأنا ذاكر له ما أعرف من أحواله ومقاصده، مبين بعض ماتيسر من تقلبات الأيام معه . فقد كان له أشياع يأتمرون بأمره ويسيرون تحت علمه .

ان عبد الله النديم انتحل لنفسه السيادة وجاراه الى تسميته باسمها جماعة من محبيه . ولكن اتصل بى ممن حضر مجالسه وسمع حديثه وألم

يبعض أموره أنه لم يكن فى طباعه ما يشبه طباع السادة . وما كان الارجلا
من الرجال ، ذكي القلب ، شديد العارضة ، ذرب اللسان ، سريع الخاطر ،
حاضر البديهة ، ظريف المحاضرة ، حلو الشمائل . وكان كذلك جريئاً على من
يخافه ، كثير الوقيعة بمن يعاديه ، محاسدا أهل الفضل ممن هو دونهم ، سهل
الغضب ، صعب الرضاء مدمن الهجاء ، دائم السخط . فمن صاحبه على حذر
منه فاز بوده ، ومن وثق به ضاع وضاعت ثقته معه . قرض الشعر فلم يملك
له ناصية ولا فاز منه بسهم، ورام الزجل فوفر منه حظه وحلا فى فمه نشيده .
فكان يرتجله ارتجالا ويسابق أهله فلا يشقون له غبارا .

هذا عبد الله النديم صاحب (الطائف) و(التنكيت والتبكيت)من قبل
وصاحب (الأستاذ) من بعد . اختفى بعد ثورة العرابيين . وكان
حارثهم ابن حلزة أو عمرهم بن كلثوم . رغا فتجمعوا وعقر فتفرقوا . ثم آوته
قرى الريف ، فبات كأبي زيد السروجي يحترف الحرف ويتنقل فى الأزياء
والأشكال فيوما هو واعظ ويوما هو ماجن ويوماً هو عالم ويوماً هو خليع .
وما زال كذلك يطوف فى البلاد حتى تعرفه بعضهم فوشى به الى الحكومة
فجيء به الى نظارة الداخلية . عليه غبرة ترهقها قترة . فأظهر الذلة والاستكانة
ووعد بالتوبة والانابة . فزين بعض شيعته لمقام الامارة المصرية أن تعفو عنه
بعد ذلك فعفت. فبدأ بعدئذ فى نشر (الأستاذ) . وبيان النديم مشهور ومألوف
تفهمه العامة وتبتذله الخاصة . ولو مسح على كلامه بشيء من جزالة اللفظ
وسمو المعنى وأمعن النظر فى غلطاته فاجتنبها لصح ان يعد من كبار الكتاب .
فقد شهدت له ببعض الذوق السليم وأعجبني ترسله . وقد أتى له فى (الأستاذ)

مقالة عنوانها (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) فعلمت أن البيان سجية فى الرجل .
وكتابه المسمى (كان ويكون) يجوز أن يقال فيه أنه ابن قريحة وقادة .

ومن المعلوم عند أهل الدهاء ، أن حزب العرابي وان تمزق شمله بعد
نكبة صاحبه ، بقى مختبئاً فى مكامن خوفه اختباء الأفاعي في جحورها .
وكذلك الفزع يستولى على أهل الدعوة فيلجم أفواههم ويكبهم على أذقانهم .
فلما عاد النديم وأعاد لهم نغماته ، تطربوا وعرتهم هزة أفلتو بها من مرابطهم .
فقال فصدقوا ودعا فأجابوا . وما زال فى غلوائه وهم فى غوايتهم . يدعو
الى الفتنة ويحض على الثورة ، والامارة تحبوه مايقوم أوده ويطلق لسانه
حتى آل أمره الى الطرد . فترك مصر مأسوفا عليه من أشياعه ، مغضوباً
عليه من العقلاء .

وقد اخطأ اللورد كرومر وقد يخطيء عظماء الساسة. فطلب من الامارة
أن تكلمه فى الخروج . فكان كلام الامارة له كلاما يدل على قصر فى
النظر وخطل فى الرأى وضعف فى الارادة ومجاملة حيث يجب العدل . وظن
اللورد كرومر أن عبد الله النديم اذا دام على نشر (أستاذه) حدثت ثورة
فى البلاد . فأراد الاقتصاد فى المكاره والاجتناب للفتن . ولو كنت أنا فى
مقام اللورد لتركته يقول حتى ينفد ماعنده . فان للباطل جولة ثم يضمحل .
وليس بمصر قوم يقدمون على الثورة ولو كانت مداعبة . وان قوما ثاروا ،
أو أثيروا ومعهم خمسمائة ألف مقاتل ، لم يصبروا فى ميادين الحرب الا ساعات
معدودة . لأشد من النعائم اجفالا . وأسرع فى الهزيمة من الظباء عدوا . فلا
يقومون الا اذا مد السماط وصفت الصحون .

مضى النديم رحمه الله تعالى ، واستخلف بعده آراء مشى فيها على أثره أشياعه . وقد جرى لى معه شأن ليس هذا محل ذكره ولربما جاء كلام عليه فى سياق الحديث مما يلى الفصل الحاضر . وانما أحدث بيننا الخلاف أنه كان عدواً للعثمانيين . وهو من قدماء من يقولون (مصر للمصريين) ونحن نقول مصر للعثمانيين . ويظهر من أمور كثيرة أن مقام الامارة المصرية وثق بالنديم ثقة لا يتخللها الريب . فكان يحسبه قادراً على كل شيء . ومن أجل هذا قال أكثر الأمراء من الأسرة الحاكمة على مصر : ان مقام الامارة يقرب منه النديم لأنه عدو أسرته وجنسه . وبهذه السياسة المضحكة آل الأمر الى الاعتماد على مصطفى كامل . وقد كان كامل ممن يرددون نغمات النديم . وانما ميز المقلد عن المجتهد المامه باللغة الفرنساوية واستطاعته بيان آرائه للغربيين. ولم يفز النديم بمثل ذلك .

وقد أخبرنى من لا يتهم بكذب ، أن مقام الامارة المصرية اتخذ النديم وسيطا بينه وبين ييلديز ، فى أمر المصاهرة وسيأتى ذكرها . وكاد يفلح في سفارته ، لولا أشياء دسها عليه خصم من أخصامه بالآستانة ، وبذا بطلت الثقة أو كادت .



حزب تركيا الفتاة

ملك من الملوك ، شديد البطش ، قاسي الفؤاد ، دائم الحقد جرىء في غضبه ، خائف فى حيلته ، مطلق اليدين على أمة تتوجع ولا تدرى مكان وجعها ، يبعث بأمره الى رجل من رجاله فيجرده من ماله ونشبه ويسلبه عزه وسلطانه ويخرجه من بين أهله وجيرته ويسجنه صاغراً . كل ذلك لنصح نصح به أو قول صدق فيه أو حق عرف حبه له أو ظلم أبى أن يعين عليه . ثم يفرق أهله ويشرد أولاده ويقفل باب داره ويختم عليها رجال الشرطة بالشمع الأحمر وينسى الرجل وذووه خبراً من الأخبار . هذا هو الاستبداد .

دولة عظيمة ، جم ثراؤها ، رغد عيش أبنائها ، يتقلبون فى النعم ثغورهم باسمة وألحاظهم غير زائغة ، يتسابقون ولكن الى المجد . يتنافسون الآن تنافسهم فى الفضل . ربوعهم آهلة وخيراتهم عميمة ، لا يخافون مسيطراً الا كتاباً هو القانون ولا يتقون مادياً الا الأجل المحتوم . أيديهم مطلقة في عمل ما يفيد ، مغلولة عن عمل السوء . تخفض الملوك رؤوسها أمام اراداتهم وتنصاع الحكومات الى اشاراتهم . لا يعرفون الحزن الا وصفاً ولا يجهلون من السرور طعما ولا شكلا . هذه هي الحرية .

الاستبداد الذى اشتكاه العثمانيون هو أكبر مما جاءت به هذه السطور

والحرية التى كانوا يقنعون بنيلها أقل بكثير مما مثلته فى الكلمات المتقدمة. ثم كانت الأمة تريد شيئاً ولا تدرى ما هو. كانت تشكو ولا تعلم ما يشكيها. بل كانت لا تطمع أن تعلمه. فلما حل ميقات الخلاص انتفضت فتساقطت من عليها نبال الظلم ووقفت مستبسلة لا ترجو الا الله ولا تريد الا الوطن. حتى اذا ذاقت وصال الحرية واستمتعت بجمالها وشبابها علمت انها كانت تئن من أجل ذاك ودرت أن هذا مالا بد منه لحياة الامم.

يحسب أكثر الناس أن أبناء تركيا الفتاة محدثون. كلا ثم كلا. هذا فريق عريق مطلبه مترق بترقى الأجيال. وأول من هاجر من الاراضى العثمانية ناقماً هو الأمير (جم) الذى يسميه الأجانب (زيزيم). وهو ابن محمد الثانى من ملوك آل عثمان. ولد في سنة ١٤٥٩ وهاجر مغلوبا من أخيه بايزيد الثانى فى سنة ١٤٨٢ وراح الى أوروبا تضيفه السجون وتتقاذفه أيدى الملوك حتى قضى فى أسر البابا (اينوسان) الثامن في سنة ١٤٩٥ مسموما. على أن هجرة (جم) لم تكن من أجل اصلاح ولكنها كانت النموذج الاول.

الا أن الامة العثمانية، وان انتابتها النوائب وتعددت فيها آفات الاضمحلال، أسعدها الله مراراً بقوم تداركوها وانتشلوها من وهدتها. واذا كان (الصقوللى) الشهير مجدداً بناء هذه الدولة فان (محمداً الكوبريلى) انالها في سنة ١٦٦١ من الثراء والجاه مالم يفز بمثله معاصره (ريشليو). وقد شاء الله أن يسير فيها على اثره، بل أن يفوته، حفيده (مصطفى الكوبريلى) الشهير الوطنى الذى لمع نجمه بعد سنة ١٦٩١ وما هؤلاء الا رجال تركيا الفتاة. فعلوا ولم يقولوا. أصلحوا لأنهم أرادوا ولم يطلبوا الاصلاح لانهم قدروا على فعله.

أما مذهب التجديد الحق وقلب الادارة العثمانية القديمة الى ادارة عثمانية جديدة على منوال الادارات فى الممالك المتمدنة، فأمر لم يكد يخطر على بال أحد من قدماء العثمانيين قبل سليم الثالث. فانه أول سلطان بل أول عثمانى ألهم هذا الرأى، ورأى القلب من القديم الى الجديد. ولى الملك في سنة ١٧٨٩ بعد عمه عبد الحميد الأول. فرآه مضعضع الأركان بادى الضعف ففطن لوجوب الاصلاح وأوشك يشرع فى انجازه، لولا أن تعجلته الصروف بما لم يكن في الحسبان. فدخل الجيش النمساوى بلغراد والجيش الروسى بندر اسماعيل ودارت رحى الحرب حتى اضطر أن يرضى بهدنة (ياس) سنة ١٧٩٢ ودخل بونابارت مصر واحتل الفرنساويون بر الشام فاستعان على طردهم بانكلترا واستخلص مصر من غاصبها فى سنة ١٨٠٢ وقد ثار الوهابيون فى أرض الحجاز وثار على باشا (التبه دلنلى) فى يانية وثار الصربيون وقامت القيامة فى داخل البلاد وانهمك هذا السلطان الجليل باطفاء هذه الفتن حتى أتى عليها. ثم رأى أن لا بد من ابطال الجنود (اليكيجرية) وجمع جنود مرتبة مدربة على النسق الاوروبى. فقد أيقن أن لاخير فى أولئك الجبابرة الذين ظهرت سطوتهم فى النهب والقتل والاعتداء على اخوانهم من بعد ما افتضحوا وخذلوا فى حرب النمسا وروسيا. فاسس ثكنات عديدة وشاد (الخمبره خانه) والمهندسخانة ونظم بعض الفرق من الجنود الجديدة. وبذا ثار اليكيجرية عليه وخلعوه فى سنة ١٨٠٧ ثم خنقوه فى سنة ١٨٠٨ بأمر من مصطفى الرابع الذى ولى الملك من بعده. فقضى سليم الثالث شهيد الاصلاح وبقى عمله ناقصاً الى أن أتمه السلطان محمود وطهر البلاد حتى لم يترك فيها من

اليكيجرية أحداً واستراح واستراحت معه الأمة . ومن هنا صح لنا ان نعد سليمان الثالث أول مؤسس لتركيا الجديدة أو تركيا الفتاة فعلا .

ثم شاءت الأقدار أن تنال البلاد العثمانية نصيبها من التمدين على يد الرجل الحر ء الشهير ببيانه ودهائه مصطفى محمد رشيد باشا . ومن عجائب النوادر أنه ولد فى سنة ١٨٠٢ وهى السنة التى تهادن فيها سليم الثالث مع الفرنساويين بعد اخراجه اياهم من مصر . ولم يكن لهذا الرجل فى صباه من يعينه ويربيه سوى أمه ولا من يحميه فى شبابه سوى ختنه على باشا المعروف (بالاسبارطه لى) وذلك الى سنة ١٨٢٦ . وقد عرف فضل نفسه وعرف السلطان محمود فضله بعد سنتى ١٨٢٨ و ١٨٣٣ . وكان برتو باشا يريد أن يستخدم رشيداً فى اصلاح هذا الملك فلم يمهله الدهر الى انجاز ارادته ونكب بالنفى ثم بالقتل وبقى رشيد من بعده واهن القوى واهى الأمر . وقد اختص بمودة انكلترا وولائها . ومن أجل ذلك لقى من فرنسا من العدوان ما أحبط كثيراً من مساعيه . وما لقيه من أعدائه المقربين من السلطان كان أشد وأنكى . ولولا هؤلاء السفل الذين يتزاحمون على أبواب السلاطين ويتخاصمون على المكاسب لاستفادت الأمة من جد أعاظمها ولم يذهب نصبهم فى غير جدوى . كذا بلى رشيد بحساد أبطلوا أعماله وحالوا بينه وبين خير البلاد . ولم يزل يتولى زمام الصدارة ثم يبارحها من سنة ١٨٤٦ الى سنة ١٨٥٧ حتى قبضه ربه اليه . فهو ثانى المجددين بعد سليم الثالث وأول من هذب اللغة العثمانية واستخلصها من حوشى الكلام ومستهجنات العجمة وفتح باب الاصلاح اللغوى لشناسى الشهير .

ولقد جاء بعده رجلان عظيمان . أحدهما عالى باشا وهو نابغة المحررات الرسمية فى اللغة العثمانية . نشأ فى عز رشيد المتقدم ذكره وانتسب اليه وتفرد بحذقه ودهائه . ولى الصدارة فى نحو سنة ١٢٨١ هجرية وبقى يغادرها ويعاودها خمس مرات . وكانت ولايته الصدارة خامس مرة فى سنة ١٢٨٣ وبقى فيها الى آخر عمره . ولئن فاز عالى باشا فى تذليل المصاعب اليونانية التى ظهرت فى سنة ١٢٧٤ فلقد خاب فى معضلة كريد التى أتت فى عهد صدارته وقفل غير فائز منها بعدما قصد اليها بنفسه . وكان عالى باشا من القائلين بالترقى فى المألوف والاعراض عن المستجد . وكان يؤثر رضاء السلطان على رضاء الأمة . وكان يطارد أنصار تركيا الفتاة الذين وجدوا فى عصره حتى لقد قامت الحرب بين كمال بك مع ضيا باشا وبينه . كلاهما عاداه وطالت الحروب واشتدت الخصومات فألفاه اعداؤه خشناً عند المجس وصعباً لدى المراس مادام حياً ومثله فؤاد باشا الشهير الذى ولى الصدارة فى سنة ١٢٧٨ فكان أول ما أتى به من جلائل الأعمال أن سعى فى عزل مصطفى فاضل باشا من نظارة المالية ووشى به الى السلطان حتى أوقع بينهما العداوة والبغضاء وحرم بذا الأمة من أبى الحرية وموجدها . ولبعض الكتاب فى فؤاد هذا مبالغات لا طائل تحتها . ولم يكن الرجل الا من أنصار الفكر القديم . وقد مات بعد ما اختل عقله بالغا من العمر خمساً وخمسين سنة .

على أن أبا الحرية وصاحبها الأمير الجليل المرحوم مصطفى فاضل باشا، نال الشرف وحده فى مجاهدة الاستبداد . فكان هو ورشيد باشا قطبى المجد فى الملك العثمانى . ولكن تكاثرت عليهما الأعداء وقلت الحيلة وبقى

للأخلاف من بعدهما أن يسيروا على أثريهما .

ولى الامير فاضل نظارة المعارف ثم نظارة المالية لا يتقاضى راتباً ولا يراقب كسباً . بل جاد بقناطير من الذهب ورثها من أبيه. فأهدى المعرض الأول الذى أقيم بالاستانة العلية خمساً وعشرين ألف ليرة وأهدى السلطان مراداً الخامس خمساً وسبعين ألف ليرة . وهاجر من عاصمة الملك يؤم بلاد الغرب حتي استقر به النوى فى باريس سنة ١٧٦٥ . وكان استصحب معه الشاعرين الكاتبين الشهيرين كمال بك وضيا باشا . فجاهد بماله ورأيه وجاهد صاحباه بقلبيهما ويراعيهما.فهزا قصور الظلم هزا . وسار على طريقه شهيد الحرية والوطن مدحت باشا الشهير.ومازال يجاهد ويعمل حتى تمكن من خلع عبد العزيز فى قصة معروفة يطول شرحها . وأجلس على سرير الملك مراداً الخامس .

فبينما يجتهد الأمير مصطفى فاضل مع صاحبيه اجتهاد ابى حنيفة وصاحبيه ، اذ أتى عبد العزيز،وقد تخلص من عالى وفؤاد بموتيهما واستخلص لنفسه محمودا نديماً المعروف عند العثمانيين بنديموف . وانما سمي بذلك لانه كان صنيعة آغناتيف وأول من جعل السياسة الروسية رائجة السوق فى المابين .فانطلق هذا الخؤون فى زمان صدارته يرتكب من الموبقات مالم يسبقه اليه سواه . استغوى السلطان عبد العزيز حتى أغواه وحارب به الحرية والأحرار . ثم طلع مدحت في سماء الصدارة فعنت الوجوه وشخصت الأبصار .

ولا بد لى من ذكر شيء من لائحة أبى الأحرار المرحوم الأمير مصطفى فاضل،قبل الكلام على مدحت وأعماله هذه اللائحة أنفذها الأمير مصطفى

فاضل الى السلطان عبد العزيز حين مهاجرته الى باريس وأودعها من الحقائق والكلام الموجع مانزل على المابين نزول الحديد المذاب . وهذه اللائحة كانت كاعلان حرب من حزب تركيا الفتاة الذى تأسس اذ ذاك ،على السلطان المستبد.

قال مؤسس الحرية الأمير فاضل بعد الديباجة :

أصعب مايدخل قصور الملوك هو الحق . ومن يحيطون بهم يخفون الحق حتى عن أنفسهم . لأن هؤلاء لما عاشوا فى مركز الحكومة وبين لذتها ، حسبوا أن المشقة التي تكابدها الرعية هى من فتورها. وهم يزعمون أن وقوع الدول فى الضعف هو من حوادث الكون التى لا حيلة فى درئها. لابد من جراءة فى الصدق ، ليبصر الحق ، من غير وقوع فى الأوهام الباطلة . ولابد من جراءة أكثر من ذلك لبيان الحق للملك . وهذا الصدق لم يتخط عبدك أبدا . واثباتا لذلك أرجع الى ذاكرة جلالتك ومن كانوا سببا فى نفيي الى ديار الغربة .

نعم ،لم تتهيأ لى الى الآن خدمة ترى الآثار البادية لهذه الصداقة واستعدادى لها . أى لم أتمكن من خدمة صالحة تستوجب اصلاح وطننا واعادة الحياة اليه . ولكنى أول من أماط الحجب عن وجوه الدول وعرض سيئآت حكومتك وجراحاتها لذاتك الهمايونية . وجل أفكار عبدك متجهة الى خدمة ذاتك الشاهانية . وانى ، لاخلاصى لذاتك الهمايونية ومحبتى لوطنى ، لم يبق لى صبر للتفرج عن بعد على الأسواء التى أحاطت بنا ظاهرا وباطنا . واذ كنت على ثقة من المروءة التى اتصف بها قلبك الشاهانى عددت من وظائف التابعية أن أبين هذه الاسواء مرة أخرى ، غير كاتم منها

واحداً، لنجد لنا سبيلا الى خلاصنا فى حينه .

مولاى صاحب الشوكة ، ان مايقوم به فى دولتك من أعمال الفوضى رعاياك المسيحيون ، هى كلها من أعمال أعدائنا في الخارج . على أن الادارة الحاضرة أيضا لها من ذلك نصيبها الأوفر . لأن أعمالا لم يكن بها بأس فيما سلف من الأزمان ، تلوح اليوم وكأنها ظلم وجوز على الرعايا من كل جنس. والأوروبيون يحسبون أن المظلومين والممتهنين والمحقرين كل التحقير فى تركستان هم من الأمة المسيحية المحكومة . وليس الأمر كذلك . ان المسلمين ولا تحميهم دولة من الدول الغربية ، سحقوا ومحقوا أكثر من الملل غير المسلمة . المسلمون كابدوا هذه الكرب الى الآن بما اتصفوا به من النخوة فى الصبر والانتظار. أما الأوروبيون فلا يعلمون ذلك. على أن المسلمين، لما كانوا من دم ذاتك الشاهانية التى بيدها زمام حكومتهم ، يعدون محبتهم وطاعتهم لعرش سلطنتك من الأوامر القرآنية . ولكن اءذن لى يا مولاى صاحب الشوكة ، أن أقول لك : انه لم يبق للملة الاسلامية جلد ، لا على الاخلاص ولا على احتمال الكرب . ان أصوات السخط وان عولجت بالاسكات ما عولجت ، أخذت ترن في كل صوب . فانزالهم اذن الى هذه الدركة من اليأس مضر بنسلك وبهم .

ان من سيئات أصول الادارة الحاضرة التي ربما كانت على مايخالف رضاءك الشاهانى خاصة ويخالف رضاء الوكلاء أيضاً ، بل من أنواع الظلم التى لو علمت به ذاتك الهمايونية لأزاحته ، أن أعراض التناقص بدأت تبدو في سلالة الأتراك يوماً بعد يوم وأن البعض من عبيدك الصادقين الذين

يفتخرون بأنهم من هذه السلالة العلية يرون قلة هذه الأمة فيأسفون أسفاً حقا . ولئن كان السبب الأصلى لهذا خطأ الأصول العسكرية ، الا أن الأمر الذى يخيف عبدك أكثر من ذلك ليس هذا . بل الذى يخيفنى جداً من أحوالنا الآتية هو ، كما يرى فى الملل المحكومة ، ازدياد سوء الأخلاق الذى عرض لامتنا العثمانية وتمكنه كل آن وانتشاره .

مولاى صاحب الشوكة ، محا آباؤنا قبل أربعمائة سنة ، امبراطورية الشرق من على وجه الأرض وجاؤوا البلدة المشهورة التى اتخذها قسطنطين مقرا الملك العالم فى أبهتهم وجلالهم وسكنوها . فما كان هذا الشرف التاريخى الذى أحرزوه ناجماً عن غيرة دينية أو شجاعة عسكرية ، بل كانت الغيرة الدينيه والشجاعة العسكرية عكسا لاشعة أخلاقهم الملية ، وانما نالوه لأنهم كانوا مطيعين قوادهم . ولكن هذه الطاعة كانت قائمة على أساس حرية اختاروها وقبلوا بها من أنفسهم وكان قلب كل منهم وعقله حرا فيما يختار. ولا أدرى أية حرية فطرية وأى شمم غريزى اجتمعا فيهم واستحدثا لهم نظاما وجعلا أخلاقهم الحية ومشاربهم فى حالة من الاطراد . هذا هو السبب، سهل لهم الظفر بدولة عظيمة قامت فيها حكومة الظلم وأضحت الذلة والمسكنة وكل المعايب الأخرى دستورا للعمل .

هذا ماتيسر نشره من لائحة الأمير الجليل مصطفى فاضل وكنت أود تعريبها برمتها ايثارا لدرر حكمها واقرارا بفضلها لولا ضيق المقام . ولمدحت باشا واسماعيل كمال بك ومراد بك لوائح عديدة رفعت الى عبد الحميد الثانى من بعد ، سخر بها وبكاتبيها وزاد اسرافا فى الدماء واستمراء للظلم .

وقد كان فى خلع عبد العزيز والبيعة لمراد موعظة لعبد الحميد ، نبهته الى العناية بذاته دون ملكه حين أفضت السلطنة اليه بعد أخيه مراد . رأى الشعب موغلا فى ظلم الجهالة لايدرى من نعم الحياة شيئاً . وأبصر قوما من نبهاء العثمانيين يقودهم مدحت أبو الدستور. فقال أستميلهم كلهم باللين حتى اذا خضعت رقابهم وملكت نواصيهم أعملت فيهم الشفار القاطعة واقتطفت رؤوسهم اقتطافا وكان مدحت أخذ عليه عهداً بخطه أن لا يحيد عن أسلوب الدستور وأن لا يستبد برأيه . فرضى بذلك ساكن « يلديز » وأصدر ارادته بانفاذ القانون الأساسى الذى كان اشترك فى تحريره كمال بك وضيا باشا وحرفه سعيد باشا وفتح مجلس الأمة فى سنة ١٨٧٧ الى أن ثبت قدمه . وكان اسم مدحت يكاد يغطى على اسم السلطان . فدبت فى فؤاده نيران الحسد وأكبر أن يعلوه أحد رعيته مجداً وسؤدداً ويسلبه محبة الأمة ولا يدع له من الملك الا تاجاً أذهبت تألقه الأيام وأبلت جدته العصور . فأضمر له الشر ، ولكن كيف يقوى على ذلك ومعه رقيبان لا يغفلان عنه ولا تسام ذمتاهما بأغلى المهور، وهما كمال بك وضيا باشا. وكانا جملا مستشاريه ومراقبيه . فدعا مدحت ذات يوم الى قصره وقال ان وجود رقيبين عليه يخفض جانبه ويذهب بهيبته ويحقره فى أعين أمته . ولعبد الحميد فى مثل هذه المضايق حيل لا تخذله . ومدحت وان عرف بسعة العقل وخلاص الطوية وكثرة التجارب لم يكن من نظراء عبد الحميد فى مكايده . فدخلت عليه الحيلة ورضى بما نوى سلطانه واستكان.

وما لبث السلطان العثمانى أن استطار كمالا وضيا كلا الى بلدة يحتكمها



﴿ عالى باشا ﴾

ظاهراً ويبيت عانيها باطناً . واستشعر مدحت بعاقبة الأمر وكاد يقضى ندماً ولات ساعة مندم . ظفر الجبار أول ظفر وهدم سدين قويين بينه وبين الاستبداد

فما بقى على طاغية الشرق الا أن يتخلص من مدحت اما بسلم واما بحرب ، ولا سبيل الى أحد الامرين . فأقام يترقب الفرص وفى العين قذى وفى الحلق شجا . فلما كانت سنة ١٨٧٧ وجعل الجنرال اغناتيف مندوب روسيا فى الاستانة يقترح مطالب كلها فضول وأبى نواب الأمة قبول تلك المطالب ، طاب السلطان نفسا وتحفز للوثوب على فريسته . . فأعلنت روسيا الحرب المشؤومة وخرجت الدولة العثمانية مكسورة القوادم منهوكة القوى. وعقدت معاهدة (سان استفانو) وكان مجلس الأمة تفرق جمعه ومدحت أسقط من مقام الصدارة وطرد من وطنه . الا أنه بادر الى برلين وما زال بيسمارك

حتى استرضاه بعقد مؤتمر برلين بعد ما أقنعه بالحجج الدامغة بأن زوال الملك العثماني يفضي الى فقدان التعادل في اوروبا ويؤول الى حرب تهلك الحرث والنسل وتأكل كل غارب ومنسم .

هكذا هزم الجيش العثماني . وتفرق نواب الأمة . فمنهم من ضافته السجون ومنهم من أدلى الى قاع البحر أو نفي الى الولايات البعيدة أو هرب ومكن من الخلاص. فطاب الوقت لعدو الدستور والمتيم بالاستبداد وبقي القانون الأساسي ينشر كل سنة في التقويم العثماني الرسمي (السالنامه) وفجر بميثاقه من ينتحل لنفسه اسم الخلافة لرسول الله .

ولما كان هذا السلطان مرزأ بحب النفس والجاه والمال ، شديد الجبن ، دائم الوسواس ، قليل الثقة بأشد رجاله اخلاصاً ، كثير الارتياب لا يزول من قلبه الحقد ولا يفارقه حب الانتقام ، سل للأمة سيف البغي فجندل سراتها وأذل أعزتها وجعل سافل ملكه عاليه . فألقت له الامة الطيبة بمقاليد الأمور وأذعنت له أيما اذعان .

ولما أصبح الاوائل من رجال تركيا الفتاة وقد انصدع شملهم لم يبق منهم الا من غلب عليه الخوف فآثر السكوت على مضض أو فتنه المال فاختار النفاق ، حتى لقد صار جماعة من علية القوم وفضلائهم من رجال القلم جواسيس ووشاة وأغدقت عليهم الهبات وفسدت الطباع فنم الولد على أبيه وعادى الأخ أخاه وخان الأمين الأمين وراجت أباطيل التعصب فتزلف حملة العمائم والطيالس الى سدرة الملك حيث يدر النوال وترفع الاقدار .

وانما نقم رجال تركيا الفتاة على الملوك العثمانيين جهلهم وخمولهم وما ألفوه

من البذخ والترف وما جروا عليه من ظلم الرعية والتأله عليهم وانكارهم على الأمة ما تطلبه من العدالة وهي أصل الحرية والمساواة والاخاء . واستكبروا أن يكونوا كالملوك في البلاد المتمدينة وأبناء الملوك عندنا لا يربون على ما يفتح أذهانهم ويهذب أخلاقهم ولا يتقنون من العلوم الا مبادىء في أمر الصوم والزكاة والصلاة ولا ينظرون من الكتب المؤلفة الا في كل قديم منها مشحون بما لا يسعه العقل مثل (آلتي بارمق) و (أنوار العاشقين) و (علم حال) ولا يتعلمون الا ما لا يذكر من اللغة العثمانية في كتب مثل (التحفة الوهبية) و (بند عطار) و (كلستان) و (بوستان) ولا يلقنون الا بعض كل ما كان غريباً من جيده ورديئه . ثم هم يرون كيف يعيش آباؤهم ومن هم فوقهم سناً فينغمسون في الملاهي ويقضون أيامهم بين الأبكار العون من الولائد في قصف وعزف ومعاقرة ولهو وهم بمعزل عن أمور الملك ولا يأذن لهم بمعاناتها أحد ممن ولي الأمر خشية ورقبة .

أما رجال الدين وهم عيال الرجال فينبشون عن منسوخة الأحاديث وغير الصحيح منها فلا يروون للملوك الا ما كان حثاً على طاعتهم مثل قولهم (قلب السلطان بين اصبعي الله يقلبه كيف يشاء) وقولهم (الملوك ملهمون) وقولهم (اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة) . كل ذلك يفسدون به أخلاق الملوك تقربا الى جفانهم واستجداء لحبواتهم فما يخرج هؤلاء الا يدخل السائلون المادحون ، ونسميهم مسامحة شعراء ، ليمدحون الظالم سفاك الدماء وناهب العباد فيقولون له : (ان بين غلائلك فمدلا من الله وبين جنبيك لروح القدس . يامجزل العطاء ومولى النعم يامن

حتى استرضاه بعقد مؤتمر برلين بعد ما أقنعه بالحجج الدامغة بأن زوال الملك العثماني يفضي الى فقدان التعادل في اوروبا ويؤول الى حرب تهلك الحرث والنسل وتأكل كل غارب ومنسم .

هكذا هزم الجيش العثماني . وتفرق نواب الأمة . فمنهم من ضافته السجون ومنهم من أدلى الى قاع البحر أو نفي الى الولايات البعيدة أو هرب ومكن من الخلاص. فطاب الوقت لعدو الدستور والمتيم بالاستبداد وبقي القانون الأساسي ينشر كل سنة في التقويم العثماني الرسمي (السالنامه) وفجر بميثاقه من ينتحل لنفسه اسم الخلافة لرسول الله.

ولما كان هذا السلطان مرزأ بحب النفس والجاه والمال ، شديد الجبن ، دائم الوسواس ، قليل الثقة بأشد رجاله اخلاصاً ، كثير الارتياب لا يزول من قلبه الحقد ولا يفارقه حب الانتقام ، سل للأمة سيف البغي فجندل سراتها وأذل أعزتها وجعل سافل ملكه عاليه . فألقت له الامة الطيبة بمقاليد الأمور وأذعنت له أيما اذعان .

ولما أصبح الاوائل من رجال تركيا الفتاة وقد انصدع شملهم لم يبق منهم الا من غلب عليه الخوف فآثر السكوت على مضض أو فتنه المال فاختار النفاق ، حتى لقد صار جماعة من علية القوم وفضلائهم من رجال القلم جواسيس ووشاة وأغدقت عليهم الهبات وفسدت الطباع فنم الولد على أبيه وعادى الأخ أخاه وخان الأمين الأمين وراجت أباطيل التعصب فتزلف حملة العمائم والطيالس الى سدرة الملك حيث يدر النوال وترفع الاقدار .

وانما نقم رجال تركيا الفتاة على الملوك العثمانيين جهلهم وخمولهم وما ألفوه

من البذخ والترف وما جروا عليه من ظلم الرعية والتأله عليهم وانكارهم على الأمة ما تطلبه من العدالة وهي أصل الحرية والمساواة والاخاء . واستكبروا أن يكونوا كالملوك في البلاد المتمدينة وأبناء الملوك عندنا لا يربون على ما يفتح أذهانهم ويهذب أخلاقهم ولا يتقنون من العلوم الا مبادىء في أمر الصوم والزكاة والصلاة ولا ينظرون من الكتب المؤلفة الا في كل قديم منها مشحون بما لا يسعه العقل مثل (آلتي پارمق) و (أنوار العاشقين) و (علم حال) ولا يتعلمون الا ما لا يذكر من اللغة العثمانية في كتب مثل (التحفة الوهبية) و (بند عطار) و (كلستان) و (بوستان) ولا يلقنون الا بعض كل ما كان غريباً من جيده ورديئه . ثم هم يرون كيف يعيش آباؤهم ومن هم فوقهم سناً. فينغمسون في الملاهي ويقضون أيامهم بين الأبكار العون من الولائد في قصف وعزف ومعاقرة ولهو وهم بمعزل عن أمور الملك ولا يأذن لهم بمعاناتها أحد ممن ولي الأمر خشية ورقبة .

أما رجال الدين وهم عيال الرجال فينبشون عن منسوخة الأحاديث وغير الصحيح منها فلا يروون للملوك الا ما كان حثاً على طاعتهم مثل قولهم (قلب السلطان بين اصبعي الله يقلبه كيف يشاء) وقولهم (الملوك ملهمون) وقولهم (اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة) .

كل ذلك يفسدون به أخلاق الملوك تقربا الى جفانهم واستجداء لحبواتهم فما يخرج هؤلاء الا يدخل السائلون المادحون ، ونسميهم مسامحة شعراء ، ليمدحون الظالم سفاك الدماء وناهب العباد فيقولون له : (ان بين غلائلك فعدلا من الله وبين جنبيك لروح القدس . يامجزل العطاء ومولى النعم يامن

يخصب بأمرك المحل وتجرى الرياح . وتنقاد لمشيئتك الأقدار وتحسد السماء الأرض اذ كانت موطئا لأقدامك ، ياظل الله وبانى الكون ، يامن عتبته فوق الافلاك .) الى غير ذلك مما يستحى من ذكره ويشمئز من سماعه كل من كان فى فؤاده مثقال خردلة من العقل أو الانصاف . ولا يكتفى أمثال هؤلاء بما أجملنا قليله بل يختلقون لأنفسهم مايمكن فى قلوب الملوك مكانتهم ويعليها ويتحكمون به على الأمة وهى غافلة عنهم. فيروون مثل قولهم (علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل) ويأتون بآيات من القرآن العظيم لا تصدق فى أحد منهم كقوله تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) وفيهم من بلغت به القحة الى أن قرأ لفظة الجلالة مضمومة والعلماء مخفوضة ففسر الآية الكريمة بغير معناها الأصلى.

أما الحكومة العثمانية فلم تشبه حكومة فى الوجود . وما انتظم لها أمر فى ماضيها ولا فى حاضرها . ومثل رجالها كمثل سكان الخيام فى زمان الجاهلية. اذا وليهم سيد عاقل واتخذ بطانة خير وحاشية عدل انعش نفوس محكوميه وأحيي موات آمالهم واذا وليهم غاشم جب منهم الغارب والسنام واذاقهم مضض الذل ومرارة العذاب . تجبى أموال الرعية بلا حساب فيضيع بعضها فى جيب الجابى وبعضها في جيب من هو فوقه. فلا يبقى لبيت مال الدولة الا مايتصدق به عليه السارق والناهب . فضالة ينفق جانب منها على طرب الملوك وندماتهم وجانب على المقربين من الغرانقة ويبقى الموظف الصغير صفر اليد أو تدرك آمره رحمة فينبذ اليه بما يسد به رمقه .

فالى مثل هذا نظر رجال تركيا الفتاة وتوقعوا منه سوأ وأحبوا أن يفدوا ملكهم ووطنهم بأرواحهم .



﴿ فؤاد باشا ﴾

واذ كان الأوائل من رجال تركيا الفتاة فنى أكثرهم ولم يبق من شيعتهم من يعول عليه كما تقدم ذكره فى هذا الفصل أخذت جماعة من الناشئين الأحداث ممن تأدبوا بأدب كمال وتعلموا من كتبه الخالدة على ممر الدهور واستناروا بآرائه وآراء من كان معه ، تنوب عنهم . فكانوا يتشاكون فيما بينهم مما يرون من سوء المصير. وقد ابغضوا السلطان لما اقترف من الآثام ولحنثه بيمينه . وكان كلما أحس السلطان بنهضة سلط أعوان نقمته فشرد دعاتها وبدد سراتها وكاد لها كيدا . ولقد بث الجواسيس وفتح أبواب السعاية والنميمة لكل خامل الذكر عاثر الجد لئيم الأصل . فمن دله من هؤلاء اللؤماء على نبيه ليذهله وفاضل لينتقصه وعائل يؤيم أهله وبيت يخرب به على صاحبه أجزل عطاءه ورفع منزلته . ولقد أقصى عن دار الملك كل أريب صادق وفى

وقرب منه كل خؤون ممقوت .

فلما حدثت المذابح الارمنية التى وقعت في سنة ١٨٩٤ حنق أكثر أنصار الحرية من العثمانيين واستحوا ان يدعوها تمر بهم غير متألمين . فكان فيمن حنق على الحكومة الحميدية مراد (الطاغستانى) . رفع كتابا طويلا الى عبد الحميد أدمج له فيه وصف التهلكات المحيطة بالملك العثمانى وأبان له عن مصير الظلم . الا أنه أحس بالشر وعرف أن عبد الحميد لا يترك جرأته بلا حساب . فخرج من الآستانة طالبا نجاته . فنزل بمصر وأصدر فيها جريدته (ميزان) التركية التى كان يصدرها بدار السلطنة قبل دخوله فى خدمة الحكومة وكان السلطان أمر اذ ذاك بتعطيلها لما نشر فيها من الرثاء لكمال بك الأعظم شهيد الأدب والوطن . وكان لمراد منزلة كبرى فى قلوب كثيرين من تلامذة المكتب الملكى لأنه كان معلما لهم فى التاريخ . ففازت جريدة (ميزان) من الشهرة والارهاب بما أفزع عبد الحميد على سريره . ثم قضت الصروف على مراد بالخروج من مصر فسافر الى (جنيف) وأعاد اصدار ميزانه هنالك وألف جمعية لمكافحة الدولة الظالمة وجعل نفسه رئيساً لها . واذ ابتلى الله العثمانيين بالحسد وحب الرئاسة فى مثل تلك الاوقات نشأ الخلف بين مراد وبين أحمد رضا . كل رأى نفسه أولى من صاحبه بان يستقل بالأثرة ويتفرد بالسيادة وكل رأى فى مناوأة الظلم رأيا لا يشا كل رأى صاحبه . فأخذا يتراجحان ويتباريان حتى استرجع مراد الى الآستانة بعد ما ترك لاسمه دوياً فى أرجاء أوروبا والممالك العثمانية ملأ الأسماع وكاد يستولى على القلوب . وتفرقت من بعده جمعيته ولم تقم لها قائمة منذ ذلك .

ورأى عبد الحميد فى رعيته أمارات الضجر واستشعر من أذكياء الأمة انتباههم فعمد الى قوته يضرب بها ضعفهم وغفله الله عن اصطناعهم بالجميل واخضاعهم بالعدل وسياستهم بالحكمة ، وزين له البغى أعوانه وقربوا منه أسبابه. فضاعف عدد الجواسيس واستبد على الناس فداخلهم حتى فى ولياتهم ومناجاتهم. ففنى صبر المتحالمين وخاف العقلاء عاقبة هذا الجور. فاجتمع فريق من الفضلاء وألفوا (جمعية الاتحاد والترقى العثمانية) في نحو سنة ١٨٨٩ . وجعلوا مركزها الاعظم بسلانيك . ومركزها العظيم بمناستر ؛ ونهض أنور ونيازى يتقدمان صفوف المجاهدين فى سبيل الحق ويستصرخان بكل صادق الود ثابت العزم من كبار الأمة وأهل نجدتها حتى كان هذا الانقلاب .

ثم وفت الجمعية وأبطالها بعهدهم فوفى الله بعهده . وانما قرب لهم الأسباب وسهل لهم ادراك الطلبة افراط عبد الحميد فى الظلم ومبالغته فى الاساءة . وقد آنس ذلك قبولا فى طبيعة الرعية للخير واستعدادا للمجد واستحقاقا للفخر فقويت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة .

واذا لم يشأ رجال الجمعية المقدسة وبطل الحرية نيازى الكبير أن يقولوا شيئاً فى تاريخ الجمعية وكيفية تألفها واعتذروا بأن هذه أسرار لا يمكن افشاؤها فاولى برجال التدوين امساك القلم عن الخوض فى هذا العباب تفاديا من الشطط واجتنابا للوم الأصدقاء .

(مذابح شهداء الحرية من اخواننا الأرمن)

مثل هـذا الفصل يحتاج الى أنامل (روبنس) مصور اللوح الشهير الذى سماه (مذبحة الأبرار) . فان أنامل الشاعر المجيد والكاتب المبدع لا تفى بغرض ولا تأتى بفائدة فى وصفه . ألكلام على مذابح والمذابح فيها جثث والجثث معصفرة بالدماء، والدماء تجرى على بطاح والبطاح بها حجارة صلدة وهشيم يابس ونهر دافق ومشهد العين غير خيال الفكر والفكر يستمد من العين فهى ينبوع العلم والفكر مجلى المعانى . فليكن الكلام على قدر الامكان لا على قدر الواجب .

البلاد العثمانية تعمرها أمم شتى ، متباينة الأجناس ومختلفة المذاهب . جمعت بينهم القوة وفرقهم العدوان . فهم اخوة يسكنون داراً واحدة ويستظلون بسماء واحدة وينهلون ويعلون من مياه متجانسة منذ سبعة أعصر، ولكنهم مع ذلك متنافرون . يسقيهم وطنهم بكل صاف نمير ويسقونه بالدم المسفوك . أهم على مقربة من الموضع الذى يزعم أهل القصص أن قابيل قتل هابيل فيه فعدتهم الحال بمرض أحد الآباء، قتل الأخ لاخيه ؟ أم اختاروا سبيل الجناية حباً فى الجناية ؟

السلف أخطأ الحكمة ولم يحسن السياسة . كذا قال التاريخ ولا بد من تصديق التاريخ . هم أحبوا الأنبياء وشاؤا أن يكونوا كالأنبياء ألسنا لا قلوبا وحالا لا ذاتا . فما اختاروا من قصة موسى الا عبادة العجل ولا من تاريخ

عيسى الا الصلب ولا من وقائع العدنانى الا حال أبي لهب . تشاغلهم بأنفسهم لم يدعهم يرون غيرهم وصيحاتهم منعتهم عن سماع أصوات الأمم . حتى اذا تضاءلت شمس الشرق ولم يكف شعاعها لانارة ربوعها وطلعت بآفاق الغرب شموس كثيرة وقفوا وقفة المجهود ينظرون الى بعض . فاذا بهم دامية اظفارهم دامية أنيابهم دامية لهواتهم بادية أجسامهم تعلوها أطمار بالية رثة . حسبوها بقايا ثياب فاذا هى قطع اكفان !!!

قال قائلهم هلموا نطلب علما . صدق القائل . لله در القائل . ما أكبر عقل القائل . وما هى أن أنشئت المكاتب وفتحت المدارس وألفت الكتب على النمط الجديد وقالوا ما لنا وللاديان تلك أمور بين الخالق وخلقه . القلوب الواح محفوظة لا يقرأ ما فيها الا الله . وما نحن الا اخوة . وحدة حال ووحدة مصير لا يتفقان . فنم ذلك الصفاء أهل الدين أولى التعصب ، من يعمرون المساجد ليستغنوا بها عن تكاليف المنازل فيتخذونها مساكن ويشيدون الزوايا والتكايا ليصيبوا فيها مآكلهم وأقواتهم . فهبوا يغالبون المخلوق باسم الخالق وأتت الدولة الحميدية وشيد صرحها الممرد (يلديز) . فوجدوا منه أكنافا موطأة للمزاحمين وآذانا سميعة للواشين قالوا . النبي يأمر . قال وأنا خليفته أفعل . قالوا: الدين يفرض . قال: وانا حاميه أقوم بما فرض . وماذا فعل لا در دره ؟ جعل بيوت الحكومة كالمساجد ترن على سلالمها أصوات المؤذنين وصير المكاتب كالمدارس الدينية تقام فيها الصلوات وتقرأ كتب الدين ويزرع التعصب فى قلوب الشباب فتنمو معه نفوسهم وترسخ عليه طبائعهم . فكان المفطر منهم فى رمضان يزج فى السجن والقاتل مطلق السراح يمشى

في الأرض مختالا .

— ألا تخشى ياولى الدين أن تغضب المتدينين بهذا الكلام ؟

— كلا .

— ألا تجده سابق أوانه ؟

— كلا .

— اتجرأ بعدها أن تسكن البلاد العثمانية ؟

— نعم . لأكثر فيها من مثل هذا الكلام . ولست وحيداً في انصافى . وأهل الانصاف عددهم كثير .

— اذن فأنت جدير بالرثاء .

— ربما رثيتنى اليوم وحسدتنى غدا . اذا سكت الكاتب الحر اثنى عشر عاما ثم لقى الحرية ينطق بمثل ماترى . فلا تقل سكت دهراً ثم نطق كفراً . ولكن قل

وذو الشجو القديم وان تسلى * محب حين يلقى العاشقينا

أرى حولى أحرار العثمانيين فأغنيهم بغنائنا . ولكل امرئ غناء يطربه . ثم الحروف التى توصف بها الدماء تكون حمراً . فلنرجع الى ما كنا بصدده .

تعصب أكثر العلماء وجهل الرعية وظلم الحكومة أتى البلاد بثلاث مذابح مختلفة : أولاها مذبحة الشام . وقعت فى سنة ١٨٦٠ . أضرم جاحها وأجزل وقودها أحد الباشاوات بأمر من الباب العالى . فطلبت انكلترا وفرانسا من الحكومة العثمانية تحقيق الأمر وعقاب من تثبت عليه جريمة التحريض . فذهبت الى الشام هيئة محققة اشترت رضاء الباشا وسارت على

* البطريرك نرسيس *

ما أمرتها به الحكومة . غير أن انكلترا وفرانسا لم تقنعا بذلك وأصرتا على طلب التحقيق . فتبين ذنب الباشا . فطلبت هاتان الحكومتان اعدامه ليكون عبرة لغيره . وكان سفير انكلترا فى الآستانة اذ ذاك (أرل رسل) ومعتمدها فى بر الشام (اللورد دوفرين) . فزعمت الحكومة العثمانية أن قتل الباشا قد يستثير المسلمين ويدفعهم الى قتل المسيحيين عامة انتقاما وتشفياً وربما تعدى ذلك الى رعايا الدولتين . فكان جوابهما الاصرار بعقاب الباشا . فأعدمته الحكومة التى أوعزت اليه بالفتنة ولم تحدث هنالك أشياء مما ادعت تخوفها منها .

ثم وقعت مذبحة البلغاريين فى سنة ١٨٧٧ . وقد حمى الباب العالى زعماء الفتنة وذهبت مساعى (اللورد بكنسفيلد) غير مجدية نفعاً .

ثم جاءت المذابح الأرمنية ولا بد من اعادة النظر قليلا فى أسبابها لكى يتسنى لنا استخراج نتائجها .

أكثر الناس لا يعلمون ماحمل بعض اخواننا الأكراد على مباغضة اخواننا الأرمن فهم يلتمسون الأسباب ولا يجدونها . وان من تلك الاسباب التى خفيت عنهم أن قبائل من الأكراد كانت فيما مضى من الزمان أرمنية ثم آثرت التدين بدين الاسلام ابقاء على حريتها وتوكيدا لنيل رغائبها . فنبزت قديمها ورفلت فى جديدها . الا أنها ظلت محقرة عند أخواتها مرزأة فى غلوائها . فمن هذه القبائل المتغيرة قبيلة (ماميقون) الكردية . كانت من امارة (ماميقونيان) الأرمنية وقبيلة (بكران) الكردية . كانت من امارة (باقرادونيق) الأرمنية وقبيلة (ريشقون) الكردية . كانت من امارة (روشتونيق) الأرمنية . والمتأمل فى توافق الأسماء لا يرى مناصا من التسليم بصحة مارواه التاريخ .

ولم تزل الأضغان تتزايد بين هذه القبائل واخواتها الأرمنية حتى أدت الى التقاضى الى السلاح . واذ لم يكن عند الأكراد ماعندهم اليوم من السلاح الجيد والعدة الوافية كانوا يهزمون أعداءهم تارة وينهزمون أمامهم تارة أخرى ولكن عقلاء الأرمن أوجسوا من دوام هذه المعارك شراً . فأحبوا أن يحلوا الوفاق محل الشقاق وأن يستعيضوا بالاتحاد عن الخلاف . وأول من انتبه منهم لهذا الرأى الصواب هو البطريرك الشهير (نرسيس) وبين سنة ١٨٧٨

وسنة ١٨٧٩ قام وفد من بيكوات الأكراد يريد القدوم الى الآستانة للمذاكرة مع البطريرك في هذا الباب . فلما أحس بذلك عبد الحميد أكمن للبيكوات من اغتالهم فى طريقهم وأحل بهم الردى . وهكذا خابت آمال (نرسيس) الحكيم .

ثم عن لعبد الحميد أن يتخذ سذاجة الأكراد وعداوتهم للأرمن ذريعة للايقاع بالأرمن وليجعل للرعية مايصرفها عن الاشتغال بأعماله ويستزيد لنفسه قوة يركن اليها عند الفزع الأكبر . فاستحدث الآلايات (الحميدية) من أخلاط وزمر . فمنها الكردية وهى الاكثر ومنها العربية ومنها الجركسية . وجهزهم بالسلاح الجديد وأمدهم بالميرة وكل مايحتاجون اليه جما وافرا . وحين فاز الأكراد بهذه الأهبات وباتوا مدججين سلاحا والأرمن معازيل ، رجحت كفة الأكراد فى الضراب وخفت كفة الأرمن وعليهم دارت الدائرة . هذا مايتعلق بالأرمن مع الأكراد .

ولكن يجب أيضا النظر الى المذابح الأرمنية من جهة أخرى .

الأرمن كابدوا من ظلم المسلمين والحكومة المستبدة لاسيما فى طريق بر الأناطولى مالا تصبر عليه القلوب وحملوا من الضيم ماتكل عنه المتون . ولكنهم أبناء الشرق ، وأبناء الشرق نفوسهم أبية . فنشطوا الى العمل فى جد متواصل طلبا لما يستخلصهم من اذلال اخوانهم اياهم . فما وجدوا سبيلا هو أقرب الى المراد وأنفذ الى النجاة من طلب العلم والصناعة والاستفادة من معجزات العصر الجديد . فكان منهم المهاجرون الى أقاصى البلاد والمتزاحمون على أبواب المكاتب والمتنافسون فى تشييد مكاتب أرمنية . وما

برحوا يتراكضون الى الاستنارة بأنوار المعرفة حتى توافوا الى مشرق نورها ومطلع نيراتها وهم كلما زادوا توغلا فى العلم زادوا معرفة بأساليب الحياة فغيروا مارأوه غير صالح من قديم العادة واستبقوا ما كان صالحا . فما مضت اعوام قلائل على نهضتهم هذه الا برزوا على مواطنيهم من المسلمين . أما المسلمون فلم يريدوا النزوع عن ميراث السلف الا قليلهم وعدوا الاستفادة من علوم الغرب واقتفاءه فى ترقيه شائناً لكرامة الدين . وعند التفاضل ظهر فرق الامتين وأحرز الأرمن قصب السبق . فكان هذا داعياً الى حسد المسلمين لهم وامتعاضهم منهم . والأرمن عرفوا حد ماعليهم للحكومة ومالهم عليها . فرضوا أن يهبوها حقها وأن يطالبوها بحقهم وكبر هذا على الحكومة لانها كانت لاتحب النصفة وكبر على المسلمين لأنهم لم يكونوا يعلمون أن للأرمن حقا على الحكومة وهم يعلمون أن الحق لا يكون الا للمسلمين دون سواهم . نعم كان فى جماعات المسلمين رجال رزقوا العلم واشربوا حب الوطن اعترفوا لاخوانهم المسيحيين بالحق وأرادوا انصافهم وودوا مشاركتهم فى مطالبهم . غير أن قلة العدد خذلتهم فى مناوأة الحكومة والسلطان الظالم وظلوا فى أعين الجهلاء بمنزلة الأعداء .

وكانت بمدينة (وان) شركة اسمها (مياتسيال أنكرجون) ومعناها الشركة المتحدة . أسست لاستحضار ماتحتاجه المدارس الأرمنية من كتب ودفاتر وأقلام وقراطيس وغيرها من الأدوات المكتبية وجعلت لهذه الشركة شعب في سائر الولايات العثمانية ونصب لها مديراً رجل من جلة الفضلاء اسمه (مغرديج بورتقاليان افندى) . ولما رأى تخلى المسلمين عما يرمى اليه

بنو جنسه واستحكم اليأس من فؤاده وأفئدة من هم على شاكلته من نجباء الأرمن أسس جمعية خفية فى (وان) سماها (جمعية آرمناقان) وذلك فى سنة ١٨٨٠ . وجعل أساس مقصدها حماية الحقوق الأرمنية من الضياع . وفي سنة ١٨٨٥ قبض عليه وعلى أحد رفاقه فى سعيه وهو البطريرك السابق المرحوم (خريميان) أفندى وأخذا الى الآستانة وكان وشى بهما البعض الى السلطان . ولما لم يجدوا مايرجح التهمة عليهما أخلوا سبيلهما فسافر (بورتقاليان) افندى الى (مرسيليا) وأصدر فيها جريدة باللغة الأرمنية سماها (أرمينيا) وهى لاتزال تنتشر الى اليوم وانتقل مركز الجمعية أيضاً الى (مرسيليا) وهو كائن هنالك الى يومنا هذا .

وفى سنة ١٨٨٥ حين كان البطريرك السابق (أورمانيان) مطراناً بأرضروم ، أحست الحكومة المنقلبة ان قد أسست هنالك جمعية أرمنية اسمها (خنجاق) . فأخذت الى الآستانة أناساً كثيرين لتستطلع منهم سر الجمعية وما يتعلق بوجودها . فلم تقف منها على عين ولا أثر . وسافر (أورمانيان) الى الآستانة وبقيت الحكومة بين الشك واليقين فى التصديق بوجودها . وانما أسست هذه الجمعية بباريس وولى رئاستها رجل من رعايا الدولة الروسية اسمه (نظربك) ثم جعل فرع تابع لها في أرضروم .

وقد الفت بعد هذه جمعية (طروشا غيان) أو (طاشناقساغان) فى (جنيف) . واذ كان أكثر أعضائها من الارمن التابعين لروسيا ، لم تكن محلا لثقة اخواننا من الارمن العثمانيين . وهذه الجمعية تميل أيضاً الى مذهب الاشتراكية . وهناك جمعيات أخرى لا أعلم من أحوالها ماأوثره بالذكر فلا

أرى مندوحة للخوض فى أعمالها .

الحرج يعلم الحيلة وتوالى العقاب يستولد البغضاء ولو كان عدلا . فكيف به اذا كان ظلما ودوام الاساءة يحول دون استعادة الصفاء . هذه ثلاث قضايا ضرورية فرغ العقلاء من التخالف فيها . لما حقت على اخواننا المظلومين ، عملت جمعياتهم بفحواها . وفى سنة ١٨٩٠ قامت جمعية (خنچاق) بواقعة (قوم قبو) وهى براعة الاستهلال فى النهضة الأرمنية . وفى سنة ١٨٩٦ قامت جمعية (طاشناقساغان) بواقعة البنك العثمانى . كلتا الواقعتين وقعت فى عاصمة الملك العثمانى لتكون بمشهد من أعين سفراء الدول وبحضرة عبد الحميد أرادت الجمعيتان الأرمنيتان أن تعلما حكومة الاستبداد أن الشعب الأرمنى نفض عنه تراب الذل وأنه يأبى الاستمرار فى طاعة كلها تكلف . فجاؤا لسائر اخوانهم العثمانيين بمثال من النخوة كان يجب أن يحذوا على منواله . غير أنه لم يقرع بذلك سوى فريق من رجال الحرية أضجرهم الظلم . أما الباقون من المتعصبين والجهلاء ومن أسعدهم الاستبداد وعلت اقدارهم فى دولته . فقد أغضبهم ذلك وأقبلوا بجموعهم يقتلون الأرمن . فكثرت المذابح وحمى الوطيس بين العنصرين المسلم والارمنى بعد أن كان الأمر بين الارمن والحكومة وذهب كثير منهم غدرا اذ لم يكونوا من جمعية من الجمعيات الثائرة ولا ممن شاركوها فى أمر من الأمور .

فلما وقع القتال بين هذين العنصرين العثمانيين زاد كلاهما بعداً عن صاحبه ونبتت بينهما الاحن . فعلم الأرمن أن لن يكون مقام رغد فى البلاد العثمانية وعدوا أنفسهم غرباء فيها . فكان منهم المطالب باحياء دولة (أرمينيا)

ليعيشوا فيها منفردين . وكان منهم من يؤثر الصبر ليرى ماسيكون من عاقبة البغى . وكان منهم من يحب الهجرة الى أمريكا وأوروبا تاركا وراءه وطنه واخوانه ، يأساً لا هجراناً وفرارا لا تحولا . فأدى ذلك وما تلاه من تعمم القتل والسبى فيمن هم بالاناطولى من الأرمن الى توسط الدول الاوروبية وطلبها من الحكومة المستبدة كف أذاها عن المسيحيين وانفاذ ماتعهدت به للدول من الاصلاحات . فلم يجد كل ذلك نفعاً . وجملة مااحتال به عبد الحميد على الحكومات المتمدينة حتى خدعها تنصيبه لبعض ولاة الاناطولى معاونين من مسيحيين ومسلمين وفتحه باب الهجرة لمن يريد (ترك التابعية) من الأرمن . وهو أمر يراد به ظاهره دون حقيقته . فكم رأيت جماعة من الأرمن يطرقون أبواب الحكومة طالبين الاذن بالسفر الى أمريكا ، فيطالبهم رجال الحكومة بما يكون عليهم من جزية ومال . فاذا فعلوا ذلك كلفوهم اثبات براءتهم مما عساه يكون صدر عليهم من حكم وأعيق عن الانفاذ أو لم يكن انتهى من المحاكم . فاذا كان هذا طالبوهم بضمان على أن لا يعودوا ثانية الى الاقطار العثمانية . فاذا جاؤا بذاك الضمان أمروهم أن لا يدعوا وراءهم مالا ولا عقارا ولا أهل قرابة وأن يدعوا فى دائرة البوليس صورهم الفطوغرافية ليعرفوهم بها اذا عادوا . وبعد هذا العذاب الطويل يسمعون من وقاحة المأمورين وشتمهم وانتهارهم ماتندى له الجباه . ثم لا سبيل الى انجاز شىء مما سبق ذكره الا اذا جاء المهاجرون بالدراهم وبذروا فى الحباء تبذيرا .

ولربما خرجوا مسافرين ومعهم نساؤهم وبناتهم فتتلاحق بهم خيل اللصوص ويحيط بهم جماعة من السفل فيصيبهم من مكروهم مايعيقهم عن

الخلاص.وويل لهم ان رجعوا يومئذ مستصرخين بعدل الحكومة أو طالبين خلاص من سبي منهم . اذن تقوم عليهم القيامة ويعظم الخطب . وقدصدق أحد شعراء الحماسة اذ يقول :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلى … بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

اذن لقام بنصرى معشر خشن … عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا

قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم … طاروا اليه زرافات ووحدانا

لايسألون أخاهم حين يندبهم … فى النائبات على ماقال برهانا

لكن قومى وان كانوا ذوى عدد … ليسوا من الشر فى شىء وان هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة … ومن اساءة أهل السوء احسانا

كأن ربك لم يخلق لخشيته … سواهم من جميع الناس انسانا

فليت لى بهم قوماً اذا ركبوا … شدوا الاغارة فرساناً وركبانا

من الوقائع ماتروع القارىء وتستطير لبه . فكيف بكاتبها وهو يتكتم منها ما لايقوى على تسطيره طوراً رحمة وطورا حياء . والأنباء الآتية من الأقطار البعيدة يحسبها البعض مبالغا فيها ويحسبها البعض مختزلة ، ولكن الذين يظنون بها المبالغة أكثر . فمن سمع فى سائرالبلاد مانزل بالأرمن من المصائب قال هذه من مكر الأرمن ولم يشأ تصديقها . ثم هناك أناس يقولون لنا ان الأرمن أعداء لنا ويزعمون أنهم هم المعتدون دائماً وأن المسيحيين لايخلصون للمسلمين ودا ولا يصفون لهم سريرة . وينعتونهم لنا بالكافرين وأهل النار وغير ذلك من كلام الجهل والجنون ، وبسطاؤنا يصدقون هذه الباطلات حسن ظن منهم بقائليها ولبعدهم عن مواضع العلم وفهم الحقائق .

فاذا ذكرت لهم تلك الفظائع لم تهز منهم موضعا من قلب . ومنتهى انصافهم أن يقولوا ان الأرمن جنوا على أنفسهم .

هـذا كلام قد يعذر عليه الجاهلون من السوقة والمحرومون من نعمة العقل ولـكن ماعذر جماعة من المؤلفين وأصحاب الصحف ورجال الرأى اذا قالوا ذلك . أما والله وددت أن اطاوع القلم فى جماحه ولـكن أخاف مأثور القول .

المذابح الأرمنية التى كانت بالآستانة وبغيرها من أقطار الأناطولى ذكرت فى حينها . فمنها ما جاء مفصلا في الجرائد وطيرها البرق فى روايات مختلفة ومنها ما كتب فى رسائل خاصة بها . والتزام الايجاز فى هذا الكتاب يمنع استعادة ذكرها . غير أن هناك أشياء قد لاتكون ذكرت بل ربما كانت خافية عن كثيرين ممن يستقصون مثل هذه الوقائع ، أذكرها لتكون أمثلة لما كابده اخواننا المظلومون . وهـذه النوادر أرويها عمن شهدها ممن عرفتهم بسيواس

لما اتصل بأهل سيواس ماجرى للأرمن . افترقوا فريقين . فأمافريق المسلمين فأخذ يتأهب لمحاربة الأرمن اذا بدر منهم اعتداء عليهم وأما فريق الأرمن فذهب خاصتهم الى جماعة من الأجانب يسألونهم ان كان هناك مايخيفهم . فذهب هؤلاء الأجانب الى خليل وشيد باشا والى سيواس اذ ذاك واستطلعوه جلية الأمر . فقال لهم ان الأمن معتدل فى نصابه وأن لا خوف من وقوع أمر جلل وأنه ساهر لتنام الرعية . ثم شاع بين المسلمين ان الأرمن على أهبة دائمة وزعم جماعة من الرعاع أن أرمنيـين أبصرا أربع سيدات

مسلمات فى الطريق فاعترضاهن وقالا لهن غدا نقتل رجالكن ونتخذ بعضكن سافيات وبعضكن ولائد . فزاد ذلك من حقد المسلمين والأرمن لا يعلمون شيئا مما يقال عنهم من هذا القبيل . غير أنهم باتوا يتوجسون خيفة حين بدت على المسلمين امارات الغضب والفتوا عنهم الوجوه . وما مضى بعدذا طويل زمن حتى قام المسلمون وأعملوا فى الأرمن القتل والفتك ودخلوا بيوت التجارة وأكثرها فى بناء عظيم اسمه (طاش خان) ، أبوابه من الحديد . فما زالوا يضربون تلك الأبواب بالمعاول ويرمونها بالرصاص حتى انفتحت لهم . فما تركوا هنالك شيئا . وتلاحق الجنود والوالى يصيح بدار الحكومة ليكفوا وهم لا يكفون . وبعد قتال دام يومين ، كفت المذابح . ومما تقشعر منه الابدان أن بعض أولئك الوحوش كانوا يذبحون من عثروا عليه من الأرمن بالمناشير . وقد رأى قوماندان الرديف الفريق محمد خلوصى باشا الذى توفى منذ عامين أناسا من المعتدين أحاطوا بأرمنى وكان يصنع له أحذيته وله قبله دين لم يوفه . فاستجار الأرمنى بالقوماندان وقال يامولاى عبدك يقتلونه ولا ذنب له . مرهم بحق مروءتك أن يهبوا حياتى لأولادى الصغار . قال القوماندان أنت كافر واولادك كفرة وأشار الى من أحاطوا بذلك المسكين ان يجهزوا عليه ففعلوا . وقد انتهز السفل هذه الفرصة فاختطفوا البنات ونهبوا المال نهبا لما .. فترى اليوم أكثر تجار الأرمن وقد أصبحوا لا يملكون قوت يومهم وأثرى بمالهم المنهوب غيرهم من اللصوص فأمسوا من التجار .

ولو كان المسلمون أنصفوا إخوانهم المسيحين بل أنصفوا أنفسهم

واتحدوا فى القيام يداً واحدة على الحكومة المستبدة لنالوا حريتهم منذ أعوام مديدة ولاستبقوا محبة اخوانهم .

ثم غضب الأرمن من المسلمين عامة ومنا معشر الترك خاصة ولا يبعد عن العقل أن يكونوا اتفقوا بينهم ان يتخذونا اعداء . فاذا صح ذلك فهو أمر حادث ولكنهم لم يكونوا كذلك . فيا طالما بكوا لبكائنا وشاركونا فى ضرائنا ومنعناهم أن يشاركونا في سرائنا . وكانوا يظنون أننا شركاؤهم فى التشكى من استبداد المستبدين فرأونا صاغرين لا نأتى حراكا ولا ننطق بلوم . ثم لم نبت أن خضبنا الأكف بدماء نحن أحوج الناس الى حقنها .

كثير من الأرمن تركوا جمعياتهم وشاركوا أحرارنا وقالوا نحن عثمانيون فلتكن رغائبنا عثمانية وخالفوا بعض القائلين من أبناء جلدتهم باحياء (ارمينيا الجديدة) وقالوا هذا محال ولو كان لما أفاد .

فمن فضلائهم الذين فقد منهم العثمانيون دعام مجد رفيع وسيف نجدة ماضى الغرارين ، الشاعر الاديب الفاضل المرحوم (ناربى لوسينيان). مات فى سنة ١٨٩٤ مسموماً . هذا النابغة هو من رجال الرهبانية وله آثار تفتخر بها الأوطان . كان صادق النية حر النزعة عثمانياً جسما وروحا . ولكن استكثره عبد الحميد على العثمانيين كما استكثر غيره فسقاه الردى وأسكت يراعا نحن أحوج العباد الى صريره .

كفى كفى . ولنختم هذه الصحيفة السوداء وليكفنا منها أن ستشهد بها علينا الايام . فاذا قرأها العثمانى الصادق فليتخذها ذكرى وعبرة واذا قرأها غير العثمانى فليثق ان هناك ناقمين كثيرين مثل كاتبها . واذا التقى حر بيتيم

من أيتام هذه المذابح وقال انا ابن من ذبح بالمنشار ، أو رأى فتاة فى أسرة لابسة سواداً كنجم الثريا يبدو فى الظلام وقالت أنا بنت من طعن فى فؤاده ، أو قرب مجلسه من سيدة أيم وكان محباً لزوجها وقال لها أين صديقى فلان فاغرورقت عيناها وقالت له قتله ابن عمك فلان ، فليطاطىء الرأس وليقل لالبسن معكم ثياب الحداد ولأحمين عرضكم ولأكونن لكم أخاً ومعيناً مادمت حياً . واذا وقف على قبر قفر الجوانب في بلقع يغلي هجيره وتسفى الرياح عليه المور فليقل عليك السلام أيها الاخ الشهيد ، الأرمنى المظلوم ، نم ماطل حيث كنت ولا وتر لك دم فلان جار عليك المتعصبون فلينصفنّ من بعدك الاحرار .

﴿ جرائد العثمانيين الأحرار بمصر وغيرها ﴾

عشق الحرية أضنى أفئدة العثمانيين وفى الغرب ناس كادوا يسأمون وصالها والعشق يصقل الفكر ويبرى اللسان ويسير الأقلام. وعلى قدر امتناع الشىء تكون الصبوة اليه (أعز شىء على الانسان مامنعا) . ولا غرو ، ان ابن ورقاء على فننه، والريح فى هزيزها والماء فى خريره والشجر في حفيفه ثم والرعد فى زجله والليث فى زئيره كل ينشد الحرية . فكيف ابن حواء وفيه من كل مخلوق خلق مودع فى باطنه باد فى ظاهره .

عرفنا (هوميروس) فى (الياذته) وسمعنا (دانتى) يندب (بياترى) وفهمنا (شكسبير) من (روميو وجوليت) وقرأنا (غوطا) فى (فوست)

وسمعنا (هوغو) وهو يجهر (بالاصوات الباطنية) وتلونا ماجاء به (نامق كمال) فى (سلستره) وانشدنا مع (شوقى) قوله

صونى جمالك عنا اننا بشر * من التراب وهذا الحسن روحانى

فاذا كل يغنى الحرية وكل يناديها . وهل فى العشق مايستدر عبرة أو يصعد زفرة لولا امتناع الحرية .

مازالت الحرية ، منذ كانت ، تطرق باب كل فؤاد فيفتح لها، حتى طرقت باب فؤاد عبد الحميد اكثر من ستين عاما فلم تقدر على فتحه .

الحرية طافت بلاد الله ، فكلما دخلت أرضا أعتقت المعتقلين فيها . فلما طرقت تركيا اعتقلت فى سجنها (بيلديز) .

الاستبداد استنجد (فالاريس) و (نيرون) و (الحجاج) و (جنكيز) و (هلاكو) و (تيمور لنك) على الحرية . فهزمتهم معه وقهرته معهم. ولكنه حين استنجد عبد الحميد دام نصره عليها ثلاثاً وثلاثين سنة .

لو لم يكن على وجه الارض أمم أخذوا الحرية من ملوكهم قسرا وان هذه الأمم تشارك عبد الحميد فى استنشاق الهواء لكان غير فان . فأما وقد نالت رعيته الحرية وأنفه راغم فلن تطول أيامه .

كريهان يؤذيهما طيبان . الجعل يؤذيه ريح الورد وعبد الحميد يؤذيه نسيم الحرية.

ولقد حكم عبد الحميد الأجساد ولم يحكم القلوب . اشترى طاعة بعضها برهبة بطشه والرغبة فى دنانيره وأبى عليه بعض القلوب ، وبذا هان عليها سلطانه وحقر فيها ذهبه . فخرج قوم عليه بأقلامهم حين دخلوا حصونا لا تنالهم

﴿ الشاعر الحر الشهير المرحوم ناربى لوسينيان ﴾

فيها أسيافه فقالوا فيه مايخلد مع اسمه خلود الدهر وفتحوا عيون الغافلين الى عيوبه . وما سكنت العاصفة التى عصفت بأنفاس (كمال) ورجال عهده الاهاجت غيرها . ولا حاجة بنا الى ذكر كل صادح وباغم فيتسع لنا الميدان. وحسب القارىء الكريم أن يلم بالأهم فيكفيه طلب المهم .

كاتبان من كتاب العهد الجديد من عهدى الحرية عليهما السلام. أحدهما جاور ربه وآسفاه وهو خليل غانم وثانيهما لا يزال حياً والحمد لله وهو محمد قدرى .

فاما غانم فهو أبو المقالات الرنانة فى جريدة مشورت الفرنساوية وغيرها. جاهد جهاد لا وان ولا متخاذل واشتدت وطأته على الظالمين فطلبوه بكل حيلة وحاربوه بكل شر فما فتنوا له لبا ولا زعزعوا له جأشاً .

وأما محمد قدرى فقد كان يكتب فى «المقطم» جريده العثمانيين ويذيل مقالاته بامضاء « محمد قدرى العثمانى » ثم كتب فى جريدة « قانون أساسى التركية » وجريدة « القانون الاساسى » العربية . وهو صاحب الكتاب التركى المشهور الذى سماه « استنصاف » . حاول عبد الحميد ارجاعه الى الاستانه أو اسكاته فأعياه ذلك. وقد قال بطل الحرية (نيازى) فى (خواطره) التى نقلها الى العربية مؤلف هذا الكتاب ان كتاب (استنصاف) وغيره من كتب الأحرار فتحت قلبه وشددت عزيمته لخلاص وطنه .

ولقد ظهرت جرائد كثيرة فى أوروبا ومصر وأمريكا ، واتحدت كلها فى الحملة على حكومة الاستبداد والمطالبة بما للأمة من حق مهضوم . وأسس هذه الجرائد واشتغل بتحبيرها وافاضة الحكم فيها جماعة من نجباء العثمانيين وأولى الرأى والمنزلة الرفيعة بين فضلائهم . فمنها التى دامت على ولائها للحق وواصلت جهادها في سبيل الحرية غير مستضعفة فى كفاح ولا محجمة فى مزدحم . ومنها التى انقطعت عنها وسائل البقاء فسكتت وتركت صيحاتها ترن فى آذان الدهور .

وانى لذا كر فى هذا الفصل كل جريدة لم أنس مبلغ جهادها وتارك مالا أذكر وقائعها وأرجو أن لا يحسب ذلك منى سوى زلة زللتها غير مختار وهذه الجرائد هى .

(مشورت) التركية والفرنساوية . صدرتا فى باريس ثم صدرتا فى
جنيف أنشأهما احمد رضا رئيس مجلس المبعوثان الآن .

(المشير) العربية أنشأها بالقاهرة واختص بتحريرها صاحبها صديقى
القديم سليم سركيس .

(عثمانلى) أنشأها فى (جنيف) صديق الدوكتور عبد الله جودت
واشترك فى تحريرها مع المرحوم اسحق سكوتى ونورى أحمد وطونه‌لى
حلمى .

(لسان العرب) كان يحررها المرحوم الشيخ نجيب الحداد

(ينتى) وجريدة (قوقوماو) وهما لجماعة من الأحرار لم يذكروا
أسماءهما . وكان عبد الحميد لا يغضبه شيء مثل كلمة (ينتى) ومعناها الابله
الذليل .

(النبراس) كان يحررها الفاضل الجاويش

(بصير الشرق) انشأها رشيد بك وكان يحررها مع الدوكتور اسماعيل
ابراهيم . وكانت تصدر باللغتين التركية والعربية .

(يلديرم) ومعناه الصاعقة كان صاحبها ابراهيم ادهم .

(جورجونه) كان يحررها الشاعر التركى الشهير اشرف .

(سنجق) كان اصدرها احمد صائب . ثم استبدل اسمها فصيره
(شوراى امت) .

(ميزان) كان يصدرها مراد الطاغستانى بالتركية بمصر ثم اصدرها فى
(جنيف) .

(امل) كان يكتبها المرحوم حسن فهمى .

(اجتهاد) أصدرها صديقى الدكتور عبد الله جودت بعد ان ترك
جريدته الأولى (عثمانلى) وجاء مصر . وكانت تقبل ان يكتب فيها بكل لغة
وهى منتشرة الى الآن .

(ترك) كان يكتب فيها الدوكتوران نجم الدين عارف المانسترلى وشرف
الدين مغمومى .

(قانون أساسى) التركية و (القانون الاساسى) العربية كان يكتب فيهما
الخواجه محمد قدرى العثمانى ومؤلف هذا الكتاب .

(الانذار) كان يحررها يوسف حمدى يكن شقيق المؤلف أيضا .

وقد ظهرت بأوروبا وأمريكا جرائد جليلة القدر عظيمة الخطر مثل
(كشف النقاب) التى كان ينشرها بباريس الامير أمين ارسلان و (كوكب
أمريكا) و (الايام) وكلتاهما صدرت بأمريكا .

كل هذه الجرائد طالبت حكومة الاستبداد بحرية الامة وشدت فى
ذم ظلم عبد الحميد ودعته الى الانصاف وخاطبت العثمانيين فى الانتباه الى
ماهم صائرون اليه. فطاردها الظالم مطاردة من لا يعرف السأم وأكثر من
اتخاذ الجواسيس وجعل المراقبة الشديدة على البريد وبالغ فى منع هذه الجرائد
من الدخول فى البلاد العثمانية لكى لا يقرأها أفراد الامة فيتنبهوا الى أعماله
ويكونوا مع الاحرار يداً واحدة عليه . ثم حاول أن يستغوى من يكتبون
الصحف وان يستجلبهم بالمال وتمكن من نيل مأربه مع البعض منهم ولم
ينجح مع الآخرين .

أما (مشورت) فكانت من حزب الاصلاح الدينى ومثلها (ميزان) . فان صاحبيهما ما استمانا على عبد الحميد الا من الوجهة الدينية . و (القانون الاساسى) كذلك . وسبب اتخاذهما هذه الخطة انه لم يمكن مخاطبة العثمانيين الا باسم الدين وآسفاه .

أما (عثمانلى) و(اجتهاد) و(المشير) فكانت جرائد من الطبقة الأولى . وقد سبقت لى مناظرات مع صاحب (المشير) قبل دخولى فى فريق المطالبين بالحرية ، أظهر فيها من قوة الحجة وحسن البيان وشدة النفس ماخيل لكثير من الناس أننا أعداء وما كانوا يعرفون اننا نقضى أكثر أوقاتنا معاً على أحسن مايكون من الاخاء . وسليم سركيس رجل يندر مثله فى رجال الصحافة . وكانت جريدته محبوبة عند أولى الذوق السليم مطلوبة من ذوى الادب والظرف . لان صاحب (المشير) كان يتخير الفصول ويجيد الكلام . فما ظهر عدد من جريدته الا رأيت فيه كل مايطيب للنفس ويخف على السمع . وانه لشهم جرىء اذا جاءه وعيد زاد اقداما وان سيم فى ذمته أعرض عن النفائس اعراض الكريم . فهو من أنصار الحرية الذين يفتخر بهم الوطن . هو صحافى منذ أكثر من عشرين سنة يشهد له (لسان الحال) و (المشير) و (المؤيد) و (مجلة سركيس) . ولقد عانى من مطاردة الحكومة المستبده مالا يصبر عليه سواه . بعثت وراءه من يغتاله قتلا فسلمه الله من شره وطلبته من الحكومة المصرية فكانت قلامة ظفره أمنع من عقاب الجو . وقد سجن مرتين فلم يزده السجن الا رفعة في عيون الفضلاء

والسجن ان لم تغشه لدنيئه　　　سواء نعم المنزل المتودد

وأما (ميزان) فان صاحبها مراداً رجل له علم بالتاريخ وهو معدود من الطبقة الثانية من الكتاب . جاء مصر وللناس فيه ثقة وللحكومة العثمانية منه وجل . فكانت (ميزان) كالصاعقة المنقضة على رأس عبد الحميد ، منعته الكرى وكادت تفلح فيما تسعى اليه . دعا عبد الحميد ناظم باشا ناظر الضبطية . اذ ذاك الى قصر (يلديز) وقال له :

— ما أكبر ذنبك وما اصغر همتك . أمرتك أن تطارد كل من يقرأ (ميزان)، والتقارير تأتينى بانها تجىء الى فلان والى فلان . اكذا اطاعتك لسلطانك؟

قال ناظم :

— يشهد الله والناس بما أجد فى مطاردة (المفسدين) ولكنى لا أدرى ما أصنع . وكلما أمرت رجال الشرطة بالانتباه وادمان النظر في ذلك وجدت نسخ (ميزان) في جيوبهم وخرج ناظم وهو كاسف البال ضائع الرشد .

غير أن مراداً كان معجباً بنفسه متكبراً دائم الازدهاء لا يدين للحق فلم يحسن البداية ولا النهاية .

ومن الجرائد التى عوضت ماخسرته الامة بفشل (مشورت) التركية وخيبة صاحبتها ميزان . جريدة (عثمانلى) سابقة الذكر . وقد كان تأسيسها فى سنة ١٨٩٧ . ثم تلتها اجتهاد ولغتها تركية وكانت تقبل كل مقالة تأتيها بأية لغة كانت . وصديقى الدكتور عبدالله جودت هو مؤسس (جمعية الاتحاد والترقى العثمانية) وسكرتيرها . وانه لمن الفضلاء الذين يزينون عقد الحرية . ماشئت من أدب رائع وخلق مطبوع ونفس صريحة وعقل راجح وضمير لم يتطرقه الرياء ولم تهتد اليه الاهواء . حرمتناه فى حريته . يقول الحق ويعلم

انه ضائره فلا يبالى عاقبة ولا يخشى حسابا .

و (القانون الاساسى) كان له شأن يذكر . ففيه سيرت هذا القلم مجاهداً وقلت لعبدالحميد (فلأهزن به أركان قصرك هزاً) فلم تدعنى الايام أصدق وعدى وأقوم بوعيدى وهزت (يلديز) وأمالت عمـاده قنابل الأحرار . فاذا كان دوى رعودها رجع ماصرت به الاقلام فالحمد لله ولا فخر . وان كانت منبعثة من أفئدة أمة أجملت الصبر حتى تنفست عن البارود فالفخر أعظم .

وجريدة (الانذار) التى كان يكتبها شقيق يوسف حمدى يكن كان لها دور وله شأن . فكم بالقصور من أعداده ، جمعت من (العتبة الخضراء) ورفعت الى العتبة العلياء . واذكر هنا منها هذه الابيات التى قالها صاحب الانذار فى العدد الرابع الصادر فى سنة ١٣١٧ وفيها اشارة لا تخفى على اللبيب قال :

اذا صحا النائم من نومه	وهم ذو الهمة في يومه
عادت لنا أيامنا مثل ما	نرجو وعاش المرء فى غنمه
ياقوم هبوا هذه رقدة	طالت وذو الاثم على اثمه
حكم رشاد الدين مقصودنا	وانما الاقبال فى حكمه
فليحتكم هـذا وظلامنا	أراحنا الرحمن من ظلمه

كانت هذه الصحف حجة على الغرب تدحض ما يتهم به الشرق من خمول واستسلام للظلم . كان الشعب العثمانى يئن فتكذبه ملوك أوربا وساستها الذين اشترى قلوبهم عبد الحميد بمال الرعية . فيخطبون على منابر التمدين بما

يعظمون به الظالم فى عيون من لا يعرفون ظلمه ، وهذه الجرائد تقول لاولئك العظماء انتم غير صادقين وتبين لهم وجوه ظلاماتهم مستندة فى دعواها على الظاهر من الأعمال دون الخفى ثم كان لأصحاب الصحف العثمانية الحرة احبة وأعوان يحتالون فى ادخال تلك الصحف فى الأقطار العثمانية بوسائل دقت عن افهام المراقبين والجواسيس . وكانوا يطلعون عليها كل من يأمنون جانبه ولا يخشون منه وشاية من خلطائهم فتحدث أقوالها الحقة فى نفوسهم مالا يحدث الغرام وتلعب بألبابهم كما تلعب بها بنت الكرم . وبذابات الأكثرون من عقلاء العثمانيين متحدين قلوبا وآمالا . متواطئين بلسان الحال على احتقار العصر الحميدى .

ويشهد الله وكل محب للحق أن اخواننا العرب ، لاسيما مسيحى السوريين منهم كانوا أشد الناس ضجراً وأعظمهم أنفـة من احتمال الذل . فهم الذين تاقت نفوسهم الى الفضيلة العصرية من وراء حجب الاستبداد ، فأقبلوا على مصر وعلموا اخوانهم المصريين انشاء الصحف واتخاذ المطابع واحتراف الأدب العصرى واصطفاء الحرية . هذا مع أنهم محرومون فى بلادهم من التمتع بمثل هذا النعيم . غير أن حب المعالى فى أكثر النفوس طبع لا تطبع والا فمن علم الطير ترجيعه ومن وهب البلبل حب الورد ؟ ولما طال عليهم احتمال الضيم هجروا أوطانهم وضربوا فى أقطار الأرض يجوبون قاصيها ودانيها ، يحلون من منازلها آهلها وخاليها ، أعوانهم عزائمهم وبضاعتهم عقولهم . فحيث عثرت جدودنا انتهضت جدودهم . فكان (المشير) وهو جريدة أسبوعية ، صاحبها غنى علما فقير كيساً ، منتشراً كجريدة يومية . فتذهب نسخه

البرازيل وفيلادلفيا وسائر أقطار أمريكا وأوروبا وآسيا . والبلاد العثمانية كان يدخلها في غفوة من أعين الرقباء . وكان يراسله بعض الأعالي من رجال القلم ورجال الرأي ممن لا أصرح باسمائهم اذ لم أستأذنهم في ذلك. وما لبث المشير أن أعاش صاحبه وعاش بفضل صاحبه .

وجرائدنا التركية لم تدم كثيراً اذ لم يكن في مصر والبلاد الخارجية أناس كثيرون يقرأون اللغة التركية والذين يقرأونها أو يفهمونها من الأتراك الذين استوطنوا مصر من الازمان السالفة لا يهمهم من السلطان الا كونه سلطانا . وهم يعتقدون أن لا حق للامة في مشاركة الملوك في أعمالهم وان الرعية عبيد للملوك أمروا بالطاعة لهم وان ظلموا والشكر وان أساؤا . يتحدثون بذلك في مجامعهم وبايديهم السبح وأمامهم النارجيلات (الشيشات) يمتصونها حتى تستطلع حبابها . يؤتى لهم بالشاي منقوعا وبين يديهم جماعات من المشايخ منهم المدعون لعلوم الكيمياء القديمة ومنهم أولياء الله الناطقون بالغيب (بالسرياني) ومنهم المتصوفون من اتباع الرفاعي والكيلاني ومحي الدين العربي والبكطاشي والمولوي ومنهم أئمة الشرع ورواة الأحاديث والمفسرون . كل هؤلاء يكفرون الأحرار ويدعون لعبد الحميد ويعدون أنامل أكلت أطرافها حبات السبح يجرون بها دراهم أعوانهم عدا بطلا وجشعاً ولؤماً كانوا يؤثرون حب عبد الحميد على حب العادل الحميد .

فمن من هؤلاء القدماء الصلحاء الاتقياء يشك في صدق الحاج السيد الشيخ زيد مثلا وهو لابس عمامة كأنها كيوان وفي يده عصا كأنها عمود الصبح وعليه جبة خضراء كأنها ملاءة الربيع وفي رجله خفان أصفران كأنهما سفينتان

من النحاس الأصفر وفي عنقه سبحة هي أطول من ألفية ابن مالك ، ثم يصدق ما جاء به سليم سركيس وهو رجل مسيحي ما قرأ على شيخ ، أو يؤمن بما يقول به غيره من أحرار الترك والعرب وهم متعلمون في أوروبا أو البلاد العثمانية على معلمين أتوا بهم من أوروبا . والمسلمون من اخواننا المصريين كانوا ولا يزال أكثرهم متمسكين بتلك الآراء القديمة . فأحر بأولئك العثمانيين المقيمين وراء جبال الأناطولي أن لا يعرفوا من الدنيا الا مقدار ما يرون في بلادهم . كل هذه المصائب كانت عوائق دون نجح المجاهدين من الأحرار .

قلت ان صحف المجاهدين كانت تنتهي الى من يقرأونها من أنصارهم في غفلة من عيون الرقباء ولم يكن ذلك دائما . فكثيراً ما وقعت بأيدي قوم من الكاشحين تسابقوا بها الى قصر الملك وأسلموها الى حملة العرش وأسلموا من جاءت من أجله الى الزبانية الموكلين بتعذيب العباد . فألقي منهم في البحر من ألقي وسجن من سجن ونفي من نفي . بلى ربما تذرع قوم الى نيل أمانيهم باتهام آخرين زوراً وبطلا وادعائهم عليهم بأنهم يراسلون أصحاب (الأوراق المضرة) أي الصحف الحرة . فباؤا بالهبات والوسامات والرتب . وقد فتح هذا الترغيب باب التنافس في مصر بين من يحبون الرتب والألقاب من سراتها وأغنيائها فتزاحموا بالمناكب عن ابتياع ما ينشره الأحرار من الجرائد والكتب ، يجعلونها في صناديق عليها أقفال من الحديد يرسلونها الى القصر الحميدي أو يستصحبونها معهم ليتقدموا بها الى معبودهم الفاني . ورأى ذلك بعض السفل فتشبهوا بالأحرار في انشاء الصحف وتأليف الكتب . ولقد

كان أكثرهم لا يعرف الكتابة فيستكتب غيره بأجر يسميه له . وعشاق الرتب يجزلون لهم العطاء ويكتبون الى القصر السلطانى أنهم ساعون فى اسكات المفسدين اعداء « أمير المؤمنين » وأنهم استرضوا فلاناً وسيرتضون فلانا .

ومما ينبغى ان يدمج فى كتابى هـذا ليتلوه أخلافنا على ممر الدهور ، أن دار الامارة المصرية كان لها فى هذا المعترك راية القائد . فقـد سال منها النضار حتى فاض عن الأكف وعلق بالأقدام . وكم من بريد بين مصر وفروق يروح واحد ويغتدى واحد وكم من رسائل وسفراء أحسنوا البلاغ وانقلبوا فائزين . يارب صندوق ترى ظاهره فتخال به ذخائر وتحفاً وهدايا مما يهـدى به الملوك وما حشوه الا أوراق مشتراة غلب عليها كاتبوها أو أخذت ممن لا يحرص عليها لولا الخير المفاض .

ومن أجل هذا قامت الحرب عواناً بين الامارة والأحرار كما سيجىء خبره فى الفصول الآتية واشتد النزاع .

وبينما تدور هذه الأدوار اذا بأنور ونيازى بطلى الحرية وغـيرهما من حماة حقيقتها وخلصانها يتدبرون ويفكرون . واذ كانوا تورثوا من نامق كمال وفضلاء زمانه قليل كتب وأخبار . بعثت نجدتهم وحثحثت نخوتهم جاءتهم هذه الصحف الحرة كالأدوية للمرضى . ولكنها شفتهم من داء الخمول وابتلتهم بداء العشق ، عشق الوطن وهو أقتل للأجساد وأحفظ للنفوس .

قد استشفيت من داء بداء　　　وأقتل ماأعلك ماشـفا كا

﴿ فرار مراد الطاغستانى ﴾

« من الآستانة الى مصر وسبب ذلك »

مراد رجل من أهالى طاغستان : هاجر من بلده قاصداً الى عاصمة السلطنة العثمانية وهو فى مقتبل عمره وعنفوان شبابه . لايملك من الدهر الا همومه ، يزجى راحلتى الفقر والأدب . وما كان الأديب صفة بل كان الأديب رغبة .

كان قدومه الآستانة فى صدارة المرحوم (محمد رشـدى باشا المترجم المعروف بالشروانلى) فى نحو سنة ١٢٩٣ . فلاذ بركن هذا الصدر واحتمى بجاهه وأقام ببابه وأكب على طلب العلم ما استطاع له طلباً . فأصاب منه حظاً غير قليل ونظر فى التاريخ فأحاط به علما واشتغل بالأدب فأجاد الكتابة حتى أنه ليعد من رجال الطبقة الثالثة بل الطبقة الثانية أقرب اليه . وجملة مايجوز أن يقال فيه أنه بعد أن أبطل له عبد الحميد جريدته (ميزان) التى كان يصدرها بالاستانة بسبب رثائه للاديب الاعظم نامق كمال . أدخل فى نظارة المعارف ثم أخذ يتدرج فى الترقى حتى انتهى الى وظيفة (قوميسير الديون العمومية) براتب شهرى لايقل عن المائتى ليرة . ولم يكن بعاصمة السلطنة العثمانية من يجهل شهرة مراد ولا من لا يثنى على حريته ويعجب ببيانه . وألوف من تلامذة (المكتب الملكى) أقاموا على تمجيده واطرائه اذ قرأوا عليه التاريخ وعرفوا منه أحوال من سلف من الأمم وعرفوا من كتابه

الذى ألفه لهم فى هذا الباب مترجماً أكثره من اللغة الروسية ما أتاهم بأجزل الفوائد .

ولقد نال مراد من اقبال عبد الحميد عليه وعنايته بأمره مارفعه فوق كثير من نظرائه والراجحين عليه . حتى خال العامة من العظماء أن قد حان لمراد أن يولى الصدارة .

فلما كانت المذبحة الأرمنية التى وقعت فى سنة ١٨٩٤ نقمها مراد فيمن نقمها من العثمانيين الأحرار ورأى الملك العثمانى رهينة مهالك لا تسهل تفديته منها . فكتب لائحة مطولة أبان فيها ضجرة العقلاء وسخطهم ولام السلطان لوماً لا يجرأ عليه كل امرىء ورفعها اليه وتحتها توقيعه وخاتمه . وكان مراد حمل لائحته الى قصر عبد الحميد ولم ينفذها مع أحد . فدفعها الى من دفعها اليه وقال له اخبر مولانا السلطان أنى مقيم هنا ببابه على انتظار ماتقضى به ارادته ويروى البعض أنه مثل فى حضرة السلطان فلقى عتابا رقيقا خاف على نفسه عاقبته وأيقن أن عبد الحميد لايتركها له وأنه اذا عاتب انسانا عاتبه فى حياته وضربه فى عمره . فخرج من بين يديه وهو غير آمل أنه ملاق أهله فما انتهى الى باب القصر الا تنفس تنفساً كادت تتصدع له أضالعه . فأسرع الى بيته واشتغل ليلته باتخاذ أهبته للسفر . فما أشرق الصباح الا ودع أهله وبنتيه وخرج متنكرا لائذاً بالهرب وسهل الله له أسبابه . فما أحس به أحد ولا علمت الحكومه المستبدة بهربه الا بعد أن أجاز ساحة سلطانها وبعد عن أيدى أعوانها .

ماخلت أن عبد الحميد وجد بفرار أحد من العظماء ماوجد بفرار مراد .

وذلك لأسباب منها مكان مراد بين رجال القلم وشهرته التى عرفه بها الخاصة والعامة وكثرة تلامذته وهم بلا ريبة على رأيه ووظيفته التى عرفه فيها كثيرون من الأجانب وأنها وظيفة ذات شأن فى الدولة العثمانية ثم وقوع هربه فى زمان اشتداد المشكلات بعد المذبحة الأرمنية . وقد قرأ عبد الحميد لائحته وعلم أن مراداً يعرف أشياء اذا هو وصفها ببيانه المألوف وأذاعها بين الناس أفسد على الظالم سياسة ظلمه . فاتقد الجبار غيظه وسقط فى يده .

أما العثمانيون فذهب كل جماعة منهم مذهباً واختلفوا فى ذلك أقوالا وآراء حتى لقد كان فيهم من ظن أن عبد الحميد أنفذه سراً فى حاجة يقضيها له فى البلاد الأجنبية وأنه تواطأ مع مراد على أن يكون سفره هربا مبالغة منه فى حفظ السر وكتمانه . الا أنهم عرفوا خطأ زعمهم بما رأوه من مطاردة السلطان حتى لمن كان يعرفه معرفة غير صميمية . فتفرقوا الى فريقين فريق يرى أن مراداً كافر نعمة وأنه خائن وأنه مدفوع الى عمله هذا بيد عدو فى ثياب صديق . وفريق يرى أن مراداً قام بما يجب عليه نحو وطنه وأن مثله بعيد عن أن تستهوى لبه المطامع وأن تستغويه الأهواء .

وأما الأجانب فقد أعجبوا بمراد وواقعته أيما اعجاب واعترفوا أنهم كانوا أساؤا الظن بالعثمانيين حين وصفوهم بالاذلاء الاغبياء الذين تتهلل نواجذهم كلما وقعت سياط المتغلبين على ظهورهم . وكان أكثر الناس فرحا وابتهاجا أصدقاؤنا الانكليز . فان فيهم من وهبه المال الجزيل عن طيب نفس وذلك الواهب الجواد هو ادارة جريدة (التيمس) المشهورة على مايقال .

﴿ حال الأحرار وجمعياتهم ﴾

« بعد هرب مراد من الآستانة »

ماوطئت قدم الطاغستانى أرض مصر الا ابتسمت ثغور الأحرار وانتعشت أرواحهم وتجددت آمالهم . فالتفوا حوله وحشدوا تحت رايته ورضوه لهم زعيما ولمذهبهم اماماً ولكتائبهم قائدا . وقالوا هو الصمصامة العضب لاتفل مضاربه ولا تقى دونه السابغات . ولما رام الكلام سكت لديه المتكلمون وأوسعوا له من مكان الأستاذ فظهر ولسان حاله يقول .

لقد علمت قيس بن غيلان أننى * اذا قلت (أما بعد) أنى خطيبها

فصدر العدد الأول من (ميزان) باللغة التركية يقل معانى كالوحى فى ألفاظ كالرسل، تتلى على الظالم فيخشع لها قلبه وتزور جوانبه . ونقلت بعض الصحف الكبيرة فى مصر وغيرها فصولا كثيرة من فصوله وكاد يتعزى الاحرار بمراد عن كمال وبدا الخذلان فى جانب من يعارضون الأحرار ويكذبونهم (وكنت أنا من الفريق المخذول) . وجاءت الرسائل برقية وغير برقية تطالب فيها الحكومة العثمانية الحكومة المصرية باعادة مراد الى الآستانة أو طرده من مصر أو عدم الاذن له باصدار جريدة فيها . فلم ينل عبد الحميد من لجاجه سوى الفشل وسوء المصير والفضل فى ذلك للورد كرومر حبيب الأحرار ومصلح مصر ورجلها العظيم.

وقد كان فى ادارة جريدة (القانون الأساسى) خاتم منقوش عليه

باللغة التركية هذا الكلام: (عثمانلى اتحادو ترقى جمعيتى) ومعناه (جمعية الاتحاد والترقى العثمانية) . كان الأحرار يكتبون أوراقا فيها وعيد وانذار ينفذونها الى قصر عبد الحميد ليغيظوه وينغصوا عليه أيامه . وكم ورقة أرسلت مختومة بهذا الخاتم وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت. انخلع لها فؤاده وقضى بليلة سليم لاتبرئ أوجاعه رقى ابى الهدى ولا تمائمه . وانما حفر هذا الخاتم ليكون للجمعية التى كان يراد انشاؤها بمصر تابعة لجمعية (الاتحاد والترقى العثمانية) المؤسسة اذ ذاك بباريس . فسافر مراد الى اوربا وبقى الخاتم مهملا بمصر . وهذا يدل على أن هذا الاسم كان استنبط فى زمان الطاغستانى وأنه لم يكن لجمعية الاتحاد هيئة تابعة بمصر الا قبل اعلان الدستور ببعض السنين .

أسست جمعية تركيا الفتاة برئاسة مراد فلم تعمل عملاً يذكر . لأن مراداً كان قؤولاً ولم يكن فعولا . وانه ليبدو له الصواب فى رأى رآه غيره فلا يقره بل يجهد نفسه فى جرحه ورده أنفة منه أن يكون لآخر عليه حق التقدم فى فضل . سجية تلك فيه لايستطيع النزوع عنها . فلما انتظمت جمعيته أحب الاستبداد بالأمر ولم يرض أن يكون لغيره كلمة مسموعة . وكان اذا هم بعض الاعضاء ببيان رأى يراه فى عمل من الأعمال قاطعه وأومأ اليه بكفه يأمره بالسكوت . وبذا جانب كثير من الأحرار مراداً وشيعته ورابهم أمره وحذروا تقلبه . على أن الأحرار كبروا فى أعين الناس وبدت على أعمالهم بشائر الفوز واتخذهم عبد الحميد شغله الشاغل وهمه المبرح فسهر الليالى لكيدهم وتدبر الحيل للايقاع بهم وأحس من نفسه العجز عن الاستمرار على عداوتهم ولو دام لهم ذلك الصبر والجهاد لنالت الأمة العثمانية حريتها

من منذ ذلك العهد .

هذا والاجانب عن أعمال الأحرار كانوا يسمون حزبهم حزب (تركيا الفتاة) وكان العثمانيون يدعونهم بحزب (الژون ترك) أى الترك الفتيان . ولم يكن لاسم (جمعية الاتحاد والترقى العثمانية) شهرة ذائعة تسترعى الاسماع وتملأ القلوب الا فى أواخر أيام الاستبداد حين أخذت تخاطب الحكومات وتجهر بعداوتها للحكومة الحميدية .

على أن مراداً لم يحسن العمل الا فى انتقاد الحكومة المنقلبة . فقد أجاد فيما كتبه كل الاجادة وأخرس مناظريه . فكان الفضل فى كل عمل وان جل ودق راجعاً الى مراد دون رجاله وأنصاره وكان عالم العثمانية مطوياً فى شخصه . فلما فاز هو فاز حزبه ولما هزم هزموا معه . وليس من الصواب أن أقول هزم فقد كان فى مأمن من الهزيمة ولكن غلبه اليأس بتمادى الاجتهاد وأضجره طول الاغتراب وتجدد حنينه الى الأهل والسكن ثم ربما يكبره أن ينازعه فيه منازع . فقيل له فى العودة الى عاصمة الملك العثمانى وهو فى تلك الحال فأجاب بالرضى وأسلم نفسه وأنصاره وانقضى أمره .

﴿ وقع ما كتبه الأحرار ﴾

« على دوائر الظلم بالآستانة »

لم يهمل عبد الحميد شاردة ولا واردة مما كتبه الأحرار فى صحفهم وأسفارهم الا أحاط به خبراً وأحصاه عداً ونظر فيه وتأمل قريبه وبعيده وفكر في جليه وخفيه . فما رآه حجة عليه تلطف فى ازالته غير مظهر أنه أزاله خشية من هجاء الأحرار وما لم يكن كذلك تركه على أصله غير مبدل من حاله شيئاً . ولكن أمرين كانا شديدين على نفسه شهوة ولزوما : اعلان الدستور والتخلى عن الاستبداد . هذان أمران ماحدثته نفسه أن يرضى فيهما الله ولا عباده . وكان كلما ذكر له خصومه مثلبة من مثالبه غلت مراجله وهاج غضبه فى خوف تبدو على وجهه آثاره وان بالغ في تكتمه .

ولقد قال الأحرار فى صحفهم أنه منع الجرائد العثمانية عن ذكر اسم (محمد) عند الكلام على النبي (صلعم) وكان الأمر كذلك . ولكنه لما رآهم يكثرون من تعييره بهذا الأمر انتهى عنه وذكرت الجرائد بعد ذا اسم النبي صريحاً . وانما أراد بفعلته هذه تكذيبهم ليحدث الشك فى قلوب من يقرأون أقوال الأحرار ..

وقالوا عنه انه يخاف أبا الهدى لأن عنده صورة فتوى بخلعه مختومة بخاتم شيخ الاسلام المرحوم الشهير (عرياني زاده) وأن أكثر الداخلين في

الطريق الرفاعي ينتصرون لأبي الهدى . فلما بلغه قولهم هذا أضمر الشر لشيخه المحبوب . وفي ذات يوم أمر به فجاءه وبين يديه بعض الوزراء والمقرّبين . فقال له عبد الحميد : بلغني عنك أنك تُفهم الناس أني أخافك على نفسي وأنك تقدر على مناوأتي . هذا وأنت غرس نعمتي وان قدرك لأحط عن ان يسمو الى تراب قدميّ . ثم بصق على وجهه وأخرجه من حضرته وبقي بعد ذلك أبو الهدى شهوراً لا يُطرق له باب ولا يُوطأ له بساط .

ومن هذا القبيل ما أورده هنا على سبيل الفكاهة وتمة للفائدة. وهو أن عبد الحميد كان اتخذ (منيرا) سفير الدولة العلية في فرانسا سابقاً ، سيفاً يضرب به الأحرار . فكان سفيره وكان جاسوسه أيضاً . وكانت ظهرت في (جنيف) منذ عشرة سنين قبل الآن جريدة هزلية تصويرية باللغة التركية تدعى (به به روحي) . وصدر عدد من أعداد هذه الجريدة وفي الصحيفة الأولى منها صورة عبد الحميد وقد جلس على كرسيه وأمامه رجل من بطانته في يديه صندوق كبير عليه عدد كثير من طوابع البريد . وتحت الصورة هذه المحادثة :

حامل الصندوق — أرفع الى أعتاب مولاي الاعظم هذا الصندوق الذي أرسله عبده المخلص (منير بك) سفير الدولة بباريس . فقد أودعه كل ما استطاع جمعه من (الوريقات المضرة) التي ينشرها (الژون ترك) اعداء الدين والدولة لتصدر ارادته الشاهانية باحراقها .

عبد الحميد — لا تزال التجارب تزيدني كل يوم اعجاباً بمنير وثقة بولائه . وليت لي كثيرين مثله يغالبون أعدائي ويتقدمون اليّ بصدق الحب والولاء ،

فأجزل لهم المكافأة وأحبوهم المزيد . هلمّ الى هذا الصندوق وافتحه لأنظر ما فيه من عجائب هؤلاء الأغرار .

وفي الصحيفة الثانية من ذلك العدد، عبد الحميد وقد استلقى على ظهره فوق كرسيه وفتح ذراعيه وقطب حاجبيه وامتقع لونه وبرزت مقلتاه وانقلب وجهه فكأنه اسفنجية مبتلة والصندوق مفتوح وقد خرج منه صاحب (به به روحي) وفي يمينه مسدس يصوبه الى صدر عبد الحميد ورجل بطانته باهت عاض بسبابته . وتحت الصورة علامة الاستغراب تتلوها اصفار كثيرة هكذا :

. . . .

ولما وقعت هذه النسخة بيد عبد الحميد، كتب الى (منير) يأمره أن لا يرسل اليه صندوقا كما تقدم ذكره الا بعد أن يتحقق بنفسه مما فيه وأن يحكم قفله ويختم بخاتمه . ! ! ! . . . . . .

وكان لما يكتبه الأحرار وقع آخر في نفس عبد الحميد أدركه كل فطن عارف بأحواله ومختبر حقائقه . وذلك أن الأحرار كثيراً ما كانوا يشيعون في جرائدهم أنه مريض وأنه يودّ أن يعتزل الملك . فكان يبادر الى تكذيبهم في جرائده لأنه لم يكن يرضى أن يشاع عنه أنه مريض ولا انه على نية الاعتزال .

وكان الأحرار يختلقون أنباء لا أصل لها. فيكتبون في صحفهم ان فئة منهم على أحسن أهبة وسلاح سيظهرون قريباً بالآستانة. فتذهب جماعة منهم لاستخلاص السلطان مراد ، وكان معتقلا بقصر (چراغان) ، وتذهب جماعة

الى خلع عبد الحميد وسجنه مكان مراد . فتصل هذه الصحف الآستانة فتقوم لها القيامة ويشتد الهول ويطفق رجال الشرطة يتراكضون يمنة ويسرة صعداً وصبباً يطلبون تلك الفئة التي أخبرت عن ظهورها الجرائد الحرة فما رأوا نفرا متجمعين الا انقضوا عليهم وأمسكوا بتلابيبهم وجروهم الى رؤساء الشرطة يستنطقونهم . فكان هذا وما ماثله من الفصول المضحكة في مرسح الادارة الحميدية

وكان عبد الحميد وأعوانه يتسلون عن ادراك أمانيهم في جلب الاحرار والانتقام منهم بأن ينتقموا من اخوانهم الذين هم في قبضة أيديهم . فما اتهم أحد من أولئك المساكين بمراسلة الأحرار أو أخذ صحفهم أو الكلام عنهم تلميحاً أو تصريحاً الا أخذوه الى دار التعذيب فاثقلوا قيوده وشدوا وثاقه وأروه من صنوف الأذى مايقضي به نحبه بين أيديهم. وانما كان يجرأ عبد الحميد على تلامذة المدارس ممن لا يتوسم فيهم القدرة على الكتابة ولا على الهرب وكذلك من لاشهرة لهم من صغار المأمورين . أما الذين يبلغه عنهم أنهم من رجال القلم ومشاهير الكتاب فيكفيه منهم أن يتوعدهم ويبث لهم من يراقبهم ويأتيه أخبارهم. وربما ضاقت الحال ببعض الأدباء ولم يجد سبيلا لاستزادة راتبه فيكتب الى عبد الحميد يقول له : ان اشتداد الأزمة عليه ومراقبة الجواسيس له وتكاثر الأعداء يضطره الى ترك وطنه واختيار الغربة. وأن مثله لايعاني كبير كد في الاسترزاق بعلمه وفضله اذا يمم أرضاً يعيش في أكنافها أمثاله . فاذا اتصل هذا الوعيد المستظرف بالملك الأحمر بادر لوقته فاستدعى المتوعد الى قصره وأجزل عطاءه ورفع درجته ووعده خيراً .

كان فخري بك المصري متهماً عند السلطان بأنه من حزب تركيا الفتاة. ولقد سأل السلطان مراراً واستعطفه كثيراً ليأذن له بالسفر الى مصر ليصلح شؤونه ويتعهد أراضيه وأملاكه . فظن السلطان أن فخري بك يريد السفر ليتحد مع الأحرار في محاربته . واذ كان فخري من أهل الثراء والفضل أيقن عبد الحميد بصحة ظنه . فلما زار الآستانة سمو الخديو في سنة من السنين توسط في الاستئذان لفخري بك فنال الاذن وأحضره معه على يخت المحروسة فانتبه لذلك أحد الادباء الفقراء ورأى فرصة لاتسنح كثيراً. فاستكتب أحد المصريين الذين كانوا هربوا من مصر الى الآستانة تقريراً يقول فيه للسلطان ان الكاتب المعروف فلاناً كتب كتاباً الى فخري بك المصري يعده فيه بالسفر ليلحق به . وأن قد جعل فخري راتب ذلك الكاتب عشرين جنيهاً شهرياً وأن الكاتب على أهبة السفر. وقال اذا كان أمير المؤمنين يشك في صدق عبده هذا فما عليه الا أن يصدر أمره الى ادارة البريد العثماني في (غلطة) ولا يلبث أن يؤتى له بذلك الكتاب . فأخذ المصري المتجسس تقريره ورفعه الى عبد الغني (اغا دار السعادة) اذ ذاك . فصدرت الارادة الى ادارة البريد وجيء بالكتاب وظهر صدق الجاسوس. فجاءه شكر من السلطان على اخلاصه ولم يحسن عليه بعطية أبداً . وجيء أيضاً بالأديب المتهم وسئل عن الأمر فاعترف معتذراً بشدة الحاجة وما يعانيه من ضيق ذات يده . فأمر له السلطان بعطية سنية قدرها خمسون جنيهاً وأدخله في ادارة الأملاك السنية براتب لا يقل عن العشرين جنيهاً . فلما بلغ الجاسوس ما جرى أسرع الى صاحبه فهنأه وطلب له المزيد ثم قال له :

كنت — وعدتني بأن تعطيني نصف ماتأخذه من السلطان. وقد أخذت خمسين جنيهاً . فهات لي النصف .

الكاتب — لم يجر بيننا كلام مثل هذا واني لأنهاك أن تعود الى مطالبتي بما ليس من حقك .

ففارقه الجاسوس ساخطاً ناقماً وذهب من ساعته الى قصر عبد الحميد وأخبر عبد الغني أن ما أتاه به أول مرة كان تواطؤاً بينه وبين الكاتب وأن لا مخابرة بينه وبين فخزي بك . فلم يجده اعترافه هذا نفعاً ولم يلحق بالكاتب ضررا وخرج من القصر مطروداً وما بقي له الا اثم التجسس .

ولما استمر مراد الطاغستاني على اصدار (ميزان) بمصر ثم (جنيف) ونشر في جريدته أحاديث جرت في (يلديز) بين خاصة عبد الحميد وأخذ يسمو الى أن نشر أحاديث جرت بين عبد الحميد نفسه وبين مقربيه غير مضيع منها حرفاً، كبر الأمر على المستبد وعلى رجاله فداخله الريب حتى في أمنائه وشك المقربون بعضهم في بعض وزادت الوشايات عن ذي قبل . فلا الصديق يثق بصديقه ولا الوالد يأمن على سره ولده وعظم الوجل واشتد الحرص في القلوب . فلما كثرت الظنون وتنوعت أخذ البعض يذهب الى أن لمراد رجالا حتى في قصر السلطان يوافونه باخباره. وزعم بعضهم أن بالآستانة بل بقصر الملك جمعية خفية تتآمر على اغتيال عبد الحميد. فمن قائل ان ولي العهد هو رئيس تلك الجمعية لا بل رئيسها هو المشير فلان أو الوزير فلان وكثرت تقارير الجواسيس على عبد الحميد الى أن عجز عن استيفاء قراءتها كلها

وقد طمحت نفس الاستبداد الى اكثر مما تقدم. وذلك ان عبد الحميد

كان اشتري بعض الصحف الأوروبية والعثمانية وخصص لأصحابها رواتب لتدافع عنه وتحارب له الأحرار . وهذه الجرائد المشتراة بدماء العثمانيين لتكذب على العثمانيين وتمتهن العثمانيين موجودة الى اليوم لم تحتجب منها الا قليلات كانت تبدو بمصر . وكان أصحاب هذه الجرائد يذهبون الى الآستانة كل عام فيقضون بها أياماً وشهورا يحتالون على عبد الحميد فيسرقون دراهمه ويحتال هو عليهم فيسرق قلوبهم وكل يظن أنه يغش صاحبه وكل صادق وكل كاذب نفسه الا أن عبد الحميد انتصر على الأحرار بهذه الجرائد . فلقد احتقرها أكثر الناس استخفافاً بأربابها ورموها تحت أقدامهم . ولكن الذين فعلوا ذلك هم العارفون بمن يصدرونها ، الواقفون على أحوالهم وسيرهم . اما القاطنون في البلاد البعيدة ممن كانت ترسل اليهم ولم يعرفوا عن أصحابها الا مايرونها على رأس الجريدة كقولهم (صاحب الامتياز هو سعادة فلان) أو (يقوم بتحرير هذه الجريدة هيئة من مشاهير الكتاب ورجال السياسة الخ الخ ...) فلا عجب اذا انخدعوا بهذه الالقاب والجمل الساحرة . والعثمانيون القاطنون صميم الاناطولي أقرب خلق الله الى الانخداع .

اضطر عبد الحميد وأعوانه الى ركوب هذا الشطط تخوفه من جرائد الأحرار ثم تألمه مما كان يكتب فيها عنه .

وقد شاهد المنقطعون الى تحقيق الأمور أن أكثر المأمورين العثمانيين كانوا يستحون مما يكتبه فيهم الأحرار وما يصفونهم به من الخمول والجهل والتذلل الى الرؤساء وعدم المعرفة بما عهد . فكان منهم عمال ألا اليهم من



صاحب القانون الاساسى العثمانى وشهيد الحرية

مدحت باشا

من يجهد نفسه لكى لايصدق فيه مايقوله الأحرار وكان منهم من يقول هؤلاء أعداء الخليفة والمسلمين . هم أنصار الفرنجة يريدون أن نصبح كلنا مجردين من الدين . فيجب ان لانلتفت الى أقوالهم ولا الى مفترياتهم .

ولما بدت على وجوه المأمورين وكبار رجال الدولة آثار الخوف والوجل

مما يكتبه مراد فى (ميزانه) ويكتبه غيره من الأحرار فى جرائدهم انتبه لذلك بعض الشبان ممن زاد نصيبهم من التعلم وأوتوا الذكاء. ففر كثير منهم الى الأقطار الأجنبية والى مصر التى كانت مهبط ملائكة الحرية وشاركوا اخوانهم المجاهدين فى جهادهم وبقى غيرهم بالآستانة ليوافوهم بمايتجدد فيها من النبإ اليقين . فكان هؤلاء المجاهدون مقيمين فى وسط النار تحرق ماحولهم ولا يصيبهم منها سوى حرق تبقى أياما ثم تزول . وقد يذهب منهم وقوداً لها من يذهب . وبهؤلاء ملئت السجون ومواطن النفى ولقبهم العاتون المتعصبون لقابا وسموهم أسماء ونعتوهم نعوتاً : فقالوا المتفرنجون والكافرون وأعداء الدولة والدين وأضحى شقاؤهم فى الولايات أشد . فكان الولاة وأكثر رجال الحكومة يضربونهم ويحبسونهم . وقد يهدرون دماءهم ويبيحون للناس نهبهم ويذلونهم اذلالا . وفى ظلم انيس باشا أحد ولاة (قسطمونى) سابقاً واعتدائه على المنفيين عبرة للسائلين .

أبو الهدى

بالآستانة وبمصر

رجل نشأ في (خان شيخون) وهو اسم قرية من قرى حلب . مجهول النسب والحسب . فقيراً من المال والعلم . لا نصير له الا عقل ما يجلى شعاعه على داجية معضلة الا أنارها وسيم المحيّا طلقه ، فتي العزيمة ماضيها ؛ طموح النفس الى كل سؤدد ، صبور على المكاره ، اذا نال جشع واذا حرم شبع ، لطيف ظريف . لا يمل مجلسه ، شمائله أندى من الزهر ، وهيبته أعظم من هيبة السبع ، اذا تقاعس تحالم واذا قدر بطش غير راحم ، يبدى على صفحته مايريد ويكن في ضميره مايريد ، لا يخذله تلون ولا تلجلج ، لجام نفسه بيده يصرفها كيف يشاء وأنى يشاء . ذاك هو أبو الهدى المعروف عند العثمانيين والمصريين

ادعى النسب وربط أسلافه ببيوتات وبطون كثيرة . فهو رفاعي خالدي قرشي هاشمي علوي . ثم غساني تبعي . ثم عالم فقيه نحوي لغوي أديب مؤرخ متصوف فيلسوف فلكي طبيب عراف ولي شاعر كاتب سياسي اداري مالي عسكري بحري بري . ثم هو مستبد جاسوس وحر دستوري فاسق تقي مبذر ممسك جبان شجاع قوي ضعيف حبيب عدو خائن وفي يتقلب في هذه النعوت والصفات ، مابين غمضة عين وانتباهتها . ولولا خوف الهجر

لقلنا انه كل يوم في شأن

أحرز أشرف الألقاب فقيل له (صاحب السماحة والسيادة) وكني بأجمل الكنى . فدعى (مستشار الملك حامي العثمانيين - سيد العرب .) ولكن غلبت سورة الحق على كل هـذه الأباطيل وسمي (أبا الضلال) فبقي له هذا الاسم صفة حتى لقي به ربه .

وليس ببعيد أن يكون أبو الهدى ولد مطبوعا على الخير راغبا في المعالي فسلك الطريق اليها كما أراد وكما أراه عقله . ولعله كان يظل مقيما على الانصاف لو وجد منهم الانصاف . ولكن كثر مزاحموه وجم حاسدوه فاضطر الى محاربتهم غيرة على أربه وحفظا لحياته . وهو في دهائه ووفرة تجاربه عالم بأن نعم الملوك تتكنفها النقم . فنازل أعداءه منازلة لا مشفق ولا آمن وأيقن أنه ان غفل عنهم برهة دبروا له من المكايد مايذهب بعزه ويقصيه عن سلطانه فجعل كلما أتاه منهم شر أرسل عليهم مثله . دقة بدقة . وماتشمر لحربه الا كبار الرجال من أهل الحظوة عند السلطان . فما زال بهم حتى بزّهم واحداً واحداً وبقي مكانه كالطود الراسخ لا تزعزع قواعده الصروف ولا ترقى اليه الهمم

استمال فريقاً من الرجال منهم الأمراء وأهل الثروة وذوو الحكم في البلاد . فأظهر لهم الود واستعمل قدرتهم في أغراضه . ووفد عليه العلماء والشعراء والكتاب يستعينون به على قضاء حوائجهم . فأخذ بناصرهم وأكرم وفادتهم وأدنى منه مجلسهم . فكان منهم من يؤلفون الأسفار ويعزونها اليه . ومنهم من ينظمون الأشعار ويروونها عنه . فتناقلت الألسن مابدا من فضله المتزود

به وسهت الأفكار عن نقصه الكمين فيه . على أني لا أقول نقصه . ومن أين لنا أنه كان ناقصا ؟ وهل يقدم أكثر الناس على المكاره الا مضطرين وان كان منهم من يتشهاها ويستهتر بها ؟ على أن ضرورات الحياة أشقت أبا الهدى من حيث أسعدته وحطته من حيث رفعته فعاش وهو حبيب الناس عدوهم . وألف الحيل لما رأى حياته ونشبه لا يسلمان الا بها . وقلت ثقته بالناس وقلت رغبته في مصافاتهم . فعاش وأشد الناس ملازمة له أشدهم خوفا منه .

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى * عدوا له مامن صداقته بد

أتى على أبي الهدى حين من الدهر يفزع اسمه الولاة على مقاعد ولاياتهم ويرهب الوزراء بل الصدور وهم على أرائك حكومتهم : ينفذ الى أحدهم وصاة في أمر لا يجرأ عليه غيره ولا تجيزه قوانين الدولة ولا يرضى به عبد الحميد . فلا يستطيع أحد أن يظهر له مخالفة ولا أن يضمر في نفسه مماطلة . وكم أمر السلطان أمراً وأبطله أبو الهدى وكم شكا الرجال كثرة ما يقترح لهم فما أفادهم ذلك ولا ضره . وكان عبد الحميد (يقول) عجبت لهؤلاء الخونة الذين يحسدون شيخي وليس فيهم من يليق به أن يكون من خدامه . يكتب الى الواحد منهم كتابا يطلب من فيه بدرة مال أو رتبة لا تكاد تذكر وهو مع ذلك يتعسف الحيل ولا يهتدى اليها سبيلا أما أبو الهدى فان سألني سألني عن ثقة وظرف ولا يتدنى بقدره الى طلب ما يكون مشاعا يمكن أن ينازعه فيه غيره بل يطلب مني ما يفتخر الشريف بنيله. فهو الأمير وأولئك هم الصعاليك .)

وما زال أبو الهدى مجدا في طلب خصومه وهو كلما أدرك واحدا جلد به الأرض وداسه بقدميه ، فلا يقوم بعدها أبدا . حتى سخر الله له عزت العابد فثبت أمامه وناوأه في وجهه. فكانا ككفتي الميزان اذا رجح أحدهما خف صاحبه . اشتدت وطأة كل منهما على الآخر وضاعت بينهما مصالح الأمة والدولة . وانقسم عامة الناس الى حزبين أحدهما هدائي وثانيهما عزتي فما يبرم هذا أمراً الا ينقضه ذاك . ولا يفتح ذاك بابا الا يغلقه هذا. ولما رأى الناس من العابد ثبات قدمه في مصاولة أبي الهدى جنحوا اليه بآمالهم ولاذوا بركنه عند فزعهم وسر بذلك عبد الحميد . فاتخذ كلا من المتفاضلين رقيباً على مفاضله. ورأى سائر أعداء أبي الهدى أن لا يختلفوا في محاربته فاتحدوا عليه ورضوا بعزت العابد زعيما فساروا تحت رايته وعملوا برأيه حتى كادوا يغلبون الصيادي ويزيحونه من طريقهم .

أما أبو الهدى فقد قرع باب السعادة في أول أمره داعياً باسم الدين وسار في طريق حياته سالكا مسلك المتصوفين . فكان يأتي عبد الحميد كل يوم بعجيبة من العجائب. فآونة يبلغه سلام النبي وحيناً يقص عليه رؤيا يزعم انه رآها ويفسرها له على ما يلائم هواه ويرضيه ثم يدعي لأبيه ولنفسه كرامات لا وجود لها . وكان عبد الحميد محباً لهذه الأشياء ويظن أنها من أقرب الوسائل الى استدامة حكمه غير أن أبا الهدى تعدى ما كان رسم له فأفهم سيده أن السالكين طريقة الرفاعي من دراويشه كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها وأنهم يجلونه ويتفانون في حبه وأنه اذا نابه أمر قاموا عن بكرة أبيهم انتصاراً له. فكان عبد الحميد يسمع ذلك فيصدقه أو يضطر عقله الى

تصديقه لأمر يعلمه هو . ولـكن حيل أبي الهدى تعدت السلطان الى غيره فـكان له رجال يبتدعون له الـكرامات وينتحلون المعجزات لأبيه . ولقد روى لي الـكاتب المصرى الشهير المرحوم ابراهيم بك المويلحى نادرة منها قال : كنت ذات يوم عند أبي الهدى وقد غص مجلسه بقوم من أصحابه وشيعته وكلهم جُلوسٌ كان على رؤوسهم الطير . فأخذ أبو الهدى يحدثنا بأمر وقع لأبيـه قال : رحمة الله على سـيدى الوالد ما أظرف ما كانت تصدق به كراماته . خرج ذات يوم شديد الهاجرة فى حلب يريد التنزه . فاشتد عليه القيظ وعلم أنه لم يصب فى اختيار وقت النزهـة . فانثنى راجعاً الى باب داره حتى اذا وافاه جلس على عتَبته من فرط ما أصابه من التعب وأخرج منديلا له وجعل يمسح به عرقه المتصبب على جبينه . وانه لـكذلك اذا برجل يقود حماراً له عليه زنبيلان مملوآن خياراً . فاشتهت نفس سيدى الوالد من ذلك الخيار وسأل البائع أن يزن له منه رطلين. والرطل الحلبي يساوي أقتين ونصفاً . ففعل الرجل ولما انتهى من وزن الخيار وأخذ ثمنه وهمّ بالانصراف ، التفت. فما راعه الا زنبيلاه وليس فيهما ولا خيارة واحدة . فأخذ الرجل ينوح وينتحب ويقول أين ذهب هذا الخيار لم يمرّ بنا أحد فنقول سرقه فتبسم سيدي الوالد وقال كم كان بزنبيليك من الخيار .قال الرجل سبعون رطلا. فدفع اليه سيدى الوالد ثمنه وقال أنا أكلته. فنظر الرجل فى وجه الوالد ملياً ثم صاح والله انك لقطب الزمان وغوثه وانـكب على قدميه يقبلها. فطيب الوالد الرجل وقال لا عليك بأس . ولـكن عاهدني أن لا تبوح بما رأيت لأحد. فعاهده الرجل على ذلك ومضى في شأنه . قال المويلحى فما أتم أبو الهـدى كلامه الا نهض رجل فى

أخريات الجالسين وقال يامولاى عفواً انه لم يكن بالزنبيلين سبعون رطلا بل خمسة وتسعون كما أخبرني به البائع نفسه قال أبو الهدى لله أنت. ما أحفظ قلبك ، والله لقـد أنسانا الزمان ذلك قلت للمويلحى يا ابراهيم بك هذه ليست بكرامة. واذا صحت الرواية فأبو أبي الهدى جمل أو ثور وليس بغوث ولا شيطان .

وقد كتبت وأنا بالآستانة رسالة صغيرة طبعت بمصر سميتها (الخافى والبادى من فضائح الصيادى) ذكرت فيها أشياء كثيرة من هـذا القبيل لا أرى بي حاجة الى استعادتها هنا .

وكما انتصر أبو الهـدى على خصومه بالوشايات انتصر عليهم بالجرائد . فوجه الى مصر فى نحو سنة ١٨٩٢ رجلا من دراويشه اسمه السيد كمال الدين الدمشقى . فأتى هذا الرجل الى مصر محملا بالمال مصحوبا برعاية أبي الهدى وقوته . وكان خليعاً ظريفاً وسيم المحياء يمشي وكأنه مروحة فى يد الحسناء . فأصدر كمال الدين جريدة القاهرة التى أسسها سليم فارس ثم نشرها من بعده محمد عارف الـكاتب الشهير . فـكأن خيبة الجد استكثرت على (القاهرة) سابق (مجدها) فأرادت أن تنزلها بعد الرفعة الى أسفل الدركات . فأخذت تنشر جريدة القاهرة كل أسبوع بعـد أن كانت تنشر كل يوم . وسودت صفحاتها بمقالات الدراويش وأهل المجون بعد أن كانت ترصعها باللآلىء اقلام مشاهير الـكتاب فى عهد سليم فارس ومحمد عارف وأتتها قصائد الصوفية مطولة باردة مظلمة كليالى الشتاء .

وقد اشتغلت الدسائس بين مصر والآستانة . فأخذ كثير من الأغنياء



أشعر شعراء الترك وأكتب كتابهم الأديب الأعظم
نامق كمال بك الشهير

يحبون كمال الدين المال ويتخذونه شفيعا الى أبى الهدى فى استجلاب رتبة أو وسام أو قضاء حاجة دخلت فيها المشكلات . وأخذت جماعة من رجال عزت العابد تنتصر بالمعية وأخذت المعية تطارد كمال الدين . وبذا عرف المصريون من مكانة أبى الهدى مالم يعرفوا من قبل . فأقبلوا على سفيره المعمم يمشون وراءه . ودخل أبو الهدى أبوابا لم تكن تنفتح له لولا جريدته ودرويشه . فقصد اليه المتنازعون مع المعية فى أمر جزيرة طاشيوز وتحملوا اليه الدراهم ويممه أصحاب وقف العلماء في قضية الأزهر ثم تاجر بالرتب والنياشين

فربحت تجارته.

وكان المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى صديقاً لأبى الهدى . وكان كل يخاطب صاحبه بيا ابن العم ولا يصبر أحدهما على فراق الثانى يوماً واحداً. فسعى بينهما بالنميمة عبدالله النديم حتى تنافرا وبلغت منهما العداوة والبغضاء أن بات كل يطلب موت بغيضه . ومن هنا بدأت الحروب الصيادية وتنازل القرنان . ولولا أن المنية تداركت الأفغانى لظلت الحرب الى يوم اعلان الدستور . وسيأتى الكلام على هذه الوقائع فى فصل خاص بها.

ولقد نفع أبا الهدى كثرة حاسديه . فاتخذ فرط بغضهم له برهانا على اخلاصه لعبد الحميد وجعل يوهمه أنه لو كان خائنا مثلهم لما أبغضوه . وما أراح ذلك عبد الحميد ولكنه أظهر الارتياح . فصاحبه على ريبة من أمره ثم خافه على نفسه . فبات يدبر له مايرديه . غير أن أبا الهدى أحس بالشر وعلم أنه ان وقع مرة لن تقوم له بعدها قائمة . فأسر الى قوم يعلم أنهم لن يحفظوا له سرا ، أن عنده صورة فتوى بخلع عبد الحميد من شيخ الاسلام المرحوم عرياني زاده مكتوبة بخطه مذيلة بخاتمه وأنه لاينشرها الا اذا أوجس على نفسه خيفة . فنقل هذا الكلام الى عبد الحميد . فهاجت له وساوسه واستطال سهاده وحال بين أبى الهدى والهلاك . وكان أبو الهدى كثير الدالة على سيده . فكثيراً ماقاطعه أسابيع لا يطأ فيها بساطاً له. واذا كتب يسأله عن أمر لايرد عليه جوابا حتي يسترضيه سيده بحاجة يقضيها له .

وكان أبو الهدى يركن فى الشدائد الى رأى ابنه حسن خالد بك وهو شاب ظريف سهل الخلق ذكى الفؤاد حاضر البديهة يشبه أباه وجهاً لولا

لحية كثة كست عارضى أبيه ولم تنبت بعارضيه . جرت عادة هذا الشاب
أن يذهب الى قصر يلديز ويطوف بدوائره ويتجسس على رجال القصر كلهم.
وقد برع في استراق السمع واختلاس ما يكتب بنظرة ترتد اليه بعد ما ترود
خلال كتب الغيب فيرجع الى أبيه وعنده النبأ اليقين بما كان وبما يكون .

وكان لأبي الهدى جاسوس آخر اسمه جميل ، حلبي الاصل . زوجوه
جارية من جوارى عبد الحميد واستخدموه بادارة الجمارك (امانة الرسومات)
وجعلوا له راتبا للتجسس. فكان هذا الرجل لا يرفع وشاية الى عبد الحميد الا
باستشارة الصيادى . فأمسى الصيادى وله جاسوسان أحدهما ابنه يأتيه بأنباء
سيده وثانيهما جميل الحلبي ينقل عنه الى عبد الحميد ما يتفقان على نقله .

على أن أبا الهدى مع ما ذكرته عنه من تعدد موارد رزقه وتيسر الكسب
له لم يكن ذا وفر بل كان كثير الديون ، اذ اضطرته مواقفه مع خصومه
الى الاستمرار على التبذير . ثم كلفه بالتشبه بأهل السماحة واظهار الأريحية
والجرى على سنن الكبراء من السلف فى اجازة المادحين وفتح باب داره
للقاصدين من الضيوف والدراويش كان يستنفد ما فى خزانته . فيقترض من
رجل صيرفي اسمه توفيق افندى الداغستانى . هذا ولم ينل صلة من عبد
الحميد الا فرقها على الخاصة من شيعته القائمين بأمر دعوته .

ماذا كان يريد أبو الهدى

ذهب كثير من الناس الى أن أبا الهدى كان يريد أن يجعل نفسه خليفة
وأن يجعل الخلافة فى العرب كما كانت . وهذا افتراء محض . أجل كانت نفس

الصيادى طامحة لكل ما يعليه كما أسلفت فى الفصل المتقدم ، ولكن نفسه لم
تحدثه بشيء من ذلك . فقد عرف خطر هذا الأمر ومسافة بعده عن الامكان.
وانما هاجه أعداؤه بمثل هذه الأقاويل طلبا للايقاع به وافصائه عن عبد
الحميد . وما غاظ أبا الهدى أحد مثل كاتب هذا الكتاب . وقد قلت فيه ما لم
يقل غيري وزعمت أنه كان يسعى فى قلب الخلافة والاستئثار بها . ولكنه
زعم ليس بصحيح وانما أردت أن يبعد عن عبد الحميد ويخف ضرره عن الدولة.

وكان أحب الأشياء الى أبي الهدى أن يصير شيخ الاسلام . لأن
صاحب هذا المقام له التصرف المطلق فى نصب القضاة وعزلهم وفيه من
الوسائل لاستجلاب الدراهم مالا يتحصل فى مقام غيره . ولأبى الهدى
دراويش ومادحون يحب أن يقلدهم مناصب رفيعة فى الولايات ليكسبوا
فيها ويكسبوه معهم . ولكن عبد الحميد لم يسمح له هذا السماح ووقف
وسواسه بينه وبين أمانى شيخه المحبوب . على أن أبا الهدى عاش ما عاش
غير يائس من الفوز بمأربه .

ثم الخلافة ، وهى الملك فى عرف أهل البدعة والتعصب ، لا يحلم بها
أبو الهدى ومن هم على شاكلته من رجال التصوف . فهم قوم يميلون الى
اظهار النسك فى أنهارهم وادخار اللذات الى لياليهم . ولأحب اليهم أن
يقال فيهم انهم أهل الله ومقربوه ومن لا يرد لهم دعاء ومن جعل الأكوان
وما بها من حى وجامد طوع مشيئاتهم . والولى ينفع الخليفة ويضره ويرفع
البلاد ويضعها وليس الخليفة كذلك . وأهل التصوف يبدون الورع ويسرون
الطمع . فهم يأكلون ويشربون خفية . فاذا هم جلسوا الى طالبيهم ادعوا

الصوم وتنزهوا عن مشاركة الناس فى حالاتهم من ضرورة الأكل والشرب والنوم . وكيف كان يقنع أبو الهدى بأن يكون خليفة على العرب وهو يدعى أنه يفعل مايريد بالرغم من الخلفاء ودول الأرض كلها . أما طمعه فى أن يكون شيخ الاسلام فذلك لكى يقال انه رجل كلف بخدمة الدين ، ذو وجد بنصرة الشرع فيزيد الناس فتنة بظاهر ورعه ويزيد الناس فتنة بجاهه وحبائه .

أكبر برهان على صدق ما أقول أن أبا الهدى لم يخاصم من الصدور ورجال الدولة الا من أبوا الانقياد الى رغائبه من استخدام تابعيه أو من بدأوا بعداوته . أما رجال التصوف والمنتحلون العلم فقد شن عليهم الغارات وانزل بهم البلاء ، ولو لم يتعرضوا له بعدوان . وذلك بأن هؤلاء مشاركون له فى الصفات التى يحب التفرد بها .

كان الشيخ محمد ظافر المدنى رحمة الله عليه رجلا جاهلا . وانه لأشبه الناس برؤساء الصوفيين الذين نراهم فى القطر المصرى ويسمون أنفسهم مشائخ السجادة . وكان من رؤساء طريقة صوفية اسمها الشاذلية . عرف بالصلاح واجتناب الزخارف وحب التواضع . وقد اتصل بعبد الحميد فى ولاية عهده أيام كان عبد العزيز سلطاناً على العثمانيين . فلما ولى الملك عبد الحميد زاد حباً للشيخ ظافر وأجزل عطاءه وشاد له تكية هى باقية الى اليوم على يسار الطريق الموصل الى قصر (يلديز) . وربما جاء ذكر الشيخ ظافر فى أحد الفصول الآتية . هذا الشيخ المسكين كابد من أبى الهدى مالا يدخل تحت الحصر . ولولا مكانته عند عبد الحميد وانتصار جماعة من أعداء أبى الهدى له لحل به من البلاء العظيم ماحل بغيره . وقد اتحد مصطفى ظافر بن الشيخ ظافر

وسائر اخوته وعمه المرحوم الشيخ حمزة مع عزت العابد فأمكن له أن يقاوم أبا الهدى ويقف أمامه طول أيام حياته .

وقد وقع لأبى الهدى مع الشيخ أسعد وكيل الفراشة رحمه الله أكثر مما وقع له مع الشيخ ظافر . فقد نال أسعد من الحظوة لدى عبد الحميد ما لم ينله أحد قبله وفاقه فيه أبو الهدى بعده . ولعل من سيقرأون كتابى هذا من المصريين لايعرفون أسعد الذى أتى ذكره عرضاً فى هذه السطور . ولولا أن ذكره خارج عما نحن بصدده لأجملته لهم فى كلمات. ولكننى أقول لهم ان هذا الرجل يعرفه العرابى وبعض الخاصة من حزبه . فقد كان يكاتب العرابى ويعده بجعل الخديوية وقفا عليه ومن يتلوه من ذريته ويبلغه سلام عبد الحميد ورضاه . وقد أصاب أسعد جنون فى عقله لم يعش بعده كثيراً ومات وأنا بالآستانة .

وكان الشيخ الجربى قصد الى الآستانة فى احدى السنين . ويعرف المصريون ما اتصف به الجربى من حسن المنطق وجودة القريحة وبيان الأسلوب . فلما اتصل ذلك بأبى الهدى همه وأورثه القلق وخاف أن يطول بالآستانة مقامه فينال حظوة عند عبد الحميد ويتغلب عليه . فبادر من ساعته الى القصر السلطانى وما خرج منه الا وصدر الأمر باقصاء الجربى عن الآستانة .

ولان اشتغل أبو الهدى في كثير من أوقاته بمهام الملك فاذلك الا ليقول عبد الحميد ان الله آتى هذا الرجل من علم كل شىء أوفر نصيب . وكان يقول لكثير من الناس لو شئت لكلمت الطيور وساميتها اذ تحلق فى الجو

وخاطبت النمال ودعوت الوحوش فأجابت . كل هذا أراد به ادعاء الولاية والحظوة عند خلاق الكائنات . وكثيراً ماتباهى برجل يسميه سيدى القطب المهدي الرواس . يقول ان هذا القطب كان أستاذه وانه لقنه كل مايعلم واتخذه صاحباً لما رأى فيه من مخايل الذكاء . وذكر أن قطبه الرواس تفرس وجهه ذات يوم فقال على البديهة :

ان خافيك الذى غيبته * هو باد ظاهر فى حاضرك
اجل قلباً فى حمانا اننا * نحن قمنا بالذى فى خاطرك

فقلت ماالذى أراد بقوله (قمنا بالذى فى خاطرك) ؛ قال أرادمالا ينبغى أن تعلمه لا أنت ولا أمثالك .

هذا الملك الروحانى المدعى هو أكبر عند جميع المحتالين من أهل التصوف من الملك الدنيوى. فقد قضوا على ملوك البلاد أن يمتثلوا لأشاراتهم وأن يرفعوا أقدارهم وأن يهابوا جانبهم وما خاطبوا ملوك الاسلام اذ خاطبوهم الا زعموا أن الله تعالى أوحى اليهم بذلك وعقلاء الشرق هم رجال الطبقة المتوسطة بين الملوك والسوقة . قليل مابقى بالشرق من علم هو مقسم بينهم . أما الملوك والسوقة فتساوون علما وفهما . واذا امتاز الملوك عن اخوانهم السوقة فى أشياء من السياسة فذلك محمول على كثرة معاناتها وتجريبها والاضطرار الى ممارستها . وقد رأيت من جهلاء الناس غير المنقطعين الى العبادة كثيرين لا يصدقون أكاذيب مشايخ الصوفية .

ومما لا أرى بأساً من ذكره فى هذا الفصل أن أبا الهدى عثر فى مكتبة (آيا صوفيا) على شىء من الجفر المنظوم . ذكر فى أوله أنه كان من

محفوظات السلطان مراد الرابع . فطاب أبو الهدى بهذا الكتاب نفساً وأخذه من المكتبة واحتفظ عليه . فلما كانت المذبحة الأرمنية التى وقعت فى سنة ١٨٩٤ رفع هذا الكتاب بنفسه الى عبد الحميد واذا فيه اشارة بالحمرة على بيت من الشعر هو هذا :

ويحترق الأرمنى الخبيث * بما كان أضمره فاستعر

فكان هذا معواناً لعبد الحميد على الجهل . فقد شد به عزيمته وأمضى مضاربه وباء بحسن الجزاء من عدو الناس وجزارهم وظهر لمن اتبعه من الجاهلين ظهور الأولياء .

أجل تكلم أبو الهدى كثيراً فى أمر الخلافة حين حفلت مجالسه وأقبل عليه بالسمع أشياعه . فقال ان الخلافة كانت عربية وينبغى أن تبقى عربية ولم يبال بمن ينقل عنه هذا الكلام الى عبد الحميد . وهذا غاية فى المكر . ود أن يرتاب عبد الحميد فى أمره ويتوهم أنه يعمل على غصب الخلافة منه ليزداد خوفا وليعيش معه على المسالمة . هذا وأبو الهدى أعلم الناس بأمر الخلافة وبعده عنها . ثم لم يكن كلفا بها كلفه بادعاء الكرامة .

وما كان أكثرنى تعجباً من دراويشه حين يذكرون له كرامات لا يصح تصديقها فى مثل هذا العصر . زاعمين أنهم رأوها رأى العين . أخبرنى كمال الدين الدمشقى أن العقارب فى بيت أبى الهدى لا تؤذى أحداً وأنه نهى دراويشه عن قتلها . فقال دعوها لن يصيبكم منها أذى . وقال كثيراً ماننام الليل وفى فراش الواحد منا واحدة او ثنتان من العقارب ولا يخطر لنا على بال أنها ستؤذينا . وحدثنى أبو الخير وهو خليفة أبى الهدى قال بينا نحن مع

السيد فى أحد أذ كاره اذ أخذته سكرة فعمد الى حسام كان على الأرض فأغمده فى صدر أحد الدراويش حتى خرج النصل من ظهره شبرا . فأخذ منا الروع مأخذه . فما هو الا أن استل الحسام وبصق على موضع الجرح فالتأم لوقته ولم يترك له أثراً .

هذا الذى أراده أبو الهدى فى حياته وقد نال منه مانال . وبمثله كلف المتمهدى فى السودان ومن ظهر باليمن . ولو طالت أيام الاستبداد ومات أبو الهدى في دولته بعد سنين لكان قبره كقبر الولى يزار وتقام فيه الصلاة ولألف له من يسيرون على نهجه من بعده كتباً يذ كرون فيها من كراماته مافاته في أيام حياته . على أن ما بناه الباطل يهدمه الحق وفى اقبال الحظ ورفعة الدولة مايسهى المرء عن الصواب. ومن رأى أبا الهدى فى أيام عزه وشهد مصرعه بعد اعلان الدستور علم أن الباطل مهما طال قصير . وليت هذه العظات تنفع أبناء الشرق فيقلعون عن الاستمساك بتلك الأضاليل التى خذلت السلف وأشقت الخلف ولا يعتمدون الا على الجد فى أمورهم .



﴿ اللورد كرومر وأحرار العثمانيين ﴾

خير ما يقال عن اللورد كرومر انه كان أبا مشفقاً للمصريين وظهيراً كبيراً لأحرار العثمانيين. قدم مصر زمان أشكلت أمورها وجمت مخاوفها. فشد أزرها وأنهضها وسط مخاوفها ووقف بها على حد التصافق . فكان لها كالطبيب النطاسى كلما شكت وجعاً بادرها بالدواء بما يزيله . وظل الى يوم فارقها يتحدث بفضله من عرفوا حسن مقاصده وأدركوا مبتدأ أمره . غير أنه بلى بقوم لايشكرون صنيعة وان جلت ولا يحمدون حالا وان صفت . فنالوا منه وسفهوا عليه . فكان حظهم من ذلك كله أن قال الناس ان هؤلاء ليسوا أهلا للحكومة . ما أصاب مصلح مصر من كيدهم سوء بل زادت محبته تمكناً من قلوب محبيه وزاد أهل السداد اعجاباً بحلمه كما زادوا اعجاباً بحكمته .

ثم قضت الضرورة أن يسلك اللورد كرومر مع بعض الجهات المصرية طريق الخشونة ، رداً للشر بالشر . فلما جاء فرمان الخديوية لأمير البلاد أبى الاذن بتلاوته قبل الاطلاع عليه . ثم طلب تغيير بعض أحكامه فيما يتعلق بالحدود بين مصر والبلاد العثمانية . فأذعن لذلك الباب العالى بعد جدال طال أياماً . وأصر على طلب اخراج عبد الله النديم من القطر المصرى وأسقط الوزارة الرياضية الأخيرة ولم يشأ قبول الوزارة الفخرية . فسقطت بعد أن عاشت أربعاً وعشرين ساعة . هذه أشياء يؤآخذ عليها اللورد كرومر من لم يعرف



﴿ مصلح مصر ﴾

« اللورد كرومر »

كيف وقعت . أما الذين خبروا الأمور وعرفوا أنه أحرج فى حلمه واضطر الى ركوب هذا المركب الخشن ، يقولون انه لم يفعل الا بعض مايجب عليه. وأنا ذاكر هنا ماجربته بنفسى من كرم طباعه وما عرفته يقينا من مؤآزرته لأنصار الحق .

كانت بعض الجرائد الانكليزية كتبت فى وصف الجنس التركى فصلا هو غاية فى الذم ثم ظهرت بعض الجرائد الحرة العربية فحذت حذوها. أما الجرائد الانكليزية فكانت ناطقة عما فى فؤاد المرحوم المستر غلادستون . فأرادت كشف الغطاء عن مساوىء الحكومة المستبدة التى انقلبت . غير أنها جعلت لومها خاصاً بالترك قياساً منها بأن الترك هم أولو الأمر فى تلك الحكومة . وأما الجرائد العربية الحرة فكان كلامها كلام من تجرع مرارة الظلم وعاش تحت أثقاله حتى عيل صبره . فهو كلام عثمانيين يشتكون عثمانيين . فآلمنى كلام الفريقين وأوهمنى اتفاقهما فى البيان أن هنالك قصداً آخر . فشبت الحرب يومئذ بينى وبين اخوانى أولئك وبالغت فى التحامل على أصدقائى الانكليز . ولما انشأ مراد الطاغستانى ميزانه وادعى الرئاسة على الأحرار زدت لهم بغضاً وذلك لأمور نقمتها على الطاغستانى لاأذكرها فى هذا الكتاب لكى لايشوبه شىء من أشياء لم تكن الا بين شخصين . وبذا خسرت ود كثير من اخوانى العثمانيين مثل الفضلاء أصحاب المقطم وخلانى النجباء وفى مقدمتهم الكاتب التركى الشهير على سعادبك وسليم سركيس افندى صاحب المشير وغيرهم . الا أن صاحب المشير لم يشأ أن يجعل خلاف الرأى خلافا قلبياً فكنا عدوين فى مناظراتنا وأخوين فى معاشراتنا . ولقد

حفظ غيبتي ووفى لي بوده . وأصاب اللورد كرومر من قلمي ما أصاب
اخواني العثمانيين .

هذه أشياء أذكرها مع ماأجد بذكرها من الألم لتكون عبرة لغيري
فلا يقع في مثلها كما وقعت فيها . وانما يحزنني منها أني أسأت الظن بقوم
هجروا بلادهم لينقذوها من الظالم المستبد وأني ظننت بالظالم خيراً فأخلصت
له الود . كل ذلك أنفة أن يكون مثل الطاغستاني من حماة وطني وثقة مني
بأن للطاغستاني آراباً يسرها بوطنيته الظاهرة . وشاء الله أن أزور وطن
ميلادي الآستانة واشهد مصارع الشهداء من اخواني الأرمن وأقف على
حقائق كانت عني غامضة . ورجع مراد وترك زعامة الأحرار . فعدت الى مصر
وكان عبد الحميد أصدر ارادته بجعلي مراقبا للجرائد مكان عبد الله النديم بعد
موته فاستقلت بعد أن ذكرت الجرائد في أقسامها الرسمية خبر تعييني .

ويروق لي أن أذكر هنا واقعة حال جرت لي : ذلك أن المعية أنفذت
الى أحد مستخدميها في عصبة لا أعلم من رجالها الا نفراً قليلا . وانا اذ ذاك
بالاسكندرية أريد السفر الى الآستانة لأرى عماً لي كان هناك . فجاءني
الرسول في عصابته ليلا وجعل يتوعدني بالضرب والتحقير اذا انا لم أكتب
له ورقة أقول فيها ان كل ما أدافع به عن عبد الحميد زور وبهتان . فكتبت
له الورقة التي طلبها ودفعتها اليه . فلما كان الغد رجعت الى القاهرة وقصدت
الى قصر الدوبارة ومعي اثنان من أصحابي فاستقبلنا المستر (بويل) وأظهر
لنا من البشاشة والظرف مالا أنساه له الى اليوم وقام اللورد كرومر بمناصرتي
خير قيام وبقيت الأمارة لاتدري كيف تتحامى نبالي وكيف تخفض شماسي

ولو كان اللورد كرومر وسائر اخوانه الانكليز ممن يسرون الأحقاد لأغضى
عن شكاتي ولأخرجني من دار حكومته على أسوإ حال . هذا جميل لا أزال
أذكره له وأشكره من أجله كلما هبت الشمال من بلاده تحمل أرج السلام
ولاسجلن وده في فؤاد لايكتم مايخجل صاحبه ولا يضيع بين مكنونه شئ
من الجميل .

وما لاقاه المقطم من أعدائه أعظم. فكم تآمروا عليه جماعات وقصدوا
الى ادارته ليضربوا أصحابه ويلحقوا بهم كل سوء فتعجلتهم الحكومة المصرية
بحماة الأمن. ففرقوا المهاجمين ودفعوا عن المقطم شرهم . وكم حاولت حكومة
الاستبداد كسر تلك الاقلام التي نمقت ديباجة المقطم والانتقام ممن صرت
في أناملهم فحال اللورد كرومر بينهم وبين مايشتهون .

ولما طاردت الحكومة المستبدة صاحب المشير وجدّت في طلبه بما
في ذرعها من وسائل الشر وخاف ذلك العثماني الحر على نفسه بغيها لم يجد
أمامه من يستصرخ بعد له مثل اللورد كرومر. واني لأقتبس من آخر عدد
للمشير صدر بعد اعلان الدستور ماجاء بقلم صاحبه في حكاية واقعة قال :

دخلت ووقفت بحضرة الرجل الجليل فقال :

— ماهو مذهبك ؟

— بروتستاني .

من عادة البروتستانت أن يعلموا أولادهم الكتاب المقدس . فانت
عارف حافظ لآياته .

— نعم .

ـ ألا تذكر قول الكتاب والأنبياء « لاتقل شيئاً فى رئيس شعبك. » و « يد الله على قلب الملك الخ ؟ »

ـ نعم أذكر ذلك .

ـ ولكنك تطعن على حكومتك طعناً جارحا . فانى قرأت بعض مقالاتك (وكان المشير يومئذ يصدر باللغتين العربية والانكليزية) .

— لو علم الرسل والأنبياء بمثل هذه الحكومة ما قالوا قولهم . فتبسم. فقلت .

— جنابك تقرأ عن مصائبنا في الجرائد ثم تنسى. وأما نحن فنشعر بها كل حين. وترقرقت الدموع فى عينى . فسكن روعى وصرفنى قائلا :

— اذا طلبوك فأنت لا تزايل مصر ان شاء الله .

فانصرفت مسروراً حتى اذا كان المساء دعيت ثانيـة وأنبأونى أن قد وردت تعليمات من انكلترا بعدم تسليم المجرمين السياسيين .

وما عضد اللورد كرومر أحرار العثمانيين وأخذ بناصرهم فى هـذه الواقعة وحدها ولا اكتفى من الجميل وتأييد الحق بمثل ولا مثلين . بل أخذ يواصل أعماله فيما هو ميسر له من المعروف . ولمّا لجّت المعية فى ابادة الجماهير العثمانية الحرة وأبلت فى ذلك بلاءها رأت أن تتم الفتح المبين بأخذ المطبعة العثمانية من صاحبها المرحوم صالح جمال . فدست له يومئذ من ساومه عليها عند أشد حاجته اليها . فلما أخذ ثمنها أو بعضه أقبل أناس من قبل المعية فعمدوا الى أبواب المطبعة فحموها والى دفاترها فختموها والى رسائلها فجمعوها .وبينا هم فى شغلهم بأعمالهم هذه اذا باللورد كرومر وقد طلع عليهم

طلوع البدر على ركب ضل عن الطريق. فاستخلص تلك الدفاتر والأوراق وأخذها الى دار الوكالة البريطانية وهى لا تزال محفوظة فيها الى يومنا هذا. وكان ممن شهد هذه الملحمة التى استمرت نارها بين الحق والباطل شقيق يوسف حمدى يكن أحد الذين جاهدوا مع الأحرار اذ ذاك .

ولو فازت المعية بتلك الدفاتر والكتب لاستخرجت منها أسماء كثيرين من المجاهدين العثمانيين القاطنين تحت سيطرة عبد الحميد. فمنهم من كان مشتركا فى جريدة القانون الأساسى التى كانت تطبع فى المطبعة العثمانيـة ومنهم من كان يوافيها بمقالاته وما يبلغه من أعمال الحكومة المستبدة . ولو عرف عبد الحميد أحداً من هؤلاء، وهو يطاردهم فى ليله ونهاره لأنزل به نقمته ولأدلاه الى أسماك البوسفور أو كبله بالحديد حتى تفيض نفسه ولخسرت الأمة العثمانية من أبنائها من هم عدتها ليوم شدتها .

وان بهذه الصنائع تمكن ود اللورد من قلوب المجاهدين العثمانيين وبها سيخلد له الثناء فى كتبهم كما خلد للأمة الانكليزية العظيمة التى منها نشأته ومنها أخلاقه . غير أن كثيراً من أهل المعرفة ومصطنعى الجميل بلوا بقوم يعادونهم حين لاداعية للعداء . كذا كان اللورد كرومر مع جماعة من المصريين حاولوا أن يكذبوا بأقوالهم فعاله وأن يغطوا بباطلهم على حقه . وما ذلك بضائره أبدا . غداً تشهد كتب التاريخ بفضله على من ينكرونه ويستغفر أبناء العصر الآتى لذنوب أبناء هذا العصر . وانما حدابى الى كتابة سطورى هذه مايحدو بكل ذى كلف بالحق . وما باللورد من حاجة الى من يستنصف بكلامه . فقد استنصف لنفسـه بكتابه الذى سماه (مصر الحديثة) . فهو

الكتاب لاينسيه القدم ولا تمحو سطوره الحقب . هكذا يظل منقوشاً على القلوب واذا لم تبلغ قصيدة من الشهرة مبلغ (قفانبك) فلن يبلغ كتاب من الشهرة مبلغ (مصر الحديثة) . وكم كتاب وكم كاتب . ماقلت العظات ولا اقصرت الحوادث في الانذار ولكن بعض الأفئدة لا تهتدى الحكمة اليها السبيل .

﴿ بين التابع والمتبوع ﴾

هذا العنوان يذكرني قول شاعر الأمير فى مطلع قصيدة له كان قالها بعد سنة ١٨٩٢ على وجه التقريب وهوقوله :

جددت عهد تواصل وتلاق * وعطفت مشتاقاً على مشتاق

لقد صدق الشاعر فيما قال وكم جرى القريض على لسان بغرض ولم يرده الضمير فوافق الواقع المقال : ثم مهجتان خفقتا معاً . وسكنتا معاً . فما استخف الشوق واحدتهما الى ركوب البحر الا أقلق الثانية حين أكرهها على الصبر . حتى اذا التقى البصر بالبصر أنشد لسان كل منهما قول ابن معمر العذرى

ولما تلاقينا عرفت الذى بها * كمثل الذى بى حذوك النعل بالنعل

وكأن فترة مابين عهد أبى الفداء وعهد فتاه سنة من نوم وكأن تلك الخلات تنوسيت على مرّ الأيام . فياله من يوم أغر محجل جلس فيه السلطان الخامس والثلاثون لاستقبال الأمير السابع من البيت العلوى وفتحت أبواب (يلديز) لمن ماشى ركاب الأمير من وفود المصريين وقيل لهم هذه جنة



الدكتور عبد الله بك جودت

ولى الدين بك محبزه

اخلاصى علمى قوت ايمانى ألويرير :
انسانى قادر اولما دیمك طالب اولمادر :
خلقك عمى يانه قانى يانه دماغنه :
وارلق جدالدر ياشاماق غالب اولمادر .
٢ سپتمبر ١٩٠٩ مصر
دوقتور
عبد الله جودت

الدنيا أزلفت لكم وتلك رياضها حصباؤها الدر وترابها المسك وتلك حياضها مترعة بصافى النمير غير آجن ومدت الموائد وطاف عليهم مقربون يتلون عليهم بشائر من عند السلطان وانقلبوا بعد ذلك الى أهلهم فكهين .

ورأى بعد ذا جماعة من خلق الله أن يجعلوا بين التابع وبين المتبوع حرمة صهر ويجددوا لحمة نسب ألهمها الله الهامى باشا بن المرحوم عباس باشا الأول وزوج (منيره) سلطانة بنت السلطان الجليل عبد المجيد خان . وكاد يستدرجها الله بمدرجة النسيان . ولكن شتان مابين الصهرين . فما كان الهامى صاحب الأمر بمصر ولا من يرجى ليحكمها وقد أقام بعاصمة الملك العثمانى وبقى عضواً بالمجلس الأعلى (مجلس والا) حتى جاور ربه فى سنة ١٢٧٧ بالغاً من العمر خمساً وعشرين سنة . أما غيره فليس كذلك . فهو صاحب بلد ووارث ملك ورب حكومة لايودع سريرها ليبدل به سرير نوم. وأميرات البيت العثمانى لايزايلن عاصمة ملك هن كواكب سمائه . والى هذا نظر أبو الهدى وبه استمسك عند السلطان ولو كان بينه وبين خاطب ذلك المجد ود ووحدة قصد لاحتال له فى نيل أربه ولكفاه أن يعود من الغنيمة بعد الكد بالقفل .

فلما باتت آمال المعية غير ذات نتاج وكبر عليها أن ينازعها أحد الدراويش حظوة القرب من عرش الملك بعد استنجادها بمثل جمال الدين وعبد الله النديم والشيخ ظافر وغيرهم وقفت النخوة العلوية بينها وبين (فروق) ودب الجفاء بين الأب وابنه . وفى سنة ١٨٩٤ قدم مراد الداغستانى الى مصر واصدر بها (ميزانه) كما ذكرته فى أحد الفصول المتقدمة فنزل بالمعية

على الرحب والسعة وأكرمت هى مثواه وانزلته منزل التكريم . وكانت استخدمت رشيد بك صاحب جريدة (بصير الشرق) معاونا بالخاصة الخديوية . فاتحد مراد ورشيد بك مع رجل بالمعية اسمه (ع) بك وبلغت الثقة بهؤلاء الثلاثة أن باتوا أصحاب الكلمة فى صرح الامارة ودانت لهم الرقاب وعنت لهم الوجوه . وبذا تباشر الناس وظن أكثرهم خيراً وأيقن المجاهدون فى سبيل الحرية ان سيرسل الله لهم ملائكة نصره .

واذ ضاق عبد الحميد ذرعا باستمرار الأحرار على مطالبته بالدستور ومقاضاته الى الرأى العام بما يكتبون من كتبهم وجرائدهم ورأى قوميسرية الدولة بمصر لاتبرم أمراً ولا تنقض رأياً وأنها شغلت عن أمورها بالصيد والقنص واقتناء الخيول ومواصلة الأسفار بين القاهرة والاسكندرية وأنها لاتتقدم صفوف المجاهدين فيتخذها عدوة له ولا تبدى له من دلائل الاخلاص مايحمله على الثقة بها والركون اليها وبينا يصيح الظلم من داخل الفؤاد الحميدى: من لهذه المعضلات يكشف غماءها ويجلو عن يقينها؟ اذا بعزت يناديه . أنا لها . والله لأغمسن لك في نجيعها وأخوضن أهوالها ولأنفذن الى أعدائك نفوذ رمياتك الى قلوب شهدائك . وأرسل ابن هولو الى الامارة المصرية أن انفضى ثيابك من غبار العار وأخلصى سرك وجهرك لسلطان البرين والبحرين ودعى قوما ينشدون ضالة أفقدها سوء المصير . فما استهلت سنة ١٨٩٧ الا استشعرت المعية بضرورة الاذعان . رأت نفسها نائية جانباً عن رضاء عبد الحميد مستهدفة لغضب الأنكليز وهى كلما عولت على ود امرىء خابت آمالها فيه حتى أصبحت كما قال الطغرائى :

فلا صديق اليه مشتكى حزنى ... ولا حبيب اليه منتهى جذلى

فاستخارت أولى مشورتها . فبذلت ألف جنيه اشترت بها ما عند الأحرار الذين بمصر من بقايا اثار وأوراق وكتب وجرائد وملأت بها صندوقا كبيراً وأنفذته مع (ع) بك الى الاستانه . وفى تلك الأوراق نسخ من رواية (كيوم تل) باللغة التركية ابتاعتها بمائة جنيه . وأرادت المعية أن تجرى حينئذ على مصداق المثل التركى (رمى طائرين بحجر واحد) . فأوصت رسولها بالسعى فى حل المعضلة التى كانت استجدت فى وقف (فواله وطشيوز) فوقف أمام (يلديز) ولسان حاله يقول :

لى في معاليك آمال أرجيها ... فهل سمحت بانشاد فأبديها .

وما لبث المعتمد ان طير رسالة برقية من (فروق) وقعت فى (المنتزه) مبشراً ونذيراً وعاد بعد ذلك يلتمع على صدره الوسام المجيدى الثالث وحق فيه قول القائل :

اذا كنت فى حاجه مرسلا ... فأرسل لبيباً ولا توصه

غير أن الأحرار لم يحملوا الود ولم يحفظوا الجميل بل انقلبوا على مدر المال ومفيض النضار وأصدروا جريدة (القانون الأساسى) بالعربية والتركية بعد أن كانوا يصدرونها بالتركية وحدها وأصدروا جريدة (عثمانلى) بالتركية والانكليزية . وقد أفادتهم الألف ليرة أكبر فائدة فأكملوا أهبتهم واتخذوا سلاحهم ونادوا الظالمين

ألا لا يحسب الأقوام أنا ... تضعضعنا وأنا قد ونينا

ألا لا يجهلاً أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ونظروا الى (يلديز) ومن يتقربون اليها وأنشدوا ساخرين :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا ... وأبنا بالملوك مصفدينا

وبدل رضاء القصر الحميدى غضباً ونادى مناديه سيفاً ونطعاً . وخذلت المعية أحلافها وأنصارها وعاد الجفاء الى سابق عهده وكثرت الوشايات والسعايات . وبينا هى كذلك اذ حلت احدى النقم بحاميها ومؤئلها عزت العابد وكان أرسل أحد أبنائه الى مدرسة من مدارس باريس . فاتهمه أحد أعدائه عند السلطان بأنه أرسل ابنه ليكون واسطة في مراسلته للأحرار . فبلغ ذلك ابن هولو . فبادر من وقته واسترجع ابنه وجعل يؤنبه على مخالطة الأحرار وقال لن ترجع الى باريس . ولكن الولد كان على علق لبه بتلك العاصمة الفاتنة وشجته شواطىء (السين) بجسورها العالية ومسارحها الحافلة . فأجاب اليها داعى الصبا وطار على أجنحة الشوق لا يلوى على من خلف وراءه من أب ولا غيره . فكم من وشاية يومئذ وكم من سعاية . لو أدرج ابن هولو فى تلك الأوراق التى رفعها أعداؤه ليحطوه لكانت أكفانا له ولمن يلوذ به . فكان كالشاعر الذى يقول :

فصرت اذا أصابتنى سهام ... تكسرت النصال على النصال

ولقد أفلح الكاشحون وخر عزت على وجهه . فلزم بيته وانقطع عن (يلديز) وانقطع أصحابه عن طروق داره . وقال أبو الهدى وأحلافه ان ابن عزت لحق بأمير مصر ولجأ الى عابدين ورسل منها الى القبة فأفرد له مكان خاص به وبات ضيفا كريما بجوار مضيف كريم . فأشار على عبد الحميد جماعة من مقربيه أن ينفذ الى مصر جاسوساً ممن يثق بهم ليتنسم له الأخبار ويطلع

مولاه على مايدور بعابدين من الأعمال . فقدم مصر ذلك الرسول المتنكر مستصحباً معه آخرين جربهم وعرف حسن بلائهم . فكان هؤلاء الشياطين يرصدون قصر الامارة وجاسوسها (ز ...) يقتص أثر جماعة غيرهم ويواصل أسفاره من الرحمانية الى الغربية الى الاسكندرية ولا يدرى ماقدر له فى الغيب .

ولما لاحت تباشير النجح على مادبره رجال عبدالحميد طلبوا المزيد . وقالوا اذا رميت فأجهز . فاستفزوا جمهوراً من أهالى جزيرة (طشيوز) واستقدموهم الى الآستانة مشتكين مما لحق بهم من الضرر بقطع أشجارهم . طالبين نقلهم من الجزيرة الى موضع يكون بمعزل عن هذا الاعتداء . فكتبوا بذا عريضة وقالوا فى وقف (قواله) مالا أحب أن أقوله الآن . فوقعت العريضة موقع القبول عند خاقان البرين والبحرين وطيب نفوسهم ووعدهم النظر فى أمرهم والأخذ بناصرهم وبقى واحد من الجمهور بالآستانة ليأتيهم بما يتجدد من الأنباء .

وقد حدثت أمور فى دائرة الأميرة الجليلة الطيبة الذكر عصمت هانم بنت المرحوم الأمير طوسون باشا . وتلك الأمور هى فيما يتعلق بالأعمال الادارية . فقضت الحاجة بسفر الجنرال احمد جلال الدين باشا زوج الأميرة الى مصر للنظر فى مهام تلك الأمور . فظن رجال (يلديز) وخلصاء قصر الامارة أن سيقدم الجنرال مصر ليخاطب أحرار العثمانيين النازلين بها فى العودة الى الآستانة . ومنهم من أذاع بين الناس أن سيكون للجنرال موضع بالقومسيرية العثمانية ليرقب الغازى مختار باشا ويستطلع خفايا أعماله تخرصا وتلفيقاً . . فبادر (م . س .) باشا وأنفذ الى صديقه (م . ش) باشا كتابا يستبطئ فيه أعماله

ويذم سكوته وسكوت قصر الامارة ويظهر التعجب من تغافل صاحبه عن هذه الفرصة التى سنحت لاستعادة الصفاء بين التابع والمتبوع بعدما بلغ التجافى حده ويعده بالرتب العالية والهبات الجذلة . وما اتصل هذا الكتاب بيد (م . ش .) باشا الا ترك شواغله وانصرف عن همومه واستدعى الى داره صاحب (عثمانلى) وجعل يؤنبه على اصدار جريدته ويقول له ينبغى علينا أن نكتم عيوبنا عن أعدائنا وأن نستر على زلات رجالنا . فما لكم تنشرون من مساوئنا ما انطوى . أتريدون أن نفتضح عند خصومنا فنعيش مذممين على ألسنتهم منتقصين فى أعينهم . وعند سلطاننا لو شئتم ما يفرج المكروب ويحيى ميتة الآمال . فكان مخاطبه يسمعه ويتبسم ويقول ان مع العسر يسراً .

أما الجنرال أحمد جلال الدين باشا فلم يأذن له عبد الحميد بالسفر وقال له أنا أعرف أن الغازى مختار باشا حاسد لك وأعرف أنك صلب فى عنادك وأخشى ان تذهب الى مصر فيقع بينكما مايستحدث أموراً عظيمة . فأخر سفرك فى عامنا هذا وربما تدبرت لك فى سبب جديد يؤدى الى مقصودك . فلم يجد الجنرال بداً من الرضاء

وروى أن ابن هولو لما كثر مغالبوه وبدت لمنازليه مقاتله عمد إلى مصاولتهم بكل حيلة يتنبه لها ذهنه ولو كان فيها خراب الملك ودثور آثاره حتى عرف ذلك الأجانب قبل العثمانيين فقال له ذات يوم المسيو (كمبون) سفير فرانسا بالآستانة اذ ذاك . عجزت دول أوروبا عن حل المسألة الشرقية فى أعوامها المديدة ويوشك أن تحلها أنت فيما دون العام . ونقل هذا الكلام ناقله الى عبد الحميد فحقدها عليه واستبقى الانتقام الى زمان يهون فيه الانتقام

وكان أعداء عزت والمعية المصرية واقفين لهما بالمراصيد. فلما سافر البرنس عزيز الى نجد أقاموا (يلديز) وأقعدوها وبالغوا وفى صف ماسيتلو ذلك من الفتن وقالوا اهو أمر الخلافة آن لأعوانه آن يجاهروانه . ثم أظهروا القلق من ذهاب الأمارة الى جهة العريش وما برحوا بعبد الحميد حتى حملوه على أن يأمر بزيادة الجنود فى العقبة ليكونوا على أهبة اذا عاد الأمير مجتازا بالطور . فأيقن الحزب الهدائى أن النصر حالفهم وأن قد عقدت رايات المجد على سيدهم . وسخر الله للصيادى أمرين تذرع بهما الى الاثراء والايقاع بأعدائه . فقصد اليه أولياء وقف (طشيوز) وكالوا له المال كيلا . ولحقت بهم دائرة البرنس حليم طالبة مظاهرتها فى قضية العلماء والسيدة نزاكت هانم قبل أن نظرت بالمحكمة المختلطة بمصر فى ١٤ فبراير سنة ١٨٩٨ ووجد خليل الله هنالك صدراً رحيباً ومنزلا آهلا وحملت الهدايا البلورية من (كارلسباد) وكان الأمر مقضياً .

وبينا أبو الهدى وشيعته فى غرورهم يفرحون بما حل بعزت وأعوانه من خيبة وخسران اذ روعهم الله بالسفرة الشكيبية . فنزلت على رؤوسهم نزول القضاء المبرم . فبدلوا بأنس القرب وحشة النوى وبخفض العيش عناءه وطارت الرسائل البرقية بين السيد الصيادى وحبيبه بمصر : فانتعشت أرواح عزت وحزبه وأخذت الحظوة مأخذها الأول . فأصابت الأمارة المصرية حظها وقالت لست بتاركتك يا (يلديز) هذه المرة . واعتصمت بحبل منها لا يرث بتقادم الزمان وتقلب الحدثان . ولقد صدق المتنبي اذ قال :

بذا قضت الأيام مابين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

ولا يطمعنّ القارئ الكريم فى بيان شئ من السفرة الشكيبية . فتلك

قصة تكتفى فيها الاشارة ولا يحتمل الأدب من أمرها أكثر من الاشارة.

وقد رأى بعضهم همّ المعية ونصبها فى استرضاء أناس من الأحرار العثمانيين واسكاتهم والسعى فى ارجاعهم الى الظالمين ليجزّوا نواصيهم ويرتاحوا من صراخهم المستمر لايقاظ الأمة . فأجمعوا بينهم على أن يدعوا وجود جمعية سرية بمصر تسمى (جمعية شفق) وأن هذه الجمعية ذات شأن عظيم وأن لها من الأسرار مالو كشف عنه الغطاء لحارت فيه العقول فطربت المعية لهذا الخبر طرب الثمل وقالت فى نفسها: ألآن دار فلكى سعداً وأتانى الدهر مسالماً. غداً أستطلع هذه الخفايا وأبعث بها الى (يلديز) كعبة الآمال . وما كان الا مثل رجع الطرف واذا على أبوابها أقوام أكلت السنة الممحلة غواربهم ومناسمهم. أقبلوا يدفع بعضهم بعضاً . فقيل لهم هاتوا ماعندكم من الأسرار . قالوا بل هاتوا أنتم ماعندكم من الدنانير وأسمعونا رنينها فى أكفنا وأرونا لمعانها بأعيننا فتلك المفاتيح لهذه الكنوز . فانفتحت لهم ميازيب الجو تهمى نضار خالص وما ناب المستخبرين من (شفق) الا احمرار بقى كالورس على وجوههم .

وقد كاد يفوتنى ذكر (المارکی) المشهور . الذى كان معتمد احدى الدول العظمى بمصر . فلقد كان مستشار الامارة باطناً وصديقها ظاهراً وثقت بوده وأخذت برأيه حتى أحدث الجفاء بينها وبين اللورد كرومر. وكان (المارکی) يبشر الامارة بقرب خروج الانكليز من مصر ويمدها من لدن حكومته بالنصر والتأييد فذاع بين الناس أن هذا المستشار أشار على الامارة بالسعى فى انتحال الخلافة ، مظهراً لها مكان الدولة العثمانية من الخطر . مذكراً اياها بأن الخلافة أخذت من مصر وأنها ستعود الى مصر . زاعماً أن دولة أيدت محمد

علىّ الأول حتى تبوأ سرير الامارة المصرية لجديرة بأن تتوج سليل مجده بتاج الخلافة . فوقعت هذه البشائر من القلب الفتىّ وقع القبول ولكن عظم المطلب وقلة الأنصار ثنيا عنان الصبا . وهنالك لعبت أنامل الرقباء فجاءت الأنباء ساكن (يلديز) وفيها من الزيادات ماقدر على ايجاده أربابها . وكان من تلك الزيادات أن المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى والمرحوم عبد الله النديم المصرى سبقا الناس الى اقرار البيعة بالخلافة الجديدة للخليفة الجديد .

وليس في قراء كتابي هذا من يكون نسى كيف كان غضب عبدالحميد وكيف حظر على الامارة المصرية أن تزور الاستانة . كما أنه ليس بينهم من نسى كيف ساء هذا الغضب المعية المصرية وكيف بذلت جهد طاقتها فى استرجاع الرضاء الحميدى . لو شئت أن أستقصى تلك الأعمال لرأيت هذه الصحائف أضيق من أن تسع قليلها . غير أنى لست تاركاً كل ما أعلم . ولا أريد أن أخرج من هذه الدنيا كاتماً حقاً أنا من شهوده . وتأبى ذمتى أن يعلن الدستور العثمانى وينقرض أشياع الاستبداد فيظهر بعد ذلك بعضهم مغالطين قائلين : الآن نلنا المراد . هذا عيدنا ويوم فوزنا وماهو بعيدهم ولا بيوم فوزهم لو أنصفوا قليلا .

نعم ان المعية حاربت أحرار العثمانيين وحاربت حرية الأمة العثمانية بأسرها. هذا أمر ينبغى أن يسطر في تاريخها . فهى هى التى استعانت على جماعة من شبان العثمانيين بذهبها وحاجتهم وقد قطع عنهم المدد وامتنع عليهم الرزق . فلما غلبتهم على أمرهم وجهتهم الى الاستانة. وقد اتخذت ذلك عادة لها. فصارت كلما صفا مابينها وبين (يلديز) زادت في الاقتراح . فيوماً تطلب الفوز بوقف

ويوماً تطلب الانعام بقصر . وكلما تكدر ذلك الصفاء عمدت الى استغواء أناس من أسرى الاغتراب ومطرودى الحظ فقدمتهم على مذابح الظلم .

والى القراء أسماء اخوان لى عرفتهم بالآستانة وبمصر ثم التقيت بهم فى سيواس وقد نفوا اليها بعد أن توسطت المعية فى عودتهم الى الآستانة وضمنت لهم أن لا يمسهم بها سوء .

فائق افندى الملقب لقصره (بكوجك فائق) أى فائق الصغير . شوقى افندى . صلاح الدين افندى . فائق افندى . خالد افندى . توفيق افندى . وقد ارسل مع هؤلاء مصطفى وجدانى افندى ولكنه نفى الى جزيرة رودس ونفى أيضاً ستة آخرون الى جهات مختلفة وهؤلاء كلهم احياء يرزقون . أقاموا نحو العشرة أعوام فوق جبال سيواس يلاقون من مشاقّ الاغتراب وآلام الظلم مالا يصبر عليه غير المجاهدين . وما قيل في المعية لهم أننا مشترون ذممكم ومساوموكم فى وطنكم بالمال . بل قيل لهم أنتم أنصار الحرية وجنودها المتطوعون . ونحن معجبون بما أنتم قائمون به من مناصرة الحق والذود عن الوطن . ولكن تعلمون أن مثل عملكم يحتاج مالا كافياً ورزقا موصولا . وأكفكم اليوم صفر من المال . واذا طال الأمر ربما كنتم عيالا على اخوانكم الآخرين . وعندنا الرأى الصواب أن ترجعوا الى بلادكم وتكفوا أنفسكم ذل الحاجة فى هذه البلاد التى لا تعرفون لغة أهلها ولا تجدون لكم فيها من الكسب مايقوم بأمر معاشكم . ولكم علينا ان نستعطف عليكم السلطان. فاذا جاء عفوه ذهبتم الى وطنكم وهنالك تتقاضون من الرواتب ماتجعلون بعضها اعانة لسائر اخوانكم المجاهدين . فاذا تأمل المنصف فى متكلم هذا الكلام ونظر

الى حال سامعيه وفيهم أناس لم يذوقوا طعاما منذ يومين — قد سخر منهم أهل مصر وقالوا هؤلاء الصعاليك يريدون أن يصلحوا الدولة العثمانية — عرف كيف كان اضطرار اولئك الغرباء المجاهدين الى الرجوع وكيف كان فوز المعية عليهم .

وقد أوفدت المعية بعد ذلك بعض أبناء (بدر خان) باشا الشهير الى الآستانة وكان لهامع أحدهم واسمه صالح بك حرب عوان وشأن لا كالشؤون

وأين هذا من واقعتها مع المرحوم محمود باشا (الداماد) وولديه الأميرين الحرّين . فتلك لعمر الذمة احدى الكبر . رأت عبد الحميد يجتهد فى استرجاع ذلك المجاهد العظيم الى الاستانة لينتقم منه ويصب عليه وعلى ذويه أسواط عذابه . وكان الداماد بباريس . فخفت المعية اليه واستقدمته الى مصر واعدة اياه بموآزرته وتخفيف حاجته ليواصل جهاده مكفىّ الحاجة مطمئن الفؤآد . فخدعته ظواهر المقال وأقبل مع ابنيه يؤم منزل الكرم وينزل بساحة المجد ثم أقام أياما لقى فيها من أقلام السفهاء وأحلاف الباطل مااستكت له مسامعه . وماراعه الا قائل من المعية يقول له ارجع الى الآستانة ولك علىّ أن أطلب لك العفو . فما بلغ هذا الكلام سمع الأمير صباح الدين أكبر أنجال الداماد الا تطاير الشرر من عينيه . وقال لأبيه اذا كنت تنوى الرجوع فأنا لا انوى الرجوع وخرج من عنده حنقاً وسافر من ساعته الى باريس مستصحبا معه أخاه واضطر والده الكريم أن يلحق به الى عاصمة الحرية وبقى يواصل فيها جهاده مع شبليه حتى قبضه الله اليه .

كذا كان ماكان بين التابع والمتبوع . يختلفان فيتذرعان الى الوفاق بكل

ذريعة ولو ذهبت بأرواح العباد . ويتوافقان فيتبادلان الهدايا والتحف . وهى اما قصور شيدت بدماء الأمة واما اوراق بالية مما حبره فحول كتاب الأحرار واما شبان هجروا أوطانهم واستخلفوا للفقر والذل أهلهم وعشيرتهم فى سبيل الوطن فتخرب تلك الدور ليعمر قصران أحدهما صرح الخليفة وثانيهما بيت الامارة .

ومالى لا أذكر في هذا الفصل ماوقع للمرحوم صالح جمال صاحب المطبعة العثمانية مع المعية من أجل مطبعته . فذلك مما يحلو ايثاره مع ماسبق بيانه من المكارم . فقد أتت المعية فى سياستها تلك بأساليب من الخدع الحربية تصفر لها الأنامل . وجهت من قبلها رجلا ليشترى المطبعة العثمانية حين جرى ماجرى بين صاحبها وجماعة من جمعية العثمانيين الأحرار فيما يرجع الى حساب المطبعة . فما برح هذا الرجل يغالى فى الثمن حتى وقف عليه البيع . فأراد أخذ المطبعة بما فيها من كتب وأوراق ودفاتر . ولما أبى ذلك رجال الحزب حجز رجل المعية على المطبعة بما فيها . وكانت المعية تريد أن تستخرج من تلك الدفاتر أسماء المشتركين فى جريدة القانون الأساسى وأن تأخذ رسائل من يراسلون الأحرار من اخوانهم المقيمين فى البلاد العثمانية لتبعث بذلك كله الى عبد الحميد . فينتقم هو منهم كما يريد . وقد كبر الأمر على أحرار العثمانيين فأرسلوا بعضهم الى اللورد كرومر يعلمونه بما هم صائرون اليه . فاخذ تلك الأوراق الى دار الوكالة البريطانية ولا تزال فيها الى اليوم . وبذا مكن الله عدله وخلص مئات بل ألوف من الأحرار كادوا يقعون فى مخالب المفترس الكاسر لولا اللورد كرومر . وقد أشرت الى هذا فى أحد

الفصول المتقدمة فى معرض الكلام عن مصلح مصر ونصير العثمانيين .

ولقائل أن يقول .كانت السياسة تقضى اذ ذاك بمثل هذه الأمور: ولو ان المعية شاركت الاحرار فى جهادهم لأدى ذلك الى مسائل قد لا يصل الى كنهها القادمون . فأقول هذا يجوز غير انه ليس فى الناس من طالب المعية بشىء هو فوق وسعها . ولقد كان في القدرة ان تتغاضى وتترك هؤلاء المجاهدين فى جهادهم غير متعرضة لهم بخير ولا بشر . فاذا عذلها عاذل من جراء ذلك فالجواب هو تقول : بلادنا حرة. وأنا لا قبـل لى بمخالفة النظام ولو أمكن لى منع هؤلاء لفعلت. واذا لم يكن للمعية بد من مطاردة الأحرار واسترضاء المستبد فيكفيها أن تكلف أحد رجالها مخاطبة الأحرار ظاهرا فى الكف عن الحروب القلمية وأن تدع ذلك يذكر لها فى صحف الأخبار فتسقط فى مجادلتها حجة الظالمين .

ولكن أمراء الشرق الا قليلهم ، يحبون الاستبداد طبعاً . ولهم فى ذلك فلسفة لا يفلح في تخطئتها برهان . فقد لقنوا منذ صباهم عقائد من قوم يفتون بتحريم الشىء فى يومهم ثم يفتون بتحليله فى غدهم والحال واحدة ومأخذ الحكم واحد . فأيقن هؤلاء المسيطرون المتألهون أن الله خلق العامة من أجل الخاصة وخلق الرعية لتؤنس الملوك فى وجوههم فكيف يطمع بعد ذا صاحب عقل أن يدخل ذرة من الانصاف فى تلك القلوب .

يسافرون الى أوروبا أم يؤتى لهم بأساتذة أوروبيين ليتعلموا منهم ما يتعلم أمراء أوروبا ، لا يفلحون . سواء عليهم علموا أم لم يعلموا . أنصفوا أم ظلموا . هم الملوك يجب أن يقدسوا . وأن يقرن ذكرهم الى ذكر الله



هذه صورة الرجل الحر . العثمانى الصادق حسين بك طوسون أحد نخبة الضباط الذين يفتخر بهم الوطن وقد فاتنى ذكره سهواً في عداد اخوانه الذين خلصهم من الاسر غير مبال بما يقع فيه من الخطر وقد فر الى أوروبا ثم عاد مختفياً كما يراه القارىء فى صورته هذه وبقى سجيناً حتى اعلن الدستور فخرج من السجن بهذا الزى الجركسى الجميل

واذا لم يكن ذلك كذلك . فما لهؤلاء المؤرخين يذكرون لنا فى كتبهم عواقب ماصار اليه الباغون . أكانت بينهم وحدة مصلحة فتواطؤا على الكذب وافتروا اثما وبهتانا على ملوك زمانهم أم هذه زيادات تخرصها المتأخرون

وكان عبد الحميد رجلا جاهلا لم يتذوق لذة العلم ولم يتحلّ بشىء من الفضل . وكان يكاد يكون أميا ولقد بلغنى أنه لم يتمكن من قراءة اية ورقة من غير أن يساعده عليها مساعد. ولقد زار بعض العواصم الأوروبية مع عمه عبد العزيز. فشغل بتجسس أخيه المرحوم السلطان مراد عن أن يستفيد شيئا من آثار العلم والصناعة فى تلك الأقطار . وما نشأ الا فى قصر تضاحكه الولائد فى حرمه ويسجد له المماليك لدى بابه . فاذا جلس جلس اليه المتفيقهون الثرثارون وعلى رؤوسهم تلك العمائم التى لا أجد ما أشبهها به غير رؤوس البصل . فيفيضون له فى وصف الحور والغلمان وكيف تزوج بهرام جور بنات السبعة ملوك كما ذكر فى كتاب (هفت بيكر) وما كان من قبيله غير أن صاحبنا ليس كذلك فهو أمير أدبه أبوه فأحسن تأديبه وراضت شبابه مدارس الملوك وأخذ ماعرف من علومه عن أساتذة من رجال الفضل ونخبة أهل البلاد المترقية فى العلم . أما لو كان عبد الحميد موزوراً فما صاحبه بمأجور.

وانى ممن لاحظتهم العناية وخطروا على باب الامارة. فقد سعت للايقاع بى وأنا بالآستانة ووشت بى الى عبد الحميد فاحلنى السجن ونفانى بعد ذلك الى سيواس كما سيأتى ذكره فى فصل خاص . فلها علىّ حق الكرامة ولن أبرح أشدو بتلك المنن حتى يذهب ربيع الحياة .

كل هذه الاحن كادت تنطوى صحائفها ويسدل عليها ظلام النسيان .

ورأيت قوما يطرون الامارة بما لم يكن فى سوابق آلائها . فقلت ياسبحان الله!! أهذا مبلغ انصاف الناس ؟ أبسمة واحدة في آن واحد تنسى بكاء مئات من عباد الله طوال الليالى . ورسول كان جاسوساً يصبح الآن شفيعاً ويظل قبرك ياصالح جمال مهجوراً لا يزوره زائر ولا يحييه فى طريقه سائر . وتستقرين أيتها الأجسام الطاهرة فى أجداثك المجهولة حزينة أرواحك في آخرتها كما كانت حزينة فى دنياها . وتسير تلك المواكب خافقة أعلامها متسابقة بشائرها ويصف العثمانيون اجلالا لمن حارب اخوانهم تحت رايات عبد الحميد . ياويل تلك الضمائر ما أصبرها على الأذى وما أغراها بهوى النضار!!!

روحى أيتها الأرواح المستطارة من أقفاص الفناء الى فضاء الأبد لا تتحاومى على مزدحم الآمال . ارجعى الى بارئك مستصحبة غيرك من أرواح الشهداء فى خالية العصور . قولى يارب تبكى الشيعة على شهيد كربلاء وتبكى كل أمة على شهدائها . وهاك أهلنا باتوا غارقين فى الحداد . سرقومنا بمجد كنا سلالمه وداسوا بعد ذلك قبورنا ونسوا بلادنا وأكرموا أعداءنا . فخذ بحقنا ما لنا سواك من نصير .

أخليتماداری أيها القصران وأخليتما دور اخوانى وأقصيتمانى سبعة أعوام طوال أتت علىّ فى ريق الشباب وزالت عنى وقد بلى الجسم . وحكمتما على هذا الخاطر بالجمد وقد عودته على جولات طالما اعجب بها المتأدبون ورفعتما السدود بينى وبين آمال تخذتها ذرائع الى مكافحة الحوادث فى ذودى عن وطن أنا من أبنائه . ومارجعت اذرجعت الا وقد ابدل البيان حصرا والشباب كبرة والبأس وهنا والأمل يأسا ورأيت منكما المقال ورأيت منكما الودود .

فايه يادهر يا أبا العجائب . ما أعرفك بمواضع النقص من بنيك !!!

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت   له عن عدو فى ثياب صديق

﴿ أنا فى حزب الأحرار ﴾

الوطن يشكو ظالمه

حتى م تبكي العين طال البكاء   أما لحزن بت فيه انقضاء
قد خنتني يادهر قد خنتني   ما كنت أحجوك قليل الوفاء
ان أبد ما بي يعيني سرده   أو أخفه يزدد بطول الخفاء
ماتت أمانيّ ولما أمت   أحيي اذن لليأس لا للرجاء
كيف أعزي القلب عما مضى   ويل لقلب ما له من عزاء
مازلت أدعو للهدى معشراً   ضلوا فلما يجد طول الدعاء
ضاع ندائي حين ناديتهم   لولم أضع ما ضاع ذاك النداء
هذي رسوم قد محاها البلى   وذى قصور قد علاها العفاء
فحيثما تسع تجد مأتما   باك ومبكى وآبى البكاء
ليس صباح بصباح لهم   ولا مساء لهم بالمساء
في ذمة الله رجال قضوا   طال بهم تحت القبور الثواء
لا التاج ذاك التاج من بعدهم   ولا بهاء الملك ذاك البهاء
ياأرض ميدى انها دولة   مادت وأنت اضطربى ياسماء
تشقى (جراغان) بسجينها   ويجتلى بيعته من يشاء

يارب هذى كعبة شيدت   ركنا وهذا خاتم الأنبياء
أساءني بينهما ظالمي   وقد كفى بينهما أن أساء
عاش المدى أرضى وطاء له   عيشا هنيئا وسمائي غطاء
أعدم قوما بت أرثيهم   وآلهفي ماذا يفيد الرثاء
كانوا غيوثي بت لاغيث لي   كانوا نمائي فعداني النماء
أقول والظلم بآفاته   يحتث للملك مطايا الفناء
لاييأس المكروب من فرجة   ولا عليل أبداً من شفاء
العدل سلطان شديد القوى   ينصره الله بجند القضاء

هذه هى أبياتى التى استهللت بها كتابى الذى كنت سميته (مائة برهان وبرهان على ظلم عبد الحميد السلطان) . أذكرها هنا لا استدلالا بها على بلاغة معنى أو فصاحة لفظ فليس بها شيء من صناعة الكلام سوى الوزن والروى . وانما أريد ان أستعيد ذكر أيام خلت كان فيها هذا اليراع شاكيا ولم يكن مثل يومه حاكيا .

فى اليوم الثانى والعشرين من شهر دسمبر سنة ١٨٩٧ دخلت ادارة المقطم وولجت مكتب الاستاذ الدكتور فارس نمر . فنظر في وجهي مليا يريد أن يتعرفني جيداً . فقال هل من حاجة فأقضيها . وكان يحسبني أتيت المقطم لعمل من أعمال الادارة . فدفعت اليه مقالة عنوانها (نرجع الى الجواسيس) فلما وقع نظره الى الامضاء مد نحوى يمينه مصافحاً وقال أهنئك بتطوعك لخدمة الوطن وأهنيء الوطن بقلمك . وأسس الله المودة فى قلبينا منذ ذلك العهد .

ولقد قلت فى آخر تلك المقالة ما أنقله الى هذا الفصل بحرفه وهو :

(هذا قلم أرنّ القوس صائب الرمية عرفه من هنالك . فلأجرينه حتى لاتبقى من دارالظلم لبنة على لبنة وبياض على سواد ولأسيرن قوارعه شزبا فى كل قاتم الاعماق شاسع الأطراف الى أن يقول نصير الحمية لبيك ونستريح واخواننا مما نحن فيه)

على أننى لم أنل شرف الاستمرار على خدمتى وكان خلاص الوطن على يد قوم رآهم الله أجدر منى بهذا الفخار .

أجل قد طهر الله حزب الأحرار من مراد الداغستانى ولو بقى فيه لما سطرت فى مناصرة الأحرار حرفا واحداً . فقد كان عبد الحميد ظالماً وكان مراد محتالا . وكان عبد الحميد يحب الواشين وكان مراد يود أن لا يكون له واش غيره . فلم ترض نفسى أن أجتمع معه ولا على خدمة الوطن وخلاصه . هذا عناد يؤاخذنى عليه كل ذى انصاف ولكننى لا أستطيع له انكارا . ولتبق لى هذه الجناية مسطورة في سجل آثامى بهذا القلم الذى أصبح غازيا فى حرب الاستبداد .

ولقد قضت عثمانيتى أن أقف الى جانب المجاهدين من أبناء وطنى حين خفتت أصوات كثيرة وخيل لى عجب الشباب أنى أستطيع أن أنفع بلادى . فشاركت يومئذ الاستاذ الفاضل محمد أفندى قدرى العثمانى في كتابة بعض الفصول بجريدة القانون الأساسى . فساء ذلك رجال الاستبداد . ورفعت القوميسرية العثمانية تقاريرها الى عبد الحميد حتى خيل له أن ولى الدين اذا استمر على الكتابة قامت القيامة . فقصد سكرتير القوميسرية محسن بك منزل المرحوم ابراهيم باشا يكن وطلب اليه أن يكون وسيطاً له فى اسكاتى . فكان

جوابى له جواب من لا يتزحزح عن موقفه وواصلت الاجتهاد بعزم أشد التهابا وأمضى نفوذاً .

ثم جاء مصر أحد وكلاء الدعاوى وخاطب فى أمرى كثيراً من الناس . فنهم من تخلى عن مشاركته ومنهم من أراد مشاركته ولكن غير واثق بالنجاح . فقابلنى ذات يوم رجل من رجال الصحافة وقال لى أرجوك أن تغدو علىّ غداً فى دارى . فان عندى رجاء اليك أريد أن أحملك قبوله . ولكن لا بد من التكلم معك كلاما طويلا حتى تعرف حقائقه . ولما كان الغد ذهبت فى الميعاد المضروب الى دار ذلك الداعى . فاذا هو يتطلب المقدمات لمحادثتى فى الأمر الذى دعانى من أجله . فتعرفت ذلك فى وجهه . فقلت له هات ما عندك موجزاً فان وقتى لأضيق من أن أضيقه فيما لا يجدى . قال

— جاءنى منذ يومين صديقى فلان . وهو من وكلاء الدعاوى بالآستانة . وقد أسلمنى مقالة شديدة الطعن يزيف بها أقوالك فى ذم السلطان ورجاله وفيها من الأدلة على بطلان دعاواك مالا يدحض . وطلب منى نشر المقالة في جريدتى . وأنا استمهلته الى أن أراك وأخاطبك فى ترك الخصام وأدعوك الى الهدون . فما رأيك فى ذلك ؟

قلت : — انى ليحزننى أن تؤخر نشر مقالة ربما كانت لك من ورائها منافع . هذا وينبغى لرجال الصحف ان لا يحابوا فيما يظنون أنه الحق . وأنا أقرأ ماتكتبه . فاذا رأيتك مصيبا فيه اعترفت لك بالحق ورجعت عما يتبين لى أنه باطل . واذا رأيتك مخطئا رددت عليك قولك أو تركتك واياه جانبا وآثرت السكوت . وليس من الانصاف أن تهمل نشر مقالة تعرف أنها ناطقة

بالصواب وتدع صاحبها ينتظرها بغير طائل .

قال — أنا لم أخدع صاحب المقالة . وكما أنك صديق هو أيضا صديق ولكني أردت أن أقرب بينكما وأن أجمل اتفاقكما بالحجة .

قلت — مالى وله . كل يعمل على شاكلته . واذا كان صاحبك يرى عبد الحميد بريئاً مما يوصم به فليبق كذلك . لعل له عذراً ونحن نلوم . ألا ترى أننى أقمت زمناً أدافع دون عبد الحميد ولم يرجعنى عن الاخلاص له جدال ولا دليل الا مارأيته بعينى وجربته بنفسى . وعسى أن تعلم الأيام صاحبك من مثالب سلطانه مايفلل أنفته ويكسر من عزمه . ثم هممت أريد الانصراف . فأمسك مخاطبي بذراعى قائلا تمهل ريثما نتفق معك على أمر .

قلت — أراك غير تاركى يومنا فماذا تريد ؟ دع الاشارات وهات ماعندك من الأمر الصراح .

قال — أما وقد أبيت الا البيان . فهاك ماعندى . يريدون أن يرجعوك الى الآستانة كما فعلوا بمراد وغيره . وهذه فرصة لايضيعها عاقل . وقد علمت أن مرادا مقيم هناك بحال يحسده عليها السعداء . ومن يمنعك اذا أنت أحرزت هنالك جاها منيعاً أن تنصر الحق وتنفع اخوانك وبلادك ولا أكتمك أن السلطان مل الاشتغال بامر الأحرار أو كاد . فاذا هو أهمل يوما أمرهم وأرسل حبل كل على غاربه ومحا الله آية ظهورهم أخاف عليك أن تحشر يومئذ فى زمرتهم وتلاقى من الاهوان مايلاقون . ومالى ولهذه الأحاديث فى غير جدوى . أنا ضمنت للرجل بمالى عليك من الدالة أن ألاقيك به . فهل أنت واعدى بذلك ؟ فما دون الزيارة شيء لو أجبت اليها . تعال غداً

ولنذهب اليه معاً .

قلت : — لاضير . وفارقته على أن أعود اليه فى الغد . فلما آن موعد اللقاء جئت داره فاذا هو فى انتظارى . فحملنى فى عربته وانتهينا الى منزل رحيب بجوار البنك العثمانى فى القاهرة . فاستقبلتنا سيدة علمت بعد ذلك أنها حليلة غريمى . فجلسنا اليها وأقبلت علينا تحادثنا . فاذا هى شرقية مقيمة على شرقيتها فى كل أطوارها . مع أدب غض وعقل راجح . وبينا نحن كذلك اذ وافانا الغريم . فرأيته قد تبادل مع صاحبي نظرتين فاجأهما منى لحظ شاعر يرمى الأغراض طائرة فيصيبها وتم بيننا التعارف . ثم أراد أن يبدأنى باللوم على ماجرى به قلمى . ولكنه وقف غير متقدم فى شوطه وايقن أن مثله لايجادل مثلى . فاختار الصراحة غير تارك مكره وقال :

— سمعت عن ولى الدين من أصحابه أنه يجل عن أن يتهم فى ذمته . وأنه لايقاس بغيره ممن كشفت الأيام عن مكنونات ضمائرهم . وقد رأيت فى مقالاته مايؤيد قولهم . ولكننى مولع بمناظرة الفضلاء . وأرى أنه لو دخل فى خدمة الحكومة العثمانية وصدق فى خدمتها كما تقضى به عثمانيته أتى بلاده بالخير الجزيل . أجل ياولى الدين ان الحكومة العثمانية فى حاجة الى اصلاح مابها . فقد أشكلت أمورها واشتدت خطوبها وعظمت بلاياها وما دواؤها الا من كان مثلك ممن لا يخشى في الحق لومة لائم .

قلت — ان بلاداً تبيت فى حاجة الى مثلى لجديرة بالرثاء . وما قدرى أنا بين الرجال حتى أصلح ملكا كبيراً أريد فساده من يوم خلقه .

قال — أنت لا تستطيع أن تصنع وحدك شيئا : والجنرال أحمد

جلال الدين باشا لم يسع فى استرجاع الأحرار الا لأمرين . أولهما وعد السلطان له باعلان الدستور بعد رجوعهم. ثانيهما جعلهم في وظائف يساعدون بها اخوانهم على ذلك . ولست وحدك فتستعظم الخدمة . بل هناك آخرون ولوهم أموراً لا يقدر على تدبيرها غيرهم . ونحن لا نختار للوطن الامن نثق بمضاء عزيمته وصدق نيته . ولو لم أكن سألت عنك الثقاة من أصحابى وأتبعتك نظرى على غير علم منك حتى وقفت على جلية أمرك لما سعيت فى التوصل الى محادثتك . ولك الرأى فى القبول وفى الرد. ثم اعلم أنه جاءنى أناس ممن يدعون الانتصار للحرية وطالبونى بالاتفاق معهم على اسكاتهم وساومونى ذممهم . فكان حظهم منى الاغضاء عنهم . ولقد بلغت الجرأة من بعضهم أن توعدونى بذمى فى جرائدهم اذا أنا لم أجبهم الى مطالبهم . فلم ينالوا منى سوى الخذلان .

قلت — أفارقك الآن وأعود الى بيتى فأتدبر الأمر وأتبين دقائقه ولى من أثق بآرائهم ولا أستغنى عن مشورتهم . وأنا من أنصار الشورى فلا يجوز لى اهمالها في أمورى بعد ماقضيت بوجوبها فى أمور الناس . ولا ألبث أن آتيك بما يقرّ عليه رأيى . ثم ودعته وانصرفت مع صاحبي وفارقته هو أيضاً وعدت الى بيتى .

هذه الذكر تبعث الشجون وتقف بالمرء موقف الشك حتى فى ذاته . فوالله ما أدرى أتعجيل مغنم أم حب وطنى استخفنى !!! ظللت ليلتى مفكرا أطالع صحائف الماضى من تاريخ حياتى . فاذا بالأربع وعشرين سنة من أيام عمرى اذ ذاك لاتفى باستنتاج عبرة ولا بمعرفة صواب. شباب منشأه الشرق

ومجاله الشرق وأيام خلت بين الدفاتر والأقلام فى تصوير خيالات لا حقيقة وراءها . ومكتسب نزر من العلوم يكاد لا يعد شيئاً . أريد ولكننى لاأدرى ماأريد ولا كيف أريد. قلت أظل أخدم الحرية حتى ينصر الله جيشها وتخفق على بلادى رايتها. ولكن الرجل أخبرنى أن خدمتى تؤخر حصولها . وأن السلطان لا يضن بها اذا اختار السكوت طالبوها . قلت أذهب الى الآستانة وأقيم فيها على مناصرة اخوانى المجاهدين وأعمل على خير وطنى فلم يعدنى الشك وقلت من لى بمن يضمن لى صحة ذلك . ثم من هذا الرجل الذى سخره الله لى ليقف فى وجهى ويقيد يمينى حتى لا تخط فى سبيل الحق حرفا ويكمّ فمى فلا ينطق فى نصرة الحرية كلمة . وماله علىّ من سلطان وأنا فى مأمن من كيده اذا شاء أن يكيدنى ! وهل هو صادق فيما يخاطبنى به أم يريد أن يسرق منى فؤادى . ولقد نظرت الى صور من جاهدوا فى سبيل الحرية وهى معلقة أمامى على الحائط . وفيها أبو الأحرار وحاميهم مصطفى فاضل العظيم وشاعر الوطن وعاشقه وشهيد هواه نامق كمال. فخيل لى أنهما يرميان الىّ بألحاظ ملؤها عتاب . كأنهما يريدان أن يقولا لى أكذا حبك لبلادك ؟ أنت لا أقال الله عزتك، جندى خائن . اعتقلت سلاحك وبرزت فى ميدان الحفاظ . ولما رأيت التماع النضار بأيدى الأعداء ملت اليهم وتركت من وراءك من أعوان نجدتك واخوان غزوتك غير متلفت نحوهم. ألهذا رجونا كم يا أعقاب السوء وعباد المال وحثالة رجال البأس . فأقف صامتاً واجماً لاأدرى ما أجيبهما به غير أنى قلت ليس بينى وبين الجماعة الى الساعة أمر مبرم فأوخذ به . وأنا لو شئت لأنلتهم من بغيتهم طول الحسرة

عليها . وعقدت العزم على أن أخاطب من أثق برأيه وأعرف بعد نظره .

ولما كان الغد بكرت نحو مستشارى فأطلعته على قصتى من أولها الى آخرها وقلت له . الآن لك حكمك .

قال — ياولىّ الدين سافر على حب الله ومن أحب الوطن أحب الموت فى سبيله . فاذا صدق القوم فى وعدهم وأقرّ عبد الحميد الدستور . فحسبكم أن تكونوا يومئذ غارسى أعواده ومجتنى ثمراته وان نابكم من خطبه ماعساه يكون أضمره فتلك سبيل ان منكم الا واردها . وانه ليسليكم أنكم ذاهبون فى خلاص الوطن . ثم اعلم أن الجنرال جلال الدين لا يقاس بغيره من المقربين . أولئك يبيعون أولادهم ابقاء على حظوتهم. والجنرال لا يدخل فى مأزق يشك فى الخروج منه . وهو اذا استشعر تحت الأمر بشر يؤثر الموت على أن يعيش متهما فى ذمته .

قلت — غدا يذيع بعض المفسدين بين الناس أنى سافرت الى الاستانة طلباً للمال وأنى بعت وطنى بيعا .

قال — دع الناس وما يقولون . ما سلم من ألسنتهم أحد قبلك فتسلم أنت . أنت فى شأنك وانفع وطنك اذا استطعت له نفعاً . فان كان فى الناس من يعرفك حق المعرفة فقد كفيت عنده شر الملامة وان كان فيهم من لا يعرفك فبينك وبينه الأيام . أنت رجل بغير نصير . ولو كان لك حزب يتحدث بصنائعك ويبلغك بالمدح عنان السماء لاستقام فى عليائه جدك وأقبلت دولتك . وبينا نحن نتحادث اذا بخادم مستشارى الجليل يستأذن لغريمى . فأذن له . فدخل علينا مسلما وأطلعه مستشارى على ماخاطبنى

به ولم نلبث أن تم بيننا التراضى على سفرى .

ولقد رأيت كثيراً من رجال الحرية وأنصارها الذين لبوا دعوة عبد الحميد وتسابقوا اليه يرجون ثوابه يحاولون اليوم انكار ما كان من عودتهم. ليقول الناس انهم كانوا معذورين . ومنهم من يقول أنا كنت آخر الراجعين ومنهم من يقول أنا لم أرجع . وكل هذا تضليل وبهتان . بلى هو أعظم من التضليل والبهتان . وياخجلة المرء عند نفسه أن يكون منافقا وأن يكون جبانا . ووالله ما أدرى ماذا يرجون وماذا يتقون فان كانوا يرجون أن يجازوا بالوظائف العالية وأن يسير خلفهم العامة هاتفين ليحيي أبطال العثمانية ليحيي حماة الدستور: فهذا فخر ابتذل حجابه وبات جديده خلقا . وان كانوا يتقون ماينزل بالخونة والجواسيس من العقاب وعلموا أنهم هم الخونة والجواسيس . فتعسا لهم أن جمعوا الخوف الى اللؤم . وفى خلة منهما مايغنى عن أختها. لعمرى لنعم المناط للعدل عقدة حبل تقضى بها للعدل حقه . وأنا امرؤ رجعت الى الآستانة رجوعا ليس فيه مايخجل الحر ومن أجل هذا أقول غير مستشعر خوفا ولا آمل نفعا . لوطنى منى حياتى وكل ما كان دونها على أعيش عثمانياً وأموت عثمانيا

ولنرجع الى ما كنا بصدده :

كتب غريمى الى الجنرال أحمد جلال الدين يخبره بما كان من رضائى. فجاءه الجواب بسفرى مع والدتى وأخى يوسف حمدى يكن فسافر غريمى معنا الى الاسكندرية وفيها نزلنا بنزل (أبات) ولقد رأيت على باب النزل فخرى باشا ومحمود شكرى باشا . أما الأول فلم يكن يعرفنى الا اسما . واما

الثانى فكان يعرفنى جيداً ولكنه لم يكن محباً لى بعدماجرى بينى وبين المعية. فاشار غريبى الى الأميرين بيده واضطرنى الى السلام عليهما . فحيانى أجمل تحية وانصرفت . وقد قال محمود شكرى باشا لغريبى : أما وقد أخذت هذا فهات المدافع وارم بها أى (قصر) شئت.

ولما استقرت قدمى على ظهر الباخرة المسماة (توفيق ربانى) وأقلعت بنا تؤم (فروقا) بين آذى البحر وزبده وأخذت يد الفضاء ويد الماء تنطبقان على البر جرت على لسانى هذه الأبيات التى أذكرها هنا لاشارات فيها لاتخفى على اللبيب . قلت :

قد دعانى داعى فروق اليها	فاجبت الدعاء حين دعانى
أنا أهوى بين البلاد فروقا	وهى أيضاً بين الورى تهوانى
وتمر الأيام لا أنساها	وتكر الأعوام لاتنسانى
ياربوع الهوى بأية كأس	قد سقانى فيك الهوى من سقانى
بلبل مشتك وورد سميع	انظروا كيف يصنع العاشقان
خبر الناس أيها النيل عنى	واشهدا معه أيها الهرمان
لم أودعكما ملالا ولكن	وطنى فى خطوبه نادانى

كذلك انقضى ذياك العهد · وانطلقت بنا السابحة الهوجاء فى وخدها وخببها صافرة زافرة . حتى اذا كان أصيل اليوم الخامس بعد الرحيل ارتفع لنا دخان علمنا أنه الأرض ثم تعاقبت البيوت البيض بين الأشجار الخضر فاذا نحن بمدخل الخليج

سلام عليك أيها الوطن . ياأملى وجنتى . يا أيها البلد الذى لم تغيبك

عن روحى مرامى النوى . ولم تتغلب على تذكرى اياك ملاهى الصبا . تفقدك ناظراى فى محاسن الأشياء فاذا بك تتمثل فى أشدها علاقة بالنفس. وتتطلبك خاطرى فى معانى الكمال فاذا أنت ديوانها المرتب . سمعت سويجع الأثلاث على مطلولة العذبات فغلبتنى الغيرة عليك ووددت لو مزجك الله بروحى مزجا . الآن أحس بالعجز عن ايفائك من الوصف حقك . ولو كان كتابى كتاب رواية أو أدب لأطلت الكلام بما أقضى به بعض مايجب علىّ نحوك . ولكن هل ذلك نافعى فى هواك . وبى من الشوق اليك مالو كان بالبحر لغيض ماؤه . وبالأرض لسالت شعابها

﴿ مقامى بالاستانه فى جمعية الرسومات (الكمارك) ﴾

خرجت في الفصل المتقدم عن أسلوب المؤرخ الى أسلوب الشاعر . ماحيلتى ! هاجت فؤادى ذكرى أيام مضت . وللطرب مقادير كما للأسف مقادير . وحسبي ما تقدم قد اتأدت وللقارىء الكريم من سجية العفو مايستطرد قلمى على قرطاسى.

أنا ولدت بالآستانة وخرجت منها فى نحو الثالثة من عمرى . ثم زرتها مابين سنة ١٨٩٥ وسنة ١٨٩٦ . فاقمت بها حولا كاملا وانثنيت الى مصر كما أشرت الى ذلك فى أحد الفصول التى مرّت . وبقيت بمصر نحو الثمانية أشهر وأخذت الى الآستانة . فكانت هذه هى المرة الثالثة التى قدّر لى أن أنشق ريا تلك الربا وأعلّ صافي مياهها وقد صدرت الارادة الحميدية بجعلى عضوا بجمعية امانة الرسومات (مجلس ادارة الجمارك)

فدخل بى فى قاعة رحبة تدور بجوانبها مكتبة واحدة مصنوعة من

الخشب ، سوداء اللون ، مكسو اعلاها بالجوخ الأحمر وتدور معها من جانب
دون جانب كراسى مصفوفة مكسوة ايضاً بالجوخ الأحمر . تلك مقاعد
الأعضاء . وفى صدر المكان مما يلى الجهة اليسرى من مدخل القاعة مكان
الرئيس الأول والى يمينه مكان الرئيس الثانى واسم كليهما رضا بك . وفى
المكان مكتبة صغيرة امامها كرسى . ذاك مكان كاتب الجمعية يجلس فيه ويتلو
على الاعضاء مايجب أن ينظروا فيه من المضبطات وغيرها .

فلما قدمت الى الرئيس الأول أو رضا الأول رحب بى قليلا وأكرمنى
بسيجارة لم يمهلنى الى استكمالها وأشار بيده الى المكان الذى خصص لى (بعد
أن علم أنى من أصحاب الرتبة الثانية من الصنف الثانى !!) فكان مكانى
قريباً من باب القاعة من الجهة الواقعة على يمين الداخل. فما استقربى الجلوس
الا وارتفعت أيدى الأعضاء مشيرة بالتحية فاجبتهم بمثلها أو أحسن منها
وظللت مكانى لأدرى ماسيكون من أمرى. ولم ألبث أن جىء لى بقهوة
يمانية فى فنجان مذهب كبير كأنه الدلو . فجعلت أعب فيها عباً ولا أمصها
مصا وانى لأجيل طرفى يمنة و يسرة لأرى مايصنع أولئك الأعضاء رجال
الدولة الذين شرفنى الله بأن حشرنى فى زمرتهم. فرأيت بعضهم يقرأون أوراقا
متراكمة أمامهم ثم يجعلون تحتها تواقيعهم ورأيت بعضهم يوقعون على الاوراق
من غير أن يقرأوها ورأيت بعضهم يتسارون ويتغامزون ورأيت بعضهم
يتسللون الى خارج القاعة الى حيث لا أدرى مايصنعون ثم يرجعون. كل هذا
وأنا فارغ اليد من العمل . جالس كالصنم غير المعبود. فعرانى السأم وكاد يتغشانى
الكرى وقد استطال لبثى كأنى مجذوم بين صحاح .

فتقدم نحوى الرئيس وأشار الىّ ان اتبعنى. فتبعته الى حجرة معاون أمين
الرسومات. وامين الرسومات بمنزلة الناظر والرسومات أمانة أى (مصلحة).
والأمين رجل ممن أحرزوا رتبة الوزارة اسمه نظيف باشا . كان ناظر المالية.
والمعاون رجل اسمه محمد على بك ممن نالو رتبة البالا (تأتى دون الوزارة)
وكانت كلمة المعاون أسرع أثرا وأمره أمضى نفوذاً. لأنه كان متزوجا أخت امرأة
الباشكاتب تحسين. فدخل رئيس الجمعية حجرة المعاون ودخلت أنا على اثره
فرأيت مكاناً ضيقاً فى صدره مكتبة أمامها كرسى عليه رجل عظيم الجثة ذو لحية
أوروبية سوداء الى اصفرار . كبير العينين وسيم الوجه فقدمنى اليه الرئيس
وبعد ذلك سأله عما يجب فى أمر تحليفى.

فقال المعاون لا بد من انتظار الأمين وسيحضر غداً . فخرجنا من
عنده ، ولما كان الغد دعيت الى حجرة الأمين فرأيت فيها الرئيس ومكتوبجى
الأمانة (السكرتير) والمعاون وكاتب الجمعية يتوسطهم الأمين . وهو رجل
طويل القامة أسمر اللون يحسبه من يراه أول مرة أحد كتاب بيت المال .
له لحية كالرغوة. ووجه كالصك العتيق. فسألنى الكاتب ان كنت توضأت فقلت
لا . قال لابد من الوضوء . قلت لا أعرف كيف يتوضأ الناس. فنظر فى وجهى
باهتاً وسكت . فأقسمت للجماعة يميناً وهذا مضمونها « أقسم بالله لاكونن
صادقا للحضرة السلطانية والدولة العلية ولا أنحرفن عن الأمانة فى جباية
أموال الدولة . » نطقت بهذه الكلمات واضعاً يمناى على المصحف . فلما انتهت
اليمين هنأنى الحاضرون وعدت مع الرئيس الى قاعة الجمعية .

فما استقربى الجلوس الا جاءنى الكاتب بأوراق بعضها فوق بعض فتركها

أمامى . قلت فى نفسى . هنا يزل قدمك ياولى الدين ٠ أين أنت من أعمال الكبارك . وهل هذه مثل أبياتك وفصولك تنقش بها طروسك وتتلوها على مستمعيك . فمددت يمينى وأخذت ورقة من تلك الأوراق . فوالله للغة اليابان او اللغة الهيروغليفية أقرب الىّ منها فهما . لم أجد الا أرقاما بازائها كلمات ومصطلحات لا علم لى بواحدة منها . فتركت هذه الورقة جانباً وأخذت أخرى غيرها لعلى أجد فيها شيئاً يصل اليه فهمى . فاذا هى اسوأ حالاً وأحكم عقدة . فظللت حائرا لا أدرى ما أصنع . وقد اشتد مابى . فبقيت أتناول ورقة وأطرح ورقة كأنى فى حانوت وراق وأنا كلما أوغلت فى الاختيار زدت عجزا عن الفهم . فرجعت الى التى أخذتها أولا . فوقعت عليها ثم أتبعتها بغيرها ولم أزل حتى أتيت على الجميع . وكان الرئيس يلحظنى شذرا ويعجب بى ظنا منه أنى أفهم هذه الأشياء . فلما آن أوان الانصراف دنا منى قائلا أكثر الله من أمثالك . ضقت والله ذرعا بهؤلاء الذين تراهم على مقاعدهم فليس فيهم من يدرى ماذا يعمل . وما للجمعية منهم الا هذا الغرور الذى تراه . وقد رأيتك تتأمل الأوراق تأمل من لا يدع لفكره شبهة فى عمله . وانى لأرجو أن تكون نافعاً لنا .

قلت في نفسى بعد ما شكرته : اللهم هذا ثناء باطل وعبدك هذا مخطىء وأنا ابعد الناس عن معرفة مادعيت له . ولكننى سأجهد النفس فى معرفة ما أجهله ولو كلفنى ذلك أشد النصب .

فخرجت ولم انظر خروج الرئيس فمشى أمامى الحجاب يوسعون لى الطريق وأنا احيي من يقفون لى اجلالا . وانا جى الله فى ضميرى ان

يهب أصحاب المقطم من الضعف ما وهبنى ليؤخذوا الى الاستانة ويكونوا أعضاء بالمجلس العلمى فى باب مشيخة الاسلام وأن يكون سليم سركيس وكيلا لأمين الفتوى .

ثم مرت الأيام وأنا لا أنقطع عن مكان وظيفتى . باذلا قصارى الهمة فى تعود أمورها والمعرفة بأساليبها . فكنت أسمع بأسماء بعض الأعضاء ولا أراهم . أولئك أبناء المقربين والمحتمون بجاههم . كانوا يتقاضون رواتبهم غير مكلفين أنفسهم تعب الحضور الى مقر وظائفهم لأخذها بل كانوا يرسلون من قبلهم أناساً يأخذونها لهم .

ولقد تعارفت فى جمعية الرسومات ببعض أعضائها معارفة لم تزد على المحادثة فى حجرة (الاستراحة) وتعاطى السلام . وبقى آخرون لم أر وجوههم وانى لأجهل الى اليوم أسماءهم . فقد كنا نحو الثمانية والأربعين عضوا . ما كان يحضر منهم الى وظيفته غير العشرين . فمن عرفتهم من أعضاء الجمعية رفعت بك هو حفيد فؤاد باشا الشهير الذى توفى فى فرانسا . كان فر الى اوروبا ثم استرجعه السلطان حين استرجع مراد بك . وهو رجل حسن المحاضرة طيب الطباع ولكنه كان مولعاً بشاربيه أكثر من ولعه بأعماله . فما جالسته يوماً الا رأيته يبرمهما ويرفع طرفيهما تشبها بامبراطور المانيا . ومنهم راسخ بك وهو ابن المرحوم عابدين باشا الشهير الذى كان واليا على جزائر الأرخبيل وذهب الى (يلديز) طالبا الاذن له فى البقاء بالاستانة وجعله صدرا أعظم . فسقوه قهوة ما استقرت في جوفه ساعة حتى قضى نحبه فى القصر وأخرج الى بيته ميتا . وراسخ بك هذا شاب مهذب الأخلاق طاهر السريرة . عرفته

قبل دخولي الجمعية. غير أني لا أجد بداً من الاعتراف بأنه كان من المتناهين
في الكبر والغرور. ولا أنسى قوله لي يوماً وقد جلس قبلها الى جانبي ثلاث
مرات من غير أن يكلمني كلمة واحدة: كيف حالك ياسيدي البك وقولي له:
كما تراني منذ ثلاثة أيام. لم أتغير فيها أبدا. فلم يحر جوابا واختار الصمت.

ومن رفاقي بالجمعية حكمت بك. غير الذي تقدم ذكره. وقد نفي الى
سيواس بعد نفيي اليها. فصار رفيقي في منفاي أيضا. هذا رجل أحبه كثيرا.
وأنا أوآخذه على خلات وددت لو نزهه الله عنها. رأيته يحسد بعض أصحابنا
ورأيته يتزلف فنهيته فانكر عليّ ذلك وكان يحب (الدوندرمه) كثيرا.
أبصرته ذات يوم أكل منها ستة أطباق متتابعة. وكنت حين أمازحه بسيواس
أذكره بذلك فتقوم بيننا القيامة. ومنهم رفعت بك وهو من أسرة كردية لها
مكانة بين الأكراد. نعم الرجل هو لولا تنسكه وتورعه. كنت أرتاح الى محادثته
لولا مايدخل فيها من أحاديث العبادة والتقوى حتى لتكاد روحي تزهق ضجرة.
ومنهم علي ساجد بك وهو من أحرار العثمانيين. شديد المضاء في حريته. يكاد
يكون كاتبا مجيداً. بلده ازمير. سافر منها الى الاستانه طالبا امتياز جريدة يصدرها
بازمير. فوشي به بعض الجواسيس الى السلطان وقالوا يريد أن ينشيء هذه
الجريدة ليبث فيها الأفكار الحرة شيئاً فشيئاً. فرأى عبد الحميد أن يجعله عضوا
بجمعية الرسومات ووعده براتب قدره عشرون جنيها في الشهر. ثم لم يخصصوا
له سوى نصفها. ووعده الصدر الأعظم اذ ذاك وهو خليل رفعت باشا بأن
سيزاده باقي راتبه بعد زمان قليل. فأخذ علي ساجد يكتب له الكتاب وراء
الكتاب يذكره بوعده. متوعداً اياه بالخروج من الاستانة. ثم هبت عليه نفحة

من نفحات الشباب فأرسل الى الصدر الأعظم رسالة برقية قال له فيها: كنت
أرجو أن تعرف قيمة وعد العظيم ولكنك حمار. فأخذ من الجمعية وأرسل
الى قسطموني منفيا وبقي هنالك الى أن أعلن الدستور. ولله ما كابد هذا
الشاب من الظلم وما ذاق من مضض العيش على عهد والي قسطموني
المستبد خائن الوطن وعدو أبناء آدم أنيس باشا. تلك مصائب لا أعادها الله
ولا أعاد أيامها. وكان علي ساجد يألف معاهد اللهو وينقطع الى لذاته. فلم
يعجبني منه سوى اقدامه على المخاوف وجرأته على الظالمين.

أما رفاقي الذين لم أرهم على مقاعد وظائفهم ولا مرة واحدة. فمنهم
حسن خالد الصيادي الرفاعي القرشي الهاشمي المدناني الحلبي وهو ابن أبي
الهدى وسبق الكلام عليه. ومنهم انجا زاده عبد الغني الطرابلسي. كان صفي
أبي الهدى ثم تهاجرا. فلجأ عبد الغني الى عزت العابد وباح له من أسرار
الشيخ بما لا تستقيم له هذه السطور. واضطر بعد ذا الى مصالحة أستاذه
وطلب الاذن له بالذهاب الى الحج. فاذن له السيد ودس له من رماه برصاصة
ذهبت بحياته. ومنهم كيلاني زاده . . باشا. أصابه من لؤم الصيادي ما كاد يقضي
على حياته. وغير هؤلاء كثيرون نسيت أسماءهم ولا أذكر منها اليوم واحداً

هكذا ذهبت أيامي بجمعية الرسومات تأتي الأوراق مكتبتي فتستقر
عليها ماشاء الله ثم تنتقل الى غيري وليس لها مني سوى التوقيع.

وياشد ما كنت أضحك اذ يجس أحد الاعضاء الزر الكهربائي الكائن
أمامه فيسرع اليه الحاجب في ثيابه المخملة ويقف أمامه مكتفاً يديه منتظراً
اشارته فيرفع العضو عند ذلك رأسه قائلا: هات قدحا من الشاي أو هات

طبقاً من (الدوندرمـه) . فأقول : قاتلكم الله وأنا معكم . ياعيال الحكومة وطفيليتها . وملوك المقاعد وعبيد الرواتب . لو أنصف الدهر لنال هؤلاء الحجاب مكانكم ولأصبحتم أنتم مكانهم . فهم أصدق منكم خدمة وأنفع سعياً . آه ياعبد الحميد ما أبصرك بقلوب رعيتك . أخذت أنت مالا تملك ووهبت من لايستحق . وجعلت خزائن ملكك نهباً مقسما بينك وبين اولى المطامع .

لم أشك تأخر راتب ولا طول كد. غير أن الذمة وقفت بيني وبين ذلك الخفض الذى كنت فيه رأيتني أنقد المال وليس لى فيه حق. بحبس القروى ويضرب لكل قرش من قروشه وأنا قاعد على الكرسى الفخيم يسير الحجاب بين يدى ليوسعوا لى الطريق. تلك لعمر الله سرقة سيعاقبنى فؤادى عليها ولو عفا الله عنها .

فقلت أبعد بذلك المال وأبعد بتلك المقاعد وكتبت الى السلطان رسالة برقية أسأله فيها نقلى الى وظيفة أحسن القيام بمهامها. فرأى أن ينقلنى عضوا الى المجلس الأعلى بنظارة المعارف مع زيادة راتبى زيادة تبلغ حد الكفاية . فصدرت الارادة السلطانية بذلك فأسرعت الى جمعية الرسومات وودعت من استطعت أن أراه من رفاق وداع من لا يرجو التلاقى أبد الدهور وخرجت أيمم نظارة المعارف وأنا لا أدرى أفيها أحد يعرفنى أم ليس لى فيها أحد. فدخلتها خائفاً متردداً كمن يلج غابات لا يدرى ماوراءها .

﴿ أنا بنظارة المعارف ﴾

قلت أرى أن أذهب الى (المحاسبه جى) وهو بمنزلة مدير الحسابات

فى الحكومة المصرية . فأرسلت اليه بطاقتى مع الحاجب . فبادر الى استدعائى لعنده . فلما توسطت حجرته نهض واقفاً وتقدم نحوى خطوات ومد الىّ يمينه محيياً . وهذا المحاسبه جى رجل اسمه شكرى بك الحسينى . ينمى الى بيت من بيوتات الحسب فى المقدس . قدم الآستانة فصاهر أحد الباشاوات المعروفين وبذا نال من الترقى ماجعله بالمكان الذى رأيته فيه. فلما جلست اليه أقبل علىّ يحادثنى. فأخبرنى أن زهدى باشا ناظر المعارف لم يحضر وسألنى الانتظار الى وقت حضوره ليدخلنى اليه ويعرفنى به . قلت ما فى الانتظار من بأس. ثم مالبثنا أن أخبرنا الحاجب بحضور الباشا . فتركنى شكرى بك مكانى وبعد دقائق قضاها عنده جاء فاخذنى معه وأدخلنى الى حضرته . فاذا هو رجل كهل بادن منتفخ الوجه ذو لحية بيضاء تبدو فى خلالها شعرات سود هى من بقايا ماترك الشباب فتقدمت مشيراً بالسلام . فرفع يمينه قليلا جواباً لسلامى وأومأ الىّ أن اجلس فجلست . ثم التفت نحوى ليكلمنى فقال :

— هل سبقت لك خدمة فى الحكومة ؛

قلت ـ نعم كنت من أعضاء جمعية الرسومات . بقيت فيها نحو العامين . والآن نقلت الى المعارف .

ـ هل حلفت اليمين القانونية ؟

ـ هل يبقى مستخدم فى خدمته عامين ينظر في أعمال الحكومة من غير أن يحلفوه اليمين ؟

ـ حسن . وماذا تعرف ؟

ـ لا أعرف شيئاً .

وكيف يجعلونك عضوا بمجلس المعارف الأعلى اذا كنت لا تدرى شيئاً. أمدرسة هذه جىء بك لتتعلم فيها ؟

فرأيت كلام الرجل غليظاً كطبعه فقلت فى نفسى: الرأى أن أكلمك بما تفهم. فاللهم عفوا عما سيجرى على لسانى. لا أنطق به مختارا بل مضطرا وقلت.

ـ انما قلت انى لا أعرف شيئاً، تأدبا. والا فانى من أكبر الراسخين فى اللغة العربية واللغة التركية. يشهد الملايين ممن قرأوا ما أكتب أنى من شعراء الطبقة الأولى ومن الكتاب الآخذين بنوصى الكلام. نظرت فى العلوم قديمها وحديثها قريبها وبعيدها. فأصبت منها الحظ الأوفر. هذا وأنا أحسن الكتابة والكلام باللغة الفرنسوية وأخذت من فنون علمائها ما لم يفز بمثله غيرى. ولى مؤلفات بالعربيه والتركية هى حجة العلم لنقض الجهل. فجعل الرجل يستمع حديثى ويتأمل وجهى كمن يريد أن يبلو محدثه. فعلمت أنى كبرت فى عينى هذا الناظر الغبي وأيقنت بعدها أن خير ما يحفظ للمرء كرامته فى عاصمة الملك العثمانى هو أن يكون مدعيا لما ليس فيه من المزايا

وكان شكرى بك جالسا أمام زهدى باشا غارقا فى صمته يصغى الى حديثنا ولا يشاركنا فيه. فقال له الناظر مشيراً نحوى بيسراه: خذ هذا وادخل به الى المجلس. فسلمت وخرجت وأنا لا أدرى كيف أكتم ضحكا يكاد يغلب علىّ هنالك. فأمسك شكرى بك بيدى ونزل بى الى قاعة المجلس الأعلى.

فلما ولجنا الباب رأيت مكانا رحبا في وسطه مكتبة مستطيلة كالخوان. على طرفها الكائن بصدر المكان رجل كالقبرة. يكاد لا يجده متفقده لولا عمامة كقرص من الجبن الكريتى تشرف على مكانه. وعلى الجانب الأيمن

للداخل أعضاء كلهم معممون وعلى الجانب الأيسر آخرون على رؤسهم الطرابيش. فتقدم بى شكرى بك الى الجالس بصدر المكان وغمز ذراعى قائلا : هذا هو الرئيس حيدر افندى. ولما صرنا أمامه قدمنى اليه وتركنا وانصرف. فدار الرئيس بعينيه فى الجلوس ثم التفت نحوى قائلا :

ما ثم مكان خال. الأعضاء أكثر من الكراسى عددا. فاجلس الى جانبي حتى يخرج أحد الجالسين فتجلس مكانه. وخاطب الحاضرين يعرفهم بى : فسمانى لهم وبالغ في مدحى كما أسر اليه شكرى بك قبل انصرافه. هنالك ارتفعت الأيدى بالسلام وابتسمت الثغور ترحيبا. ثم خرج بعض المعممين فجلست مكانه. وانى لأجيل ناظرى يمنة ويسرة لأنظر مايصنع هذا الجمع. فرأيت فى الموضع القريب من باب القاعة رجلا ربعة القامة. كث اللحية أسودها ممتلىء الجسم. على ناظرتيه (نظارة) بيضاء يقرأ بها أوراقا أمامه ويوقع تحتها فدلتنى هيأته وأطواره على أنه رب فضل. وعلمت بعدها أنه أمر الله بك الشهير. وكان فى مواجهتى رجل نحيف الجسم ذو لحية سوداء أيضا اسمه راسخ افندى. حادثته قليلا فظهر لى من حديثه أنه أصاب حظاً من العلوم الآلية وأنه يقول الشعر ويجيده بالتركية والفارسية على الأسلوب القديم. فقلت فى نفسى هذا مجلس المعارف الأعلى. ولا بد أن يكون هؤلاء الرجال من جلة أهل الفضل والمتقدمين على كثير من علماء زمانهم. فخير لمثلى أن يختار السكوت لكى لا ينكشف جهله وتصاب مقاتله. فاذا تعودت الأعمال ووقفت على حقائق الأشياء أتيت لهم بما يتجدد لى من رأى تكون وراءه فائدة تستفاد.

وبينا نحن كذلك اذ دخل علينا رجل قيل لي انه أحد كتاب قلم المجلس . قد زرر (سترته) أدبا وأمسك أوراقه بيديه وتقدم حتى قارب مكتبة صغيرة هي على يسار الرئيس فوضع عليها الأوراق ووقف ينتظر الأمر. فقال لي راسخ افندى :

ـ الآن يقرأ الكاتب علينا ما ينبغي أن ننظر فيه من الأوراق . فاذا انتهى من تلاوتها أبان كل منا عما يرى . فاذا رآها على مايجب وافق عليها واذا رأى موضعاً للاعراض اعترض. فتناول الكاتب ورقة تلاها بصوت عال وأنا أسمعه وأتأمل حال الأعضاء . فرأيت واحدا يسر لمن هو جالس الى جانبه حديثا. وآخر يكتب كتابا . وثالثا يأكل الحمص ورابعا أثقل النعاس هامته وخامسا يقرأ جريدة فى يده . واذا كلهم كما قال الحسن ابن هانىء :

كأن أرؤسهم والنوم واضعها   على المناكب لم تخلق بأعناق

فهالني مارأيت حتى خيل لي أني بين جماعة من أبناء السبيل نزلوا بدار مطعم وأقاموا ينتظرون غداءهم . واستمعت مايتلو الكاتب . فاذا هو استئذان من النظارة بصرف مائة وعشرين قرشاً لاصلاح أنابيب المياه فى مدرسة من مدارس البنات لايحضرنى الآن اسمها . فلما انتهى الكاتب من التلاوة وشرح الرئيس للأعضاء مجمل ماتلاه . قال أحدهم :

ـــ فليكن

آخر ـــ لا . لايكون أبداً .

ثالث ـــ ولم لايكون ؟

رابع ـــ نعم . صدق فلان . هذا لايكون أبداً .

خامس ـــ أنت لاتدرى من هذه الأمور شيئا . تكلم فيما تدريه ولا تشغلنا بهذرك هذا .

سادس ـــ أرجو أن لايطول هذا الجدال والااضطررنا الى الدخول معكم فيما لانريد .

الرئيس ـــ كفى كفى يظهر لى أنكم توافقون كلكم على صرف العشرين والمائة قرش .

الجميع وفيهم المخالفون ـــ نعم نعم . كلنا نوافق .

فوالله مارأيت مشهداً هو أنى لصبر وأجلب لضحك مما رأته عيناى. فيالك من مبرك ابل أنا أحد أذواده . فعاودنى هنالك شيطاني ونفخ فى أذنى نفخته . فقلت لمعمم كان باركا الى جانبي :

ـ ماقدر ميزانية المعارف ؟

ـ لاأدرى .

ـ كيف لاتدرى ثم توافق على احتساب مبلغ منها ؟

ـ وما يعنينا نحن من ذلك ؟ لينظر فى الأمر من هم فوقنا . وما جىء بنا هنا لنحاسب الناس على كل مايقولون . أنا أحب أن لاأتعدى مارسم لى وأنت جئت اليوم . فلا تدري من أعمال المعارف شيئاً . فأولى لك أن لاتعجل فى الرأى وأن لاتكشف مقاتلك لحاسديك . قلت وهذه فائدة استفدتها وقد ذهبت هيبة المجلس من عيني وأيقنت أن هذا البناء الذى يظل رجال العلم فى الامبراطورية العثمانية لايؤوى الا اناساً هم نخبة جهلائها . فأشفقت على وطني وتمنيت أن لاأعيش حتى أشهد مصرعه .

فلما كان المساء وآن للمستخدمين أن يخرجوا من بيوت العمل الى مضاجع الراحة أو معاهد اللذات تلفع كل ذى عمامة عباءه ولبس كل ذى طربوش معطفه (بالطوه) . فدنا منى راسخ افندى وقال لى :

— كم جعلوا راتبك؟

— لادرى .

— أنصحك لوجه الله الكريم. لاتتأن فى أمرلك نفعه وعليك ضرره. اذهب من ساعتك الى الناظر . فقل له كم جعلتم زيادة راتبى؟ أنت لاتعرف زهدى باشا . سل عنه مستخدمى المعارف يخبروك خبره : هذا رجل سوء ماقدر على ضرر يضر به أحدا وتأخر عن تممده . وربما أدى به حلمك الى الاقتصاد من راتبك وجعل مااقتصده من نصيب غيرك . ادخل عليه الآن قبل أن يخرج : ثم اياك والافراط فى التأدب والتحشم . هذا رجل جاهل يحسب الأدب خضوعا وتذللا . فلا تملكه ناصيتك فهى فى قبضته.

فما أتم راسخ كلامه الا هرولت نحو السلم وجعلت أصعد فوقه درجتين درجتين حتى بلغت أعلاه وأنا لاأجد نفسا أتنفسه : فدخلت حجرة الناظر بعد ما استأذنت . مخالفاً لما أشار به علىّ ناصحى من ترك الاستئذان : فرأيت شكرى بك الحسينى عنده . فسلمت ولم أمهله أن يسألنى عماأريد. بل وضعت يدى على جانب مكتبته معتمدا عليها وقلت له :

— جئت لأعلم مقدار راتبى .

هنالك ذوى عنى وجهه وقال :

هذا ينظر فيه حين يجىء وقته . فتركته وخرجت . فاذا راسخ

فى انتظارى أمام باب النظارة. فلما رآنى أومأ بعينيه يسألنى عما كان فقصصت عليه الخبر . فقال : — اذا رجعت الى بيتك ففكر فى أمرك علك تهتدى الى مايريح خاطرك . ثم انه سلم علىّ وفارقنى .

ولا يفوتنّ القارىء الأريب أنى لم أنتقل طول أيام مقامى بالآستانة من نظارة المعارف الى نظارة غيرها . فحسبه قليل ماجاء فى هذا الفصل وسأعود الى الكلام على المعارف كلما أدى اليها سياق الحديث . ولنرجع الى ذكر أشياء تقدمت ذلك . وقعت قبل أن أفارق جمعية الرسومات. فان لهاشؤونا لايخلو ذكرها من فائدة .

الأميرة الجليلة الفاضلة

(نازلى هانم)

« كريمة أبى الحرية والأحرار الأمير المرحوم مصطفى فاضل »

لايسع نطاق كتابى ترجمة حياة الأميرة الفاضلة ولا نحن بصددها فأزين بها صحائفى. ولا أريد أن أستعيد هنا ماسبقنى اليه الكاتبون من بيان أعمالها التى يفتخر بها أهل الفضل . ولكننى ذاكر طرفاً مما وقع لها في احدى زياراتها بالآستانة لوقوع ذلك بمقربة منى . وقد وددت أن أطبع صورتها فى طالعة هذا الفصل غير أن أهل الشرق عامة والعثمانيين خاصة لم يتعودوا هذا وفى القلوب من التعصب مايجعل عملى مستهجناً ويستثير علىّ الأضغان . وبذا أحجمت عن مخاطبة الأميرة فيما كنت أتمناه . فلتبق صورتها بموضعها من

التكريم فى قلوب المعجبين بفضلها ولتتكلم آثارها اذا سكت مادحوها

أجل . تجاسرت الأميرة الفاضلة على شخص الاستبداد فى حصنه المنيع وعلى رأسه تاج الخلافة وفى حركة شفتيه شقاء العباد وسعادتهم . فابهرتها (جلالته) ولا هالها بطشه وقدرته . فتراءت له في صورتها الجميلة ونفسها الجليلة مرأى الشمس تنير الأبصار ولا تحدق اليها الأبصار . وكأن روح أبيها كانت تصحبها كلما تمثلت بين يدى الملك الظالم وكأن روح أبيها كانت تشير اليها بما تخاطب به عدو أبيها وعدو أبنائه الأحرار .

انى ذاكر في هذا الفصل تعريب كتاب تركى كانت أنفذته الأميرة الفاضلة الى عبد الحميد : فقصمه وأسهده وسيبقى حجة عليه فى كتاب تاريخه الى آخر عهد الناس بالدنيا .

الكتاب كانت أنفذته الأميرة من القاهرة فى ٢٢ اوكتوبر سنة ١٨٩٦ وذلك حين جاءها أن عبد الحميد ناقم عليها لحضورها بعض اجتماعات مؤتمر تركيا الفتاة الذى التأم فى تلك الأيام بباريس وقد تتابعت الوشايات يومئذ لعبد الحميد تحرضه كلها على الأميرة . وكانت حجة المستبدين فى تخطئة فاضلة الشرق أنه لا يجمل بعقائل الاسلام أن يسافرن الى بلاد النصارى ويخالطن أعداء الخليفة . ولو رزقهم الله أقل ما رزق عباده من عقل أو انصاف لفاخروا بها النساء من سالفات ولاحقات ولقالوا ان التى خطبت الناس يوم الجمل لم تأثم وقد أدى ذلك الى سفك الدماء فكيف تأثم من حضرت مؤتمراً ألف ليستخلص الوطن من يد قاتله .

صورة كتاب الأميرة الفاضلة الى عبد الحميد نقلا عن جريدة (حذام) التى كان يصدرها شقيق يوسف حمدى يكن :

القاهرة فى ٢٢ اوكتوبر سنة ١٨٩٦

مليكى .

قرأت مع الأسف الشديد فى جرائد اوروبا التى وردت فى هذا الأسبوع أن مولاى الأعظم غاضب علىّ غضباً شديداً . وعلمت أن السبب في غضبه حضورى مؤتمر (تركيا الفتاة) الذى عقد بباريس . ولهذا أرجو الاذن لى ببيان مايدور بخلدى فى هذا الباب :

ان استهدافى للغضب الملوكى ليس بالأمر الحادث . ولكنه مستمر منذ أربع سنوات . واذا وجب أن يميز من حل بهم ذاك الغضب سهل تعيين الفئة التى ينبغى أن أحشر في عدادها . غير أن حضورى مذاكرات هذا المؤتمر ليس تذرعا للشهره فهو اذن منزه عن كل غرض ذاتى .

يذكر مولاى الأعظم أنه قال ذات يوم للمرحوم خليل باشا شريف : « انى مغرم بكلمة الحق » ولقد بشرنى المرحوم بهذه البشارة الملكية وتعاهدنا كلانا منذ ذلك أن لانحيد عن كلمة الحق .

قرأت ماينشره هذا المؤتمر من زمن مديد واطلعت على اللوائح التى رفعها الى الأعتاب الشاهانية . ولما كانت هذه المنشورات بمثابة كلمة حق فى وصف الدمار الذى باتت فيه الممالك المحروسة الشاهانية رأيت أن أحضر مذاكرته عند نزولى بباريس .

فشهدت من الجميع منتهى الود والولاء للمقامى الملوكى وللوطن والأمة ورأيت الجميع باكين لحال الوطن الذى بات على شفا الفناء .فهاجنى ذلك وتذكرت أن مولاى كان مغرما بكلمة الحق . فظننت وآسفاه أنه ربما تسلى عن ذاك الغرام . ولكن هز فؤادى .اعاهدت الله عليه وأيقنت أن العشق يزول والعهد يبقى .

لما زرت الآستانة منذ أربع سنوات أوصانى بعض المقربين بأن أرفع الى مولاى عريضة أستقيل بها من هفواتى . ولما لم يكن لى علم بهفوة تكون سبقت لى لم أقدم على هذا الأمر . فقد تغيرت سياسة مولاى مع الانكليز وذهب الرضاء الذى كان توسط لى فى نيله المرحوم السير هارى لاير : وانى لأتلقى بكل ارتياح توسط الانكليز لى فى احراز رضاء مليكى . بلى أشكر اليوم ما أصابنى من الغضب الملوكى . وان فى بعدى عن مشاهدة ماوقع بالآستانة من الزلازل وما نزل بالرعية من الفقر وماجرى من دماء المظلومين الذين ذبحوا كما تذبح ألاضحية وعن سماع استغاثات المظلومين وتأوهاتهم مايسلينى وما أحمد الله على بعدى عنه . وسأستمر لذا على العمل بنص الأمر الملوكى الذى أبلغتنيه الحكومة المصرية غير وسمى مادامت لى الحياة .

على أنى لاأبرح داعية بطول عمر مولاى وبقاء دولته ولاأبرح داعية بان يعود له سالف غرامه بكلمة الحق . فاذا قدر الاله ليزولن بؤس اليوم كما تزول الرؤيا المفزعة . فيصبح سعيداً مهناً ويلقى رعيته فى رغد بالاتحاد والحرية. فان رعيته لاتريد منه الا ان يكون أباً مشفقاً . لعلى تجاوزت الحدوأسأت

البيان. فلست أدرى مبلغ وقع ما أتشرف بعرضه . فليثق مولاى أن كلام أصدق عبيده فى زماننا هذا لا يختلف عما جرى به قلمى . وليوقن مولاى أن ورقتى لم تسطر الا بخالص النية وصادق الولاء .

بنت المرحوم مصطفى فاضل باشا المصرى

خادمتك

نازلى

أميرة ورثت فضل أبيها كما ورثت مجده . تقيم أمثالها بظل شاهقات القصور . يسحبن ذيل الامارة مختالات فى حلل التيه . تسفر فى سماء معاليها على الوطن فتكسوه نوراً !! : لعمرك اهى واحدة الشرق وسيدة السيدات المتحجبات .

وصل كتاب الأميرة الى يد عبد الحميد . وكم كتاب قبله لم يحرك له نخوة ولم يبعث له همة . لقد أسكن الله بين جنبيه روحا أعوذ بالله أن تكون من روح عبد الحميد . هى روح أجنبية عن المعالى . يزهقها الحق ويحرقها الحلم . هى وسواس يحرك جسداً لا يحلو على أديمه نعمة من نعم الله . فلما استقرأ الكتاب استشاط غضباً واربد وجهه وغلب عليه طبع أكلة البشر . فلو كانت الأميرة عنده ساعة رنت فى آذانه كلماتها لنشب فيها أظفاره وأنيابه ولكنه اكتفى من الانتقام بما خص الله به أهل العجز من الجبنين وحقد حقداً لا تزيله من صدره تقلبات الأيام . وما زال يتلطف فى استدعائها الى الآستانة واعداً اياها الخير والمزيد حتى أجابت دعوته بعد سنة ١٨٩٨ على وجه التقريب .

فتقدمت الأميرة الى الآستانة ونزلت فيها بمنزل الجنرال احمد جلال

الدين . ثم دعاها الى (يلديز) فأكرم وفادتها وأظهر لها مالا يكنه فؤاده . فلما عادت الى مصر ظنّ أن قد أصبحت فى عداد أعوانه وأنه اذا شاء حارب بها أعداءه دعاة الحرية. فخاب ظنه . وندم اذ أفلتها من يديه بعد أن حسبها وقعت فى حبائله فلم ينفع الندم . ولقد بلغ بغض عبد الحميد للأميرة الفاضلة ان خاف رجاله أن يذكروا لها اسماً فى القصر كلما أتى ذكرها فى جريدة من جرائد اوربا ولقد كدت ألقى حتفى يوم كتبت للأميرة خطاباً أنفذته اليها من الآستانة بعد سفرها. فلا أدرى كيف علم به الجواسيس وأخبروا به عبد الحميد . وأحمد الله اذ لم يكن بذلك الخطاب شىء من السياسيات: ومنتهى مالقيت يومئذ أنى سئلت عما يدعونى الى مراسلة الأميرة . فقلت لمن سألونى . ان بيتى ينمى الى بيتها فهى الأصل وأنا الفرع : وقد دام اتصالنا بوالدها المرحوم ماعاش أبى وما عاش أعمامى ولم نبرح مخلصين لهذا البيت العالى ماشاء الله .

وأعجب ما فى السياسة الحميدية أن أعوان عبد الحميد أنفسهم كانوا يسخرون منه ليستمطروا هباته . فكان أكثرهم يكذب فيما يشى به اليه. فيزعم له أن عنده أنباء الأميرة وأنه بث عليها الأرصاد ليستطلعوا له أسرارها وكان عبد الحميد يصدق ذلك.

ولولا أنفة وحكمة فطرت عليهما بنت الأمير الفاضل وصدق ود من الجنرال أحمد جلال الدين لتمكنت مخالب الظالم من ذلك الفؤاد الكريم ولأصابه مايصيب كل ذى رأى من الهفوات التى لاينسيها توالى الأعصار . ولكنها نبذت كل وعد واستحقرت كل وعيد وجاءت تاركة عبد الحميد يندب خيبته فى سبيل التغلب عليها .

﴿ الجنرال احمد جلال الدين ﴾

كان ينبغى علىّ أن أذكر هذا الفصل فى طالعة الكلام على رجوعى الى الآستانة . فان الجنرال احمد جلال الدين كان الوسيط بينى وبين عبد الحميد وهو الذى نزلت على داره حين قدومى الآستانة وهو أول رجل قابلته فى تلك السفرة . غير أنى تجاوزت عن الأطالة وطويت ذكر أشياء لافائدة تحتها . فليس لها شأن يستلفت نظراً أو يسترعى سمعاً .

انى رجعت الى الآستانة ثقة بوعد احمد جلال الدين أن لايصيبنى بها هوان . فقلت حسبى وعده . ولقد قال لى : اذا رأيتنى لاأقدر أن أذود عنك مكروهاً تلطفت فى خلاصك واخراجك من الآستانة . وكلام أهل النجدة ينبعث من الفؤاد وعلى قدر جرأة المرء يكون صدقه . واحمد جلال الدين جرىء الجنان لايروعه مخوف وان جل ولا يملأ عينيه خطر وان عظم .

رأيت هذا الرجل بموضع لايرومه المتطاولون . منيع الحمى . مرهوب البطش . نافذ الكلمة . يقيم فى بيت تزدحم على بابه الأفواج . فمن حله أمن غارات المطاردين وبات بموئل لاتطول اليه ولا يد عبد الحميد . هذا كلام ربما حسبه قوم مبالغاً فيه كل من أقام بفروق شهراً واحداً عرف ذلك . وانما ثبت قدمى الرجل فى موقفه احتقاره الموت وازدراؤه بما كان فيه من جاه رفيع . ولقد حلت به نكبة عبد الحميد قبل ذلك . فشد وثاقه وصاحت السلاسل على ساعديه وقدميه ونفى الى حلب وأقام بها ماشاء الله أن يقيم .

فنصره حقه وخذل أعداءه باطلهم .

هذا رجل رباه السلطان المستبد . أخذه صغيراً لايميز الخير من الشر وأظله بظله وقيده بقيوده . فلو نشأ ظالماً مثله سفاكاً للدماء كذوباً حولاً قلباً لمهد له العذر تعوده ذلك . ولكنه غلبت عليه البداوة الحرة وللبداوة حرية لاتطاولها حرية التمدين . فغلبت نفسه على وساوس الغرور ونزق الشباب وعاش صحيحاً بين جرب . وللدهر من العجائب مالا ترقى اليه العلل غير أنى آخذته على أمور وددت لو سلم منها . فقد رأيته مطواعا للمخادعين آمناً عواقب الفتنة من قوم كان واسطة عقدهم وملتقى أهوائهم . ورأيت ذكاءه في التمييز بين الناس دون ذكائه الذى يقدم به على المخاوف . وهذه خلال تؤذى الأحرار وتحرم أكثر الرجال أن يجتنوا ثمرات مساعيهم . على أن أصلها عدم المبالاة والاهوان بالحوادث .

ثم ان أحمد جلال الدين لم يتخرج من مدرسة ولم يتعلم من العلوم ما اذا أضيف الى ذكائه الفطرى زاده رونقاً وحباه كمالا . كل ماعرفه عرفه تجربة وممارسة وقد تعود الأناة وروض نفسه على مجانبة الطيش. فاذا جرى فى مجلسه كلام على أمر لايعرفه أمسك عن الخوض فيه ولم يتعسف الرأى كما يتعسفه أكثر الناس . واذا تكلم فى أمر سبق اليه علمه أعجب به سامعوه اعجاباً .

ولما امتحن عبد الحميد صدق ربيبه وجرب اصابة رأيه رمى به الدواهى ففرج له غماءها وأزاح مخاوفها . فكان يتكل عليه في شدائده ولا يحبه . وما أحب عبد الحميد أحداً من الناس ولا أبناءه الذين من صلبه . ولقد عرف

لدى العثمانيين باسم (سر خفية) ومعناه رئيس الجواسيس . وكان ذلك من حظ المظلومين . فكم أنصف منهم من حاق به الظلم . وكم أغضب عبدالحميد ليرضى فقيراً لا يملك قوت يومه . وما عهد الناس عليه تجسساً ولا عرفوا له مثلبة تشبه التجسس . والرجل لايملك اليوم لنفسه ضراً ولا لغيره نفعاً . ولو افتريت عليه كذباً وبهتاناً لما لحقنى منه سوء . غير أنى أقول لامرتقباً جزاء ولا طالباً شكوراً : لعمرى لنعم الرجل الهمام أحمد جلال الدين .

ولا أنسى ماسمعت منه كثيراً بمحضر من حاشية عبدالحميد من الكلام الذى يتجاسر عليه حر من الأحرار . ولقد دعانى ذات يوم الى منزله وقال لى : بلغنى أن قد جاء الآستانة شاب ممن كانوا في جنيف . ونزل متنكراً بمكان فى (بيرا) لاأعلم أين هو . والأحرار لايخفون عنك أنفسهم . فاذهب وفتش عليه حتى تجده . فقل له ان فلاناً يهديك سلامه ويقول لك انه اتصل به أن جماعة من الجواسيس يفتشون عنك فاذا وجدت سبيلا الى دارى فلا تبطىء فى الالتجاء اليها واذا تعذر عليك ذلك قل انى استدعانى أحمد جلال الدين وأنا لا أذهب الا مع رجاله . فقضيت يومى اسأل عن الشاب الذى ذكره لى فلم أجد له أثراً وأخبرته بذلك فى المساء فعمه الخبر . وقال : سأبذل كل مرتخص وغال في معرفة مكانه لأجعله في مأمن من شر أعدائه.

وكانت العداوة بلغت مبلغ الكمال بينى وبين أبى الهدى . فجاءنى منه الوعيد بعد الوعيد : وكنت كتبت فى سيئاته فصولا نشرت بجريدة الرائد المصرى الذى كان يصدرها بمصر صديقى القديم نقولا افندى شحاده . وانتحلت لنفسى امضاء زهير اذ لا يصح لموظف فى الحكومة أن يراسل

الجرائد . وقد قلت قصيدة خاطبت بها عبد الحميد أذكرها هنا ايثاراً لواقعتها :

ألا أقتل أمير المؤمنين أبا الهدى	فقد جار فى الاسلام ما جار واعتدى
سعى مفسداً بين الرعية جاهلا	فلم يستطع ثم استطاع فأفسدا
تظن به خيراً ولا خير عنده	وما هو الا الشر فى جبة بدا
رفعت أمير المؤمنين مكانه	ليرشد للحسنى وما كان مرشدا
فأكبره قوم ودانوا لأمره	وأصبح يدعى فى البرية سيدا
يقول غداً يرجو خلافتى الورى	ومن ذا الذى يرجو خلافته غدا
عفاء على العلياء ان رضيت به	وويل على الأمجاد ان هو مجدا
يهددنى بالبطش لادر دره	ويعلم أنى لا أبالى مهددا
كأنى لم أنصب له أمس غارة	أقام لها الدنيا بكاء وأقعدا
ولم أرم فيه من سهامى صائباً	ولم أجر فيه من سيوفى مجردا
بلى رعت منه مهجة ذات مرّة	وأوقدت فيها الغيظ حتى توقدا

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

فغصته هذه الأبيات فما ساغ له ريق وأقذته فما اغتمض له جفن . وأذكى علىّ العيون والأرصاد وأتبعنى بجماعة من رجاله ليوقعوا بى فى غرة منى . فكلمت فى أمره أحمد جلال الدين . فاذا قلبه يتلظى عليه غيظة وحنقا . فقال لى هوّن عليك الأمر فالخطب أصغر ما تظن . ودعنى أنازله بالبأس

ونازله أنت بالقلم .

قلت : ـ هذا رجل شديد الوطأة على خصومه صعب الشكيمة سابغ الدروع . تصرد سهام راميه وتصيب سهامه . فنظر أحمد جلال الدين الىّ نظرة ملؤها الأسف وقال : كنت أحسبك أعظم جرأة مما أرى .

قلت : ـ عندى رسالة صغيرة كتبتها . اسمها (الخافي والبادى فى فضائح الصيادى) وأريد أن أطبعها بمصر .

قال ـ نعم الرأى ولكن على أن تتعرض للسلطان . فانى أخاف أن يبطش بك . أما أبو الهدى فلك أن تقول فيه ما تريد على أن لا تذكر شيئا غير الحق . فانى رجل لا أحب النصر بالباطل . هنالك كتبت رسالتى وبعثت بها الى مصر مع أخى يوسف حمدى يكن . فطبعت . فباع الطابع رحمه الله نسخها وقد بيعت النسخة الواحدة منها بجنيه وبقى لى ولأخى من الكسب تعب الكتابة والطبع .

ولقد زرت الجنرال أحمد جلال الدين باشا يوما . فرأيت عنده الميرآلاى الدوكتور عزت بك . وكان عالجنى فى سفرتى الأولى الى الاستانة : فلما رآنى أحمد جلال الدين قال للدوكتور . أعد على ولىّ الدين ما كنت تقول لى الساعة . فوجم الرجل . فقال له أحمد جلال الدين : ليس من الرأى أن تخاطبنى فى رجل وهو غائب وأن تسكت وهو حاضر . وأنت لا بأس عليك وما على الرسول الا البلاغ .

قال عزت بك ـ ان أبا الهدى أرسلنى اليك لتأذن لولىّ الدين فى الذهاب اليه وهو يقول لك : لا تخف عليه . انه بمنزلة ولدى ولا يصيبه عندى

سوء . وما أدعوه الا لأعاتبه عتاب الآباء الأبناء.

قال أحمد جلال الدين ـ أعدت الآن رسالتك بمسمع من غريك وها أنا ذا أعيد جوابى لك بمسمع منه أيضاً . بلغ عنى أبا الهدى أن يده لأقصر من أن تصل الى ولىّ الدين بشر . وأنا لا أمنع ولىّ الدين عن زيارته اذا هو شاءها ولكننى أمنعه بعد ذلك أن يدخل لى بيتاً . ثم التفت نحوى وقال :وأنت ماذا تريد ؟

قلت ـ أرى ماتراه .

ولقد أظهر أحمد جلال الدين من النخوة ما أوثره له مع أجمل الثناء. أما عزت بك فرجع الى أبى الهدى وأخبره الخبر. فوقع على فؤاده كالسهم اذا أصاب صميمه . وسكنت عواصف الغضب فى فؤاد عدوّ لو ظفر بى لأحرقنى بالنار.

وكان بنفسى شىء فى رجوع مراد الداغستانى الى الآستانة . وقد اختلفت الروايات فيها. فزعم جماعة أن عبد الحميد استرضاه وقال آخرون لا بل التمس هو الأسباب للرجوع حين نفدت دراهمه . واذ كان رجوع الداغستانى هو على يد جلال الدين سألته يوما أن يخبرنى بما وقع . فأخبرنى أن عبد الحميد استدعاه ذات يوم وقال له :

ـ رأيت أن أؤخر اعلان الدستور الى أجل غير محدود . وذلك لأن الأمة لم تكن متهيأة له . فأما وقد عرفت مزاياه وظهر من أبنائها من يهجرون أوطانهم ويستصغرون المهالك فى طلبه . فقد آن لنا أن نهبهم طلبتهم . ولكن هذا لا يتم وفى أوروبا مثل مراد وغيره يملأون الصحف ويواصلون الجهاد .

ومثلى لا يرضى بأن يقول فيه الناس انه خاف جماعة من رعيته خرجوا عليه فأعلن الدستور مكرهاً لا راضياً . فاذهب الى هؤلاء الناس وقل لهم أن يرجعوا الى بلدهم وليمر على رجوعهم بعض الشهور وأنا أحلف لك بشرف المتقدمين من أجدادى أنى أعلن الدستور بعد ذلك .

قال أحمد جلال الدين ـ فخرجت من عند عبد الحميد وانا أكاد أطير فرحا وقلت في نفسى لا يوثق بكلام هذا الرجل ولكنه آلى يميناً لا يحنثها أبدا : فأدركنى الحاج على باشا رئيس قرناء السلطان اذ ذاك. وقال أمرنى مولانا أن أبلغك صدور الارادة الى البنك العثمانى باعتماد كل ماتطلبه من المال على حساب السلطان . فتبسمت له ابتسامة ازدراء عرف المراد منها . وخرجت ولم أجاوبه بشىء . ولما التقيت بمراد الداغستانى ورفاقه قبل مراد بغير شرط . الا أن رفاقه طلبوا المال وقالوا ان علينا ديونا ولا نستطيع أن نسافر قبل قضائها . ومنهم من رضى أن يكف عن الكتابة فى طلب الدستور على أن ينقد مالاً يعيش به فى أوروبا وأن لا يكره على العودة الى الاستانة . فأديت سفارتى وقلت انى لم أكلف بسماع اقتراح . وقلت لهم : أنا لا أحب الدخول فى أمور مالية ولكننى سأكتب الى السلطان مطالبكم ولا أدرى ان كان يرضاها أم يأباها . ولما جىء لى بالكتاب وقد كتب على ما يريدون أمسكت القلم بيدى وقلت . وددت لو انكسرت يمينى ولم أكتب مثل هذا الكتاب . أما مراد الداغستانى فلم يرض بالمال الذى أمر به السلطان ولكنه اقترض منى ألفى فرنك ليشترى بها بعض الهدايا لبنتيه وتم الأمر ورجع مراد الى الاستانة.

وقد أنفق أحمد جلال الدين فى سفرته هذه من ماله الخاص نحو العشرين ألف جنيه : ولما سئل عن مقدار ما أنفق قال : لم أعده الى الآن ان هو الا قطرة من جود مولاى السلطان. ولم يستعض عن على ذلك كثيراً ولا قليلا :

واذ وفق الله أحمد جلال الدين الى استرجاع أكثر الاحرار واستراح عبد الحميد قليلا من سهر الليالى ومراقبة العباد وبق جواسيسه لا يتهمون الا رجالا ممن لا يخرجون من أسوار الاستانة. راع ذلك حساد جلال الدين وقالوا : لقد فاز عند السلطان أيما فوز فلا تنفع فيه الوشاية ولا يضره الحسد ولـكن الحاسدين لا يملون والأعداء لا يغفلون . وقد عرف ذلك أحمـد جلال الدين قبل وقوعـه . فقال للأحرار الذين خاطبهم فى ترك النضال . انى منذ اليوم من الهالكين. أسعى لأرجعكم وهذا السعى ينفعكم ولا يضركم ويشرح صدر السلطان . غير أن لى أعداء سيجعلون نجحى وبالا علىّ. وقد صدق فآله وجعلوا نجحه وبالا عليه وذكروا عند عبد الحميد أن أحمد جلال الدين لو لم يكن متواطئا مع الأحرار لما استطاع اسكاتهم . وكيف خاب غيرهم فى مخاطبتهم وأفلح هو ؛ ولم يثق الأحرار بكلامه ولا يثقون بكلام غيره ؟ فصدق عبد الحميد هذه الأكاذيب وقلب لأحمد جلال الدين صفحته لما رابه أمره . فأذكى له العيون والأرصاد وأقصاه عن حظوته وتخذه لنفسه محاربا ولسطوته مغالباً .

شهدت كل هذا بعينى وأنا اذ ذاك بالاستانة أزور منزل جلال الدين وأغشى مجالسه ولو بلى غيره بما بلى لنجا بنفسه من بين تلك الشدائد ولاطرح

عن كاهله أعباء ينوء بها كل قوى النفس صبور على المـكاره .

رأيت قوما يطرقون باب هذا الشهم ويتهافتون على موائده ويتخاطفون هباته ثم يرمونه بسهام لا تخطىء . وقد رأيت أحمد جلال الدين قليل التفرس وأهل الجرأة لا تفرس لهم وانما يتحرى البواطن ويستقرى السرائر كل قلق الجأش مستطار الفؤاد . فاذا استرسل جلال الدين فى حديثه لم يبال بمن حضر مجلسه من الناس كراما كانوا أم لئاما . وقد يبلغ عبد الحميد أن جلال الدين قال فيه كذا وكذا وأنه نال منه بحضرة كثيرين . فيسر له الحقد ويضمر له الانتقام . ولقد انتقم منه بأن سلط عليـه فيما المشهور كان رجاله يطوفون بيت جلال الدين ليلا حذرين خائفين أن يحس بهم أحد ممن في البيت فيطول همهم .

﴿ الشيخ محمد ظافر المدنى ﴾

لعل قراء كتابى لا يجهلون الشيخ محمد ظافر ولا سيرته . غير أن أكثر ما يقال عن الأخيار كما يقال عن الأشرار . كله غلو وجله بهتان . وقـد سمعت الناس يتكلمون كثيرا عن هذا الرجل من قادح ومادح . فأما القادحون فأنصار أبى الهدى ولا يجوز الاعتماد على كلامهم . وأما المادحون فأنصاره هو ولا يصح أيضاً الوثوق بكلامهم . فكان الصواب أن أبلوه وأختبره بنفسى. أردت ذلك كثيراً ولم أتمكن منه اذ لم تأت الفرص بما يجمعنى وإياه . وأنا رجل قليل الجرأة على الناس. لا أقدم على غشيان منازلهم ان لم يسبق بيننا تعارف . وما زلت أسكن ما بقلبى من هذا الشوق حتى حان الحين فجاءنى ذات يوم رجل من معارفى يخبرنى أن آل ظافر يودون التعارف

بى وأنهم معجبون بما هجوت به أبا الهدى . فسرنى ما بلغنى ولكن اعجابهم بهجائى أبا الهدى أحدث فى قلبى الريب . فقلت لصاحبى : سأنظر فى ذلك. على أنى أخبرك مذ الآن أنى لا أحب أن أكون البادىء بالزيارة . ان أولى الجاه والحظوة يزدرون بالمتطفلين عليهم . فاذا بدأونى ألفونى أهلا لمودتهم . قال :

— لك علينا ذلك . ولولا ثقتى منهم بشدة الرغبة اليك لما فاوضتك فى ملاقاتهم ولا حببت اليك مخاطبتهم . ثم فارقنى الرجل غير ضارب ميعاداً لتلك الزيارة ولا لعودته الىّ . ومضت على ذلك أيام قلائل . وفى أصيل ذات يوم وقفت أمام باب دارى عربة خرج منها ثلاثة رجال . فعرفت أحدهم وهو ذلك الرجل الذى كان عرض علىّ زيارة الظوافر . أما رفيقاه فلم أعرفهما بادىء بدء ولكننى فطنت أنهما أو أن أحدهما لابد أن يكون من أبناء الشيخ محمد ظافر .

فلما أدخلوا علىّ قال دليلهم مشيراً الى النحيف منهما : هـذا عطوفة مصطفى بك ظافر . ثم أشار الى البادن وقال : هذا محمد افندى الاسير نجل العلامة الشهير الشيخ الأسير صاحب الأسفار الجمة التى عرفها العلماء . فكان مجلسنا مجلس صفاء . منزها عن الغيبة والمفاخرة والكبرياء ولم يشأ مصطفى ظافر أن يبادرنى بذكر شىء عن أبى الهدى وتعمدت أنا أيضاً الصمت عن ذكره وجعلت أنشد لهم بعض قصائدى وأقص عليهم ماحضرنى من الأخبار . فلم يطق محمد افندى الأسير صبراً ورأى أن يجسنى بشىء من دهائه فقال :

— يزعم بعض الناس أن أبا الهدى ناقم عليك كثيراً وأنه لا يهنأ له عيش دون الايقاع بك . فلقد آلمه ما كتبت عنه فى الجرائد وأظنه الآن يتدبر لك مكيدة يكفى بها شرك .

قلت — له أن يصنع مايشاء ولى أن أصنع ما أشاء وأشقانا من اذا ظهر خافيه استعصى عليه الجدال . أنا لا أزاحم أبا الهدى على مقام . ولا يجوز أن يكون بيننا تنافس . فهو ولى السلطان وأمينه وأنا أحد أفراد الرعية . وهو درويش من الدراويش وأنا رجل من رجال القلم وموظف من موظفى الحكومة . على أنى أحاربه لا مختفياً ولا خائفاً . فان كان عنده مايبطل به كلامى فليأت به واذا لم تكن لديه حجة تدحض ما أقول فليربأ على ظلعه :

— ماتقول الا الحق . ولكن من لهذا الذى تنازله أن يدين للحق . ولو أنصف لاستراح وأراح . غير أنى سائلك عن شىء أود أن لاتبخل علىّ بجوابه . ولئن كان العهد بمعرفتك قريبا فليس العهد بمعرفة فضلك قريبا .

— هات مايعن لك . فاذا كان مما أعرفه أرضيتك بالجواب .

— يقولون ان عندك صكا بخاتم محمد قدرى العثمانى . كتبه على استلام مبلغ من الدراهم أنفذها اليه أبو الهدى وبتلك الدراهم أعيدت جريدة (القانون الاساسى العربية) بعد أن عطلها صاحبها لضيق ذات يده . فاذا كانت هذه الرواية صحيحة أرى أن تدفع هذا الصك الى سيدنا (يريد الشيخ محمد ظافر) وهو يرفعه بنفسه الى السلطان وتكون لك من وراء ذلك فائدة تجنى ثمراتها مادامت لك الحياة ويلقى أبو الهدى من العقاب ماهو أهله .

— نعم الرأى . ولـكن الصك الذى تسألنى عنه كان عندى ثم مزقته وأنا قادم الى الآستانة . قلت ربما فتشونى فى الـكمارك فوجدوا علىّ هذه الورقة فيحل بى من غضب السلطان ما لا أحب . ولو كان هذا الصك بيدى الآن لما رضيت الانتفاع به . نحن قوم لا نعرف التجسس ولا نحسن السعاية . ولأن يفوز علينا أعداؤنا خير لنا من أن نفوز عليهم بمثل هذه السعايات وفيما أكتبه ويقرأه الناس مايغنى عن تعسف الحيل ومغالبة الرجال بالدنايا .

فقرأ مصطفى ظافر فى وجهى الضجر . فأومأ الى صاحبه ليكف . ولما هم الثلاثة بالانصراف تقدم نحوى مصطفى ظافر مصافحاً مصافحة ود وقال :

— والدى مشتاق اليك . وهو شيخ كبير لا يفارق البيت كثيراً . فلو زرتنا يوما لزرت داراً تسعد بقدومك ولنا مجالس طيبة لا نغتاب فيها أحداً ولا ننطق فيها بشر . فوعدته بذلك وجعلت الميعاد يوم الجمعة . وذهب القوم وبقيت وحدى فقلت يا سبحان الله اذا كان الظوافر على ما رأيت من محمد افندى الأسير فقد ساء فيهم ظنى . نعم ان أبا الهدى رجل سوء وينبغى أن يحارب بكل سلاح ينفع فى حربه . أما اللؤم فلا قبل لى به . واذا كنت أريد أن أحاربه بمثل سلاحه فخير لى أن أسالمه وأن أنتفع بجاهه وكلمته على أنى لا آمن على نفسى الخطأ فى الحكم اذا زعمت أن ما يقوله الأسير يقوله محمد ظافر نفسه . هذا الأسير صنيعتهم ويجب أن يتقرب اليهم باظهار الود والاخلاص وربما استوجب عليه كلامه هذا لوماً وتأنيبا حين يرجع مع ابن الشيخ .

فلما كان يوم الجمعة استصحبت الدليل الذى سبق ذكره وقصدت الى

تكية الظوافر الكائنة على يسار شارع (يلديز) بالآستانة . فاذا بناء شامخ الأركان رحب المكان تحيط به قضبان الحديد . فخم ظاهره عارٍ عن الزخرف باطنه . فسعى بنا خدام التكية الى حجرة واسعة ولم يطل بنا الانتظار . واذا شيخ أبيض اللحية متوسط القامة أكحل الناظرتين وسيم المحيا يسنده فى مشيه خادمان له . فاشار الىّ صاحبى بأن الداخل هو الشيخ ظافر فدنونا منه فحيانا وحييناه وجلس وجلسنا اليه . فأقبل علينا بحديثه وقال انه سعيد برؤيتنا . وكان صاحبى عالما بما ينبغى أن يخاطب به حملة العرش والمقربون . فقال :

— كدنا والله نهب الأرض نهبا شوقا الى مولانا وما خاطبت ولى الدين فى زيارته لمولاى الا ورأيت به من الشوق ما لا يبالى به المرء الشدائد . فتبسم لنا الشيخ وقال :

— حفظكم الله .

وكان بعض الشياطين أخبرنى أن أحد الدراويش قال ذات يوم للشيخ محمد ظافر انى رأيت مولاى فى منامى جالسا على يمين الله والملائكة بين يديهما خشع الأبصار . فاعترض على كلامه أحد الحاضرين . فقال له الشيخ :

— دعه . انما ينطقه اخلاصه ويريه اخلاصه ومن صفت سريرته قرب عند الله مكانه . فقلت فى نفسى : أمتحنه . فاذا كان كلام الراوى صحيحا علمت ذلك من حديثه واذا كان كذبا تبينته . ولكن الشيخ سبقنى الى السؤال فقال لى :

— هل تأتيكم من مصر جرائد ؟

-- لا . فانى لم أطلب لأرباب الصحف أن يرسلوا الىّ صحفهم . فانى أخاف أن يتذرع بذلك بعض أعدائى الى مايطيل همى .

ـ نحن أيضا لا نقرأ الجرائد ولكن بعضها يأتينا على سبيل البركة . وابنى مصطفى ظافر يحب المؤيد كثيراً . وهو يقول انه أكبر جريدة عربية بل أكبر جريدة شرقية . وكل من قرأ المؤيد شهد لصاحبه بالفضل . وقد بلغنى أنه من أكبر الشعراء وأن كلامه كله سجع لا تكلف فيه .

وقد كان المرحوم عبد الله النديم يمدح لنا المؤيد وأخبرنى عزت بك (عزت باشا العابد) أن جرائد مصر كلها تعترف للمؤيد بحق السبق وقال لنا . لولا الشيخ على يوسف لأعلن الانكليز امتلاكهم مصر .

فجعلت أستمع هـذا الكلام من الشيخ الجالس أمامى ولاحت منى التفاتة الى صاحبي الذى جاء بى الى التكيـة فرأيته مطرقا خجلا وقد ساد بيننا السكوت دقائق معدودة . وانا لكذلك واذا بمصطفى بك ظافر قد دخل علينا . فحيانا واستأذن والده فى الذهاب بنا الى حجرته . فأذن له . فدخلنا حجرة رأيت بها شيخاً آخر ينطق الشيب على مفرقه ولحيته . فتبادلنا السلام والمصافحة . ولما استقر بنا الجلوس أومأ مصطفى الى ذلك الشيخ وقال:

— الأستاذ العلامة الشيخ ابراهيم السنوسى من سادات المغرب . هو ضيفنا الكريم ومن المغرمين بشعرك : فأجبت مصطفى ظافر بما يوافق المقام . ثم دخل الحجرة رجل أسود اللحية معمم . فدنا منى وأمسك بيدى ووقف أمامى قائلا .

— أهلا وسهلا بعطوفة البك . حلت البركة . تشرفت التكية . أنا

والله محبكم المخلص . الله يطيل حياتكم ويحفظكم . الله ينصركم على أعدائكم الله لايخيب لك رجاء . الله لا يسؤنا فيك . الله يعطيك البركة . الله يعلى قدرك الله يكفيك شر ماتخاف .

فكاد والله ينفد صبرى من كلام الرجل ودعائه . فقد كان يرتجله ارتجالا غير ساعل ولا متوقف . فبادرنى صاحبي قائلا :

ـ هذا ابراهيم بك ظافر نجل الاستاذ الكبير وأخو عطوفة مصطفى بك . فقلت أنعم وأكرم . وأخذنا نتحادث مع الشيخ السنوسى . فرأيت منه رجلا عالما متفقها كثير التعصب مصدقا لأضاليل الأولين . تمكنه من العلوم الشرعية أعلا قدره فى نظرى واستأنست به واستطبت حديثه . ثم خرجنا من التكية بعد مالقينا فيها من الاكرام والترحيب مالا أستطيع ذكره في هذا الموجز . ومحمد افندى الأسير كان يومئذ متغيبا عن التكية . وكثرت الزيارات منذ ذلك بين الظوافر وبينى . فأنس الىّ مصطفى ظافر وأخذ يفضى الى بأسراره ويشكو مالاقاه من عداوة أبى الهدى له . وكان يقول لى :

– ان أبى رجل درويش فقير لا يريد من هذه الدنيا الا وقتاً يعبد الله فيه ويصلى على نبيه . وقد بلغ من الحظوة عند السلطان مالم يبلغه سواه فلا نال رتبة ولا رضى وساما ولا طمع فى وظيفة يزاحم عليها أهل المطامع . بل عف عن كل لذة وانصرف الى الله عن كل جاه وآثر الآخرة على الأولى . فهو يحب الفقراء ويجلس اليهم ويستطيب مجالسهم ولا تمت به نفسه الى مخالطة الكبراء أولى المطامع . فوالله ما أدرى ماذا يريد منه أبو الهدى وهو مع أبى على طرفى نقيض . تسمو نفسه الى المعالى ويحب

الألقاب ويتعشق الوسامات ويفتتن بحب المال . وهل ينال أبي شيئا يحرم هو منه ؟ حسبنا ما نحن فيه . هذه نعمة من الله لا نستطيع أن نوفيه عليها شكرا . فلا نريد أكثر منها ولا أحسن منها .

قلت — يخيل لى أن أبا الهدى شديد الوطأة عليكم وأنه لا يألوا فى نكايتكم جهدا . ولكن هل تعلم لذلك سببا . فليس من العقل فى شيء أن يناوئكم طلبا للمناوأة .

ـ السبب حسد أبى الهدى لأبى . يرى السلطان مقبلا علينا برضائه واضعا آلنا تحت حمايته . غير مانع عنا خيرا . فيسوؤه ذلك . وهو يريد أن لا يحب السلطان غيره وأن لا يقبل بدولته على سواه . وكثيرا ما وشى بأبى ودس له الشر ولكن نجانا الله من كيده . وكم قال له السلطان أنا واثق بود الشيخ محمد ظافر . معتمد على صدق ولائه فلا تخاطبنى فى أمره بما لا أحب . غير أن عادة الشر تغلب عليه فيسبق لسانه خاطره وينال منا ومن أعراضنا ويرمينا بكل نقيصة . وله رجال يدخلون بيتنا يطأون بساطنا ويصيبون من طعامنا ثم يذهبون اليه بأحاديث ملفقة يستزيدها هو من عنده ما شاء .

ـ وأنتم ألا تنازلونه كما ينازلكم ؟ أبوك له من الدالة على السلطان ما يمنع بها حماه ويكيل لعدوه مكيالا بصاع .

ـ لما كان المرحوم السيد جمال الدين والمرحوم عبد الله النديم على قيد الحياة . كانا يغيظانه حتى تتبادر شؤونه من عينيه . ولقد أطالا سهاده وضاعفا همه . فما كنت تسمع له الا صخبا وعويلا متواصلا وشكايات اثر شكايات يطرق بها باب السلطان . ولما ألف فيه المرحوم النديم كتابه الذى سماه (المسام

قامت له قيامته وجعل يهدر كما يهدر الفحل اذا هاج . ولو مد الله فى أيامهما لعاجلاه بما يلق به حتفه ولكن لكل أجل كتاب . وكان السيد جمال الدين اذا ذكره فى مجلس السلطان لم يسمه الا أبا الضلال . ولقد استشاط عبد الله نديم غضبا ذات يوم وكان دعى الى قصر السلطان وسئل هنالك أن يكف عن هجاء أبى الهدى والسلطان مطل عليه من كوة يسمعه ويراه فصاح النديم بأعلا صوته قائلا : لقد قلد مولانا السلطان أبا الضلال وسام الافتخار . فلألبسنه أنا وسام العار يلازمه فى حياته ويصحبه الى قبره بعد مماته . فخاف من بالقصر من وعيد النديم وأخذوا يتلطفون فى اسكاته ولم يستطيعوا ذلك الا بعد جهد أضناهم .

❊ عزت العابد ❊

قال لى مصطفى ظافر يوما :

هل لك فى زيارة عزت بك العابد ؟ (لم ينل اذذاك رتبة الوزارة) فقد رأيته يثنى عليك أجمل الثناء . وقال لى انه يحب أن يعرفك ذاتا كما عرفك اسما .

قلت — هذه فرصة لا تضيع . ومابى غنى عن معرفة أولئك الذين أحاطوا بسلطان العثمانيين وأضحوا سورا بينه وبين رعيته .

قال اذن فانهض معى لنزوره . فخرجنا . فلما انتهينا الى يلديز ولجنا الباب الكبير الذى يدخل منه الى القصر . وأخذ يسير بى الى أن انتهينا الى دائرة عزت . فاذا هو رجل ربعة القامة نحيف الجسم أسود اللحية

باسم الوجه . فتلقى مصطفى ظافر بالترحاب وتقدمت نحوه فسماني له صاحبي . فصافحني وأجلسني بقربة منه . ثم أراد أن يتمثل ببيت من الشعر فلم يحضره وجعل لسانه يتلجلج ولا ينطق به . فاختار ترك الانشاد ورضي بالحديث .

قال — قضى مرضي أن لا يهنأ لي عيش بأنس ولا بشيء من نعم الحياة. وقد أمر مولانا السلطان أن تخصص لي باخرة صغيرة أتنزه عليها في الخليج . فاذا جاء ميعاد النزهة أرسل أعزه الله يخبرني بالميعاد فأنهض الى باخرتي وأرود بها البوسفور ثم أعود فأدخل الى حضرته . فأتملى بتقبيل أذياله وأنصرف بعد ذلك الى بيتي . غير أن نزهتي هذه لا تسرني كثيراً. فقد أظل بالباخرة وحيداً لا أجد من أحادثه . فرأيت أن أخاطب بعض الأحبة أن يزوروني ساعة خروجي لأستصحبهم معي وأخلص من ملل الوحدة . وقد خرجت الآن مع عبد الجليل أفندي فانشرح فؤادي وطابت نفسي . ويا ليتكما تذهبان معي يوما . هنالك ما يفجر ينابيع الشعر في فؤاد ولي الدين .

قال مصطفى ظافر — ان ولي الدين لا يحب أن يبرح منزله الا مكرها . واذا تركت الأمر له فلا تنتظر زيارته الا نادراً . ولكنني سأحتال في استصحابه يوما لنشاركك في هذه النزهة .

هكذا قضينا نحو ساعة في حديث لا فائدة فيه . والسبب في ذلك أن مكاننا كان مكان خوف . وعلى عزت جواسيس وعلى غيره أيضاً جواسيس وأنا لم أشأ أن أبادئه بذكر شيء تجنباً لما عساه يأتي من جراء كلامي ولكي لا يحسب العابد أني أذم أبا الهدى تحبباً اليه فيتهمني في قلبه بالنفاق وسوء الأخلاق . غير أننا لما أردنا الخروج أمسك عزت بيدي وخاطب مصطفى

ظافر قائلا : أرجو أن تأتي مساء يوم مع ولي الدين الى منزلي لنتعشى معاً . فضمن صاحبي له ذلك . وفي مساء يوم من الايام زارني مصطفى ظافر ومعه ورقة من العابد يدعوه بها الى العشاء ويرجوه أن لا يألو جهداً في أخذي معه فذهبنا . فاذا بيت مدخله مفروش بالرخام الملون . فاخر الأثاث حسن الترتيب . فسار بي رفيقي حتى ولجنا حجرة واسعة ليس بها أحد والى يسار الداخل حجرة أخرى سمعنا بها أصوات اناس يتكلمون . فخرج منها رجل واذا هو عزت . فما وقعت عينه علينا الا بادر نحوي آخذاً بيميني ثم قال :

— تعال أقاسمك مارزقنا الله . هذا جمل للشعراء . أما رفيقك فهو تقي وابن تقي . دعه وحده في مراقبته . فتبسمت وانشدت قول الصفي الحلي :

يرنون بالألحاظ شزرا كلما   صبغت أشعتها أكف سقاتها

فأخذ عزت بيدي ودخل بي الى الغرفة التي سمعنا منها حديثه مع أصحابه . فاذا رجلان أحدهما عبد الجليل افندي أحد الموظفين بادارة الريجي والثاني لا أعرفه : وفي أحد أركان المكان مائدة عليها مالذ وطاب من العرق الشامي وأنواع الأطعمة (المزة) فناولنا عزت كاساً وقال لي : قل فيها شعرا ثم اشربها.

قلت — لم أستصحب معي شيطاني ولا أدري ان كان يهتدي الى موضعي فيأتيني أم يدعني الليلة أخرس لا أنطق بشيء . ومجمل القصة أننا أصبنا راحنا و نلنا طعامنا ثم خرجنا الى الحجرة التي دخلناها أولا . فأخرج

عزت من (جيبه) ورقة بها قصيدة (أظنها للفاضل النبهانى) فأشار الينا أن أنصتوا وراح ينشدها علينا . فسمعت شعراً غير جيد ولكننى آثرت السكوت ولم أعب منه شيئا . فقال عزت :

— هذا رجل من رجال أبى الهدى . ولكنه صلى بناره . فلجأ الى ركنى وأنا حميته نكاية بأبى الضلال . آه ماذا أقول لكم أيها الاخوان . أقالنى الله من خدمتك ياسلطان ياعبد الحميد . وأذهب الله عنى كل عز نلته على يديك . قولوا بالله آمين . فقال الحاضرون :

— حاش لله أن نجيبك الى طلبك . هذا دعاء لن يتقبله منك الله . وكم عند مولانا السلطان مثلك من صادق يحبه ويفتديه بحياته .

قال — هذا الذى سيجلب علىّ البلاء . أنا والله أحبه وأهابه وأعلم أن محبتى له مهلكتى . ثم أية لذة أجدها فى حياة كلها خوف ونصب . الناس اذا أمسوا رجعوا الى بيوتهم . فعاشوا بين أهلهم وأحبابهم . وأنا كالضيف فى بيتى . لقد أنزع عنى ثيابى وأذهب الى فراشى فلا أمهل أن تأخذنى سنة من نوم الا والرسل تتبع الرسل يتعجلون ذهابى معهم الى القصر فأذهب وأنى راغم . وكثيرا مايكون استدعائى لأمر غير ذى بال أو ليسألنى سؤالا لايفيده شيئا . فأظل هنالك ساعات طويلة . وحين أهم بالعودة الى دارى أجد الليل وقد نزع جلبابه ونصل اهابه فأبقى بالقصر ولا أعود الى مساء اليوم الثانى . والناس يحسبون عزت العابد رافلا فى حلل السعادة بالغاً من العز منتهاه . تعالوا انظروا وحدته فى حجرته وكيف تجرى مدامعه ثم احسدوه اذا شئتم .

قلت — ياسيدى هذه حالك من دون المقربين أم كلهم كذلك معذبون ؟

قال — الشكاية على قدر الأعباء . أما المصيبة فتوزعة بيننا على السواء . أنت تخرج من هنا وتذهب الى بيتك فتجلس الى أهلك أو صحبك واذا شئت خرجت الى معاهد اللهو وصنعت كل ماتشتهيه نفسك . لايعارضك فى ذلك معارض . فمن من رجال القصر يقدر ان يذهب حيث تذهب ومن منهم يجد متسعا فى وقته ليأنس الى أهله أو من يحبهم ولو كان مرة واحدة فى الأسبوع ؟ هذا ما لايحلم به أحد منا . ولولا مرضى لما وجدت الى هذه الراحة سبيلا . وقد أزف الوقت وبلغ السهر مداه . فاستأذنا من مضيفنا فى الذهاب وسلمنا عليه وخرجنا . ثم ودعت مصطفى ظافر ورجعت الى بيتى . فلما خلوت الى حجرتى أشعلت سيجارتى وجلست أدخن بها وأتفكر فيما رأت عيناى وسمعت أذناى .

فقلت : ويل لهذا السلطان . يقيم خاصته على أبوابه كرها لارضاء . ولو أمنوا غدره لولوا من قصره طالبين نجاتهم : هذا عزت العابد . أهل الآستانة وسائر أهل الأقطار العثمانية يحسبونه فى نعمة ليس وراءها مطمع . كل يتمنى لو نال أقل مانال هو من عز باهر وسلطان قوى . وها هو الساعة أمامى تكاد عبرته تسبق كلامه . غير أن ما أشكل علىّ فهمه ولم أجد له اذ ذاك جوابا شافيا . هو المعرفة بحقيقة عزت . أهو خائن كما يزعم الناس أم غير خائن . فان كان مايزعمون صدقا فما هو الدليل على صدقه وان كان كذبا فما هو الدليل على كذبه ؟ كلا القولين بلا مرجح يرجحه . أما ما رأينا من

عزت من (جيبه) ورقة بها قصيدة (أظنها للفاضل النبهانى) فأشار الينا أن أنصتوا وراح ينشدها علينا . فسمعت شعراً غير جيد ولكننى آثرت السكوت ولم أعب منه شيئا . فقال عزت :

— هذا رجل من رجال أبى الهدى . ولكنه صلى بناره . فلجأ الى ركنى وأنا حميته نكاية بأبى الضلال . آه ماذا أقول لكم أيها الاخوان . أقالنى الله من خدمتك ياسلطان ياعبد الحميد . وأذهب الله عنى كل عز نلته على يديك . قولوا بالله آمين . فقال الحاضرون :

— حاش لله أن نجيبك الى طلبك . هذا دعاء لن يتقبله منك الله . وكم عند مولانا السلطان مثلك من صادق يحبه ويفتديه بحياته .

قال — هذا الذى سيجلب علىّ البلاء . أنا والله أحبه وأهابه وأعلم أن محبتى له مهلكتى . ثم أية لذة أجدها فى حياة كلها خوف ونصب . الناس اذا أمسوا رجعوا الى بيوتهم . فعاشوا بين أهلهم وأحبابهم . وأنا كالضيف فى بيتى . لقد أنزع عنى ثيابى وأذهب الى فراشى فلا أمهل أن تأخذنى سنة من نوم الا والرسل تتبع الرسل يتعجلون ذهابى معهم الى القصر فأذهب وأنفى راغم . وكثيرا ما يكون استدعائى لأمر غير ذى بال أو ليسألنى سؤالا لا يفيده شيئا . فأظل هنالك ساعات طويلة . وحين أهم بالعودة الى دارى أجد الليل وقد نزع جلبابه ونصل اهابه فأبقى بالقصر ولا أعود الى مساء اليوم الثانى . والناس يحسبون عزت العابد رافلا فى حلل السعادة بالغاً من العز منتهاه . تعالوا انظروا وحدته فى حجرته وكيف تجرى مدامعه ثم احسدوه اذا شئتم .

قلت — ياسيدى هذه حالك من دون المقربين أم كلهم كذلك معذبون ؟

قال — الشكاية على قدر الأعباء . أما المصيبة فتوزعة بيننا على السواء . أنت تخرج من هنا وتذهب الى بيتك فتجلس الى أهلك أو صحبك واذا شئت خرجت الى معاهد اللهو وصنعت كل ماتشتهيه نفسك . لا يعارضك فى ذلك معارض . فمن من رجال القصر يقدر ان يذهب حيث تذهب ومن منهم يجد متسعا فى وقته ليأنس الى أهله أو من يحبهم ولو كان مرة واحدة فى الأسبوع ؟ هذا ما لا يحلم به أحد منا . ولولا مرضى لما وجدت الى هذه الراحة سبيلا . وقد أزف الوقت وبلغ السهر مداه . فاستأذنا من مضيفنا فى الذهاب وسلمنا عليه وخرجنا . ثم ودعت مصطفى ظافر ورجعت الى بيتى . فلما خلوت الى حجرتى أشعلت سيجارتى وجلست أدخن بها وأتفكر فيما رأت عيناى وسمعت أذناى .

فقلت : ويل لهذا السلطان . يقيم خاصته على أبوابه كرها لا رضاء . ولو أمنوا غدره لولوا من قصره طالبين نجاتهم : هذا عزت العابد . أهل الآستانة وسائر أهل الأقطار العثمانية يحسبونه فى نعمة ليس وراءها مطمع . كل يتمنى لو نال أقل ما نال هو من عز باهر وسلطان قوى . وها هو الساعة أمامى تكاد عبرته تسبق كلامه . غير أن ما أشكل علىّ فهمه ولم أجد له اذ ذاك جوابا شافيا . هو المعرفة بحقيقة عزت . أهو خائن كما يزعم الناس أم غير خائن . فان كان ما يزعمون صدقا فما هو الدليل على صدقه وان كان كذبا فما هو الدليل على كذبه ؟ كلا القولين بلا مرجح يرجحه . أما ما رأينا من

شكايته المرة فلا يعتد به . وربما اشتكى خوفا من عواقب خيانته وانكشاف أمره للناس وربما أشتكى أيضا أنفة من مشاركة عبد الحميد فى آثامه وحياء من أن يكون من أبناء امة ويعمل مع عدوها على قتلها . ثم قال انه يحب عبد الحميد . وحاشية الرجل الظالم لا يستطيعون أن يقولوا غير ذلك . فهم يعرفون غضبه ويحذرون نقمته . ولقد قال أيضا ان حبه لعبد الحميد مهلكه يوما وهذا منتهى مايقدر أن يقوله قائل فى مثل موضعه . فنمت وأنا أمنى النفس باستجلاء تلك الغوامض يوماً وان أبت الا امتناعا.

الى هنا أكتفى بهذا القدر من الكلام على ظافر وعزت وسأرجع الحديث الى ذكرهما لاتصاله بذكر غيرهما.

شر جديد

لما أتم شقيقى يوسف حمدى يكن بعض أعماله التى جشمته السفر الى مصر وفرغ من طبع رسالتى المسماة (الخافى والبادى) عاد الى الآستانة فأقام معى نحو العام أو أكثر ثم أراد السفر الى مصر زاعماً أن طول مقامه بالآستانة أكسب فكره الخمول وأنه يريد أن يتنسم نسائم الحرية التى درج من عشها وعاش فى ديارها . وانما أراد أن يصدر بمصر جريدة ينشر فيها ماراه بالآستانة من آثار الظلم وطلائع الدمار . تبينت ذلك فى حديثه وان كان بالغ في كتمانه ظنا منه أنى ربما منعته عن اتمام بغيته . فسررت وأظهرت التغابى وتمثلت بقول القائل :

اذا مقدم منا ذرا حد نابه تخمط منا ناب آخر مقدم

وقلت فى نفسى ليس من العدل أن أقضى على هذا الشاب بما قضيت

به على نفسى . فليغن الوطن غناءه وليجاهد ما استطاع الى الجهاد سبيلا . ثم زودته عناقا وقلت سر يكلاؤك الله فان أتانى منك مايعلى ذكرك والا فهذا فراق بينى وبينك . فوصل أخى الى مصر وأصدر بها جريدته التى سماها (الانذار) وارسل الىّ نسخة منها فى مظروف على يد رجل أجنبي يعلم مودته لى . فلما نظرت فى الجريدة وتأملت مايخاطب فيها عبد الحميد من الكلام أوجست فى نفسى خيفة وقلت : هذا باب من أبواب الشر أنا فتحته على نفسى . ولقد سبق السيف العذل وما بقى الا النظر فى جواب سديد ألجم به أفواه من يسألوننى غداً . ثم زارنى فى ظهر الغد مصطفى ظافر وأخذنى معه الى تكيتهم. فقال لى ونحن فى الطريق :

ـ دعانى باشكاتب السلطان أمس الى القصر . فلما دخلت عليه وجدت بين يديه نسختين من جريدة اسمها (الانذار) فمد الى نسخة منهما وهو يقول:

ـ أنظر هذه الوريقة التى أصدرها أخو صاحبك واعجب لجرأة ولى الدين كيف يعيش بأنعم السلطان ثم يرسل أخاه الى مصر ليعتدى على مصدر نعمته . قال مصطفى ظافر :

ـ فلما أخذت الجريدة ورأيت عليها اسم شقيقك دهشت حتى لم أدر ماأقول . ولكننى تغلبت على ماعرانى من الدهش وقلت :

ـ يامولاى ان ولى الدين من أسرة كريمة . وهو رجل عاقل لايقدم على مثل هذه الأمور وأخوه شاب صغير السن . ومصر الآن مزدحمة بالهاربين من عدل مولانا السلطان . فلا شك أن بعضهم أغواه واستهواه فتجاسر على عمله هذا وهو لايعلم مبلغ جرمه . وما يضر قدر الخليفة فى عليائه

أن يجهل عليه بعض الغلمان ويجعلوا أنفسهم بمنزلة من يعرفون حقائق الأشياء. حسبه أن كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها يشدو بثنائه وأن المنابر في جوامع المسلمين تميل طربا عند ذكر اسمه واذا اشتم كلمت ولى الدين فى هذا الأمر ومحضت له النصح. وما اخاله الا غاضباً إذا اتصل به هذا الخبر. أما أنت ياولى الدين فينبغى عليك أن تكتب لأخيك كتابا يكون رادعا له عن غيه. فلا يغرك حلم السلطان. فانه والله اذا غضب لم يبال شيئاً. وأخوك فى شبابه لايدرك هذه الأمور. فانظر ماأنت فاعل. أما أنا فقد وعدت الباشكاتب أن أعود اليه بجواب منك فيه مقنع وسأقول له كلاما يخفف غضبته ويبرئك لديه.

قلت - جزاك الله عنى خيراً. أما جريدة أخى فلا أعلم بها الا الساعة. ولا أكذبك انى أسفت لما فرط منه أشد الأسف. ولكن حيلتى في الأمر قليلة. وفى غد ذلك اليوم جاءنى رسول من عند فائق بك ابن المرحوم لطفى أغا وكلاهما من قرناء السلطان (جمع قرين يراد به النديم الخاص) فلما أدخل بى اليه قال لى:

- بلغ ولى النعم أن لك أخا اسمه يوسف حمدى يكن وأنه ذهب الى مصر وأصدر بها جريدة اسمها (الانذار) ينتصر بها لأعداء الدولة وخائنى الوطن الذين يقيمون بمصر ويسمون أنفسهم (الژون ترك). ومولانا يأمرك أن تكتب الى أخيك تسأله عما يريد من وظيفة أومال على أن يكون مايريده غير متعد حد الممكنات وأن يرجع عن معاداة السلطان. وهذه فرصه لاتسنح لكل الناس. فاكتب الى أخيك بذلك وقل له يرسل جوابه الىّ باللغة التركية

فوعدته بانجاز ماأراد ورجعت الى منزلى فقلت فى نفسى: الشباب له سكرة تطول سنين عديدة. وربما أكتب مايريدون فيصادف من شقيق ضعفاً في نفسه فيرضى فيحل به وبى مانخاف. واذا كتبت له كتابا آخر أحذره من كتابى الأول فلا آمن أن يقع فى يد من لايرقب ذمة ولايخشى لها عتابا ويحل بنا يومئذ البلاء العميم. ومن لى بطريق فى غفلة من أعين الواشين والرقباء. فلم أجد بعد كل تأمل وتدبر مخلصاً سوى الاذعان فكتبت الى شقيق كتابا باللغة التركيه أدعوه الى ترك الجدال والعودة الى الاستانة وأبشره بنيل مايريد وجعلت كتابى فى مظروف أخذته معى مفتوحا وأسلمته الى فائق فأرسله من القصر السلطانى الى دار البريد.

وفي ذات يوم جاءنى صديقى الكاتب التركى الفاضل (س.ت) بك. وقد كان يحرر القسم التركى فى بعض جرائد الاستانة. ثم عين بالخزينة الخاصة السلطانية. فأخذ يلتمس العبارات ليؤدى بنا الحديث الى سفرة أخى لمصر. فلما أعياه الطلب ورأى كثرة المقدمات تضل عن الصدد اقتضب الكلام اقتضابا فقال:

- أنا أعرف أنك لاتحب من أخيك أن يكتب شيئاً فيه ذم للسلطان ولا يمكن أن يسافر أخوك من نفسه طلباً لاصدار جريدة فى هذه السبيل. ولابد أن يكون أرسله قوم ممن لهم بمصر مقاصد يطاردونها وهذا مالايفعله الا آل ظافر. فان قلت ان الشيخ الكبير لايعنيه من أمر الجرائد شىء وأنه بخيل لايجود بالدرهم ولو كان فيه طول عمره. قلت لك نعم ولكن ابنه مصطفى ليس كذلك. فهو أبو المشاكل وكل مايلاقيه أبوه هو منشاؤه. ولو سلك

مصطفى طريق أبيه وترك عداوات الرجال وأغضى عما يبادئه به أعداؤه لا تقلبوا له أصدقاء . والآن وقع ما وقع وقضى الأمر . فان كتموك ما دبروه بالأمس فما أحسبهم يكتمونك اليوم وهم يعرفون منك فرط الحياء والتمسك بالود . ولئن فعلوا فأنت قادر على استيضاح ماتريد بأن تتوعدهم . فاذا فعلت ذلك لم يجدوا بدا من بيان ما أغمض عليك .

قلت ـ يافلان هذا كلام حسن الانتساق ولكن الفائدة منه منعدمة . فماذا تريد أن تقول ؟ قل وأوجز ودع هذه الخطبة الى وقت آخر .

قال ـ ما أرانى خاطباً . ومجمل الأمر أنى موجه اليك من أحد المقربين ولا أستطع أن أذكر لك اسمه جريا على ما اتفقنا عليه . وهو يريد أن يعلم ألآل ظافر شأن في سفر أخيك أم لغيرهم .

قلت ـ يافلان أراك رضيت لنفسك صناعة كنا نذمها معاً . فان كنت بدلت برأيك السابق غيره فانى لا أزال على قديمى ولا أسديك نصحاً في الرجوع الى سابقك . فذلك له أول وليس له آخر . ومن أوقعه سوء الحظ فى مجاهله ضاقت عليه المسالك ولم يجد الى الهداية مهيعا . اذهب الى من زودك رأيه وأعارك لسانه فقل له انى أخو يوسف حمدى يكن . ولكننى لا أعرف من فؤاده الا مايبديه لى . أما آل ظافر فقد كان مصطفى معى . وهو أول من جاءنى معاتبا وهو أول من طلب الىّ استرجاع أخى . فخرج صاحبي يجرر فضول أذيال الخزى وكان ذلك آخر عهدى به .

والى هنا نفد الصبر . فرأيت أن لا أصبر على الضيم الطويل . فأقمت أتدبر فيما يفتح لى أبواب النجاة لأخرج من هذا الوطن . لعلى أجد في البلاد الحرة

من يسمع رثائى حين أرثيه . وما كابدته من آلام الاستبداد يكفر عن سيئاتى فى العودة الى حيث دفن الحق وقامت مناحات الشهداء . فجرت هذه الأبيات على لسانى ونمقها قلمى . فجعلت أرددها طول ليلتى . وانى لذاكرها فى هذا الفصل عسى يكون فى القراء من يحب كلام الشعراء حين تحترق قلوبهم وتمازج دخانها حسراتهم . قلت :

ألا مرشد لى بعد ما ضل من عقلى ... أأندب أم لا يحسن الندب من مثلى
تندمت لا أنى تورطت ذلة ... ولكن لأنى ماربيت على الذل
يعاتبنى قلبي على ما فعلته ... فأسكت علما بالذى كان من فعلى
وأحمل أعبائى على السخط والرضا ... لعلى بعد اليوم أرتاح من حملى
ولو أحد قبلى بشقوته ارتضى ... رضيت ولكن ما ارتضى أحد قبلى
فيامجد آبائى أثبنى اقالة ... تنقلت فى عهدى من الصون للبذل

***

يهددنى بالقتل من ليس فاعلا ... وياليته يوما يمكن من قتلى
فأجتاز دهراً خيره مثل شره ... وأخلص لا أبكى لهجر ولا وصل

***

عذولى لا يرتاح يوماً من العذل ... وما بى من جهل فأعذل فى الجهل
رأى رجلا لم ينتزع ثوب جده ... فقال ألاقيه بشىء من الهزل
دنواً دنواً ياممانى فاننى ... سأملى بك الشكوى على الدهر ما أملى
يرى معشر فضلى فيرجوننى به ... وهيهات لا تقضى يفيد ولا فضلى

***

يخاتلنى لحظ الجميل فأنثنى   عليه ومن أدرى من اللحظ بالختل
وقد كنت عن شغل الهوى متفرغا   فأصبحت من بعد التفرغ فى شغل
وعاد لى الليل الذى كنت ساهراً   وعاودنى السهد الذى كنت أستحلى
أحب الحسان البيض وهى تحبنى   كأن الحسان البيض أبدعن من أجلى
يصيب اذا ترمى فؤادى نبلها   ويصرد اذ أرمى محاسنها نبلى
وما أنا بالمظلوم منها وانما   جبلت على حب الزيادة فى العدل
لقد كدت أنهى النفس لولا اعتلاقها   عن الوجنات الحمر والأعين النجل
وتلك لعمرى للأكارم سبة   أبى لى يوماً أن أقارفها أصلى

* * *

كلى ياليالى همتى لسكونها   أجدك منها أنها أبداً تغلى
سئمت تكاليف المعالى ولا أرى   لأهل النهى بين التكاليف مايعلى
بلى وازدهتنى كبرة عن طلابها   غداة استوى فيها أخو المجد بالنذل
ولم يرض نبلى أن أرى متنبلاً   وقد علموا ليس التنبل كالنبل
رمى الله فى عينى زمانى بالقذى   ولقاه تبلا لا يقصر عن تبلى
واثبنى منه الخطوب كمعشر   أتت بعد قتلاها تطالب بالذحل
أرانى اما ناحيا قصد شرة   واما مقيما فى جوار من المطل
لقد أكلتنى الحادثات ولم يكن   لها كافياً لحمى فتشبع من أكلى

* * *

وما مسلمٌ للموت بين عداته   يقاد له قود الجنيبة بالحبل
غريب له أهل يرجون أوبه   كما آب من نأى سواه الى الأهل

توافوا به للنار أذكوا ضرامها   وأوفوا لها بالرضف والحطب الجزل
بأعظم منى لوعة بمعاشر   هم أوقروا متنى وهم قيدوا رجلى
مضى كل شىء كان للنفس سلوة   وهذى البقايا لاتعزى ولا تسلى
أعيذك يأرض الأساود أن يرى   بك الماء غوراً غير رى ولا ضحل
وأن تنبتى ماليس تجنى ثماره   وأن تتفشاك السحاب بلا وبل

وعرفت حينئذ أن مقامى فى أرض مسبعة . فما راعنى الا شيطان من أبى الهدى يحرق علىّ البلاد ويأبى أن يرانى ضارباً بين أضواحها وأجزاعها. وافانى مصطفى ظافر ليلا . فرأيت الفزع بادياً على وجهه . فقلت:

ـ ماوراءك ؟

قال ـ قامت القيامة علينا وعليك . أبو الهدى أوعز الى أحد الجواسيس واسمه (ضيا) فوشى الى السلطان بأن بالآستانة جمعية خفية تعمل على الفتك به والانتصار لأعدائه . وأن رئيس هذه الجمعية هو المشير فؤاد باشا وأنى ورضا بك (هو الآن رضا باشا نزيل مصر) والشيخ أسعد شقير إمام أغا دار السعادة (هو الآن نائب انطاكية بمجلس المبعوثان) ومحمود افندى نديم (آخر وظيفة له هى متصرفية قره حصار التابعة لولاية سيواس) أعضاء هذه الجمعية وأنك أنت قلم الجمعية . تنشر بجرائد مصر مانحن نتفق عليه ثم تأتى هذه الجرائد باسمك الى ادارة البريد الفرنسوى فتوزعها علينا وعلى من يقول برأينا . وقد أخبر الجاسوس أن بادارة البريد طرداً من الجرائد جاء باسمك من مصر . فأنفذ السلطان أحد رجاله ليأخذ له ذلك الطرد فابى البريد أن يسلمه اياه . هنالك كلموا سفير فرانسا الموسيو قونستان .

فأمر البريد أن يسلم الطرد وأن يسلم أيضاً كل طرد ترتاب فيه حكومة السلطان . وقال : نحن لا نريد أن يكون بريدنا واسطة فى دخول الدسائس الى البلاد العثمانية . ولما نظروا الطرد وجدوه مكتوباً باسمك . فظهر صدق الجاسوس . واليوم أخذوا الشيخ أسعد شقير الى نظارة الضبطية وتولى الناظر وقدرى بك رئيس الجواسيس استنطاقه . وقد بادر محمود نديم الى (يلديز) وأخبر عبد الغنى (أغا دار السعادة) وعبد الغنى بادر الى السلطان شاكياً باكياً وقال ان أعدائى يريدون احتقارى وقد أخذوا امامى وربما لحقه السوء ظلما وعدواناً . فصدرت ارادة السلطان باستدعاء الجميع الى (يلديز) والاستمرار على التحقيق هنالك .

وقد كان أبو النصر يحيى السلاوى عندنا فى يومنا هذا . فأخبرنا أن شفيق باشا ناظر الضبطية وقدرى بك رئيس الجواسيس دعياه الى النظارة وسألاه عما يعلم عنك . فقال لهم : انه يعرفك كما يعرفك سائر رفاقك الذين معك بنظارة المعارف . فقال له قدرى بك :

ـ وهل يكتب ولى الدين فصولا فى ذم السلطان ويبعث بها الى جرائد الأحرار بمصر ؟

فقال السلاوى ـ لا علم لى بذلك . واذا كان ولى الدين يكتب فصولا كما ذكرت أفلا يخاف على نفسه العقاب حتى يطلع الناس عليها؟ وهل علمتم عليه شيئاً من هذا القبيل ؟

قال قدرى بك ـ كلا . وانما نسألك لنتعرف ذلك منك . فأما وقد ذكرت أنك لا تعرف شيئاً من أسراره فلا حاجة الى زيادة الأسئلة . ونحن

نوصيك أن لا تخبر ولى الدين بشىء مما جرى لك معنا . فأجابهم السلاوى الى طلبتهم وانصرف .

قلت لمصطفى ظافر ـ ومن ضيا هذا الذى تذكره وأين هو الآن ؟

قال ـ هو رجل أظنه من ازمير . وهو الآن في (يلديز) لا يريدون أن يطلقوا سراحه حتى يتم التحقيق ويظهر صدقه من كذبه . وقد بادرت اليك مخبرا بما وقع فكن على حذر .

قلت ـ وما ينفع حذرى الآن . وهل تحسب القوم يغفلون عنا بعد أن بلغهم عنا ما بلغهم . وما لى من حيلة سوى انتظار ما ستجرى به الأقدار .

ثم مضى على هذه الواقعة نحو الأسبوع . فاتصل بى بعد ذلك أن الذين تولوا تحقيق القضية قالوا للجاسوس :

ـ من أين عرفت أن ولى الدين اتفق مع من سميتهم على أن يكتب الى الجرائد فى ذم السلطان ومن أين لك أن هذه الجرائد ستأتيه أو هى أتته وأنها محفوظة بادارة البريد الفرنسوى ؟

قال ـ كنت ذهبت الى الباب العالى . فرأيت الشيخ أسعد شقير ومحمود نديم وولى الدين خارجين من شورى الدولة . وكانوا عند مصطفى ظافر . فجعلت أمشى خلفهم وأستمع ما يقولون . فوعيت كلامهم كله ولم أضع منه حرفا واحداً .

قالوا له ـ صف لنا ولى الدين .

قال ـ هو رجل عظيم الجثة . له لحية شقراء وعينان زرقاوان . فلم يمهلوه الى أن يتم كلامه . وهنالك هدده أحد رجال القصر بالويل والثبور اذا لم

يعترف بالحقيقة . وتركوه وحده فى حجرة ليتمعن فيما هو صائر اليه . فهاله الأمر وأحس بالشر وأيقن أن لاخلاص له مما وقع فيه . فطلب أن يعيدوه الى المحققين . فلما مثل بين يديهم قال :

ـ ان أبا الهدى عرض علىّ كتابة تقرير أتهم به من عرفتم أسماءهم وأعطانى ثلاث ورقات من أوراق البنك العثمانى قيمة كل واحدة منها خمسة جنيهات وكل الذى سمعتم منى لقننيه أبو الهدى. وأنا رجل فقير ولى حاجة شديدة الى أقل من هذا المال. فغلبتنى الحاجة فأنجزت ما أراد. فلما سمع المحققون كلام الرجل ورأوا أوراق البنك بأعينهم . أبلغوا السلطان ماوقع . فأمر بكتمان الأمر. كل هذا جرى ولم أعلم به الا بعد أن جرى.

ولما علم فؤاد باشا بالواقعة قصد الى (يلديز) وبينما هو يريد الصعود الى عند الباشكاتب التقى بأبى الهـدى فى طريقه . فتقدم نحوه وبادره بالشتم وكاد يرمى به تحت أقدامه لولا تضرعه وبكاؤه . فأمسك عنه فؤاد باشا وقال له:

أنا بمعزل عن هذا القصر وعن مطامعه وليس لى واياك شأن. فاذا أنت لم ترعو وحدثتك نفسك بالعودة الى مثل فعلتك هـذه رميتك على الأرض ووطأت رأسك باقدامى. ففارقه أبو الهدى وهو لا يصدق بالنجاة

فدانى مرة رجل من معارفنا على مايستوقف دون نادهمات أبى الضلال وكان من رأيه أن ننشىء بجنيف جريدة تنشر بالتركية والعربية والفرنسوية نذكر بها مثالب هذا العدو الغاشم ونبين مخازيه ليحذره السلطان بعد ذلك أو ليضطر الى حذره تنصلا منه أمام رعيته فكلمنا فى ذلك رضا باشا وأسعد افندى شقير . غير أن رأى أسعد افندى كان موافقا لرأيى فى جعل الجريدة

جريدة حرة محضة . وقد صدق اذ كنا أقدر الناس على معرفة مايقع بيلديز ولو شئنا لنشرنا نص كل ارادة سلطانية من قبل أن تبلغ الى الباب العالى . ولكن مصطفى ظافر خاف على نفسه وأبيه غضب السلطان . وقال : اذا ظهر أمرنا يوما فماذا يصيبنا ؟ أما أنتم فتسجنون أو تنفون ولكننى أنفى وأسجن وأزيد عليكم بأن يحل بأبى فى كبره وباخوتى من بعده مايبدد شملنا ويفنى حتى أعقابنا . فلما رأينا هذا الخلاف عدلنا عن الأمر. وكان (ح ح) يريد السفر الى مصر . فقال لمصطفى ظافر انه سيتفق مع صاحب المؤيد على اصـدار جريدة أسبوعية تكون لسان حالنا . ولما وصل مصر أتت كتبه وليس فيها شىء سوى الثناء على بدائع مصر وعلى صاحب المؤيد حامى مصر والمصريين !!!

بعض مامر علىّ بنظارة المعارف

« عاد الحديث »

ليت هذه البلايا التى داهمتنى خارج وظيفتى هادنتنى وأنا فيها. فأتسلى بما صفا من شطر الحياة عما كدر من شطرها الآخر. فمن يملأ اذن هذه الصحائف بهذه المخازى ؟ وماذا كان يتسنى لى من الشكاية لو تساوى الطيب والردىء فى تناوبهما . هيهات ؟ ذاك زمان عبد الحميد الثانى. يظل الكاتبون يكتبون فتنفد المعانى وتمتنع الألفاظ ولا يحصى لتلك المساوىء عد ولا يمكن لقليلها شرح .

لما مر على بعض الشهور بعد نقلى الى نظارة المعارف ووقفت على ماتيسر لى من أعمال المجلس الأعلى أخذت أعترض على ماأراه مخالفا وأرشد الى ماأحسبه موافقا. فساء ذلك رفاقى وجعلوا يؤاخذوننى على ماأجرى عليه من هذا المنهاج. وأبغضنى زهدى باشا ناظر المعارف وغضب علىّ أنصاره وشركاؤه فى النهب

فأنفذ الى على غالب بك مدير الأوراق حاجبه يدعونى الى حجرته . وكان راسخ افندى أحد الأعضاء الذين سبق ذكرهم فى أحد الفصول المتقدمة جالسا الى جانبي . فالتفت وسألته من هو غالب بك الذى يدعونى الى حجرته . فقال لى :

ـ هو مدير الأوراق بنظارة المعارف وهو ألبانى الأصل شرس الطباع لايخاف أحدا ولا يكرم أحدا . فأرجع اليه حاجبه بكلام لين لا يهيج له غضباً. فقد ضرب يوما أحد أعضاء مجلس الأنجمن (مجلس مراقبة الكتب والمؤلفات الأخر) والمضروب رجل هرم اسمه طاهر أفندى . ضربه فى حجرته . بهذه النظارة . بمشهد من موظفى المعارف كلهم ولم يستطع أحد منهم أن يعارضه . ثم ذهب طاهر أفندى باكيا معولا ورفع شكواه الى السلطان فلم يغنه ذلك فتيلا وما سأل الضارب أحد . ولا أقول انه ربما ضربك ولكن من يضمن لنا أنكما لن تتضاربا .

قلت ـ ان مدير الأوراق لايقدر أن يأمر أحد أعضاء المجلس الأعلى . ومن أجل هذا كنت أود أن لاأذهب اليه. ولكن لما كان الرجل ممن يتوعدون ويضربون ولا يسألون عما يفعلون فقد وجب علىّ أن أبادر اليه لأرى ماسيكون من أمره . ثم تبعت الحاجب الى حجرة على غالب . فدخلت عليه وهو جالس أمام مكتبته . يكاد يكون مضطجعاً عليها وخلفه سجادة على الحائط قد سمر عليها صولجان من الخشب وأشياء أخر لاأذكر الساعة ماهى . فسلمت عليه . فأجابنى على سلامى قاعداً . فقلت:

ـ أخبرنى الحاجب أنك تريد أن تكلمنى . وها أنا بين يديك لأسمع

ماتقول .

ـ تفضل بالجلوس.

ـ الوقت لايسع اطالة الكلام . فقل مابدالك ولا حاجة بى الى الجلوس .

ـ أراك كثير الاعتراض على قرارات المجلس. وأنت تفعل ذلك لتظهر للناس أنك رب معرفة وأنك لاتخفى عليك خافية . ولكنك تخطىء فى كثير من اعتراضاتك .

ـ ان من حقى أن أعترض وأن أوافق. وما جعلت في المجلس الا من أجل ذلك . أما الخطأ فلا أسأل عنه . والمراد أن يبدى كل رأيه وليس بين الناس من تكون آراؤه كلها صوابا .

ـ نعم . ولكن الذين يكثرون من الاعتراض لايفلحون . وأنا من المخلصين لسماحة الأفندى (يريد أبا الهدى) ولعطوفة البك (يريد عمى المرحوم فائق بك وكان من أشد أصدقاء أبى الهدى) فرأيت أن أنصحك فى الرجوع عن جهل الشباب . فاذا قبلت نصيحتى شكرتنى عليها فى مستقبل زمانك وان أبيت الاتماديا ندمت حين لاينفع الندم .

ـ نحن الآن بنظارة المعارف ولسنا بتكية أبى الهدى ولا بمنزل عمى . وأنا لاأقبل رأى أحد في أعمالى . فان كان عندك رأى غير هذا فهاته .

ـ ألا تريد أن تقلع عن اللجاج ؟

ـ أتريد أن تتوعدنى . اذن فاستمع : أنا رجل لاأبالى الوعيد وأعلم أنك من المسيطرين بهذه النظارة وكنى . فقد صبرت على كلامك طويلا

وكنت أريد أن لاأحضر اجابة لدعوتك لتعلم أن مدير الأوراق لايصح له أن يدعو أحد أعضاء المجلس. ولكنني علمت أنك تتوعد الناس. فحضرت لأعلمك أنى لست ممن يخافون وعيدا . واذا لم تبادر الى الترضية طائعاً أكرهتك عليها اكراهاً . فبهت الرجل من هذا الكلام وما سمع مثله من قبل. فجعل يتأملنى من رأسى الى قدمى . وكنت أكلمه واضرب بيدى على مكتبته . ولما وصلت الى آخر كلامى ضربت على تلك المكتبة ضربة قوية قلبت دواته . ثم قلت له : أنتم أناس لاتميزون بين الناس ويستوى عندكم طيب وخبيث . ولو اعترضكم ذو جأش رابط يكم أفواهكم ويخفض من شماسكم لما تعديتم أطواركم ولوقفتم عند حد الأدب . فلما أتممت كلامى مشيت خطوات الى الباب غير مسلم فسبقنى الى الباب وقال :

ـ ما كنت أحب أن تخرج من عندى غاضبا وانما حدا بى الى هذا الكلام مودتى لك واعجابى بك.

قلت — من أين لنا هذه المودة وأنا لم أرك الاالساعة وليس بينناسابق معرفة فتستوجبها علينا . ثم انصرفت . وفى الغد جاء على غالب الى الحجرة التى يستريح بها الأعضاء اذا فرغوا من المذاكرة واعتذرلى عمافرط منه بالأمس. غير أن الواقعة كانت باتفاق بينه وبين ناظر المعارف . فلما جرى منى ماجرى من الرد والاباء رأى الناظر أن يعاقبنى عقابا يكون رادعا لغيرى . فرأى أن يغيظنى بتأخير صرف شهريتى . وقد فعل ولكنه خاب فى ذلك أيضا . فلما أبصر الأعضاء ماجريت عليه شكروا اقدامى ودنا منى راسخ افندى. فقال لى اذا هممت بالخروج فانتظرنى حتى نخرج معا . ففعلت . فسار بى الى حديقة بقرب

(آيا صوفيا) جلسنا بقهوة فيها فقال لى :

—رأيتك ذا جنان ثابت ونفس أبية . وقد أعجب الأعضاء بماجرى لك مع على غالب وناظر المعارف. ولكن هذا كله آخره العطب. نحن بالآستانة وهنا رجال لايخافون آلها ولا يرقبون ذمة . فمن ترجوأن يكون نصيرك اذا تكاثر عليك الأعداء ووقعت بأيديهم ؟

ـ أرجو أن يكون نصيرى الحق.

ـ هذا كلام حسن ولكنه لاينفع . وما دعوتك هنا لأجبنك وأرجعك عن اقدامك . بل دعوتك لاخلص لك النصيحة. فانى أكبرمنك سناوأكثر منك تجربة . وما أشابت الأيام فودى الا بعد أن انتابتنى حوادثها بمايذهل العقول . فيجب عليك أن تتمسك بمحبة السلطان ودع كل امرىءسواه تعش آمنا ولا يكن لأحد اليك من سبيل . فاذا سمعت امرءاً يغتاب السلطان اكتب بذلك تقريرا وارفعه اليه. واذا جرى لك مثل الذى جرى بينك وبين على غالب بادر الى القصر واكتب بذلك الى السلطان . هذا سلاح لايفل غربه ولا تنبو مضاربه . وكلنا متسلحون به. فاذا رضيت بنصيحتى نلت المرام وفزت حيث يخيب منازعوك .

ـ أراك تدعونى الى أمر لم أخلق له. وأنا أحب الى أن يفوز على خصومى من أن أفوز عليهم بالتجسس . فان كان هذا مبلغ رأيك فهو رأى لن أتبعه واذا كنت أنت ممن يتجسسون فلن يتقارب قلبانا ولن تحدث بيننا الفة مادامت الحياة .

ـ أنا لا أدعوك الى التجسس بأن تتبع الناس في خطواتهم وتنصت

اليهم فى أحاديثهم بل أدعوك الى اخبار السلطان عمن يأخذون رواتبهم بفضله ثم يعملون على مايضره . والمخلص لدولته لايخفى عن سلطانه أمرا .

ـ هذه فلسفة لايمكن التغلب عليها . كل رجالنا يقولون مثل ماتقول وكلهم يتجسسون كما تتجسس أنت . أما أنا فلم أتعود ذلك . وصعب على الانسان مالم يتعود. وانى لأشكرك اذ عرفتنى نفسك فقد كنت أحسبك بمعزل عن هذه المسالك . والآن كشف لى الغطاء باعترافك. ولما فرغت من كلامى نهضت واقفا وحييته تحية المودع القالى. ولما رجعت الى بيتى وفكرت فيما جرى لى بالمعارف . رأيت ترك الآستانة والهجرة الى أوروبا أمرا لابد منه .

ثم سخر الله لى ما استوقفنى مضطرا . وذلك أن عبد الكريم بك أحد أحفاد الصدر الأعظم الشهير المعروف بالصقوللى بعث الى كتابا يقول فيه: ان نظارة المعارف قررت بناء معهد جديد تسميه دار الأيتام وستنفق عليه أربعة آلاف جنيه. وهو مبلغ كبير لو استبقته لغرض غير هذا كان أحسن. ولى أرض بالقرب من أبى أيوب الانصارى بمكان يقال له (سودليجه) وهذه الأرض واسعة جدا وفيها من حجارة البناء مايكفى لما هو أعظم من دار الأيتام. وأنا أهب هاته الأرض هدية منى الى المعارف لا أطلب عليها ثمنا ولا عوضا . ولا أريد شكرا ولا اعلانا ولا شهرة . فأشرت عليه أن يكتب عريضة بذلك الى نظارة المعارف. فكتب. وأخذت العريضة معى وقدمتها باسم صاحبها على الوجه الرسمى وأقمت أياما أنتظر ماسيكون من جواب ناظر المعارف. فلم يجب بشىء وكان ينبغى عليه أن يبعث بهذه العريضة الى المجلس الأعلى لينظر فيها ويكتب

بعد ذلك خطاب شكر لصاحبها . وكنت أطلعت الأعضاء على العريضة قبل تقديمها الى الناظر . فاتفقت مع جماعة منهم فى مخاطبة رئيس المجلس ولكنه تنصل عن تبعة المسألة وقال :

ـ نحن لانعلم هذه العريضة رسميا . ولا حق لنا فى طلب مالم يرسل الينا. فكان كلامه موافقا لنظام المعارف. وعلمنا أن زهدى باشا اتفق مع بعض الناس على ابتياع أرض بجهة اسمها (قزيل طوپراق) لتكون دار الايتام قريبة من داره ويتمكن من تفتيشها متى أراد . واتصل بنا أنه سينفق ألفى ليرة ثمنا للأرض وأنه سيحفظ الباقى لنفسه. فجعلت أعيب خطة الناظر بمحضر من الأعضاء وفيهم المخلصون له وأقول بصوت عال :

— ماهذا الاختلاس ! ! ! اذا كان زهدى باشا الذى سرق من نظارة المالية مائتى الف جنيه أيام كان ناظرا عليها نقل الى المعارف ليسرق منها دراهمها فنحن لانشاركه لافى سرقته ولافى عارها . فنقل هذا الكلام الى الناظر . فزاد علىّ حقدا وبات لايطيق ذكر اسمى بمجلسه . وقد انتصر له الأعضاء المخلصون . وشاء الله أن يفتضحوا فضيحة تكون عظة لغيرهم . وذلك أن عبد الرحمن بك ناظر المدرسة السلطانية كتب الى المعارف يبين لها أن قد ظهر عجز كبير فى واردات المدرسة فباتت دون مصاريفها وأشار على النظارة بالغاء القسم الثالث من درجات أجرة التعليم . فكتبت المضبطة بذلك وأرسلت الى المجلس للتصديق عليها . فالتزمت السكوت حتى وضع الأعضاء أختامهم ولم يبق أحد منهم مخالفا . ثم أخذت المضبطة وكتبت على هامشها : أن نظام المدرسة السلطانية قبل بارادة سلطانية وليس للمجلس

أن ينسخ ارادة السلطان . فأخذ الأعضاء ينظر بعضهم الى بعض . فسألني
الرئيس من أين لي ذلك . فقلت :

— ان نظام المدرسة السلطانية مطبوع . وقد وزعته النظارة على الأعضاء .
فأخرج الرئيس من مكتبته نسخة ونظر فى أولها فاذا مكتوب عليها هكذا :
(صدرت الارادة السنية السلطانية بقبول هذا النظام واتباعه في المدرسة
السلطانية .) فكاد والله يسيل لعابه خجلا وحاول أكثر الأعضاء أن يمحوا
أسماءهم بألسنهم ولكن الحبر الزيتى لاينصل له صبغ فتركتهم فى حيرتهم
وأشعلت سيجارتى وجلست أدخنها وأنظر اليهم .

وكان يقع بمجلس مراقبة الكتب (الانجمن) مايقع بالمجلس الأعلى حتى
حدث خلاف بين الرئيس حسيب افندى وبين بعض الأعضاء ومنهم الشاعر
التركى الشهير صديق حيرت افندى . ولكن تغلب الرئيس على الأعضاء
واستقل بخاتم المجلس رغما من المخالفين له وأيده زهدى باشا الناظر
وكان حسيب افندى صنيعته . وقد آلى الرئيس لايدخل المجلس أو يعزل
حيرت افندى وأبو النصر يحيي السلاوى . ولقد نال ماأراد وثبت على كلامه
فنقل السلاوى عضوا الى جمعية الرسومات وأنزلت درجة حيرت الى مفتش
المكتبات . ولم يغن اعتراضهما شيئا .

﴿ الحرب العوان ﴾

مازلت أنوى الخروج من الاستانة وأنا أشد الناس شغفا بها ولا يقدر
لى ذلك . ورأيت الحرب تهلكة على أهل بيتي . فانى حين أدعهم بالاستانة
لا أترك لهم مايعيشون به على حد الكفاية . ومالى بالاستانة من يعولهم من
آلى وعشيرتى . واذا أرسلت لهم مالا لم آمن عليه الضياع واذا أردت أن
أستصحبهم معى أحست بنا الحكومة وان تركتهم ليلحقوا بى بعد سفرى
مانعتهم الحكومة السفر . فعن لخاطرى أن أستأذن فى السفر الى مصر لأقيم
بها شهرا وأعود بعد انقضائه . فكتبت ورقة بذلك ورفعتها الى ناظر المعارف
فلم يرض بقبولها وقال لى : أكتب الى السلطان فان أذن لك فلا تقوى على
مخالفته . فكتبت ورقة أخرى الى السلطان وذهبت بها الى دائرة الباشكاتب
تحسين الكائنة بيلديز . فقرأ الورقة ثم قال لى :

— ولمَ تريد السفر الى مصر ؟

— لى بها حقوق أريد أن أحفظها وقد أردت أن أجعل لى وكيلا ولكن
جاءنى الجواب بأن لاغنية لى عن سفرى .

— سأرفع ما كتبت الى أعتاب السلطان . فعد الىّ بعد ثلاثة أيام . فشكرته
سلفا وانصرفت . فلما انقضى الميعاد غدوت عليه وأقمت فى انتظاره ساعات
طويلة . ثم قيل لى انه فى (الحضور) والحضور يريدون به هنالك أنه عند
السلطان . وسألتهم متى يكون رجوعه فقالوا انهم لايعلمون . فخرجت على
غير هدى من أمرى وفي الغد رجعت اليه ولبثت كذلك فى انتظاره كما وقع

لى بالأمس . ومكان الانتظار فيه أناس كثيرون لهم حوائج يريدون قضاءها .
فدعانى الحاجب جانبا وأخبرنى أن الباشكاتب يخصنى بالسلام وانه لم ينس
ماوعدنى به . وسألنى أن أعاوده بعد بضعة أيام فوافيته فضرب لى ميعاداً آخر
ثم ضرب ميعاداً آخر ثم ضرب ميعاداً آخر . وأنا فى كل مرة أخسر دراهمى
وأضيع وقتى حتى عيل صبرى ونفدت حيلتى ولم أدر ماأصنع . فوافيته يوما
وهو يتهيأ للدخول الى (الحضور) فسلمت عليه وقلت :

— سيدى اذا كانت حاجتى غير مقضية فلا تكلفنى التعب عبثاً وان
كانت مقضية فتفضل علىّ بما أمر به السلطان وأرحنى من هذا العناء وكثرة
الترداد . فقال :

— وما يمنع قضاء حاجتك ولم تتطلب محالا . ولكن غير خاف عليك
ماأنا فيه من وفرة العمل وتكاثر المشاغل . فاغد علىّ غداً مبكراً بكور الطير
واذا لم تجدنى فانتظرنى الى أن أحضر . وآمل أن ترجع بعد ذلك وقد نلت
الاذن وقضى الأمر . فشكرته ثم شكرته ثم شكرته وخرجت وأنا أعلل النفس
بقرب الخلاص وأقول اذا خرجنا من الآستانة اخترت الاقامة فى اوروبا .
هنالك أجاهد فى سبيل الوطن آمنا نكايات الأعداء ولا أدخل مصر الا زيارة
كلما اشتقت اليها . فان بمصر من محاربى الأحرار . وقد ملك عليهم البرق فجاجه
وسد عليهم مسالك الحياة . فبت بأهناء ليلة . على أننى لم أذق غمضاً ولم يستطب
الرقاد لى جنب من فرط ماداخلنى من الفرح . فلما تنفس الصبح بادرت الى
القصر وأنا أستحث سائق العربة وأقول له ماأبطأ عربتك سيراً . حتى اذا وافينا
الى باب يلديز وثبت الى الأرض وانطلقت عدواً الى دائرة الباشكاتب . فرأيت

بعض الخدم يجمعون قطع الشمع التى بقيت من الليل ويدخلونها فى جيوبهم
وآخرين يعدون سيجارات وجدوها . كانت سقطت من الوافدين على القصر .
وغير هؤلاء يكنسون المكان ويصلحون من شأنه . فاتخذت لى كرسيا بمكان
خال وأردت أن أدخن سيجارة لى فلم أجد معى سجاير . قلت وهذه احدى
العظائم . ألم يكفنى أنى خرجت من قبل أن أفطر حتى أجلس هنا بلا تبغ .
ان هذا لخطب عظيم . وقد طال علىّ الوقت واشتد بى الضجر فقال لى
الخدم انه لايليق بى أن أجلس على كرسى بهذا المكان المعد للأصاغر !!!
وأدخلونى الى حجرة الانتظار للأكابر !!! فلبثت بها ساعات وأخذ يتوافد عليها
أهل المصالح حتى غصت بهم .

وبينا أنا كذلك أكاد أقضى كمداً وقد أمضنى الجوع وزاد بى من القلق
مارأيت من الزائرين الذين يدخنون السجاير ولها رائحة أزكى من المسك
الأذفر إذ جاء حاجب الباشكاتب فدعا أحد الجالسين ثم عاد فدعا ثانيا ثم دعا
ثالثا ولكن الحجرة لايخلو بها مكان . فما مضى زائر الا جاء زائرون . واستطال
لبثى الى العصر حتى كدت أن يغشى علىّ . فنهضت واقفا وجعلت أمشى رويداً
رويداً الى باب حجرة الباشكاتب . فأراد الحاجب أن يمانعنى فدفعته فى صدره
وفتحت الباب وأسرعت بالدخول . فاذا هو جالس وحده يقرأ أوراقا له :
فقلت . طال الثواء ولا سؤال من لدنك ولا جواب . عشرة ساعات مرت
علىّ وأنا مقيم هنا . فهل أردت يامولاى أن تهزأ بى ؟

— كلا وانما تعمدت تأخيرك لاجد سعة فى الوقت فأكلمك فيما أنت
قاصد له .

ـ ولكن الذى أريده لايحتاج مناظرة ولا تأملا طويلا . ان هو الا استئذان بالسفر الى بلد من البلاد لحاجة من الحاجات .

ـ صدقت ولكن كنت أريد أن أعلم ماذا تريد.

ـ ألم أذكر بالعريضة ما أريد ؟

ـ بلى.ولكنها ضاعت . ولا أدرى ان كنت رميتها سهواً منى بين الأوراق الممزقة أم هى لاتزال بين الأوراق التى (تحت العرض). فخيل لى أن المكان سقط على رأسى . أظل شهراً كاملا أنفق المال وأضيع الوقت وأجد وأكد في طلب اذن بالسفر . ثم يقول لى هذا الرجل بعد ذلك كله ماذا تريد !!! فنظرت اليه نظرة ملؤها حنق ويأس . وقلت :

ـ لأسهدن والله جفونك ولأطيلن أوجاعك ولأجعلن أيام الحياة حربا عليك . ولأسلكن المخاوف سبلك ولتعلمن بأية داهية رميت.وخرجت من عند مخاطبي وأنا أكاد أتميز غيظاً . فركبت عربة وجدتها فى طريق وقلت لسائقها ان يذهب بى الى جهة بك أوغلى (وهى بيرا) . وكان عبدالحميد جعل بالاستانة مراكز ترسل اليه الرسائل البرقية منها . وفى (بيرا) أحد تلك المراكز . يخاطب منها السلطان ومقربيه من يشاء.فان كان خطابه جديراً بالعناية عرضوه على السلطان وان لم يكن كذلك ألقوه جانبا . ومراكز التلغرافات تقبل كل رسالة هى تعرف صاحبها أو تعرف اسمه ولو ملئت من القول الغليظ وخوطب به السلطان نفسه .

فأخذت القلم بيدى وكتبت رسالة تركية هذا معناها :

(الى الباشكاتب الكاذب بالقصر السلطانى

سخرت منى وأضعت أوقاتى فيما لايجدى ولم تبال كذبا وبهتانا فانتظر ماسينشر عنك فى أوروبا وغيرها)

ولى الدين يكن

أحد أعضاء مجلس المعارف الأعلى

فأخذ الموظف الرسالة وجعل يتأملنى . فقلت له ان كنت لاتعرفنى فانظر فى تقويم الحكومة الرسمى تجد اسمى . فقال :ولكن الرسالة شديدة ولابد من الاستئذان من المدير .

قلت — لك ذلك . فصعد وغاب عنى بضعة دقائق ثم عاد وقال أمرنا المدير بقبول الرسالة على أن تكتب فى أسفلها أنك تتحمل تبعة ما فيها وتختمها مرة ثانية . ففعلت ماطلب ودفعت له الثمن وخرجت بعد ذلك قاصداً الى منزلى . فنمت ليلتى نومة يحسدنى عليها المؤرقون وانتبهت فى الغد وبى من الانشراح مالا أستطيع له وصفاً . فقلت من أين لى هذا الجذل وأنا قضيت بالأمس يوما لو سمع به أهل الجنايات لاقشعرت جلودهم وقد سدت علىّ المسالك وليس بيدى من الدراهم ما يكفى لحاجتى ريثما أتقاضى راتبى . وبعد فان أمام باشكاتب السلطان رسالة برقية بها من الكلام مالم يسبقنى اليه غيرى. فعلمت أن لارجاء فى فرجة ومتى حق اليأس استقرت الراحة فى الفؤاد .

واذ لم يكن من مواصلة الجهاد بد عمدت الى قلمى وكتبت رسالة فرنسوية نشرت اذ ذاك في احدى الجرائد الفرنسوية التى بالقاهرة وأظنها (لوجورنال دى جيبت) ذكرت فيها كيف اتصل تحسين بخدمة السلطان ولم يكن معروفا بين الناس بالكاتب المجيد ولا الأمير النبيل ولا الموظف الكبير ولم يكن الاسكرتيرا بنظارة البحرية . فلما توفي الباشكاتب الذى قبله

واسمه ثريا باشا أشار لطفي اغا قرين عبد الحميد باختيار تحسين هذا المكان بينهما من الود منذ أيام أحد الصدور الخائنين المسمى محمود نديم . والأحرار العثمانيون يسمونه نديموف لسعيه في تأييد المنافع الروسية وايثاره اياها على منافع دولته . ثم وصفت بعض ماصنع هذا الباشكاذب منذ اتصل بالسلطان وذكرت أني مشتغل بتأليف رسالة في بيان أعماله وشرح مفاسده ليقف عليها من كان يجهلها . فوشى بهذه الرسالة بعض الجواسيس الأجانب فقامت القيامة على القوم الخائنين. ثم قلوب أبت الرحمة أن تدخلها وأبى الانصاف أن يأوي اليها . بها من الشر مايفزع الأسد بآجامها ولو صفر لها عصفور لطارت من صفيره شعاعا .

محمد باشا الجركسي

« المعروف بأبي لحية »

كنت قصدت الى دار صديق لي . ثم ودعته وقصدت الى بيتي فبينما أنا في الطريق اذا بخادمي يهرول نحوي وقد أجهده الجري وتصبب جبينه عرقا . فلما رأيته على تلك الحال هالني منظره فصحت به : ويلك ماوراءك؟

فقال — جاء أحد الياورية من (يلديز) وذكر أنه طلبك بنظارة المعارف وقيل له انك لم تذهب اليها اليوم . ثم سألنا عنك . فأخبرناه أنك خرجت . فلم يصدق كلامنا وقال انه لن يبرح المنزل الا وأنت معه . ووالدتك وامرأتك في خوف شديد لاتدريان ماذا تصنعان . والرجل لايزال هناك ولا يريد أن يذهب . وقد أرسلتني السيدة لابحث عنك وأخبرك بالأمر لتأتي

وأنت متهيأ له.

قلت — له مافي الأمر من خطر . وأسرعت في مشيتي . فلما قاربت البيت ألفيت امرأتي على انتظاري في منتصف الزقاق وهي ترتجف ولا تقدر على الكلام . فأخذت أهون عليها الأمر وأقول ان هذه ليست بأول مرة دعيت فيها الى القصر وقد أخذت قبل ذلك ليلا . قالت :

— نعم ولكن الذي يطلبك هذه المرة هو محمد باشا الجركسي المعروف بأبي لحية . فتبسمت لها وقلت : هذا صديقي واذا كان الطلب من عنده فكوني في راحة . لا أرجع الا شاكرا حسن لقائه . على أنني لم أعرف أبا لحية الا اسما . وانما اخترت هذا الكذب لتطمئن امرأتي. ورأيت بعد ذا الجندي الذي جاء ليأخذني معه . فعلم أن أهل البيت لم يكذبوه فجعل يعتذر عما بدر منه. فاستمهلته ريثما أغير ملابسي والبس (الريدنجوت) وكنت أريد أن أودع أوراقا كانت بجيبي وأوصي بها امرأتي . فلم يمانع في شيء وخرجت معه. واذا عربة تنتظرنا . فركبناها وقصدنا الى (يلديز) . فدخل الجندي بي الى حجرة أبي لحية وجاء حاجبه فقادني الى أخرى مجاورة لها وقال : ان الباشا في (الحضور) فاذا عاد أخبرتك بعودته. ولم تمر على بذلك المكان عشرة دقائق الا والخادم يخبرني بقدوم الرجل.

فدخلت على غريمي . . . . اعوذ بالله ! . . . . الضواري تفتك اما لاشباع بطونها واما جريا على طبائعها . وان أفتكها وأشدها خطرا ليمل حينا فيجلس الى جانب فريسته يلعب بها أو يستريح بقربها . وأبو لحية لايعرف التعب . فهو اذا فتك فتكته أسمع روحها ضحكته . ثم وقف متلفتا

ذات اليمين وذات الشمال . طالبا صيدا جديدا . لايفتأ دامى الجوارح فان لم يجد شيئا ينهشه نهش جليسه واذا لم يكن عنده جليس نهش ثيابه أو عض نفسه . وربما أنساه طربه بعضاضه مايجده من الم مبرح . فيستمر عاضاً . هو يعلم أن كل ذى روح يؤكل . ولقد يعنى بصحة أبنائه وأهله ويسمنهم ليأ كلهم اذا عدم فريسته . يرى أن الله خلق الأنياب لتنهش فلا يجب أن يعطلها مما خلقت له . فاذا سال الدم الأحمر على لهاته وبراثنه وهدر في حلقه سائغا مستعذبا سخنا ، عرته هزة من تطرب وارتاح فؤاده .

رأيته أربد الوجه . ينطق الموت الزؤام على ناصيته . له عينان ملؤهما اللؤم . تحيط بذلك الوجه الخشن لحية لم أر فى حياتى مثلها لو نصبت شرا كالماتركت بمزرعة طائرا ولا بأجمة وحشاً . فسلمت عليه ووقفت أمامه وكان مطرقا . فرفع طرفه الىّ ومشى فىّ نظره . ثم قال لى بصوت قبيح :

— أهكذا تدعنافى انتظارك طول يومنا هذا . أ كنت تريد أن تهرب أم كنت تحدث نفسك بالعصيان !

— كلا . لاهذا ولا ذاك . ولكن جاءنى أمرك الآن فاسرعت ملبيا .

فتأملنى مليا ثم ضحك ضحكا عاليا وقال :

— أتريد أن تخدعنى أنا ! ان هذا لشىء عجاب وصاح بخادمه فلما وقف أمامه قال :

- علىّ بالجندى الذى ذهب ليدعو هذا البك . فدخل وقال انه لم يجدنى بالمعارف وانه فتش على كثيراً حتى تأخر وأنه حين أخبرنى بدعوة الباشا بادرت لامتوانيا ولا محجما . فسرى عنه وأمرنى بالجلوس وناولنى سيجارة

أشعلتها وأقمت أنتظر سؤآله

فتنهد تنهداً طويلا ثم التفت نحوى وقال :

— كم تحسن من اللغات !

— أعرف العربية والتركية والفرنسوية ولكننى لاأحسن واحدة منها .

— اذن تعرف معنى كلمة الخليفة .

— لايحتاج المرء الى معرفة كثير من اللغات ليفهم معنى كلمة الخليفة .

— وتعلم أيضاً أن قوة الخليفة وبطشه لاحد لهما وأنه مع ذلك كله أميل الى العفو عمن جنى والاحسان الى من أساء . وانى سائلك الآن أشياء . فاذا كان جوابك كما أتوسمه فيك من الصدق والأمانة لايبعد أن يعفو السلطان عنك واذا حاولت الانكار ولزمت المخادعة فتذكر أن اسمى محمد الجركسى . وأنا من يلين بالمجاملة ويخشن بالعناد . ولا أريد أن تجربنى فى حالة يسوؤك أن ترانى بها . وأنت اليوم عظيم الذنب ولكن النخوة تدفع بصاحبها الى الاعتراف بذنبه وان عظم لكى لايرمى بالجبن والخور .

— قلت يامولاى هذه أشياء كان ينبغى أن تقولها اذا أنت سألتنى وأخفيت أنا عنك شيئاً مما أعرفه أو أكون جنيته . وانى اذا اجبتك الى الحق فذلك محبة منى للحق أما الوعيد فلا يطلق لى لساناً أكون عزمت على تقييده . فسل مابدا لك . وأنا ذنوبى كثيرة لاأعلم الى أيها تشير . فأفصح لى سؤآلك أفصح لك جوابى .

- هل كتبت الى الجرائد الأجنبية شيئاً فى ذم أحد رجال السلطان ؟

- الآن علمت ماتريد . تسألنى عما كتبت في أعمال الباشكاتب . نعم

كتبت فيه عجالة أنفذتها الى الجرائد ووعدت فيها قراءها بطبع كتاب سأبدأ تأليفه قريباً . وسأذكر فى هذا الكتاب ماأعلمه من سيئآت الباشكاتب .

- ولأى شىء تكلف نفسك هذا الشطط وما يفيد الناس ذمك للباشكاتب ؟ هلا صرفت قوة عارضتك وبيانك في شىء ينفع أهل بلادك ؟

- وهل ينفع أهل بلادى شىء أكثر من علمهم بمن يحول بينهم وبين سلطانهم ؟ أتراهم لا يرغبون أن يعلم السلطان بما يقع في بلاده فيتخلص من عدوه وعدو أمته ؟

- هذا فضول منك . ومن ذا الذى طلب منك أن تخدمه هذه الخدمة أم من أنابك أنت عن أهل بلادك ؟ أنا أقول لك السبب فى غضبك على الباشكاتب . طلبت اليه أن يأتيك برتبة أو وسام . فوعدك بالنظر في ذلك وقال لك ان الخليفة أدرى بمن ينبغى أن يتحلون بالأوسمة . فغاظك ذلك والآن تريد أن تنتقم منه . فياناشدتك الله أترانى أصبت فى حدسى أم أخطأت .

- ان ماطلبته من السلطان طلبته كتابة لاشفاها . فان كان فيه مايستدل به على شىء من هذا القبيل فحكمك فيما تريد واذا ظهر أن كلامك غير صحيح أترضى بأن تكذبه فى الجرائد ؟

- أكلمك هنا بقصر السلطان وما لنا وللجرائد ولا شأن لنا معها. فان كان ماأقوله غير صواب فخبرنى أنت بالصواب . وانما أمرنى السلطان باستدعائك لأستطلع منك الصواب .

- انا لاأجيب الا كتابة على أن آخذ سنداً منك بما كتبته ودفعته اليك.

- اذن فأكتب . ثم أشار الى مكتبة بجانب الباب عليها ما يحتاجه الكاتب من قلم وقرطاس . فقمت اليها وكتبت ما جرى لى مع الباشكاتب من البداية الى النهاية ورفعت ماكتبته اليه فأخذه وقرأه وقال سأرفع هذا الى أعتاب السلطان وأبلغك بعد ذلك أمره . فأتنى غداً صباحا واياك أن تمر بمكان أحد من رجال القصر . فخرجت قاصداً الى بيتى . ولما كان الغد ذهبت لميعادي . فكان وصولى الى القصر قبل حضور أبى لحية . فأدخلت حجرته وأقمت فى انتظاره الى أن جاء . فحياتى تحية عن عرض ودعا بعد ذلك كاتباً له فناوله مسدسه ومفاتيح مكتبته ليضعه بها . ثم عمد الى مصحف كان على يمينه فوق كرسى عال فتناوله وقبله وجعله فوق عينيه ثم أعاده الى مكانه وحين فرغ من أعماله هذه التفت نحوى وأخذ يحادثنى ويسألنى عن أيام معاوية وعلى ابن أبى طالب وقال انه يبغض معاوية بغضاً شديداً وانه لو وقع فى يديه لضرب عنقه بالسيف .وبعد حديث لم أستطب منه شيئاً فارقنى قاصدا الدخول الى الحضور . وصرت فى انتظاره وحدى الى الظهر . فعاد ولم يرد الجلوس بل قال لى وهو واقف وأنا أيضاً واقف :

- أبلغك أن مولانا السلطان يأمرك باحضار أخيك من مصر وأن تكذب ما كتبته فى ذم الباشكاتب وأن تأتينا بالكتاب الذى تزعم أنك ألفته أو ستؤلفه لنحرقه هنا ونرتاح نحن وترتاح أنت معنا . وقد أمهلك السلطان الى صباح السبت . فأت الى هذه الحجرة بعد أن تكون نفذت ما أمرك به سيدنا .

- اليوم الخميس وتريد أن أحضر أخى صباح السبت الى هنا !!! اذا

قلت أنك لا تعرف كم بيننا وبين مصر. أفلم يخبرك أحد بمقدار بعدها عنا. ألم تسأل شركات البواخر كم يوم تستغرقه أسرع باخرة للوصول الى الاسكندرية. فهب أن أخى الآن واقف على رصيف الثغر الاسكندرى وان حكومة انكلترا أعارتنى أسرع مدمرة لديها أيكفى كل هذا لوصول أخى الينا فى صباح السبت. هذا مالايكون؟ وتكذيب ما كتبته مع علمى بصدقه لاأقوى عليه ولو أدى ذلك الى ذهاب حياتى. أما الكتاب فلم أشرع فى تأليفه. وذلك لأن عادتى أن لا أكتب شيئاً الا اذا علمت أنه سيطبع وأنا أكتب ما أكتبه وأبعث به الى المطبعة تباعا.

ـ كل هذا لاأسمعه منك وما أمرت بمناظرتك بل أمرت بأن أدعوك الى الانصاف. اذهب الآن واجعل جوابك مفتوحا لكى لاتتهم عند السلطان بخيانة العهد.

ولقد قضيت ليلتى على مثل اعالى الموج. فلما وافانا السبت قصدت الى (يلديز) وكنت كتبت ورقة ذكرت بها بعدى عن أغراض السوء وما كابدته من الباشكاتب وكيف اتفق الناس على الشكاية من أعماله. وأبنت أن رجوع أخى ليس بيدى وأنى محضته النصح فلم يرض به منى. وقلت انى لن اقدم على تكذيب حق أنا عرفته وأن لى من حسبي لرادا على تورط الشبهات. فأدخلت الى حجرة أبى لحية كما سبق بيانه. وجاء هو بعد ذلك. فدفع مسدسه لكاتبه ولثم المصحف كأول مرة والتفت نحوى سائلا عما اكون قضيت فيما بلغنيه من أمر مولاه. فدفعت الرقعة اليه فقرأها وتمعنها ثم نبذها الى الارض ونظر الى وجهى نظرة مغضب وقال:

ـ الآن ندخل معك فى شأن جديد. الا تريد ان تطيع مولانا السلطان؟

قلت ـ بلى. انى أريد ولكن شتان ما بين الارادة والامكان.

ـ أراك تقول حسبي وما هو حسبك الذى تتباهى به. من أى بيت فجور منشاؤه؟

ـ نحن لم ننشأ من بيت فجور مثلك. ووآحرباه أن يكون بقصر الملك العثمانى رجل مثلك أبت مكارم الأخلاق أن تسكن نفسه. أمن أجل هذا الكلام المهذب دعوتنى وأشغلتنى بك منذ يومين أم أمرك السلطان أن تخاطبنى بذلك؟ وقد نسيت أن أذكر لقراء كتابى أنه دخل علينا رجل قصير القامة بادن الجسم علمت أنه من موظفى السفارة العثمانية التى ببرلين. فلما سمع ما خاطبت به أبا لحية قال لى:

ـ الباشا مثل والدك ولا ضير فى أن تتحالم له اكراماً لسنه.

قلت ـ أعوذ بالله أن يكون مثله والدى. أنا لم أعرف والدى جيداً لأنه توفى الى رحمة ربه وأنا صغير. ولكننى سمعت من أناس كثيرين انه كان رجلا أحسن الله أدبه وعصمه مما يشين أهل الوقار. اما هذا الرجل الذى يذم حسبي ونسبي فى قصر سلطان العثمانيين فلص دنىء حقير كذاب أفاك. لايقاس بأحد حتى من السوقة. فالتفت أبو لحية الى جليسه وقال:

ـ أرأيت كيف يستبطر حلم السلطان هؤلاء القوم. أما والله لو كان أمره بيدى لتوالت على أكتافه العصى.

قلت ـ وما يمنعك من ذلك؟

قال ـ خوفى من غضب سيدى الذى أعيش بأنعمه وانى لفخور بخوفى

هذا . وأنتم لا تعرفون مقام السلطان فتبلغ منكم قلة الأدب أقصاها . وقد صدق من قال : أشد الناس جرأة على الأسد أشدهم جهلا لبأس الأسد

قلت ـ ويحك ألا تدرى أن السلطان لو جعل أمرك بيدى لألجمت فاك ولجعلت فوق ظهرك برذعة ولأركبت الناس متنك بلاأجرة. أنت لاتعلم ماتقول ومن العبث أن أضيع معك أوقاتى . وها أنا ذاهب فان كان عندك ماتبلغنى عن السلطان فلا أتقبله الا مكتوبا . وخرجت من بين يديه . فلم يمانعنى .

ثم أرسلت رسالة برقية الى عبد الحميد وصفت فيها مااتفق لى مع سيافه وقلت : اذا لم ينصفنى طلبت انصافه فى جرائدأوروبا. فدعانى المرحوم عاصم بك كاتبه الخاص وأبلغنى أن السلطان أسف أشد الأسف لما جرى لى مع أبى لحية وأخبرنى أنه سيحضر الى عند عاصم ليعتذر الى عمافرط منه. ونصح لى أن لاأجيبه جوابا يؤلمه . فجاء أبو لحية وسلم علىّ وزعم أنه لم يرد بكلامه لى غير النصيحة وأنه أحبنى فرأى أن يخاطبنى بما يخاطب به ولده اذا لم يطعه .

قلت ـ اذا كنت تقول لولدك فى أية دار فجور نشأت فهذا كلام أنا لاأصبر عليه . وحين هممت بالانصراف مال عاصم بك بى جانبا وقال :

ـ يقول لك مولانا السلطان : ان من حسن أدب المرء أن لا يكثر من الوعيد فى مخاطبة مليكه . ويريد أن لايسمع منك كلاما عن الجرائد الأوروبية .

فخرجت من ذلك القصر الذى استوطنه الظلم وانا أكاد أعدو هربا

وقلت يالك من صرح شيد على خراب الوطن . فلئن مد الله فى أيامى ورأيتك وقدخلت مقاصيرك وحجرك وقفت أمام رسمك المحيل وحييتك بما قاله الملك الضليل فى الغابرين :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

فدخلت منزلى واستلقيت على مقعد لى وجعلت أفكر فيما مربى من المخاوف والمهالك. وقلت عسى يعقب الله هذا التعب راحة فأخرج لا غانما ولا غارما كما قال الشاعر القديم .

على أننى راض بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا علىّ ولا ليا

فلبثت ثلاثة أيام لاتروعنى فى خلالها روائع الدهر حتى ظننت أن الدهر عاد الى شيمة الوفاء ولم يبق لى شيء أخافه . وفى اليوم الرابع بينا أنا جالس فى حديقة البيت اذا زائر يتقدم نحوى. فتأملته فرأيته شابا حسن البزة والوجه . فلما دنا منى سألنى . هل انت ولى الدين يكن ؟

قلت ـ نعم . فأخرج لى بطاقة كتب عليها اسمه وهو . . . ممتاز بك من موظفى نظارة الداخلية . فرحبت بقدومه ولم أسأله عن سبب زيارته تأدبا وقربت منه كرسيا وسألته الجلوس فجلس وبعد دقائق قضيناها فى تكرار جمل التحيات على العادة الشرقية . قال لى :

ـ أرسلنى اليك ممدوح باشا ناظر الداخلية لأبلغك أنه يريدمواجهتك فى أمر ذى بال ويقول اذا استطعت أن تزوره قبل العصر فاذهب الى النظارة واذا لم تستطع ذلك فانك تجده بمنزله الكائن بجهة (ارناؤود كوى) وأمرنى أن ألازمك فى ذهابك لكى لا تتكلف تعب السؤال عن المنزل .

قلت — سمعاً وطاعة . غير أنني لم أحظ قبل اليوم بلقاء الوزير . فماذا ترى يريد أن يخاطبني فيه .

ـ لا أدري . وكانت الشمس مالت الى الغروب فنهضت ولبست ملابسي ورافقت الرجل الى منزل ممدوح . فأخبرونا أنه رجع من النظارة على عادته ثم دعاه السلطان الى (يلديز) . وقالوا لممتاز بك : أمرنا الباشا أن نستبقيك مع من دعوت الى أن يعود من القصر . فأقمنا في انتظار الناظر نحو ساعة من الزمان . فلما جاء أدخلت الى عنده . فألفيته واقفا الى جانب الباب فاستقبلني بأحسن مايستقبل به قادم . وناولني الخادم سيجارة فلم يرض الباشا أن أشعلها وناولني أخرى من علبته . واشعل لي كبريتة بيده فدخنت سيجارتي . وقلت في نفسي ترى ماوراء هذا الاكرام !!! فبدأني بالحديث . قال :

ـ كثيرا ما كنت أسمع الناس يتحدثون بفضلك وأدبك فأشتاق الى رؤيتك . غير أني لم يقسم لي أن أراك الا في هذا اليوم وأود أن لا تكون هذه آخر زيارة . فان البيت بيتك وكل من به يفرحون لقدومك . فأجبته بما يسع المقام . ثم قال لي :

ـ أأنت ابن أخي محمد فائق بك يكن ؟

ـ نعم .

ـ أنعم به وبك هو صديقي من القديم وأنا ممن يفتخرون بموَدته . والآن زادت جرأتي في بيان ما أريد لك . فاسمع كلامي وتأمله ولا تتعجل الاعتراض أنا لي ولد هو أسن منك ولي من التجارب مالا يتاح لسنك . وقد كنت صديقا للمرحوم نامق كمال الشهير وهو أشعر الشعراء وأكتب

الكتاب غير منازع . فأخلصت له النصيحة في ترك اللجاج والرجوع الى طاعة أولي الأمر . فلم يحفل بمقالي وسخر من نصحي . فلما خاب في مساعيه وعثرت جدوده ندم حين لا يجدي الندم . وقد رآني في أيام نكبته مرة فقال لي : صدقت يا ممدوح فيما قلت لي وليتني كنت تبعت رأيك وعملت بمشورتك فكفيت ما ألاقيه اليوم . وانما أبدؤك بهذا الكلام لتجعله عظة لك . انه أتاني أنك تناضل قوما من المقربين عند السلطان وهذا مالا أرضاه لك . مالنا نحن ولهم . هم خاصة رجل نحن من رعيته ولا يطمع عاقل في أن يعاقب السلطان أحد خاصته اكراما لمن ليس من أندادهم . اذا كنت تريد من السلطان شيئا فبالرفق والحسنى تناله . ولقد قال الحكماء : يدرك بالحكمة مالا يدرك بالقوة . هذا كلام لم يأمرني به السلطان ولا طلبه مني أحد من مقربيه . ولكني أقوله لك متوسما فيك الرأي والسداد واذا شئت أن تكتب فاكتب ماينفع بلادك والذم لا ينفعها . ألف روايات وترسل فيها ببيانك المعلوم أو فاكتب كتبا في التاريخ والأدب . واذا كانت لك عند السلطان حاجة فتعال الى بيتي ولك عليّ أن أكون رسولك اليه . واذا لم أرضك فاشتمني وذمني ما شئت . أنا لا أؤاخذك وأحمل منك ذلك على فتنة الشباب . أما غيري فيؤاخذك ويطالبك بحقه . والسلطان لا يذل خاصته ولا غنى له عنهم . والآن وقد سمعت كلام أب يغار على أهل الفضل والحسب أن يصيبهم مكروه فهل أنت واعدي بترك نضالك !

ـ مالم من نضال . شتموني ثم اعتذروا : وسمعت الشتم أولا وقبلت المعذرة ثانيا . فلا أنا مغبون ولا الدهر غابن .

ـ حسبك . قد رضيت منك بما تعهدت أما رجوعك الى مصر فلا أراه صوابا . ولا يضيع العاقل خيراً هو بيده جريا وراء أهوائه . فشكرت كلام الرجل كما يوجبه الأدب وخرجت من عنده . وما أطربنى من كلامه الا لفظه دون معناه . فان ممدوحا من رجال الأدب الذين عاشروا كمالا وأصحابه وأوتوا البيان وفصل الخطاب. غير أنه فتنه ذهب عبدالحميد وقلت قيمة الوطن عنـده . فحسب الذهب يبقى والوطن يفنى . فكان من الأخسرين أعمالا .

هذه الزيارة فذة لاثانية لها . وما سرنى أن يكون لى بعودة ممدوح ملك الدنيا وهو رجل لم تطلع الشمس على ألأم منه . وأعلم أنه خاطب كثيرين بمثل ماخاطبنى ليستجلب قلوبهم ويشـترى نفوسهم ويلقى بهـم فى هلكات العار .

وقد أطلت الكلام فى هذه الفصول حتي كدت أخرج عن الصدد . بل خرجت عن الصدد . وانما أردت بذكر هاته المحادثات أن يقف القراء على عقول أركان الأستبداد وعلى تنوع أهوائهم فهي منقولة اليهم بغير زيادة ولا نقص وكأن كاتبا كان يكتب مايدور بينى وبين هؤلاء الناس. وربما يخيل لبعض القراء أن ببعض الأخبار مبالغة فلايصدقون وقوعها . فيقولون كيف يكتب ولى الدين كذا وكيف يتجاسر أن يقول كذا وهو فى قصر عبدالحميد. بين يدي خاصته . ولكن هذه الوقائع يعلمها كثير من الناس وهم لايزالون بالآستانة ومنهم من جاء مصر وأقام بها . فان كانوا يعلمون فيما ذكرت شيئا يخالف الصواب فليتفضلوا بذكره ولينشروه بالجرائد واذا هم لم يستطيعوا نشرها نشرتها أنا لهم باية جريدة يريدونها .

﴿ شتم وضرب وقتل ﴾

« عاصمة ملك أم مرسح ملعب !!! »

كل بلد فيها من الفضائح مايظنه الناس لايتحصل فى غيرها وكل معشر لهم من المثالب مايخاله المرء لاينشأ الا منهم . ولو تأمل حال الدنيا لبيب رأى عواصمها مكامن للأسواء ومعاشرها صـناديق للعيوب . فلست أريد أن أذم ماضى فروق من هذه الوجهة . وماذنب فروق وهى روضة غناء زهرها ابتسامها ومزنها بكاؤها . جنة أراد قوم أن تكون جهنم فلم تكن . وانما الذنب ذنب فئة باغية تقدمها عبد الحميـد . فكانت كالسيل اذا دهم والطامة اذا حلت.

دخلت الآستانة وبها شاب اسمه عبد الغنى بك. كان ميرآلايا بالحرس السلطانى . نال من ثقة مولاه مالم ينله أحد غيره ومن الحظوة شأوا بعيـدا وقفت دونه الهمم. استبطر عبد الحميد هذا الشاب فتركه يعتدى على الناس ولم يقبل فيه وشاية ولاسمع فيه شكاية . فلو قيل له ان عبدالغنى أضرم النار بالآستانة وأخذ يرمى بالناس فى لهيبها مثنى وفرادى لقال: دعوه. أنا امرته بذلك . ولم أعاشر عبد الغنى ولم أخالطه كثيراً ولا قليلا فأقول في حقيقته ذماً أو مدحا . وما رأيته منذ نزلت بالآستانة الى يوم مقتله غير مرة واحدة والمادحون له من أفادهم وده والقادحون له من اضرهم بغضه ولا يعتد بشهادة فريق منهما . غير أنه تجاوز الحد فى اقدامه فلم يرحم صـغيرا ولم يوقر كبيرا

وحيث رمى ببصره سعى بقدمه . وكان لهذا الشاب آخر يغايره ويعانده .
وكان دون عبد الغنى شجاعة ولم يكن دونه قدرة . وقد فاق عبدالغنى طولا بما
أوتى من المال . وهذا الخصم الألد هو جاويد بك ابن المرحوم خليل رفعت
باشا الصدر الأعظم . ولما بلغ الشر مبلغه بين المتحاسدين وسعى أناس بينهما
بالغيبة والنميمة دهم عبـد الغنى جاويداً بأحد المنازل فسبه وشتمه وطرده على
أسوإ حال. فأسرها له جاويد فى نفسه وكان له صديق حميم اسمه حافظ باشا
وهو أحد أعضاء أمانة البلدة بالاستانة. فأخـذ يتودد الى عبد الغنى حتى
استحكمت بينهما الالفة. ثم رماه برصاصة أصابت جبهته فى خبر طويل وفر
حافظ وأرسل بعـد ذلك جماعة من قبيلة عبد الغنى بك رجلا اسمه الحاج
مصطفى قتل جاويداً بجسر غلطة فى رابعة النهار .

وكان لعبد الحميد كاتب خاص من قبل عاصم بك اسـمه كامل بك .
دخل عليه جاويد يوما وكلمه في شؤون بينهما لا يعلمها سوى الله. فعظم الخلاف
وكبر الشر وآل الكلام الى الملاكمة ففاز جاويد على خصـمه وضربه حتى
أوجعه. فلما بلغ الأمر عبد الحميد أنعم على كامل بك برتبة البالا وعلى جاويد
بوسام وأمر لهما بجائزة سنية .

واشتد غضب الصيادى على آل بدر خان الا اثنين منهم . وهما بدرى
بك وعثمان باشا . فسلط على.... بك البدرخانى جماعة من الحمالين هاجموه ذات
يوم ولكنه أدخل يده فى جيبه فأخرج مسدساً كان معه ورمى به فى الهواء
ثلاث رميات . فأسرع البوليس الى المكان الذى دوت منه الرصاصات .
وقبضوا المعتدين واستاقوهم الى نظارة الضابطة وخلص الله البدرخانى من

أعدائه . وأراد على شامل باشا وهو أيضاً من كبار أولاد بدرخان الشهير
أن يعاقب أخاه عثمان باشا على صداقته للصيادى. فقابله فى يوم من أيام رمضان
احدى السنين وهو خارج من الجامع. فضرب على شامل أخاه ضربة على
وجهه هشمت أنفه ووقع على الأرض صريعاً فنقلوه الى البيت. ولما كان يوم
العيد قابل عثمان أخاه فى حجرة التشريفات بسراى (طولمه بغجه) فرماه
بنظرة ملؤها وعيد وخرج من بين صفوف المهنئين وأشار بيده الى السلطان
مسلما . فأنفذ السلطان وراءه حسن باشا محافظ بشكطاش الفاتك الشهير
ينذره بأنه لن يعود الى التشريفات بعد ذلك أبداً .

وكان حسن باشا الذى أتى ذكره فى هذا الفصل عرضا من أكبر أنصار
الاستبداد . يضرب ويقتل ولا يعارضه أحد . ويروى البعض أن السبب في
هذه المنزلة أن بعض الأحرار كانوا هاجموا قصر (جراغان) التى كان السلطان
مراد الخامس مسجونا بهـا وحاولوا اخراج السلطان المعتقل واعادته على
كرسى الملك وجعل عبد الحميد مكانه . وقاد هؤلاء الأحرار السعاوى الشهير.
ففتحوا أبواب القصر عنوة حتى وصلوا الى السلطان مراد. وكان الخبر وصل
الى حسن باشا محافظ بشكطاش فأسرع الى الهاجمين في جماعة من الجنود
ووقعت عينه على السعاوى فضربه ضربة ألقته على الأرض قتيلا . والقصة
معروفة عند العثمانيين كافة وهم يسمون هذه الواقعة واقعة السعاوى . ومن
ذلك اليوم أعجب عبد الحميد بحسن باشا وركن اليه فى المحافظة على حياته .
وهذا الرجل ضرب يوما الحر الشهير المرحوم مانياسى زاده رفيق بك الذى
كان ناظر العدلية. فشكاه ولكن لم يسمع شكايته أحد.

ولعلى شامل باشا البدرخانى واقعة أخرى تعجبنى كثيرا . فقد التقى يوما بحسن خالد الصيادى بجهة الفنار . وكان حسن خالد ذهب الى هناك لينزه ناظريه فى جمال تلك الغانيات وقد ملأت الروابى والبطاح . فضربه على شامل أمامهن حتى أسفه التراب .

كذا كانت فروق . يضرب الناس بها بعضهم بعضا . فمن كان ذا قوة وبأس شديد استوجب لنفسه الكرامة وبات ذا منعة لا تتطاول اليه الأبصار. ومن كان ضعيفا ضيم فى ضعفه ولم يجد له حميا ولا نصيرا. وهنالك عبد الحميد مشرف من أوجه ينظر الى الناس في اختلاف أهوائهم وتزاحمهم على آرائهم فيسوق فريقا الى حرب فريق. فمن رجحت كفته استدناه من حظيرته واختاره لنفسه. ومن خفت كفته أجهز عليه وعجل له بنقمته .

السياسة الحميدية

ليس فى العثمانيين ولا فى الغربيين من عرف سياسة عبد الحميد حق معرفتها. بلى أقول ليس فى خاصته وأشد الناس قربا منه من استبان مقاصده. لقد كان هذا الرجل لغزاً من الألغاز حارت فى فهمه العقول وقصرت المدارك. ولا أدعى لقرآء كتابى أنى عرفت من عبد الحميد مالم يعرفه غيرى . فتلك دعوى عريضة لا تقدم نفسى عليها . وان ما أذكره لهم فى سطورى هذه لضروب من الحدس قد أخطئ فيها وقد أصيب غير أن أمراً واحداً لا أخطئ فيه ولا يجادلنى فيه أحد من الناس. وهو أن عبد الحميد كان عدو أمته . لم يعرف مقدار جهلها فى أوائل حكمه . فتولى زمامها على حذر منه . فلما

مارسها وعرف من أمرها ماكان يجهل صغرت فى عينه عقولا ولم تصغر في عينه قلوبا . وقد شهد لها بالبأس والفتوة واحتقار الموت في سبيل كرامتها وعلم أن هذه الصفات الطيبة يسترها الجهل فتمسك بالجهل . وأيقن أن سمو المدارك يكون على قدر العلم. فقضى أن لا تزداد الأمة علما لكى لا تزداد فهماً .

ورأى بنى الشرق مولعين بقديمهم . لا يريدون أن يبدلوا منه غيره . فمشى على أهوائهم وفتنهم بالهبات . وفتح لهم باب الحسد ففرق بينهم وجعل بعضهم رقباء على بعض . ثم دلته تجاربه أن خير ما يؤيد به عرش فى بلاد لم تزل على عهد البداوة أن يبدو من السلطان تعصب للدين . فجعل يستدنى من مجلسه أولى العمائم ويعمر لهم التكايا ويشيد لهم المساجد ويواصل ببره أهل النسك والزاهدين . فيقولون هذا سلطان تقى بار يحب أهل البر والتقوى وهم لا يعلمون ماوراء بره وتقواه . على أنه نال بغيته فجعل لنفسه منزلة فى قلوب المسلمين فى بلاده وفى البلاد القاصية وأوهم دول أوربا أن له ركناً قوياً وجانباً غير هضيم .

أما أوربا فكان فيها المصدق وفيها المكذب . فرأى المصدقون أن لا يفتحوا على أنفسهم أبواب الفتنة ويدعوا عبد الحميد فى ملكه حتى يقبضه الله. ورأى المكذبون أن يستفيدوا منه بتخويفهم اياه . فقد علموا أنه ضعيف الفؤاد شديد الفزع . فكانوا كلما لاحت لهم بالبلاد العثمانية غنيمة أقبلوا عليها يتراكضون وأمامهم أساطيلهم وجيوشهم تتكلم النيران بأفواه مدافعها . ولا يلبث أن يهبهم حاجتهم فيرجعون ظافرين غانمين .

وقد شاء الله أن يكون فى الأمم المتمدينة قوم يرثون لحال العثمانيين ويستحثون حكوماتهم وأبناء جلدتهم على الأخذ بناصرهم وافتدائهم من آسرهم . فلم يفلحوا . وذلك لأن بعضهم لمع له المال فى يد الظالم فعى لسانه وشلت أنامله وبقى البعض الآخر لا نصير له حتى مل النضال وطلب الهدون. وما ظهر من العثمانيين من يدعو الناس الى نصرتهم ويحدثهم بخطبهم الا تغلب عليه عبد الحميد بالمال واذا لم ينفع فى نكايته المال تغلب عليه بالحيل . ورأى الغربيون ذلك . فساءت بنا ظنونهم وصغرت منزلتنا فى أعينهم وقالوا هؤلاء قوم لا ثبات لهم على رأى . فليذوقوا الظلم حتى يتعودوه فيستطيبوه أو يملوه فيغلبوه . وبذا أمكن الله عبد الحميد من رقاب أمة استسلمت اليه امتثالا لا ذلاً وسكتت عنه صبرا لا عجزا وأحبه منها من أحبه جهلا لا علما .

ولو اقتصر ساسة أوروبا على التغاضى عن العثمانيين لهان الأمر ولتدبر العثمانيون لأنفسهم تدبيراً يقصر دون رقابهم يد القاتل. ولكنهم فى حضارتهم وشغفهم بانصاف بنى الانسان أقبلوا على خزائن عبد الحميد. فبينا تجرى دماء الأرمن أنهاراً فى أقطار الأناضولى ويعلو صراخ الثاكلات واليتامى بين الصخور والوديان وتغتذى أسماك البوسفور بأجساد الفضلاء من الأمة وتجبى الأموال الى عبد الحميد وأعوان نقمته وهى تسل من كبد القروى المسكين اذا بزعيم قوم يخطب على ضريح صلاح الدين الأيوبى محيياً عدو الأمة العثمانية فوق عرشه الذى اغتصبه . فيقول لأبناء الحضارة كذب المتظلمون . ان عبد الحميد سلطان جليل عادل رحيم . ويقول أبناء الحضارة صدق الزعيم وكذب العثمانيون .

كان أبو الهدى أشد الناس بغضاً لعزت العابد وكان العابد أشد الناس بغضاً لأبى الهدى . وكان عبد الحميد مصطفياً كليهما وهو يعلم أنهما لا يتفقان فى رأى ولا يجتمعان على خطة . فان كان يظن بأبى الهدى خيراً فقد وجب عليه أن يكتفى به ويستغنى عن العابد . وان كان يتوهم بالعابد نفعاً فكان من الصواب أن يستخلصه لنفسه وينصرف عن أبى الهدى . ولا يجتمع نقيضان على حق . وبذا يتبين للمتأمل أن عبد الحميد لم يرد من اختيار المتخالفين الا اتخاذ كل منهما رقيباً على الآخر . علما منه أنهما سيسهران لياليهما فى رقبة ويرتاح هو بين الرقيبين .

وأشد ما على نفس الحر أن يعيش عبد الحميد فى ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة يظلم فيها رعيته ويقتل أبناءها تقتيلا وأن يجد كثيراً من الناس يضربون بسيفه ويجادلون بحجته . وما ذاك الا أنه أرضى رجال الدين والعامة تبع رجال الدين

هذا هو دهاء عبد الحميد الذى يضرب به الأمثال أكثر المتشيعين له وهذا هو السر فى استمرار حكمه طول هذه المدة وأنا أخالف كل من يقول بذلك . فان الرجل فطر على حب نفسه وولد اذ ولد جباناً مستطارا . فكان همه استطلاع أسرار الناس ليتبين ان كان فيها ما يرجع اليه بمكروه . ولو كان ذا دهاء كما يقولون لتبين الحق من الباطل ولاستطاع أن يحبب نفسه الى مبغضيه وذلك مالا يكلفه شططاً ولا يكسبه اثما . فقد خرج الآن من ملكه وهو لا يعلم من رعاياه الا ما كان خاصاً بذاته من حب أو بغض وهو علم تكنفه الشبهات ولا يؤيده الا الوسواس . والرأى السديد لا يقيم بفؤاد

وقد شاء الله أن يكون فى الأمم المتمدينة قوم يرثون لحال العثمانيين ويستحثون حكوماتهم وأبناء جلدتهم على الأخذ بناصرهم وافتدائهم من آسرهم . فلم يفلحوا . وذلك لأن بعضهم لمع له المال فى يد الظالم فعى لسانه وشلت أنامله وبقى البعض الآخر لا نصير له حتى مل النضال وطلب الهدون. وما ظهر من العثمانيين من يدعو الناس الى نصرتهم ويحدثهم بخطبهم الا تغلب عليه عبد الحميد بالمال واذا لم ينفع فى نكايته المال تغلب عليه بالحيل . ورأى الغربيون ذلك . فساءت بنا ظنونهم وصغرت منزلتنا فى أعينهم وقالوا هؤلاء قوم لا ثبات لهم على رأى . فليذوقوا الظلم حتى يتعودوه فيستطيبوه أو يملوه فيغلبوه . وبذا أمكن الله عبد الحميد من رقاب أمة استسلمت اليه امتثالا لا ذلاً وسكتت عنه صبرا لا عجزا وأحبه منها من أحبه جهلا لا علما .

ولو اقتصر ساسة أوروبا على التغاضى عن العثمانيين لهان الأمر ولتدبر العثمانيون لأنفسهم تدبيراً يقصر دون رقابهم يد القاتل. ولكنهم فى حضارتهم وشغفهم بانصاف بنى الانسان أقبلوا على خزائن عبد الحميد. فبينما تجرى دماء الأرمن أنهاراً فى أقطار الأناضولى ويعلو صراخ الثاكلات واليتامى بين الصخور والوديان وتغتذى أسماك البوسفور بأجساد الفضلاء من الأمة وتجبى الأموال الى عبد الحميد وأعوان نقمته وهى تسل من كبد القروى المسكين اذا بزعيم قوم يخطب على ضريح صلاح الدين الأيوبى محيياً عدو الأمة العثمانية فوق عرشه الذى اغتصبه . فيقول لأبناء الحضارة كذب المتظلمون . ان عبد الحميد سلطان جليل عادل رحيم . ويقول أبناء الحضارة صدق الزعيم وكذب العثمانيون .

كان أبو الهدى أشد الناس بغضاً لعزت العابد وكان العابد أشد الناس بغضاً لأبى الهدى . وكان عبد الحميد مصطفياً كليهما وهو يعلم أنهما لا يتفقان فى رأى ولا يجتمعان على خطة . فان كان يظن بأبى الهدى خيراً فقد وجب عليه أن يكتفى به ويستغنى عن العابد . وان كان يتوهم بالعابد نفعاً فكان من الصواب أن يستخلصه لنفسه وينصرف عن أبى الهدى . ولا يجتمع نقيضان على حق . وبذا يتبين للمتأمل أن عبد الحميد لم يرد من اختيار المتخالفين الا اتخاذ كل منهما رقيباً على الآخر . علما منه أنهما سيسهران لياليهما فى رقبة ويرتاح هو بين الرقيبين .

وأشد ما على نفس الحر أن يعيش عبد الحميد فى ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة يظلم فيها رعيته ويقتل أبناءها تقتيلا وأن يجد كثيراً من الناس يضربون بسيفه ويجادلون بحجته . وما ذاك الا أنه أرضى رجال الدين والعامة تبع رجال الدين

هذا هو دهاء عبد الحميد الذى يضرب به الأمثال أكثر المتشيعين له وهذا هو السر في استمرار حكمه طول هذه المدة وأنا أخالف كل من يقول بذلك . فان الرجل فطر على حب نفسه وولد اذ ولد جباناً مستطارا . فكان همه استطلاع أسرار الناس ليتبين ان كان فيها ما يرجع اليه بمكروه . ولو كان ذا دهاء كما يقولون لتبين الحق من الباطل ولاستطاع أن يحبب نفسه الى مبغضيه وذلك ما لا يكلفه شططاً ولا يكسبه اثما . فقد خرج الآن من ملكه وهو لا يعلم من رعاياه الا ما كان خاصاً بذاته من حب أو بغض وهو علم تتكنفه الشبهات ولا يؤيده الا الوسواس . والرأى السديد لا يقيم بفؤاد

الجبان فان الخوف يمنع الفكر ادمان التأمل . وكل مايراه المرء في فزعه من الرأى يراه على غير حقيقته وقد وقع ذلك لعبد الحميد فى كثير من أموره . وما اشتد به أمر الا استدعى وكلاءه وفاوضهم مفاوضة المقيم على جمر الغضا فتزل قدمه وتزل أقدامهم . وربما أمر أمراً يستحدث شرا . فيتجاهله ويزعم أنه لم يأمر به . خوفا وذلة ولبئست الخلتان .

وأى دهاء عند رجل كلمة تقيمه وأخرى تقعده . كما وقع له فى أمر العرابى فوعد الانكليز بأرسال الجنود العثمانية لاخماد الفتنة ثم انصاع لرأى الشيخ أسعد كما سبقت الاشارة اليه فى أحد الفصول المتقدمة . بل أى دهاء عند رجل يخاف أحقر عبيده وترتعد فرائصه أمام نسائه ويكاد يميته الخوف من طفلة ربيبة تقلب مسدساً له . كما جرى له مع تلك المسكينة التي قتلها ظلما وعدوانا . أنا لاأصدق أن جبانا يكون ذا دهاء . واذا كان المراد بالدهاء احتياله على الناس وابتزاز أموالهم فذلك مالا أجادلهم فيه. واذا كان فى الناس من يظن أنه خدع أوروبا فذلك ظن كله خطأ . وان أوروبا لأعقل ان يتلاعب بساستها عبد الحميد . ولكنهم كانوا معه على ما قال الشاعر الحكيم :

ليس الغبي بسيد فى قومه   لكن سيد قومه المتغابى

بلغني أن سفير ايطاليا شدد عليه النكير فى احدى زياراته وجعل يقول له : ان الدول الاوروبية لم تر من الدولة العلية وفاء بوعد من وعودها وانها كلما طالبتها الدول انجاز الاصلاح الذى ضمنته مالت الى الخديعة والمطل وان هذه الحال قد تضطر الدول يوماً الى ركوب الخشن والرجوع الى الوعيد. فحاول عبد الحميد اقناع السفير بأنه ساهر ليله مشتغل نهاره سعياً وراء

ما يرضى الدول وأن الأمة العثمانية جاهلة ومتعصبة فهو يعانى الشدائد فى ارشادها الى الخير وأنه لا يلبث أن يتمكن من ذلك قريباً . كل هذا والسفير لا يقتنع . فحار عبد الحميد ولم يدر ما يصنع . ولما كبر عليه الأمر استدعى عزت العابد وقال له : كلم جناب السفير بشيء يكون له فيه مقنع . وأقام العابد يغالط السفير حتى استرضاه بالرجاء ولم يرضه بالبرهان . فأين كان الدهاء فى عبد الحميد يومئذ وفى مثل ذلك يعرف الدهاء . ولا يستنجد الملك الحازم بكاتب من كتابه فى معضلة بينه وبين أحد السفراء :

هذا كجوابه لمن قال له : ما السبب فى اكثار السلطان من الحراس والجند حين يخرج الى صلاة الجمعة ؛ وكان سائله أوروبياً . فقال له عبد الحميد لأمكن هيبة الخلافة من قلوب النصارى وقد حرف الكلمة ترجمانه فقال : من قلوب الاوروبيين . فجاءت الاقالة شراً من العثرة .

وأقبح من كل ما تقدم أن عبد الحميد كان كلفاً بالاستقلال . فلم يشأ أن يكون لغيره رأى فى كبيرات الأمور ولا صغيراتها . وسيان لديه تولية وال وتوظيف أحد رجال الجاندرمة . كل يكون بارادة سلطانية . وقد تولى تدبير حركات الجيش في الحرب الروسية وهو بقصره بين جواريه وغلمانه. فكانت العاقبة أن جاءت الجنود الروسية الى عاصمة ملكه وكادت تطأ سنابك أعوجياتها حجرة نومه لولا فضل الاسطول الانكليزى ووقوف جباله الشم تلقاء (سان استفانو) .

ولينظر القراء من اختارهم لدولته من الصدور والوكلاء . أما والله لم يكن بينهم ذو عقل ولا من يليق به أن يكون من الرعاة هذا وفى الناس

من يتوهمون أن عبد الحميد كان من الدهاة :

جهل الأمة وأطماع قادتها ومقاصد أوروبا من منن الدهر التي يشكره عليها عبد الحميد . والآن وقد أنزله الله من عرشه وجعل مأواه بيتا كان لا يرضى أن يهب مثله لنديم من ندمانه وترك لنا بقية ملك يحاول كل عثمانى أن يرفعها بشغاف فؤاده . فلا يجمل بنا أن نخدع أعقابنا ونوهمهم أن الرجل الذى أبت نعمة الله أن تساكنه كان ملكا من كبار الملوك .

تم الجزء الاول

ويليه الجزء الثانى

فهرست

الجزء الاول من كتاب المعلوم والمجهول

صحيفة

صحيفة

المعلوم والمجهول



ولي الدين يكن

سنة ١٣٢٩ — ١٩١١

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

مقدمة

قد علم من قرأ الجزء الأول من هـذا الكتاب بعض ما كان يقع بعاصمة الملك العثماني في عهد حكومة الاستبداد البائدة . وما ذاك بالكل ولا بالجل . ان هو الاَّ مجمل ما عرفتهُ معرفة المشاهد وخبرته خبر المجرب . ولم أتعرض لما شاع على ألسن الرواة او ذكر في صحف الأخبار اذ لم آمن عليهِ غلبة الأهواء وكذب الرواية . ولكن أتهمني بعض الخلان بجعل الشكوك بمنزلة الحقائق في تسجيل التاريخ وبالميل مع الهوى في مقاضاة الرجال . وليس ذلك من الصواب في شيءٍ . وكيف يكون صواباً وأنا الذي عانيتِ صعب مراس الأيام واستهنت فادحات الخطوب وأعرضت عن بسمات المعالي لكلمة حق أقولها . ولو تكتمتها لاقتصدت في عداوات الرجال

نظر ا ناس في الجزء الأول من المعلوم والمجهول فرأوا صورة اللورد كرومر وقد كتبت تحتهـا « مصلح مصر » . فألقوا بالكتـاب جانباً وأطبقوا جفونهم وولوا عنهُ هاربين . راعهم شخص ذلك الرجل الجليل على الورق فأخذتهم سورته ولم تقوَ عيونهم على النظر في وجهه . فكيف بهم لو تمثلوا بين يديهِ ورن صوته في آذانهم . وقد زعموا بعـد ذلك اني صنيعة الرجل والرجل لا علم له بكتابي الى يومنا هذا . وهال بعض الجرائد ما في الكتاب فأمسكت عن الكلام فيهِ . لم تشأ تقريظهُ ثقة منهـا بأن

ستشتمها الصحف التي تشتم اللورد كرومر ولم ترد نقده علماً منها بأن سأحجها اذا دعت الى النزال . وتراضينا في هذه القضية على السكوت

يا حرية . ظننت بأن سيكثر المتنافسون فيك نخفت ان ينفسوا عليّ . واذا هم يدعونكِ ولا يعرفونكِ . فلن أخاف منذ اليوم رقيباً . أَنا عرفتكِ وهمت بك هياماً . فأنا صاحبك من قبل ومن بعد . يريدون ان أكتب ما يريدون وأُريد ان أَكتب ما أريد . اتسعت مسافة الخلف بيني وبينهم . الشرق وطني وأَنا في الشرق غريب . ولا ضير . ان أَعرض عن مقالي أهل زماني فغداً يتهافت عليهِ أبناؤهم . « ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل »

على اني طويت أشياء كانت ذكرت في الفهرست الذي طبعته قبل الكتاب ورضيت ان تتأجج في فؤادي حسراتها وقلت : يا نفس ردي موارد الصبر . وما أنا بالجبان في قول الحق غير اني أشفقت على القلوب الحرة ان يذيبها حر أنفاسي . وقد أتت حالات عجزت عن تحويلها . وها أنا اليوم مقرّ بعجزي ومعترف بذنبي . واذا كانت لي في ذمة الدهر أيام رجوت ان أجد السبيل الى زيادة الافصاح وأن لا أَموت نصف حرّ بل ان أموت حراً كاملاً

واليوم آن لي ان أنجز الجزء الثاني من المعلوم والمجهول وسيأتي فيهِ ذكر أَشياء كثيرة لم يسبقني أَحد الى بيانها . فأرجو ممن سيطالعون هذا الكتاب من خصومي ان يحكموا فيهِ ضمائرهم دون أهوائهم وان لا يتعجلوه بمدح او ذم قبل إِكمال مطالعته .

كيف نفوني الى سيواس

لو كنت آمل أن سأعيش الى يوم أكتب هذه السطور لحرصت على ما كنت كتبت في أيام شقائي . ولكن غلب عليّ اليأس واشتدت الضجرة وقلت ربما وشى بي واش الى الحاكم الظالم فأوخذ الى السجن ويؤخذ ما أكون كتبتهُ الى النار . فلا انا أستفيد ولا الوطن يستفيد

لي عند بعض الناس ثارات انا أهبها اليوم لهم غير مكره . عفا الله عما سلف . ولا آتي في سياق حديثي بذكر أشخاصهم ولا أعرض بشيء مما امتازت بهِ صفاتهم تجاوزاً وصفحاً . فليعذرني قارئ كتابي فليس المقام مقام انتقام بل هو مقام أعتبار واتعاظ

لما كاثرتني جموع المستبدين وهي في إقبال دولتها وقوة سلطانها واشتعال جذوتها وامتداد حكمها وتخاذل عني قوم كنت أعددتهم للعظائم رأيت في نفسي ضعفاً عن الاستمرار على الكفاح . أما النكوص على عقبي فلم أرضَ بعيبهِ وعاره وأما الانقياد فدونهُ الموت وأعذب منهُ أشد العذاب . فرأيت الراحة في الهدون حتى أجد عدة كافية ودرعاً واقية وسلاحاً ماضياً وأنصاراً أولي حزم ووفاء . فأقمت الليالي والأيام لا أغشى لصديق مجلساً ولا أفشي لأحد سلاماً ولزمت بيتي وانقطعت عن نظارة المعارف . فكان يزورني من الأصدقاء من لا يسوءني محضرهم ومن آمن عواقب الثقة بموداتهم . وظللت على ما ذكرت بعيداً عن معترك المتناظرين منقطعاً الى أحزاني مكباً على مطالعة الكتب وكتابة الفصول

ونظم الاشعار . فطاب لي الانفراد وآنست الى وحشة هذا السجن الذي اخترتهُ لنفسي ولزم الجواسيس باب داري فجعلوا يتزاحمون جيئةً وذهاباً وهم لا يظفرون بطائل

نخرجت ذات يوم في حاجة عرضت . فلما كنت في بعض الطريق التقيت بصديقي القديم الدكتور ن .... وهو انكليزي الأصل . كان جاء الاستانة في أيام الحرب التي هاجت بين دولتنا وبين روسيا في سنة ١٨٧٧ وكتب في الجندية العثمانية . ولما وضعت الحرب أوزارها خرج من الجندية وطابت له الاقامة بالاستانة فلم يفارقها الاَّ مرات قلائل . وقد تعلم اللغة التركية وعرف قراءتها وكان له في اللغة الفرنساوية باع طويل وله بها كتابات تدل على أخذه بنواصي البيان . فدنا مني هـذا الصديق ومال بي الى قهوة كانت قريبة منا فدعاني الى الجلوس فجلسنا . ثم جعل يصعد فيَّ نظره ويصوبهُ وقد عرتهُ دهشة مما رأى من نحولي فأنكر ما شاهد في وجهي من التغير وأخذ يسألني عما أدّى بي اليـهِ . فقلت : لزمت البيت وانقطعت عن النزهة والاستشفاء بمعتلة النسائم فاحدث فيَّ طول اللبث وفرط الانكباب على التفكير ما ترى

— وما الذي دعا بك الى هذا الاعتزال ؟

— مللت مغالبة الغاشمين وكلَّ عن نضالهم ساعدي فهادنتهم حتى استعيد قوتي او أجد نصيراً على الحرب

فتأمل الرجل النطاسي وجهي ملياًّ وتنهد تنهداً سمعت له زجلاً في صدره ثم قال :

— ألم أقل لك يا وليّ الدين انك خاطئٌ في إغضابك أبا الهدى وقد

ظننت بي الظنون يومئـذٍ وزعمت اني متشيع له ؟ ومالي والتشيع لأبي الهدى وليس له عليَّ من سلطان . أنا رجل انكليزي وقصارى ما ينالني من غضب عبد الحميـد ان يأمر باخراجي من بلاده فأخرج مكرهاً ثم أعود مدعوّاً فيستقبلونني بالعطايا . ولو كنت أُحاول ذلك لنلتهُ منذ أمد بعيد . وانما كان لومي خوفاً عليك من كيد رجل لم يثبت على لقائهِ منازل وعلماً مني بان كل هؤلاء الذين في قصر الملك يخافون أبا الهدى على أنفسهم ولا يجاهر أحد من أعدائهِ بحماية عدو يكون أبو الهدى مطارده. ولم أقل لك في نصحي : شارك الرجل في مفاسده وأعنهُ على الخيانة وتحبب اليهِ بالكذب والنفاق . بل قلت لك دعهُ وشأنه واحترس من غوايتـهِ واكفِ نفسك شر بطشهِ . والآن ماذا تريد ان تفعل ؟

— سبق السيف العذل . ما أنت باخل بنصح ولا الجد ذاهب بأمل ولا أنا نادم على ما فات ، إني فعلت حين قدرت وأمسكت حين عجزت واذا عاودتني المقدرة عاودت العمل

— انت أملك مني لنواصي الكلام وانا أبصر منك بمواضع الرأي فلا تغالب حقائقي بزخارفك واسمع لما أُلقي عليك : تقوم من ساعتك ماضياً في حاجتك التي خرجت لها من دارك . وسأكون واسطة لأصلاح ذات بينك مع أبي الهدى . ولكن إياك ان تنقاد لهواه وتستخدم قلمك في أغراضه فتقضي بذلك لباناته حتى اذا حاق بك سوء وقف يضحك على عقلك ويسخر من رأيك . وسأزورك في دارك بعد يومين

فمضى صاحبي لشأنه ومضيت لشأني وتم الصلح بيني وبين أَبي الهدى على يده وزرت أبا الهدى في بيتهِ وزارني بعد ذلك نجله حسن

خالد بك الصيادي . وبعد ان مضت على الصلح أيام توجهت الى منزل الصيادي لأنظر ما سيبدي لي من ود او عتاب وقد كنا تراضينا على ان لا نعيد ذكر ما فات وان لا يكلف أحدنا صاحبهُ عملاً . فلما ادخل بي على الرجل تلقاني بصدر رحب وثغر باسم وأدنى منهُ مجلسي وأقبل عليَّ بوجهه وطيب حديثه وانا لا يطمئن له فؤادي ولا تنبسط لهُ نفسي. وكنت أعلم ان أبا الهدى لا يفلت فريسة امكنهُ الدهر منها وانهُ اشد ما يكون فاتكاً اذا ظفرت يداه بعدو لهُ . فاضمرت الحذر وأظهرت الاستسلام فاذا هو يميل عليَّ بكله وجرى يومئذٍ بيننا حديث طويل واطلعني على كثير من اسراره واقرأني من اوراقه ما لو عرض على عدو غيري لنال بها من الثراء ما يبقي لأعقاب اعقابه وحلف لي بالايمان المغلظة انهُ لا علم لابنه حسن خالد بشيء مما في تلك الاوراق . فأعدتها لهُ وعاهدتهُ ان لا يعلم مني احد شيئاً مما اسره اليَّ وها انا اليوم أوفي بعهدي واحفظ لهُ سره . ولو عاش في دولته الى يومنا هذا لحاربتهُ حرب المستميت ولكن غير مغالب لهُ بأسراره . وقد أيقنت بعدها ان الرجل جرى معي على غير شيمته وانهُ لا يضمر لي غدراً . فأمنت غوائله واسترحت من طول الحذر ولو كان أبو الهدى غير خائن لدولتي لحرصت على وده ولأقمت على مناصرته ما بقيت لي في الحياة بقية

على انني ما صالحت أَبا الهدى اذ صالحتهُ الا لأكفي طول مناضلته وأُفرج عن وجهي ما كان يمنعني عن الفرار والخلاص مما كنت فيه . وأَما وقد تهيأ لي ما أَردت فلم يبقَ الا تشمري وشد رحالي . وبينا أَنا في نقض وإِبرام اذ دخل علينا شهر رمضان . فحمدت قدوم الصيام ورأَيت

في شغله الشاغل للناس ما يعمي أَبصارهم عما أَتأهب له . واقمت استنجز الفرص . واني لفي داري مشتغل بما ذكرت واذا رسول ابي الهدى يتعجل مضيي اليهِ . قلت ما أتى السيد حتى أنفذك اليَّ ؟ قال لا أدري ولكنهُ اخبرني انهُ سيكون على انتظارك بعد الافطار . قلت بلغهُ اني قادم عليه . ولما ولّى الرسول أنجزت ما كان بيدي من اعمالي وما أزف الوقت الا واكتريت عربة وبادرت الى موعدي . فتلقاني حسن خالد في طرقة الدار وسأَلتهُ عما دعيت لأجله فأَبدى تجاهلاً حسن عنده سكوتي . ثم أُدخلت عند ابي الهدى . فاستقبلني قائماً ولم أَرَ على وجهه بشاشتهُ التي عودنيها ولا بدت على ثغره بسماتها تلك التي خدعت الماكرين . ولكني رأَيت في حاله من الوجل ما كاد يستخف بحلمي . فأَمسك بيدي وجعل يتأَملَ وجهي وانا مستمسك بنفسي موطد قدمي ولا أدري ما نهاية ذلك كله . فأَخذ يسكن روعه قليلاً قليلاً وثابت اليهِ أناته وراجعه وقاره فأشار اليَّ أن اجلس وجلس هو بمكانه . ثم قال :

— اني لفي قلق عليك منذ البارحة

— وكيف ذلك ؟

— سمعت ان الشرطة دخلت بيتك وأخذت كتبك وأوراقك وانك قضيت ليلتك في دار الضابطة . فبتّ لا أدري ما أصنع ولا كيف استخبر صحة الخبر . فما أصبحت الا وأنفذت رسولي اليك . ولما رجع واخبرني انهُ رآك بمنزلك خف عني بعض ما كان حل بي من الجزع . ثم خبرت ان القوم أخذوا ما وجدوا عندك من كتب وأوراق ولم يتعرضوا لك بسوء . فقص عليَّ الآن كيف كان ذلك ومن هذا الذي

وشى بك ولم يعلم ان وراءك أباً لا يكلك الى من يجهل عليك

— سيدي. لم يحدث شيء مما تذكره . اني لأحس بشر ولا أتبينه. وقد بثوا عليّ العيون واذكوا الارصاد وما أدري ما رابهم من أمري

— اذا لم يصح ما ذكر لي فذلك فضل من الله . ولكنني اوصيك بنفسك خيراً . افتح عينيك يا ولي الدين ولا تدع لأعدائك سبيلاً اليك . ومهما يكن عندك من كتاب او ورقة مما يحج بهِ الخصوم خصومهم فمزقهُ ولا تخف بعد ذلك واشياً ولا تبال رقيباً . واذا مسك الضر من مكيدة عدو فبادر اليّ لا متريثاً ولا متغافلاً . فهممت ان اخبره بما عزمت عليهِ من الهجرة ولكنني امسكت مخافة ان تكون الفتنة فتنته . ثم استأذنتهُ في الانصراف فأذن لي وودعتهُ وخرجت من عنده لا ألوي على شيء . فما ادركت منزلي إلاَّ عمدت الى كتبي واوراقي . فاخذت اتفقدها واستخرج منها ما لا يلائم هوى القوم . وكان عندي من كتب أحرارنا وجرائدهم شيء كثير . جاءني بعضهُ على يد بعض اصحابي من الاجانب واحضرت بعضهُ والدتي حين قدمت عليّ من مصر . فجعلت أُمزق هذه المذخورات الغوالي تفادياً بها من ليل لم أعلم انهُ لا محالة مدركي . وملت بعد ذلك على أوراقي . تفقدتها ورقة ورقة . وانا كلما اجد شيئاً يستراب منهُ أمزقهُ وألحقه بغيره . ولم أزل كذلك في نظر وتنقيب حتى آذن ليلي بالبلج . فاخذت تلك الممزقات وألقيت بها في النار . وما استقل بها اللهب إلاَّ وأنا كالآيب من احتطاب في الجبل أو كالخارج من غمرات الوغى . وكان لي بحجرة والدتي صندوق فيهِ أوراق وجرائد وصور نسيتها كلها ولم أتعهدها منذ قدومي الاستانة . وقد فاتني ان

بذلك الصندوق ما يستطير الشرر من عيني عبد الحميد . ولكم حاول أهل بيتي ان يحملوني على فتحه واحراق ما يكون فيهِ من أشباهه ونظائره فلم ألق للنصح بالاً

وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر دسمبر الكائن في سنة ١٩٠١ جاء امرأتي المخاض . وما قاربت الشمس الغروب إلاَّ وقد وضعت بنتاً سميتها فكتوريا . تلقيناها بيسمات وتلقتنا بصيحات . وكأن المسكينة أحست بدنو النكبة من أبيها فأجهشت لرؤيته بالبكاء . فقلت إذ رأيتها في مهدها ما كان أسعدني بك يا بنيتي لو كنت في مأمن من طوارق الحدثان . وما بي ان أغرق في اليم أو ان اظل في ظلمات السجون . ولكن من لأمك وأخيك وجدتك من بعدي . وقد أظلكم عبد الحميد بسلطان نقمتهِ والناس يفرون من الحر وأهله كما يفرون من المجذوم

ومما زادني حزناً وأوسعني خبلاً قعود الحظ بي عن الفرار . وكيف كان يتهيأ لي ذلك وقد باتت عندي نفساء لا تقدر ان تخطو في حجرتها وطفلان كبيرهما لا يحبو وصغيرهما رضيع ووالدة ان أتركها اتركها للفاقة والامتهان . هذا وحول داري من الجواسيس طائفة لا تهجع الليل ولا تغدو النهار . قائمة على بابي تحصي أنفاسي وتراقب كل حالاتي

فلما كان اليوم الثاني من شهر يناير في سنة ١٩٠٢ جلست في حجرتي وجعلت أمامي ورقاً وأقلاماً وأنشأت اكتب فصلاً كان خطر ببالي . وقد أمسيت وأوقدت حولي المصابيح وأنا مستغرق في شغلي لا استشعر شيئاً من ذلك . فدخلت عليّ الخادمة تخبرني ان بأسفل الدار زائرين يريدان ان يرياني وان وراءهما جماعة من رجال البوليس وقوفاً على باب

الدار . قلت : لا ضير . أدخلي الضيفين الى مجلس الضيوف . أما البوليس فيكونون أتوا من الشكنة المجاورة للبيت ليدلا عليه الطارقين . هنالك خرجت الخادمة وأنا رفعت ما كان امامي من ورق وغيره . ثم دخلت على الضيفين . فاذا هما لا يسر مرآهما ولا يبشر قدومهما . رجلان من أعوان النقمة وجنود العذاب . أعرفهما من وجهيهما اللذين محا الله تعالى منهما آية الأنس وأجال في أديمهما صبيباً غساقا وأسكن نفسيهما من السوء ما يكون معواناً لهما على أكل لحوم الناس وشرب دمائهم . أعوذ بالله من مثل تلك الوجوه . الضيفان الطارقان أحدهما محمد علي بك الذي كان رئيس الهيئة التحقيقية بنظارة الضابطة وثانيهما إسماعيل حقي افندي الذي كان مفتش البوليس في متصرفية (غلطه سراي) . تلقيتهما بما يتلق بهِ الزائر غير المعروف وناولتهما السيكارات وأسقيتهما القهوة وهما في محادثتهما لي يقلبان اوراقاً وجرائد كانت على خوان قائم في وسط القاعة . وقد أحس قلبي أن وراء هذه الزيارة ما لا أحب . فأبديت التغابي وآثرت الصمت حتى إذا فرغا مما يكرم بهِ الضيف التفت نحوي محمد علي بك وقال :

— شفيق باشا ناظر الضابطة يقرئك السلام ويقول لك ان السلطان أمره بتفتيش أوراقك وأخذ ما كان مخالفاً لرضائهِ منها . والباشا يعلم أنك لا تدخر شيئاً يغضب مولانا الأعظم . ولكن لا بد من الطاعة والجري على مشيئتهِ . وها نحن عندك نرجي إذنك في التفتيش

إسماعيل حقي افندي — أترى ولي الدين بك يشك في محبة الباشا له وإيثاره أياه على كل عزيز عنده . ما أظنهُ مانعنا عن خدمة يعلم أننا

مكرهان عليها . ولو خيّرنا فيها لما اختار أحدنا أن يحرمهُ راحتهُ ويكدر عليهِ صفاءه . قلت :

— لا بأس عليكما . لكما ما سألتما ولي اليكما رجاء فأعيناني على أكذوبة تنفعني ولا تضركما

— ما هي ؟

— سأقول لامرأتي أن ناظر الضابطة محب لي . وأنه اتصل بهِ أن سيفتش البوليس بيتي في هذه الأيام . فأرسلكما اليّ لتأخذا له ما يكون عندي من الكتب والأوراق فيخفيها عنده ويعيدها اليّ بعد انقضاء تلك المحنة

— لك ما سألت

هنالك دخلت على امرأتي وخاطبتها على ما توافقنا عليهِ . فلم تنفع الحيلة وفطنت لها ولكنها تجلدت تجلداً لا تقوى عليهِ السيدات وقعدت في فراشها وقالت أدخلهما . فدخل الرجلان وأمالا رأسيهما سلاماً . فلم ترد سلامهما . ثم أوغلا في التفتيش فما أشكل عليهما فهم كتاب أو جريدة أو ورقة إلاّ أخذاها . ولما تدانيا من الصناديق التي بها ملابس سيدة البيت أعرضا عنها ولم يمد أحدهما اليها يداً . وقد وقع نظرهما على مسدس لي كان على خوان هناك فأخذاه أيضاً . ثم دخلا حجرة والدتي وطلبا أن ينظرا الصندوق الذي كان فيها . قلت هذا صندوق فيهِ ثياب والدتي. قالا كلا . ليس الصندوق صندوق ثياب ولا بد من أن نراه . فتركتهما وشأنهما وقد وجدا بهِ كل شيء ..... تلك أوراق وكتب وصور منها ما كتبهُ الأحرار ومنها ما كتبتهُ أنا . ووجدا صورة عبد الحميد الفطغرافية

في أوائل أيام ملكه وصورة السلطان مراد الخامس الذي قضى شهيد السجن بجراغان وغير ذلك مما يطول شرحهُ ويهول الخائنين ذكره

فلما وقع نظر الرجلين على هذه الأوراق لمعت أعينهما وأفترت نواجذهما سروراً . وكان محمد علي أخبث الرجلين . فجعل يقلب الأوراق بين يديه ويهز رأسه كمن هاله أمر عظيم . فقلت في نفسي ماله يعطو كما يعطو حمار الوحش وما لهذه الرأس تدور بين كتفيه وكأن تحتها لولباً يديرها . فالتفت نحوي وقال :

— وجدنا عندك أكثر مما أملنا

فلم أجاوبه بكلمة . ثم استخرج صاحبه من الصندوق كيساً صغيراً كانت به أوراق بخط والدي المرحوم وصكوك وعقود وغيرها . فحاولت استرجاع الكيس غير أني لم أفلح . واذ فرغ كلاهما من جمع الورق جعلا ما أخذاه في كيس كبير وختما عليه بالشمع الأحمر وختمت كذلك معهما واحتملا حملهما وودعاني ذاهبين . ثم حين عاودت حجرة امرأتي وجدتها تنتفض إنتفاض العصفور في ليلة قرّ ممطرة حتى لم أشك ان ستقضي بين يديّ . فصحت بوالدتي لتعينني على مساعفة تلك المسكينة بشيء من الدواء واذا هي لاتقدر ان تنهض من مكانها . فادركتني الخادمة وأخذت تعالج معي المرأتين حتى هدأ روعهما وسكنت الرعدة في جسديهما ولكن بعد ان كادت الروح تزهق . ولما اطمأن عليهما فوآدي خرجت الى بيت الجنرال احمد جلال الدين . فرأيت هناك مراداً الداغستاني ولم يكن يعرفني وجهاً . وعلمت ان الجنرال مريض وانه لم يقابل أحداً في يومه . فاخبرت وكيله بما كان من دخول الرجلين بيتي واخذهما اوراقي وأظهرت

له ما بت أتوقعهُ من الخطر . وكان الداغستاني يصغى لحديثنا وسمع الوكيل ينطق باسمي . فعرفني وتذكر ما كان بيني وبينهُ من شر فتركني حتى أتممت حديثي . فالتفت الى وكيل الجنرال واسمه رشيد بك وهو رجل عاقل . كامل التهذيب . فقال له مراد :

— أهذا ولي الدين بك يكن

— نعم هو من تراه

فنهض مراد واقفاً وجعل يحدق فيَّ ببصره حتى لظننت ان الرجل قد جن . ومشى خطوات الى ان صار أمامى . فكلمني قائلاً :

— ما كنت أحسبني أحيا الى زمن تشكو أنت فيه هذه الشكاية

— وما يريبك من شكايتي ؟

— يريبني منها انها شكاية رجل حر يصيح بها رجل مستبد

— ما رأيت من استبدادي ؟

— منازلتك لي أيام كنت اصدر جريدتي (ميزان) بوادي النيل ووقوفك في وجهي ودفاعك عمن تشكو ظلمه اليوم . هذا الذي كنا نشكوه قبلك وكنت أنت تكذبنا فيه وتمطر علينا صواعقك . وجريدة النيل شاهدة عليك . واني لأعرف لك فضلاً حدثت به كل من لقيته ايام تلك المصاولات . وذلك انك مظفر الحجة شديد الوطأة غزير مادة الكلام . ولقد قلت لهم انك للخصم يقذع خصمه ولكن يعلمهُ ويهذبهُ وكنت أوصي من معي بترك مغاضبتك والتعرض لقارعاتك

— اما ما ذكرت من منازلتي لك فما كان ذلك مكابرة في الحق ولكن كرهاً مني ان أراك زعيماً للاحرار . اني ذكرت في أول كلامي عنك اني

تاركك حتى أسبر غورك وأستبين نفسك من خلال كلامك . فسقطت سقطة بغضتك الى فؤادي وتخذتك بعدها عدواً لوطني وعرفتك لنفسي عدواً لدوداً . وان ترجع اليوم زعيماً على الأحرار أرجع عدواً لهم . لن تجمعني واياك وحدة حال ولو كانت في سبيل الوطن . واعلم اني أمرؤ لا أثق بعلمي ولكني اثق بيراعي ونفسي. وما دام لي نفس يتردد بين جوانحي فذلك عزمي الذي أُنازل به الصروف وأجاهد به في تأييد ما أعلم انهُ الحق. ولندع هذا الى لقاء آخر فاني منذ ليلتنا ممن هدرت دماؤهم . وكان كلامي لمراد آخر ما تحدثت به في بيت الجنرال أحمد جلال الدين . وأيقنت ان لا فائدة من بقائي هناك فودعت القوم وصرت الى ادارة التلغراف الكائنة في بيرا (بك أوغلي) . فكتبت رسالة برقية نسخت منها صوراً عدة خصصت كل صورة برجل من عظماء الرجال . منهم كوچك سعيد باشا وكان ولي الصدارة اذ ذاك . وممدوح ناظر الداخلية وعزت العابد وتحسين الباشكاتب . وكانت ادارة التلغراف تقبل كل رسالة إذا كان صاحبها معروفاً ولو كانت تلك الرسالة تسوء عبد الحميد. ولكنها امتنعت عن قبول رسالتي . زاعمة ان قد جاءها أمر بأن لاتقبل رسائل الا اذا كانت موجهة الى السلطان وأن يكتب عليها هكذا : (الى الأعتاب العليا) . فرضيت بما اشترطه مأمور التلغراف مكرهاً . وهاك فحوى رسالتي :

« دخل رجال الضابط الليلة بيتي وأخذوا أوراقي وكتبي وملأوا قلوب من بالبيت فزعاً . وإنما يصنع مثل هذا باللصوص وأهل الجنايات لا بمن اختارتهم الدولة لخدمتها ورفعت مراتبهم في حكومتها . وها انا

اليوم أتظلم لصاحب هذه البلاد واسأله انصافي وان يصدر امره بمحاكمتي لأنال براءَتي مما وصمت بهِ او يلحقني جزائي »

ولما فرغت من الرسالة ودفعتها للمأمور رجعت الى البيت . فما اغتمض لي جفن ولا استقرّ لي جنب وقاسيت ليلة لا تكشف أهاويلها ولا تنجاب ظلماؤها الى ان نصل صبغها ورقت حواشيها . فتهادت إليّ سنة في طيات نسائم السحر تخطر على ايقاع الطير في وكناتها . فملت على وسادة الى جانبي وحيل بيني وبين الشهود . ثم ما لبثت ان نبهني بكاء بنيتي في مهدها . قلت تعلمي البكاء ايتها المسكينة . اني لأرى أمامكِ اياماً تبكين فيها على ابيكِ اما شهيداً واما أسيرا . وما تكامل الصباح في ضيائهِ الاَّ اقبلت امى وامرأتي تبكيان الى جانبي . فنهيتهما عن البكاء وقلت اصبرا . لعل لنا في جوانب هذا المأزق منفرجاً . وأخذت امرأتي تنصح لي بالسفر قبل ان يتعاظم الأمر . وقالت نحن امرأتان ولا يلحق بنا من الحكومة أذى ولا نلبث ان نلحق بك اذا بلغت مأمنك . قلت : وكيف السبيل الى ذلك ؟ هذه دارنا أقامت على جوانبها الأرصاد وان بالباب لقوماً ألفت السهاد محاجرهم لا يفارقون مصراعيهِ قيد شبر وما مشيت في الطريق الاَّ رأيت ورائي قوماً يطلبونني بأوجههم الكاسفة وأعينهم الخائنة يلازمونني ملازمة الظل حتى لأتمنى ان تخسف بي الأرض فأتوارى عن أبصارهم . ثم هبي اني أحكمت الحيلة ودانت لي فجاج الأرض وصرت الى حيث لا يطول اليّ باع الظالم المطارد فما الحيلة في سفركِ مع أمي وهذين الطفلين ؟ تظلون وليس عندكم من يعولكم ولا تدعكم الحكومة حتى تلحقوا بي وتمنع عنكم ما أبعث بهِ اليكم من المال

ولا ألبث ان أعود صاغراً فتكون العودة الثانية شراً من الأولى

— وماذا تريد ان تصنع ؟

— سأنظر في أمري . عسى ان أهتدي الى ما فيهِ خلاصنا

هذا وعد وعدت بهِ من عندي وانا غير واثق بإنجازه . ولما كان المساء مضيت الى أبي الهدى . فلما رآني صاح بي : ما وراءك ؟ قلت :

— ورائي ما يسوء كل صديق ويسر كل عدو

— وما ذلك ؟

فقصصت عليهِ القصة لم ادع منها حرفاً الاَّ ذكرتهُ . فأطرق يفكر وبدت على وجهه كآبة استكبرتها في نفسي . ثم رفع طرفهُ اليَّ وقال :

— وهل وجدوا عندك الكتاب ؟

يريد كتاباً كنت أخبرتهُ أني وضعتهُ وسميتهُ (العصر الجديد) . أتيت فيهِ على بعض الوقائع التي جرت بين مصر وفروق ولكني لم أتعرض فيهِ لعبد الحميد بسوء . وهذا كتاب كنت أنفذتهُ الى مصر ليطبع فيها . ولكنهُ تلاعبت بهِ الأيدي ولم يسمع له ذكر . قلت :

— يا سيدي جرت عادتي ان أكتب من غير تسويد . وذلك أني أنقل سانحاتي في اباناتها واقتصد من الزمان بقدر ما أستطيع

— اوه . لقد اخطأت الصواب . وددت لو عثر الرجلان عندك على تسويد هذا الكتاب فتفوز يومئذٍ فوزاً عظيماً . يا ليتني علمت ذلك من قبل . ثم صاح يا غلام . فدخل خادمهُ . فقال : عليَّ بحسن خالد الساعة . فما غاب الخادم الاَّ عاد ومعهُ ابن أبي الهدى . فأقبل حتى جلس الى جانبي وكان أبوه مطرقاً ويمينهُ تعبث بلحيتهِ . فانتبه على سعلة سعلها أبنهُ ليعلمهُ بمكانهِ وقال :

— جئت يا حسن ؟

— ممتثلاً أمرك يا مولاي

فاخذ أبو الهدى يقص على ابنهِ ما سمع مني . فما أتمهُ إلاَّ ابتدره ابنهُ مستعلماً :

— والكتاب ؟

— أخبرني البك انهم لم يجدوه واعتذر لي بانهُ لم يتعود تسويد ما يكتب

— قضي الأمر ولا حيلة في تلافي ما فات

واذا لم يكن من الجلد بد أقبل عليَّ الرجلان يعزيانني وقال أبو الهدى : لا تخف لن يبلغ الشر بنا غايته وان في الكنانة لسهاماً أعددتها للأيام المحجلة . فكن بمكانك من النجدة لا تذهب بذَماء قلبك هذه العظائم وسأبيت الليلة تدبيراً يتحداه الفوز وتسير على اثره الرغائب . فشكرت للرجل دعواه ونهضت راجعاً الى منزلي . فبلغتهُ وقد كاد يتمزق صدار الليل عن ترائب الصباح . واذا الجواسيس يتهادون في الطريق . فجاوزتهم الى الباب حتى اذا بلغت أعالي السلم تلقتني والدتي لائمة معنفة وقالت :

— اي بني ما أبطأ بك الى الساعة ؟ ولقد تركتني وامرأتك على مثل جمر الغضا . فأجملت لها الرد وتعهدت امرأتي فرأيت منها ماراعني . وجهاً تعالاه الوجل وجوانح تملك عليها الرعب وقد تمشى السقم في جسدها حتى لا ينقطع لها أنين . فجعلت أهون عليها الأمر واقول كانت أزمة ثم انفرجت وانها لغير معاودتنا من بعد . وما زلت بها حتى خف وقرها وهدأت لوعتها فنامت

ان في اليأس لسكوناً تجده نفس المكروب اذا بلغت الأمور أقاصيها . واني لأشهد بصدق ذلك وهذه تجربة ثانية ذقت فيها موتة العزم بعد ما كان بيني وبين أبي لحية . ومتى استشعر المجاهد ضياع المساعي وأيقن بخيبة الأمل ثابت اليهِ راحة السكون وهي آخر اعياء يجده المجهود . رأيتني في منزل نام أهله مغلوبين وليس حولي من أفضي اليـهِ بحاجات نفسي . وكنت أريد صديقاً جلداً مستحكم رباط الجأش رحب الصدر مكين قرار الصبر أحدثه بما يحدثني بهِ فؤادي . ولكن من لي بذلك وقد تخاذل عني اخوان الصفاء وولوا كأنهم النعائم المجفلة وأضحى لا يزاورني إلاَّ الرجل الفاضل والصديق الأوفى مصطفى بك المخزومي والعالم المرحوم محمد صديق خان الحسيني وكلاهما من أعضاء مجلس المعارف اذ ذاك ثم كلاهما ينتمي الى بيت رفيع من بيوتات المجد . أولهما عربي وثانيهما هندي وحسبك دلالةً على طيب العنصر . وما فرغت من هواجسي إلاَّ وقد غشيني الكرى . فما انتبهت إلا قرب الظهر . وصرت أجدني واهي العزيمة خامد جذوة الشباب . فجعلت أتمثل ببيت كثير

فقلت لها يا عزّ كل مصيبة   اذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

وبعد هذا كله اعترضني معضل أشكل عليَّ استخراج غامضه واستنتاج الصواب من ثنيات شكوكه وذلك أمر أبي الهدى . قلت ان كان الرجل أسرَّ عني بغضه وأضمر لي انتقامه فما حمله على افضائهِ اليَّ باسرار يضارب الرجال دونها بالسيوف ؟ وان كان مخلصاً لي في ودّه مستصفياً سريرته فما هذا اللعب الذي أراه . من اين جاء أبا الهدى ان ستدخل الشرطة داري وان ستأخذ أوراقي حتى أعلمني بذلك قبل وقوعهِ ؟

وما لبثت في استطلاع هذا السر طويل زمن بل قيض لي الله من أطلعني على مكنونه وأسرّ اليَّ بنجواه وسيأتي بيانه في موضعهِ

ولا غنية عن ذكر ما كان بيني وبين القصر الحميدي . فعنهُ يتساءل القراء الكرام . واجماله ان الباشكاتب تحسيناً كان وجه اليَّ بعض حاشيته يستدعيني الى (يلديز) . فقصدت اليهِ قبل مضي الى أبي الهدى . وكانت هذه أول زورة زرتها لهذا الخائن المائن بعد ان استعرت بيننا نيران العداوة . فما أخبر بمكاني إلاَّ أمر بادخالي عليهِ . فلما رآني تبسم لي تبسامة الخاتل ولم يمهلني ان أسأله عما ندبني اليهِ بل تعجلني بقوله : كرهت ان أطيل انتظارك . وقصارى ما لك عندي ان مولانا السلطان يأمر باحضار أوراقك من عند شفيق باشا ليكون فحصها واستطلاع ما فيها هنا بمرأى منك ومسمع . غير ان الأوراق لم تنفذ الينا والرأي ان تحضر غداً في هذه الساعة . قلت : لك ذلك وخرجت غير مسلم . ثم اقتضيتهُ في الغد فاعتذر وقال ان الأوراق تأخرت عنهُ . فخرجت وانا أقول : جعل الله عاليك سافلك أيها القصر وأوطأ الله أرجل الغالبين حجرك ومقاصيرك . وما اعتادني بعد ذا من هم جديد ولا ألم بي ملم يجدر بالذكر الى اليوم السادس من شهر يناير الكائن في سنة اثنتين وتسعمائة وألف وهو مستهل الكربة ومبدأ تاريخ الشقوة

السجن

ما ذكر أمرؤ عهده بنكبة حلت ساحتـهِ وخطر شهد هوله إلاّ تجددت فيهِ جزعاته وفزعاتهِ وعادتهُ آلام كان استشعر بها في ابانات نزول الخطب واشتداد الويل . الآن يخيل لي اني بسجن الاستبداد واني أعاني ما خلتني فرغت من معاناتهِ . ولولا اني قليل الاعتداد بما تأتي بهِ الأوهام وما ينجاب عنهُ دخان الشك لطال همي وساء عيشي . وما ذاك الذي اذكره رجفان في الروع ولا خور في النفس ولكنهُ أثر تستبقيه شدائد الأيام . لكل كارثة منهُ جانب ولكل فادحة منهُ سهم . على اني سأزجر فؤادي عن ذكر ما مضى وأتقطع من تلك المظائم ابقاء لرونق أمل أتلق به هذا العيش الجديد الذي لبسنا لبوسه . فان تجر الأقدار طوع ما أردنا من الخير فذلك نعم العوض وان تحل حوائل الايام دون استتمام رغباتنا واستقرار أماننا فان في لذة الادكار معواناً على التأسي . سبحان من جعلني راوياً بعد ان جعلني شاهداً وسبحان من أخلى تلك المعاقل بعد ان ظننا حقبة من الدهر ان لن يستفتح الزمان مغاليقها وان لن يذل جبابرتها

لكل ذي حياة يوم هو أشهر أيامه . وما في أيامي مثل اليوم السادس من شهر يناير ولا في أعوامي عام مثل العام الثاني من التسعمائة والألف . طلعت عليّ طلائع الويل من يومهِ الثاني وما تلاه يوم إلاّ استجد لي فيهِ شرّ . خلتني مجدوداً حتى اذا حياني سنحه تمنيت جذمه . فليذهب وقد ذهب لا أعاد الله مثل شؤمهِ

أهاب بي سحرة داع من الوجد فاسمع . قلت ما هذا الذي استفزني

من كراي وأنهضني من رقدتي . وتقدمت الى احدى الكوى وجعلت أنظر منها الى الحديقة . فاذا الوقت صحو والروض ندي والشجر موقف المتن لا تلويه نسائم والغصون مجردة من غلائل الأوراق لا تتاود ولا تتعذر واذا عصافير تتطاير من أماليد الى أماليد . برحت وكناتها وودعت فراخها فهي تحاوم لتلتقط حبات سقطت من يد الانسان في غفوة من حرصهِ . والماء كالماوية جلتها كف الصناع . تجعد صفحته كلما عبث فيهِ العصافير بمناقيرها ثم يخف تجعدها ثم يعاودها استواؤها . وعلى متون الغصون قطرات من الطل هي ولا شك بقايا دموع الطبيعة حين بكت بنيها . فهاج المشهد بلابلي وأثار أشجاني وكدت أصيح طرباً . وقلت ندع مثل هذا ونأوى الى الاجداث ! ! ! ولكنني أشفقت على نفسي ان يطغيها حر خافيها . فالتفت ورائي واذا بنيتي وأخوها نائمان يرتفع صدراهما وينحطان . فصبحت كلا بلثمة على جبينهِ وثب لهـا فؤادي وبدرت من عيني بوادر شؤنهما . فقلت دموع بدموع أيتها الطبيعة والبادئ أظلم . ثم أقمت أترقب ان يتقادم العهد بالنهار عليّ أجد سبيلاً كانت اشتبهت مسالكهـا او أحدث رأياً أدرع بهِ في لقاء الخطر المنتظر . غير أنني لم أبرح البيت يومي ذلك حتى المساء . فلما أصبت عشائي خرجت أنشد الطبيبة لتصف لامرأتي دواء وكانت اشتدت عليها أوجاعها

فركبت الترامواي متوجهاً الى بيرا (بك اوغلي) . ولمـا هممت بالنزول تبعني رجل لم ألقَ له بالاً . وفي بيرا مطعم يقال له مطعم طوقاتليان . يعرفهُ كل من زار فروق في عمره مرة . فما بلغت مكانهُ الاّ اعترضني رجل من الشرطة قائلاً : الى أين تريد ؟

قلت : — وما يعنيك أنت من ذلك ؟

— اني أسألك لأني من رجال الشرطة وعليك ان تجيبني

— انا ذاهب لادعو الطبيبة الى عند امرأتي . انها نفساء وقد اصابها نزيف من الدم لا يمكن لنا ان نتغلب عليهِ

— ما أظنك صادقاً . ولا بد من مضيك معي الى متصرف بيرا

— لماذا ؟

— كذا أردت وكذا ينبغي ان يكون

— وان انا أبيت المضي معك وقلت لك : ما انا بالقاتل ولا بالسارق ولا بالمعربد وليس لي عند المتصرف شغل يدعوني اليهِ . فما أراك تفعل ؟

— آخذ بطوقك وأجرك على وجهك حتى انتهي بك الى المتصرف

— أنت لا تعرف من تخاطب ولا تعقل ما تخاطب بهِ الناس . خذ هذه البطاقة واطلبني في داري او في مكان خدمتي

— لا حاجة بي الى بطاقتك . وما اعترضتك جهلاً بك . ولا بد من المضي معي . وما أتم الرجل كلامهُ الاَّ رمى بنفسهُ عليَّ وحاول ان يأخذني من خناقي . فأهويت على يده بعصا كانت معي فشلت وعاجلتهُ بضربات كندف القطن وأخذت منهُ سيفهُ فألقيتهُ على الأرض ثم جعلت أدفع الرجل بقدميَّ واستطرده أمامي صائحاً بهِ : سر . الآن انا أذهب بك الى متصرفك . فلما انتهينا الى باب المتصرفية أخذ جماعة من الاوروبيين يتصايحون :

— ما هذا ؟ ما هذا ؟ أكذا يتصيدون الناس في الطرقات ليذهبوا بهم الى بحر مرمرة !

— ماذا فعل هذا المسكين ؟

— لعله سكران . لقد ضرب البوليس ضرباً مبرحاً

وقد بلغت الشهامة من بعض الاوروبيين مبلغها . فدنا مني وأمسك بذراعي وهو يقول :

— لا تذهب . وليأخذوك قسراً ان كانوا رجالاً

فكثر اللغط بين الوقوف وعلت الجلبة وتكاثف الزحام . فأحاط بي جماعة من الجاندرمة وحيل بيني وبين الناس . فتقدمت الى باب المتصرفية آخذاً بطوق الشرطي الذي اعترضني . واذا جماعة من اخوانهِ يتقدمهم قوميسير اسمهُ شاكر افندي هو من اهل (بوسنه سراي) . فلما بصر بي دنا مني ومد يده الى حزامي ليرى مسدسي فيأخذه ويخفيه . وكنت اعزل لا سلاح معي . وقد جفت يمناي ويسراي على اذني الشرطي . واني لأجذبهُ اليَّ ثم ادفعهُ ضارباً برأسه الحائط . فأمسك شاكر افندي بذراعيَّ وجعل يعالجني حتى خلص مني الرجل . وأقبل عليَّ بعد ذلك ملاطفاً ليسكن ما هاج بي من غضب . وقد جاء أناس من الشرطة فكان منهم من يعنفني وكان منهم من يلاطفني . اما المعنف فآب مزوداً بما قسم له واما الملاطف فكان جوابهُ الإعراض . وأقبل قوميسير المركز يقول لي : أرى ان تصعد الى مكان المتصرف وتخاطبهُ فيما أغضبك . فهو أولى بجوابك وأدرى بمواقع الصواب والخطاء مما أتيت في ليلتك هذه . اما نحن فعبيد الأمر نفعل ما نؤمر به . قلت : واين مكان المتصرف ؟ قال : انا أدلك عليهِ واسعى بك اليـهِ . ولكنهُ لم يرجع من القصر . قلت : سر . فسار وسرت على اثره . وما مضت على انتظاري

ساعة الاَّ وقد أدخل بي على المتصرف

أعوذ بالله !!! وجه كاللبنة وعينان كالبصقتين ولحية كالطحلب وانف كالسواك . كل هذا يحمله عنق كخصر الهيفاء وجسد كزجاجة ملؤها صبغة اليود . لو صدق ما يقال عن العفريت وتنقب ذلك العفريت بحائط احد الاطلال . لكان دون الرجل قبحاً

تجاوزت باب الغرفة . فتلقاني المتصرف قائماً . باسم الثغر بادي الانس كأنهُ صديق لي مقيم على ودي منذ الاعوام . وحين دانيتهُ تبادلنا سلامين كمن يحثو التراب على رأسهِ فاشار الى كرسي امام مكتبتهِ وامرني بالجلوس عليهِ . ثم ناولني سيكارة وطلب لي قهوة . حتى اذا فرغنا من استنفاد عبارات النفاق قال لي :

— ما يغضب سيدي ؛

— ما ثم ما يغضبني . اعترضني رجل من الشرطة زاعماً انك انفذتهُ في طلبي . فحاولت مجادلتهُ بالحسنى فلم افلح . وكان ساعداي افصح مني كلاماً وابلغ حجةً

— أترى انك اصبت فيما صنعت

— كلا . اني وقعت فيما نهيت عنهُ الناس ولمت على مثله اترابي . غير اني اكرهت على ما كان مني اكراهاً . استفزني ما يستفز غيري . وكما قيل في المثل : سبق السيف العذل . وقد كان في سابق خدمتي واخلاصي لهذا الوطن شفيع لي اذا اشتدت بي الكرب . غير ان الامة لا تعرف من يحبونها ولو عرفتهم لالتفت حولهم ووقفت في وجوه ظالميهم

— كلما اتونا بمعتدٍ اخذ يجادلنا باسم الامة . كأن هذه الامة تختار

لنفسها انصاراً لينادوا باسمها

— ما انا ممن اختارتهم الامة لنجدتها ولكني متطوع في هذه السبيل ولا انا من انصار الامة ولكني احد ابنائها وجزء من اجزائها

— ألا ترهب بطش امير المؤمنين ؟

ما نطق المتصرف بهذا الكلام الاَّ واثار كل ساكن في جوانحي . فقلت :

— أهذا مبلغ عرفانك . انك لأحمق . خوّف بامير المؤمنين احدى الدول او ملكاً من ملوكها . اما انا فلا جند لي ولا انا بصاحب تاج . ان انا الاَّ واحد من رعيتهِ . ومتى جاز للناس ان يخوفوا الناس بملوكهم . قد كنت ارجو ان تخاطبني بغير هذا الكلام ولكنك قليل النصيب من الادراك . تباً لك ولأمير المؤمنين الذي اختارك لتجلس على هذا الكرسي . لو أجلس عليهِ قرعة لكانت أحمد منك لقاءً واحسن منظراً

فنزل هذا الجواب على قلب المتصرف كالمهل . فضرب بيده مكتبته وصاح بي : ان جاوزت في قلة الادب حد المغفرة . فما اتم كلامهُ الاَّ وقد اكفأتهُ على مكتبتهِ واهويت بين كتفيهِ بلكمات . (ضرب الوليدة بالمسحاة في الثأد) . فبدت من الباب وجوه الشرطة ورأيت اني لا محالة واقع في ايديهم . فصحت بهم : اذا تقدم احدكم نحوي خطوة تركت لكم هذا الرجل لا حراك بهِ والقيت بنفسي من الكوة على الطريق . ويبقى لكم مني جثة لا روح فيها . فجاء معاون المتصرف وهو اقرب الناس شبهاً (الى ابي زعيزع) الذي يصنعه الصغار في مصر من الجزر ويصيحون بهِ في لعبهم (يا بو زعيزع قم صلي انت صغير ومخي) . فاخذ

المعاون يلاطف المتصرف بكلام لا اعرفهُ . والتفت نحوي فقال :

— لا يليق بمثلك ان يغلبهُ الحنق . ان البك بمنزلة والدك . فقلت

— حاشا . ان والدي عاش حراً ومات حراً . وهذا الذي امامك لا يكون والد احد . واقسم لك ان ابناءه او بناته ليبرأون منهُ الى الله

فجلس المتصرف واخذت شفتاه تحركان بكلام لم اسمعهُ . ثم رفع رأسهُ اليَّ وقال :

— سامحك الله

— بل أثابني الله

ثم دعا احد الكتاب وأسر في اذنهِ كلاماً لم أسمعهُ . فغاب الكاتب وعاد وفي يده ورقة اخذها المتصرف ووقع تحتها بخاتمهِ وقال ارسل هذا في مثل لمح بالبصر . فلما ولّى الرجل نهضت واقفاً واردت الخروج . فقال لي المتصرف :

— الى أين تريد ؟

— الى بيتي

— لا سبيل الى ذلك الآن

— وما يمنعني عن الذهاب ولست مسجوناً ولا محكوماً عليَّ بحكم ؟

— اذا حاولت الخروج قسراً منعتك الجنود . ولا بد لك من الانتظار

— وماذا تريد ان أنتظر

— ارادة مولانا السلطان الاعظم

فايقنت بعد ذا اني وقعت في الشراك . فجلست . وطاف علينا الخدم بالقهوة والسيكارات . واستولى علينا الصمت . مجلس تعالاه السكون

وأظلتهُ دهشة الظلم ووحشة الويل . كالقبر لولا مصابيح تسطع منها الأنوار وأنفاس تتردد بين الجوانح والصدور . ما يعلق الطرف بشيءٍ الاّ ورأى فيهِ صورة الخطب . فلما دقت الساعة دقتها التاسعة بالحساب الشرقي بدا في الباب شخص مشى نحوه المتصرف . ثم غاب كلاهما وبقيت أنا وحدي في تلك الغرفة . فما راعني الاَّ قوميسير المركز وهو رجل اسمه حسين افندي يتبعهُ نحو الستة من اشداء الرجال فتقدم الرجل نحوي وقال :

— أرجو ان تتبعني

— الى اين ؟

— الى مكان ضيافتك . أنت في هذه الليلة ضيفنا الكريم

— انا لا اريد هذه الضيافة واحب ان ارجع الى بيتي

— ترجع الى البيت غداً صباحاً

— ولمَ لا أرجع الآن ؟

— لان الساعة قبيل الصبح . ولا يجوز ذهابك في مثل هذا الوقت اذ لا نأمن عليك من اعتداء معتدٍ

— واين المتصرف ؟

— قد ذهب الى داره

— وددت لو ذهب احد منكم ليخبر اهلي بمكاني

— لك ما تريد

وبعد هذه المحادثة نهضت واقفاً وقلت للقوميسير اني رهين الاشارة . فمشى امامي وتبعنا اعوانه . وما زال يطوف بي حتى أنزلني الى غرفة (المعاينة الطبية) . فادخلت فيها اذ لم يكن هناك موضع هو اشكل بي منها . فلما

استقر بي الجلوس جاءني شرطي فقال :

— ان المتصرف رآك تلعب بقلم من الرصاص كان في يدك . فارسلني لآخذه منك

— قلتم ان المتصرف ذهب الى داره . فكيف يطلب الآن قلمي ؟

فلم يرد الرجل جواباً . وأخرجت له القلم فدفعتهُ اليهِ وذهب عني بسلام . واذ كان الموسم موسم الشتاء وكان البرد شديداً ولم يكن بالغرفة التي ادخلتها كانون ولا نار لتكسر سبرات القر . جعلت المعطف (البلطو) غطائي واعتمدت على ساعدي فنمت

فلما كان الغد انتبهت من نومي فرأيت في الغرفة رجلين . أحدهما قوميسير وثانيهما شرطي . فلما رأيا انتباهي أقبل عليّ الأول منهما وسألني أصائم انا ام مفطر قلت : أفي السجن تريدون ان يصوم الناس . انا مفطر ثم مفطر ثم مفطر . فقال : هل لك في قهوة وسيكارة : قلت قهوات وسيكارات . فاشار القوميسير الى الشرطي فبادر ثم عاد ومعهُ القهوة والسيكارات . ولما تعالى الضحى دخل الغرفة جماعة من الشرطة . فتقدم نحوي رُجل منهم مسلماً واخذ يعاتبني على ما كان مني في الليل . قال :

— لقد عذبت نفسك الليلة وعذبتنا معك

— وكيف ذلك ؟

— ما اسرع نسيانك . ألم تجعل المتصرفية كلها مشتغلة بك . وضربت المتصرف وقلت في مولانا السلطان كلاماً لا يليق بمثلك ان يقوله . وما صدقنا ان رأيناك نزلت الى هذه الغرفة ونمت

فرد احد الحاضرين على معاتبي منكراً وقال : متى تكلم البك في

مولانا السلطان كلاماً كما زعمت . اني كنت حاضراً فلم اسمع شيئاً مما ذكرت . فاجابهُ ثالث بأن قد سمعني اشتم السلطان فلما رأيت تمادي الجدال بين هؤلاء الانذال التفت الى معاتبي وقلت : كان ما كان وانا قلت كل ما خطر ببالي وصنعت كل ما قدرت ان اصنع وها انا ذا اليوم رهين السجن . فماذا تريدون مني ؟ فلما سمعوا مني هذا الكلام خرجوا من عندي وبقيت مع صاحبيّ القوميسير والشرطي . وكان القوميسير من اهل (بوسنه سراي) . ذا همة وجد . يأنس المرء الى محادثتهِ ويعجب بادبهِ وحسن اخلاقهِ . فقلت في نفسي يا سبحان الله . كيف رمت الاقدار بمثل هـذا الرجل الشهم في سلك البوليس . ثم علمت ان الحاجة اضطرتهُ . وانهـا لتضطر الى ركوب كل مركب خشن . ولقد قال لي : ان نوبتنـا في الجلوس عندك ست ساعات وسيأتيك بعدنا قوميسير وشرطي فيلبثان كذلك ثم يأتي آخران الى ان يمن الله عليك بالخروج قريباً . على انني ارى بك ضجراً ويأساً ولا احب ان تستسلم اليهما . الرجال يعرفون عند اشتداد اللزبات . وسأطلب الاذن في احضار اوراق للعب لنلعب معك ونعينك على ترويح نفسك من اكدارك . فشكرت للرجل ظرفه ولم اخالفه في نصحه كثيراً

ولا يسألنّ القارئ الكريم عن حال من بات ينتظر ايابي في البيت فذلك يطول شرحهُ ولا يستطاع وصفهُ . وكنت سألت القوميسير ان ينفذ احد اعوانه ليعلم اهلي بمكاني وكان وعدني بذلك ولكنهُ لم يفِ بوعده . ولما اصبحت والدتي وامرأتي ولم اعد اليهما اوجستا خيفة وايقنتا ان امراً اصابني . فتوجهتا الى بيت الجنرال احمد جلال الدين وسألتاه ان

يستعلم لهما من القصر . ثم اخذتا تقصدان منازل الكبراء فلم تقفا على
خبري . فذهبتا الى (غلطه سراي) وجعلتا تسألان عني كل من لقيتاه
من رجال الشرطة حتى دلهما احدهم على مكاني . واخبرهما خبري وقد
كان ممن شهدوا واقعتي مع المتصرف . فجاءتا الى المتصرفية وطلبتا ان
ترياني فلم يؤذن لهما بذلك . وبقيت في السجن اياماً لا ارى احداً من
اهل بيتي ولا اسمع عنهم خبراً . اقضي انهاري ماشياً في الغرفة او
مضطجعاً على المقعد ادخن السيكارات واشرب القهوة ولا اذوق طعاماً .
وفي يوم العيد عيد الفطر وقد وقع في ثالث ايامي بالسجن . جاءني رئيس
القوميسيرية من قبل المتصرف مهنئاً لي بالعيد . فغاظني ذلك غيظاً
شديداً . فقلت له : لا هنأه الله . أيرى الغبي اني في قصر (طوله بغجه) .
مقيم بين ابهة الملك وعز القدرة . ان سره اليوم اني مسجون فربما تأتي
الايام بما يطيل اساءته وما ذلك على الله بعزيز

اعوان النقمة

ان في دول الظلم لأعواناً يسعدون في اباناتها . يؤتون الحكم على
اعداء الاستبداد . يستحلون اموالهم وارواحهم حتى اذا استمرأوا الغواية
وزين لهم الغرور ان يضيموهم استضعافاً وان يحقروهم استخفافاً وقفت
النجدة نجدة الاحرار في وجوههم واهوت عليهم يد اليأس بسيف من
سيوفهِ القاطعة لا يصيب منهم عضواً الاَّ براه بري القلم . اولئك الطغام
خلقوا بغير قلوب فلا يرحمون ونشأوا بوجوه لا دماء فيها فلا يستحون .
ما تفردوا بفتى حر الاَّ ساموه عذاباً فسخروا من عقله وضحكوا لبكائهِ
فلا يزالون بهِ حتى يواروا شمائله ويدفنوا معهُ فضائله . وقد كان عبد الحميد
يبغض احرار الامة ويطاردهم لأنهم اقاموا له بالمرصاد فاحصوا سيئاتهِ في
كتبهم وعيروه بمثالبهِ في منشورات فصولهم . اما اعوانه فلم يبغضوا
الاحرار حباً في ذاتهِ بل رغباً في ذهبهِ ورهباً لبطشهِ . ثم لم تزل تلك
العداوات تنمو في صدورهم حتى انقلبت غرائز . فبات عدوانهم للاحرار
طبعاً فيهم . واني لذاكر في هذا الفصل بعض ما بقي بالخاطر من بغي
هؤلاء القوم لتكون حجة عليهم خالدة خلود الابد وليتعظ بها سواهم

جاءت خادمتي يوماً من الايام ومعها فولاد يكن وهو اكبر ابنائي
وطلبت الى الموكلين بحفظي ان يدخلوا بهِ عندي ولم يتجاوز عمره العام
الواحد يومئذ . فخافوا ان تكون في ثيابه ورقة اخفاها اهل بيتي .
ففتشوا الطفل فلم يجدوا معهُ شيئاً . ثم خافوا ان اكون كتبت ورقة
واعددتها ليوم يجيء الطفل وان انال غرة منهم فاجعلها في ثيابهِ وما

كتموا ذلك حتى عن الخادمة . فرجعت آيسة وهي لا تكاد تصدق ما سمعت اذناها وما رأت عيناها

وقد اذنوا ذات مرة لوالدتي ولامرأتي ان تزوراني . ولكن جعلوا لهما شرطاً ان لا تكلماني الاّ باللغة التركية وان لا تسرّا اليّ الحديث . فلما ادخلتا عليّ احاط بنا رجال الشرطة من كل ناحية . فجعلت امي تؤنبني فتقول : بلغني يا بني من المتصرف انك نطقت في سلطاننا بكلام غير حسن . من أين جاءك هذا الادب الجديد وانت تعلم اننا نحيا تحت امنهِ ونرتع في بحبوحة نعمهِ ولا اصدق ان تكون قلت هذا الكلام وانت اشد الناس اخلاصاً لمولاك . فقلت : يا اماه . اقصري في ملامك . اني عنك في شغل وان في فؤادك مقدار ذرة من حب هذا الرجل فابرئي مني الى الله . ثم التفت الى امرأتي وقلت : اود ان تلزمي بيت زوجك وان لا تجعلي لقدميك مراحاً على ارض الظلم . فخرجت المرأتان وهما يذرفان الدموع

ولما كانت الليلة العشرون بعد دخولي السجن . بلغ مني اليأس اقاصي الروح . وكانت النوبة في تلك الليلة للقوميسير شاكر افندي الذي تقدم ذكره . فاقترب مني بكرسيه واخذ في يده اوراق اللعب وجعل ينظر فيها على الطريقة المعروفة عند الغربيين وهي المسماة (بسيانس) اي الصبر . ويزعم اناس ان نابليون الأول كان يسلّي نفسه بهذه اللعبة حين اعتقاله بجزيرة القديسة هيلانة . فقال شاكر افندي :

— هذا فأل مجرب . لا يخطئ ابداً . فاضمر في نفسك ما تريد معرفته وانا اصف الورق ثلاث مرات . فاذا نجح الفأل ثلاث مرات

فمرادك لا محالة ميسر . واذا نجح مرتين فيغلب تيسره على تعذره . واذا نجح مرة واحدة فتعذره اقرب من تيسره واذا لم ينجح الفأل ولا مرة واحدة فدون مرادك اجتياز ما بين السماء والارض

— سل ورقك أأخرج من السجن قريباً ام يطول فيهِ مقامي

فنظر الرجل في الورق وأجاله ثلاث مرات فلم ينجح في واحدة منها . فقلت :

— سل ورقك أأُرسل قريباً الى أقاصي بلاد الاناطولي منفياً ويكون ذلك في غفوة من عيون أهلي ويطول في النفي مقامي ؟ فامتنع صاحبي بادئ بدءٍ ثم أجابني الى طلبي فاجال الورق ثلاث مرات فنجح الفال فيها جميعاً . فاخذ الورق وجلد بهِ الارض وقال هذا فال غير صادق . قلت : وكل فأل هو غير صادق . وتركنا بعد ذلك ما كنا فيهِ من الفأل واضطجعت مكاني فغلب عليّ النوم . فانتبهت على يد تهز أحدى كتفيّ هزّاً . واذا رجل ربعة القامة ممتلئ الجسم عليهِ سيماء أهل الجنايات وخلفه شرطي بيمينه مصباحٌ فيهِ شمعة مشعلة . فنهضت فوجدت القوميسير شاكر افندي قد انتهت نوبته وجاء مكانه رجل آخر اسمهُ حسين افندي وهو كذلك من أهل (بوسنه سراي) . وكان حسين افندي مطرقاً مفكراً . لا يبدي حراكاً . فقلت للرجل الذي أيقظني :

— ماذا تريد ؟

— اريد ان أذهب بك الى السجن

— أولست اليوم مسجوناً ؟

— كلا . ما كنت الى الساعة الاّ ضيفاً ولكنك مذ الآن مسجون

— كم الساعة الآن ؟

— نصف الليل

— أنا لا أبرح مكاني هذا قيد شبر . واذا شئتم ان تذهبوا بي الى السجن فليكن ذلك نهاراً

— لا تخف

— ما أنا بخائف ولكني لن أبرح مكاني

فلما سمع الرجل مني هـذا الكلام فكر ملياً ثم ذهب فغاب عني دقائق قليلة وعاد يستعيد معي كلامه غير انهُ قال لي : الطـاعة خير من العصيان واذا لم تذهب معي مختاراً أخشى ان يذهبوا بك مكرهاً وذلك ما لا أحب لك

— اذن فاذهبوا بي كرهاً . أما أنا فلن أختار المسير في مثل هذا الحين الى موضع لا أعرفهُ

— ولكن كيف تستطيع ان تغالب الحكومة . دع عنك العناد . ان وراءه لندماً طويلاً . واذا أوجست من ذهابك شراً فذلك وهم منك . واني لأقسم لك بالله ان لا يصيبك اقل مكروه

— لا سبيل الى ما تريد . فاقضِ ما انت قاضٍ

فذهب الرجل والشرطي الحامل للمصباح وبقيت مع حسين افندي والشرطي المناوب . فقال حسين افندي : ارى يا بك ان لا تخالف القوم فتحرجهم معك ولا خوف في ذهابك مع الرجل والسجن ليس بعيداً عنا . ثم عاد الرجل ومعهُ حامل المصباح فقال لي :

— اقسم لك برأس السلطان انك لن يصيبك اذى . واستحلفك

بكل عزيز عليك ان لا تكرهنا على ابداء الخشونة

— حلفت لي بالله فلم اصدق حلفتك ثم حلفت لي برأس السلطان فأيقنت صدق ما تقول وها انا طوع اشارتك فاذهب بي الى حيث تريد

السجن الجديد

نادى السجان بأعلى صوتهِ : مَن القادم وجاوبهُ من يقودني مسرعاً : لا غريب بيننا . فسمع صرير الباب وأجتزنا ساحة حتى وقفنا امام مديره . فتأمل الرجل وجهي وقيد اسمي في دفتره وذكر من اوصافي ما يحتاجهُ ثم سمى بي رفيقي الى ناحيـة . فناداني ان طأطئ رأسك واصعد السلم على مهل وصعد وانا على اثره . فدخلنا حجرة خالية ما بها الاّ خوان في وسطها والى جانبهِ كرسي فيهِ خرقٌ واسع لم انتبه له . فثبت الرجل شمعة كان اخذها على ذلك الخوان واشار اليّ بالجلوس على الكرسي وحين اردت ان استقر فوقهُ هويت من خرقهِ الى الارض حتى التصقت ركبتاي بصدري فجعلت احاول الخلاص فلا استطيعهُ وبهت الرجل فجعل ينظر اليّ دهشاً ولا يتحركُ من مكانهِ . ولم ازل اعالج ذلك الخرق الى ان انقلب بي الكرسي على الارض وخرجت مجهوداً ينقط جبيني عرقاً . فقلت : ساء ما تتبوأ من مقاعدك ايتها الدار . ووقفت انفض التراب عن ثيابي . وحين عاودت صاحبي السكينة ذهب وعاد وهو يحمل فرشي وكانوا اتوا بهِ من داري قبل ذلك بأيام . فجعله على ارض الغرفة وودعني وانصرف

فلما اطمأنت نفسي الى الوحدة هاجت لوعاتي وجاشت همومي وسالت عبرات لا يكفكفها الصبر ولا ينهنهها الوقار . ما ارخص تلك اللآلئ عند من كان على شاكلتي من اهل الضعف . هذا ذنب اقر بهِ طائعاً واسجله على نفسي آسفاً . وان من العار على المجاهد في حب وطنهِ ان يغلب عليهِ طبع السيدات فيبكي في موطن هو أحق بأن يبدو فيـهِ بنخوتهِ . ولكن كذا كان . بكيت ثم بكيت ثم بكيت . لا القوافي اسعدتني ولا الحكمة صاحبتني ولا العزيمة اهابت بي . ان هو الاَّ الدمع دجاناً وتهتاناً . بللت بهِ مواضع ألهبهـا الحزن فكنت شاعراً في نظم العبرات ولم اكن شاعراً في نظم الابيات

يا لك من ليل اسود الاهاب موحش الجوانب . اظلمت هواديه وما ستنارت تواليه . ويا لك من مثوى بين تلك الالواح المحددة لتكون ارضاً والمشبكة لتكون سقفاً . هكذا طال الحزن فغشيني نوم كأنهُ الموت ظللت صريعهُ الى الصباح . وما انتبهت الاَّ وقد بدا النهار مفتوق الاديم أغرَّ الطلعة . فاستويت على حرف الكرسي المخرَّق واذا كوة مفتوحة في بعض الحيطان تناصفها سلالم لا ارى اوائلها ولا اواخرهـا . أطل منها رجلان . قال احدهما لصاحبهِ :

— ما هذا الذي ارى ؟

— لعله ضيف جديد

— لا مرحباً بهِ . والله لكأنهُ من اوز البر

— مثل هؤلاء لا ينبغي ان يصطبح بأوجههم . فهي شؤم على من يراهـا

— هذا وجه خلق ليزرع فيهِ الفجل

— خلق ليبصق عليهِ

فصحت بالرجلين : ماذا تريدان مني . خلياني وشأني . لست من حزبكما

فقال احدهما : ألا تسمع . هذا يتكلم . ما كنت احسبهُ انساناً .

فلما لم ينصرف الرجلان آثرت الصمت حتى ذهبا عني . ووقفت انظر حولي عسى ان اجد شيئاً اتلهى بهِ عما انا فيهِ من العذاب . فجعلت آخذ اعواد الكبريت وارصفها على المائدة في اشكال مختلفة ثم اعدها ثم اشعلها واحدة واحدة فسئمت هذا اللعب فقمت امشي في الغرفة وأعد خطواتي . فما بلغت نحو الالف الاَّ وقد اضجرني العد . فرأيت ان انظم شيئاً من الشعر فاستعصى عليَّ ولم يجرِ على لساني ولا بيت واحد . فجعلت انشد ما احفظ من اشعار القدماء . فما راقني شيء منها وما زلت في هـذا العناء الممض حتى امسيت

فلما مضت من الليل أوائله استدعاني مدير السجن الى غرفتـهِ . فذهبت . فاكرم وفادتي وسقاني الشاي واقبل يحادثني باطيب ما سمعت. ولما أردت الانصراف من عنده صعد بي الى حجرتهِ ووقف بي امام كتبهِ وقال :

— تعلم ان الكتب السياسية او العلمية لا تدخل بيوتنا فكيف نطمع ان نجعلها عندنا في مواضع مثل هـذا . ولكن أمامك من الروايات ما شئت . كلها مترجم من الفرنساوية الى التركية . فاختر لنفسك احدى الروايات لتكون تسلية لك في وحدتك . فسرني من الرجل هذا الظرف

وشكرت له جميله واخترت احدى الروايات وكان فرحي بها فرح الفقير أصاب كنزاً . وبتلك الرواية قضيت مابقي من ايامي بالسجن . وكان المدير يدعوني كل ليلة اليـه فيحادثني ويخفف عني ما أجد من كمد الوحدة

الاحرار في بطون الارض

قد يحمل بعض الناس اكثر ما انا ذاكر في كتابي هـذا على المبالغة . فيقولون شاعر يجري مع الخيال . كما حمل بعض اصدقائي ما سبق من فصولي على هـذا المحمل . ولكن الذين بلوا بمثل ما بليت بهِ يجدونني مقصراً ولولا جرأة تعودتها منذ خلقت لامسكت عن ذكر اشياء كثيرة لكي لا تعتورها هذه الشبهات . غير انني لا ابالي الثناء ولا ابالي الهجاء وانما ابالي ان يصدق فيَّ احدهما . فليسمع القارئ وليسأل

اخبرني مدير السجن ان بالسجن الذي كنت بهِ سرداباً مظلماً تحت الارض . ارضهُ الوحل وسقفهُ الحجارة لا ينفذ اليـهِ ضياء النهار ولا يتهادى فيـهِ نسيم الشمال . وهنالك برميل فيهِ ماء غير مصفى والى جانبهِ صخرة نحتت لتكون كرسياً يجلس عليه المسجون . موثقاً بالاغلال والاصفاد ولا يجدد الماء الذي في البرميل الاَّ اذا نفد . قال وكانوا يدعون المسجون هنالك الى ان يموت

قلت : — اراك تخبرني اخبارك قائلاً كان . وهل تبدل ذلك الآن ؟

— نعم تبدل كثيراً في الاستانة وهي كما علمت امام عيون الدول . اما الولايات البعيدة عن الثغور فلم يتبدل فيها شيء . وقد علمنا ان السلطان امر بزيادة التعذيب في سجون الولايات البعيدة وفيها اليوم ما يذهل اهل الرأي ويستبكي كل حر في الرجال

— وما يمنع السلطان من رقبة الدول عن انزال العذاب باعدائه . وهو كل يوم يقتل ويسجن وينفي . لا تسأم ذلك نفسه ولا يمجه ذوقه

— أجل . غيرانه يقتل سراً لا جهراً . وأحوال السجون بالاستانة لا يعلمها أحد مثلي . ولقـد يؤتى بالرجل المظلوم فيبقى في السجن شهوراً واعواماً لا يسأل عنه سائل ولا يعرف هو الجرم الذي سجن من أجله . واكثر أهل التهم السياسية يظلون بمعزل عن سواهم من المسجونين . فلا يؤذن لهم بمخالطة احد ولا يهنأون بزيارة قريب من اقاربهم . أما المكان الذي احدثك الآن بحديثه فلم ننزل اليهِ احداً من الناس ولا يعيش فيه احد . على اننا انزلنا اليه بعض الأرمن الذين وقعوا في ايدينا ايام الحوادث الأرمنية . وهؤلاء لم يمكثوا بذلك المكان الاَّ يوماً واحداً . ثم نقلوا الى سجن الضبطية ونفوا منهُ الى سجون القلاع والولايات . وقد كان بالغرفة التي انت بهـا الآن رجل يزعمون انه من حزب تركيا الفتاة . بلغ منهُ الجزع مبلغه فهمَّ ذات يوم بالانتحار . ولو لم نتداركه للقي حتفهُ . ولما رأيت حاله من اليأس وما حل به من الوجل اشفقت عليهِ واحببت ان اسليه بعض احزانه . فاجتنبني واساء بي الظن . ولقد قال لي مرة : أنا لا احب الجواسيس ولا اتقرب اليهم ولا ادعهم يتقربون اليَّ . فقلت له : لو كنت جاسوساً لما عشت براتب قدره اربع ليرات طول هذه السنين . قال : انت تزعم ذلك

وانا لا اصدقك . وكان هذا آخر ما كلمني به الى أن منّ الله عليهِ بالخروج

— كيف يأخذون الناس ليلقوهم في البحر ؟

— ذلك ما لا علم لنا به . لانهم لم يأخذوا منا احداً وألقوه في البحر . وانما يأخذون من يريدون اغراقهم من نظارة الضابطة . هنالك خزينتهم . ولا يعلم ذلك كل مستخدم في تلك النظارة . بل يعلمه اناس من كبارهم . فهم الامناء على هذه الاسرار

— وهل سجن عندكم كثير من الاحرار غير من ذكرت

— بلى . ثم اعلم ان بجانب الحجرة التي انت بها حجرة ثانية عرضها متران وطولها متران . هذه يجعل بها من عظمت ذنوبهم من اهل السياسة ولا يوضع فيها الاّ رجل واحد . لا يقدر ان يضطجع ولا ان يجلس بل يظل واقفاً حتى تتخاذل قدماه . فان باح بسره اخرج من الحجرة وامضي فيهِ حكم القوم وان ابى الاّ انكاراً بقي مكانه حتى يبوح . وما باح لنا احد بسره والذي اراه انهم لا سر لهم

بعض ما وقع ايام سجني

انما يعرف الصديق الوفي عند اشتداد الكرب وتوالي الحوادث . أما ادعاء الودّ والعيش في خفضة والحال في استقرار فذلك يتساوى فيهِ صادق وكاذب . وفي كرام الأعادي من يشفق على عدوه اذا فلت مرته ومال ركنه . ولله أيام الشدائد . تعلم من حيث تستبكي وتهب الموعظة من حيث توجع

سجنت فأعرض عني اخوان الصفاء . راعتهم نكبتي وباعدت ما بيني وبينهم محنتي . فبالغوا في الحذر من جانبي ورثت يومئذٍ حبال كانت احكمتها الألفة في ظلال الأمن وفي ساعات الغرور . ولم يرث لبلواي ولا بكى لمصرعي سوى قليل من الاخوان وواحد من الاعداء

أما الاخوان الذين استهانوا الاهوال في جانب الاخاء واقبلوا على مورد الموت الاحمر يطلون حيث جندل أخوهم الشهيد فاولئك منهم زكي الحسب مصطفى بك المخزومي أحد أعضاء مجلس المعارف اذ ذاك ومنهم الشهم الأوفى المرحوم محمد صديق خان الحسيني وهو أحد أعضاء ذلك المجلس وقد تقدم ذكرهما . وآخرون غير هذين الصديقين أدع ذكرهم اجابة لملتمسهم . فكان عدد الذين أهمهم أمري لا يزيد على الخمسة . جزاهم الله عني خيراً اني عاجز عن جزائهم . ولقاهم من السعادة بقدر ما ابتلاني بهِ من الشقاء

وأما العدو الذي نسي يومئذٍ عداوته فهو زهدي باشا ناظر المعارف كان سوساً لخزائن الحكومة . لا يدع قطعة من الذهب الاّ نخر فيها . لا يرحم في سبيل آرائه صغيراً ولا يوقر كبيراً ولا ينام عن خصم حتى يرديه ويزيله عن موضع عزه . وقد كان لي واياه شأن من الشأن . وحين أمال الدهر عماد سلطاني واسلمني الى من يطيل همي وتسهيدي . امر زهدي باشا بصرف مرتبي وأرسله الى أهلي وحمل رسوله من كلام الودّ وجميل العزاء ما كاد يثلج صدورهم . ثم ارسل اليَّ يقول : انت اليوم رهينة السجن . لا حول لك ولا قوة واخشى أن يحدث لك من اليأس ما يذهب بعزك . فاصبر ان الصبر درع الكريم اذا نابته نائبة . وسلني كل حاجة تكون

عرضت أقم لك بقضائها . فرددت الرسول أحسن ردٍ وقلت ان حاجة الحرّ في رأسه لا في صدره واذا بخلت الايام بها فلا ألتمسها عند من هم ابخل منها

و بينما انا في السجن . لا علم لي بما تجري به الاقدار . اذا جماعة من المظلومين يقادون الى ذلك البيت غير المحبوب . عضت السلاسل على سواعدهم عض الثقاف على صم الانابيب . اخرجتهم يد الجور من مستقر دعتهم وقادتهم الى مستثار فزعهم . احد اولئك المظلومين هو المرحوم جبرائيل افندي غرغور وهو من مشاهير المحامين وكان وظف عضواً بامانة البلدة . ثم رجل من الاروام وولده معه وهما من مشاهير تجار الجواهر والحلي . وكان السبب في سجن المرحوم غرغور انهم عثروا في داره على بعض مطبوعات الاحرار . فاتوا به مسرعين ولم يمهلوه ان يلبس ملابسه . وانما اقام الحجة على ذلك الشيخ الجليل ان احد نجليه وهو نعوم افندي غرغور كان فرّ الى اوروبا ولحق بجماعات المجاهدين من الاحرار ولم يثنه عن جهاده وعد القوم ولا وعيدهم . فقالوا ننتقم لأنفسنا من الاب اذ فاتنا الانتقام من الولد

والرجلان الجوهريان حسدهما هاروناشي جوهري عبد الحميد . وحساد التجارة شر من حساد الدولة . فوشى بهما الى مولاه زاعماً انهما من اعوان رشاد افندي ولي عهد الملك العثماني . فخلت بالرجلين نقمة الظالم الجبار وخلا الجو لوجه هاروناشي وفاز بربحي التجارة والوشاية . وقد ارسل غرغور افندي ورفيقاه الى ولاية قسطموني وبها مات غرغور في سجنه وخلص الاب وابنه عند اعلان الدستور

هذا بعض ما جرى في السجن . وما جرى في بيتي اجلب للعبرة وأدعى للعجب . فقد ملك الجواسيس الطريق واقاموا يرقبون من يزور اهلي . فان كان عثمانياً تلاحقوا به واخذوا بطوقه وان كان اجنبياً حاربوه بوشاياتهم وهي لا تضره ولا ترهبه

الى الله المشتكى من اهوال تلك الايام . عيون يواقظ تحرى مواضع الشبهات وأيدٍ تحتفر القبر لمن عز ناصره وهان جانبه وقلوب خلت من جوانبها مواضع الرحمة فقست فهي اشد قسوة من الحجارة . وان بداري لنحيباً تئط له الاركان وتزلزل قواعد البنيان وحزناً يتصلصل بين الترائب والنحور . ثم امرأتان أم وزوجة وطفلان لا يعلمان من الحياة شيئاً . اشكلت عليهما لخوى الدموع فاحرقت قطراتها وجناتهما فهما يتململان . ما حلت الايام منهما عقد اللسان فيكون منهما معوان على الشكاية بل ألهما الحزن الهاماً . والبكاء في الانسان سجية وفي ارتجالات الاعين ما لا تقوم له بدائه القرائح . سر ايها القلم هذا زمانك قد خلا زمن العبرات

استنجدت المرأتان كل من ظنتا بهِ نجدة وطرقتا كل باب حسبتا وراءه ملجأ . فاوصدت الابواب وتضاءلت عزمات الكرام. ثم صاح بهما الشمم قفا فوقفتا . ذلك انذار اليأس يستعيد الفتوة في النفوس

ولم انسَ مما امتحنت ربي بهِ حوادث الايام شيئاً مر بي اوثر ذكره في سطوري هذه . ان في ذكره لعظة خالدة وحكمة بالغة يأخذ منهما اللبيب على قدر لبه

اصبحت في بعض ايامي بالسجن كما يصبح من قضى ليلته على شوك

عرضت أقم لك بقضائها . فرددت الرسول أحسن ردٍ وقلت ان حاجة الحرّ في رأسه لا في صدره واذا بخلت الايام بها فلا ألتمسها عند من هم ابخل منها

و بينما انا في السجن . لا علم لي بما تجري به الاقدار . اذا جماعة من المظلومين يقادون الى ذلك البيت غير المحبوب . عضت السلاسل على سواعدهم عض الثقاف على صم الانابيب . اخرجتهم يد الجور من مستقر دعتهم وقادتهم الى مستشار فزعهم . احد اولئك المظلومين هو المرحوم جبرائيل افندي غرغور وهو من مشاهير المحامين وكان وظف عضواً بامانة البلدة . ثم رجل من الاروام وولده معه وهما من مشاهير تجار الجواهر والحلي . وكان السبب في سجن المرحوم غرغور انهم عثروا في داره على بعض مطبوعات الاحرار . فاتوا به مسرعين ولم يمهلوه ان يلبس ملابسه . وانما اقام الحجة على ذلك الشيخ الجليل ان احد نجليه وهو نعوم افندي غرغور كان فرّ الى اوروبا ولحق بجماعات المجاهدين من الاحرار ولم يثنه عن جهاده وعد القوم ولا وعيدهم . فقالوا ننتقم لأنفسنا من الاب اذ فاتنا الانتقام من الولد

والرجلان الجوهريان حسدهما هاروناشي جوهري عبد الحميد . وحساد التجارة شر من حساد الدولة . فوشى بهما الى مولاه زاعماً انهما من اعوان رشاد افندي ولي عهد الملك العثماني . فخلت بالرجلين نقمة الظالم الجبار وخلا الجو لوجه هاروناشي وفاز بربحي التجارة والوشاية . وقد ارسل غرغور افندي ورفيقاه الى ولاية قسطموني وبها مات غرغور في سجنه وخلص الاب وابنه عند اعلان الدستور

هذا بعض ما جرى في السجن . وما جرى في بيتي اجلب للعبرة وأدعى للعجب . فقد ملك الجواسيس الطريق واقاموا يرقبون من يزور اهلي . فان كان عثمانياً تلاحقوا به واخذوا بطوقه وان كان اجنبياً حاربوه بوشاياتهم وهي لا تضره ولا ترهبه

الى الله المشتكى من اهوال تلك الايام . عيون يواقظ تحرى مواضع الشبهات وأيدٍ تحتفر القبر لمن عز ناصره وهان جانبه وقلوب خلت من جوانبها مواضع الرحمة فقست فهي اشد قسوة من الحجارة . وان بداري لنحيباً تئط له الاركان وتزلزل قواعد البنيان وحزناً يتصلصل بين الزائب والنحور . ثم امرأتان أم وزوجة وطفلان لا يعلمان من الحياة شيئاً . اشكلت عليهما لخوى الدموع فاحرقت قطراتها وجناتهما فهما يتململان . ما حلت الايام منهما عقد اللسان فيكون منهما معوان على الشكاية بل ألهما الحزن الهاماً . والبكاء في الانسان سجية وفي ارتجالات الاعين ما لا تقوم له بدائه القرائح . سر ايها القلم هذا زمانك قد خلا زمن العبرات

استنجدت المرأتان كل من ظنتا بهِ نجدة وطرقتا كل باب حسبتا وراءه ملجأ . فاوصدت الابواب وتضاءلت عزمات الكرام. ثم صاح بهما الشمم قفا فوقفتا . ذلك انذار اليأس يستعيد الفتوة في النفوس

ولم انسَ مما امتحنت ربي بهِ حوادث الايام شيئاً مر بي اوثر ذكره في سطوري هذه . ان في ذكره لعظة خالدة وحكمة بالغة يأخذ منهما اللبيب على قدر لبه

اصبحت في بعض ايامي بالسجن كما يصبح من قضى ليلته على شوك

القتاد . اردت النهوض نخانتني قدماي . فاستجمعت قوتي فعـل اليائس من حياته اذا هوى في جب ذرعه الف ذراع . فوقفت اجيل طرفيَّ يمنة ويسرة وهما يتساقط نورهما من اطراف اهدابهما . هذا موقف الحيرة . لو تمثل لي الموت شخصاً ونزا اليَّ بسنانه وافترّ عن نواجذه واحدق بباصرتيه لما وجد فيَّ مهزاً ولا انس مني ذعراً . فطال وقوفي زمناً لا ادري مقداره . واني لكذلك واذا السجان سمعت صرير مفتاحه على قفل الباب وبدا لي وجهه الأربد في ابتسامه القبيح . فقلت لا حي الله هـذه الوجوه . فسلم فسلمت . ثم سألته :

— ما جاء بك الساعة ؟

— خدمتك

— جزيت خيراً . لا اريد شيئاً

— ألا تفطر ؟

— كلا . ولكن ائتني بالقهوة

— والدتك جاءت وهي تريد ان تراك . فطلبت الى المتصرف ان يأذن لها في زيارتك . فاذن لها ان تراك من باب السجن ولم يأذن لها في الدخول عندك

— اذهب فبلغها عني اني بخير واني اطلب منها دعاءها واستمنحها رضاها ولا اريد ان اواجهها في هذه الدار المظلمة جوانبها

— لا سبيل الى ما سألت . وما هي ببارحة ان لم تركـ بعينها

فلم يبقَ الا الرضاء . فتبعت الرجل حتى اذا اتهينا الى دهليز السجن استوقفني جانباً وفتح الباب لوالدتي واقام دون ممرها سلسلة الباب .

فاشارت بالتحية واشرت بالتحية وأومأت اليها لتعود فعادت. ورجعت الى غرفتي مسرعاً اكفكف عبرات استنزلها الهول المتجدد . وقد علمت ان الوالدة اذا رأتني بذلك المكان غلب عليها الحزن وانثنت مثقلة بفادحات الهموم . ولكن قلت الحيلة في درء ما يتوقع . فايقنت ان لا سبيـل الى الراحة في ايدي قوم تستطيب لحوم الناس انيابهم وتستلذ الدماء افواهم. واقمت انتظر ما سيكون

من السجن الى الباخرة

اصبح بسجن وامسي بباخرة . سبحان مقلب الملوين في ثنيات الأبد . خطى معجلة الى شقوة مؤجلة . يا بعد غاية المقادير

زارني قوميسير المركز فقـال سلام . قلت سلام . فافترّ ثغره عن تبسامة كأنها تبسامة الجدث لميت جديد . ثم دنا حتى حال بيني وبين الوجود . فانشأ فصول الخدع فقال :

— اما مللت مقامك في ضيافتك هذه ؟ انا مللناك وسئمنا طول لبثك . وسنشرب القهوة عندك الليلة فانهض غير مخذول ولا مروع

— الى اين تذهبون بي الساعة ؟

— الى ساحل النجاة

— الحمد لله على نعمته

فمشى البشير امامي ومشيت وراءه حتى اجزنا باب السجن . فرأيت في طرقات المتصرفية طوائف من رجال الشرطة يتغامزون ويتسارون .

وما زلنا في صعود وانحدار الى الباب الجنوبي . فاذا عربة يحيط بها جماعة من فرسان الجندرمة . واذا في العربة رجلان احدهما من رجال الملكية وثانيهما من ضباط الجندرمة . فتقدم القوميسير ففتح باب العربة وادخلني فيها ثم وقف امامي وقال :

— ما امامك الاَّ كل خير . لا تخف شيئاً وسألحق بك هنـالك ويكون لي معك حديث تستطيبه

وما اتم الرجل كلامه الاَّ وانطلقت بنا العربة تحيط بها الفرسان حتى لظننت اني قد صرت ناظر الداخلية او ناظر المعارف . وما برحت بنـا تهوي مخارم الطبخانة الى ان وقفت عند شاطئ البحر . وما هو الاَّ مثل لمح بالبصر واذا بالباب وقد فتح واذا بنا قد نزلنا . فأقبل نحوي الرجل الملكي يستلفتني الى زورق كبير كان راسياً على مقربة من مكاننا . فاشار يدعوني الى النزول فيه . فنزلت وانا في كل خطوة انتقل من يد الى يد

كرة طرحت بصوالجة فتلقفها رجل رجل

فلما استقر بي مجلسي جلس الرجل الملكي الى جانبي وجلس الضابط امامي وسار بنا الزورق في موج متراكب وريح طيبة لا يسمع من الزورق الاَّ قعقعة اضلاعة وايقاع مجاذيفه وضربات الامواج في حيزومه وجوانبه . فكنا نجتاز البواخر وعليها الرايات العثمانية والاجنبية فلا نقف عند واحدة منها . نخيل اليَّ ان قد دنت الساعة وازف فراق الدنيـا . وما لبثت ان راجعت نفسي وقارها وغلبتها على وجلها فتأملت وجهي الرجلين الملكي والضابط واذا هما يتغامزان . فقلت قد وضح الصبح لذي عينين . انا لا ادع هذين الصاحبين يباعدان مجلسي قيد ذراع ومتى آن لي النوص

في اليمّ جمعت بطوقيهما اليَّ فغصنا جميعاً . وانا لعلى مقربة من (سراي بروني) وهو موضع يزعمون انه اتخذ ليلقى منهُ الابرياء في البحر . فارتفعت لنا باخرة لا كالبواخر . كأنها الزورق في حالها . خافتٌ صفيرها بارد زفيرها . علا الطحلب جوانبها فكساها مثل السابري المضاعف نسجه . تدلى من جانبيها سلمان يصعد عليهما المسافرون وينحدرون . فرسا بنا الزورق الى جانب الباخرة . فتبينت اسمها منقوشاً بالخط الكبير (بحر جديد)

فما راعني الاَّ احد صاحبي وقد اخذ بيميني وجذبني الى نحو السلم . وما هممت بصعوده الاَّ وتخاطفتني الايدي وعلت في اذني اصوات من معي يقولون (بيورك . بيورك) تفضلوا تفضلوا . فما خلصت من ايديهم الاَّ بعد ان بلغت أعلى الباخرة

فادخلت المجلس واخذ حراسي باطرافي . وقد اشتهت نفسي التدخين فمددت يدي الى ملابسي لأستخرج منها سكايري . فقبض عليهـا احد الجلوس قبضة كاد يقتلعها من اصلها . قلت :

— مالك ؟

— ماذا تريد لتصنع ؟

— اريد ان استخرج سيكارة ادخنها

فلما رأى السيكارة في يميني سري عنهُ وهدأ باله . فظللت بين القوم ساكتاً لا احادثهم ولا اجاوبهم اذا حادثوني . ولم نلبث ان جاءنا قوم من الشرطة ومعهم فراشي الذي كنت ابيت عليهِ في السجن وما يتزود به المسافر من طعام وغيره . وكنت سألت الملكي الذي صحبني الى الباخرة ان يخبر اهلي بمكاني عسى ان أتزود بنظرة اليهم واوصيهم وصاتي . فوعدني

وعداً ظهر لي المطل في اعقابه . وقد طاف اهل بيتي دور الظلم يستخبرون عني . فعادوا وهم لا يعلمون لي مستقراً وادرعوا الحزن الطويل واليأس المرير

نظرة في حال فروق

يممت فروق مدعواً ونزحت عنها مجفواً . فلا الدعوة أبطرتني ولا الجفوة كفرتني . وما زلت منلدن وطئت مهادها وعلت انهارها وشممت طيبها ورعيت كواكبها صادق الود . مخلصاً في السر والجهر . وما فروق الا وطن ميلادي استهلت فيها حياتي ونما في أرضها عودي . بذلت لها روحي ولا أمن بها ومنحتها آمالي ولا ادل بها . وكانت شقوة فغلبت على أمري وفارقتها فراق الجبان روحه ونزعت عنها نزوع الصب عن موطن صبابته

رأيتها اختلفت فيها الاهواء وكثرت المطامع . خليفة الله فيها يقتل عباد الله ويستحل ما حرم الله من أموالهم وأعراضهم . ورجال الدولة وحماة مجدها عصبة من أهل الحرص يسلبونها قليل ما أبقت لها الايام من طارف لا يحمل عده وتليد لا يستطاع حفظه . ويحمل العرش يومئذٍ رجال كادوا يشاركون الله في ملكه وينكرون عليهِ قدرته . فهالني ما رأيت . وددت ان لو قامت نوادبي ولم أرَ تلك الفادحات . فعاهدت الله ان لا اسالم خائناً ولا اسكت على عداء . وما زلت اجالدهم حتى كاثروني . وما سلاحي الا يراع تشذر فلا يفصح صوته وخاطر نضبت ينابيعه فلا يجري معينه . وان امامي لرجالاً اولي قوة وسلطان لا تأخذهم صيحة ولا يرهبهم

بطش . وقد خذلني من خذل من الانصار . فبقيت في صغر قدري وضعف ركني اسير من لا يرحم وعاني من لا يفدى

ثم المجاهدون الاحرار يسترجعون بالرغبة او الرهبة والجرائد تحيي الظالم في صبحه ومسائه تحيات طيبات . ومن رزقهم الله الكفاية من اهل الثراء وحماة الذهب يتسابقون الى عاليات المراتب . يتفننون في سياسة الفوز . فقوم يحملون دنانيرهم وآخرون يتقربون بوشاياتهم وفريق يحكم الحيلة حتى ليخدع عبد الحميد ويسرق منهُ حظوته ويختلس رضاه . فاوجست خيفة وملئت يأساً

يموت خليل رفعت الصدر الاعظم . فيولي مكانه سعيد ويسرع فريد الى فروق مطالباً عبد الحميد بالصدارة . يقول : جعلتموني والياً على قونيه وهي دون قدري فاطعت واخترت الصبر . ثم دعوتموني لاولى الصدارة فقلدتم امرها غيري قبل ان أصل اليكم . فقد اصبحت منذ اليوم حديث الناس في انديتهم وسمرهم . يسخرون مني ويستهينون بي . فأقيلوني من ذل لم استوجبه بعصيان . فيأتيهِ البشير من عند السلطان يحمل وسام الافتخار المرصع . فيرجع فريد داعياً شاكراً

ثم تحاصر عيون الظالمين وارصادهم بيوت المخلصين مثل المشير فوآد والفريق احمد جلال الدين ويتسع مجال الشر لفهيم ومحمد ابي لحية وابي الهدى ومحافظ غلطه سراي وناظر الضبطية . فيا من رأى عاصمة ملك تقاسم هدمها الملك والرعية

لهفي على فروق في تلك الايام السود . عروس في نعش او جنة يملكها الحريق . لو وفت الايام بأمانيّ الجبار لنال من فروق ما نال نيرون

من روما . ولقد فعل . والغرائز اكثر تشابهاً من الوجوه وحوادث هذه الحياة تستعاد مختلفات . والتأملات قاصرة والعقول حيارى وصحف التاريخ اهملت الكثير وحدثت بالقليل

وداع فروق

ودع (فَروق) لقد أجدَّ فراق ... ماذا تطيق ! هل الوداع يطاق
هي وقفة بين التعلل والأسى ... يفنى الرجاء ويخلد الميثاق
أعط المنازل حقها يوم النوى ... هذا الفؤاد وهذه الأحداق
واستبقِ شعرك للقاء اذا دنا ... حسب النوى ما تنشد الآماق
قد كان شوقٌ ثم نوّت بحمله ... فلتنظرنْ ما تصنع الأشواق
يا عاشقاً لم يدرِ ما جهد الهوى ... أرأيت ما يتجرَّع العشاق
اكتب شجونك فالشعاع يراعة ... والبحر حبرٌ والسما أوراق
فعسى يسوق الدهر ما سطرته ... لبنيه بعدك فالشجون تساق
السابقوك الى المصارع أدركوا ... غاياتهم ولك استجدَّ سباق
فاغلب بعزمك امر حزمك وانصلت ... تلحق بهم عقبى المجدّ لحاق
رقأت دموع قد جرت لفراقهم ... لم يبقَ دمع بعدهم مهراق
أما الجفون فما بها متسهد ... أما القلوب فما بها خفاق
والروض موشيّ الطرائق زاهرٌ ... أبداً وسائغ مزنه رقراق
والطير في دوحاته متجاوب ... والبان في اثلاثه مطراق
وجد السلوّ الواجدون وهكذا ... كأس الهموم تعاف حين تذاق
سيفيق من سكر الصبى نشوانه ... فالسابقون قد انتشوا وأفاقوا

استودع الله الرفاق جميعهم ... ولسوف يتبع الرفيق رفاق

هذا كلام ودّعت به (فروق) . قلته حين اختفت عن عيني . وانما يجيش الشعر في خاطر الشاعر بمثل تلك المواقف

على ظهر قصر سابح . في لجج البسفور . بين شطي اوروبا وآسيا . من الوطن المحبب الى غاية مجهولة . فراق أهل وولد . من غير توديع ولا تسليم . كل ذلك تحت ليل كأنه ظلّ الشقاء وسماء كخاطر الواله . في حيث تتراءى تفاريق نور على البيوت كبسمات ارواح المظلومين من وراء حجب الوجود . لقد كنت شاعراً في ظلمك يا عبد الحميد

ودّعني الرجل الملكي وبقي معي رفيقه الضابط ورجل من الجواسيس . فلما استقرّ بنا المجلس التفت الضابط نحوي . فقال :

— لا تهمن نفسك . لن ترى في سفرك هذا الاّ خيراً

فدخل الجاسوس في الحديث وجعل ينظر الى وجهي نظر الشامت ثم رأى ان لا يكتمني ذلك . فقال

— وما يهم البك من سفره هذا . لقد لقي جزاءه . ولو تدبر الأمر لكفى نفسه أحزانها اليوم . كلنا عرفنا ان سيكون مصيره الى مثل ما هو فيه الآن . قضاء الله وقدره ولا حيلة للمرء في قضاء الله وقدره . ولقد كان البك كثير الاعجاب بنفسه . يحتقر الدنيا ومن عليها . فكم مررت به في اختياله وكبريائه فازدراني وأعرض عني بوجهه . ما حسبته نسي ذلك . قلت:

— ومن تكون ويحك . هذا وجه انكره ولا اذكر اني بليت بشؤمه الاّ في يومي هذا

— عجباً . تبدي التغابي عني وانت اعرف بي من ذات نفسك

فادركني مثل الجنون من عناد الرجل وكدت أهوي على وجهه بلطمة تهشم انفه وتهشم ثناياه . غير انني استحييت من نفسي ان لا اكون مالكاً لقيادها في مثل تلك الساعة . فزجرتها فازدجرت . ثم قلت للجاسوس :

— لو كنت عرفتك لنالك مني ما نال اخوانك

— كأني بك يومئذٍ حاملاً عليّ بعصاك تريد ان تضربني . اما لتلقيتك كما تلقيت غيرك . فان اقدر عليك أثأر لنفسي ولاخواني وان تقدر عليّ فنحن قوم لا يضرنا الضرب ولا يؤذينا الهوان . فبقيت باهتاً مما اسمع من كلام الرجل . فتركني في حيرتي وأقبل على الضابط يحادثه . فقال :

— كان البك منذ عامين يقطن داراً بجوار سفارة المانيا . وكان له ودّ مع الامير محمد باشا نجل الأمير عبد القادر باشا الجزائري . وبيتاهما يومئذٍ متجاوران . فجاءني الأمر بمراقبتهما . فكنت اقضي اكثر اوقاتي بين المقابر الكائنة امام السفارة ولكن على غير طائل . فلما اعيتني الحيل وخفت ان لا اعرف من امريهما شيئاً . تلطفت في المكر حتى تمكنت من الاستخدام في بيت الأمير . فاستبشرت خيراً . وما راعني الاّ هذا البك داخلاً من باب الدار في اصيل يوم يتبعهُ رجل من الاجانب . فلما رآني البك انكرني . عرفت ذلك في نظره الشذر ولكنني لم ابدِ شيئاً سوى ظاهر الحرمة والتوقير . فسرت بهما حتى ادخلتهما على الأمير وخرجت فوقفت وراء الباب استرق السمع . فكان هذا البك يخاطب صاحبه الأجنبي بالفرنساوية ويترجم للأمير بالعربية . فقد غاظني والله ذلك وكادت روحي تخرج من شدة الغيظ . واني لفي غيظي واذا ثلاثتهم

يضحكون ضحكاً عالياً . فخيل اليّ انهم يضحكون مني . فخليت عنهم ونزلت كاسف البال والله يعلم ما كنت أقول عند نزولي

وقد أراد الرجل أن يسترسل في حديثه لولا ان قاطعته . فأقبلت على الضابط وانا أرتعد غضباً . فقلت :

— أهكذا دأبكم . تبعثون بمثل هذا الرجل الى الناس ليبالغوا في تعذيبهم وهم يحتضرون . كفى . كفى . لقد أحسن القيام بما عهد به اليهِ . أما أنا فكما ترى . أتطلب الصبر فلا اجده . لا تحرجوني فما بالقلب جهد فيحتمل

فأيقن الضابط ان الاناء قد امتلأ وعرف ان لنفوس المكربين ثورات تعيي على مخمديها . فعدل بالرجل جانباً وسمعتهُ يقول له :

— اذا لم تخرج الساعة من هنا خرجت انا وتكون انت مسئولاً عما يقع من الامر . فذهب عنا ذلك الجاسوس وكانت ساعة سفر الباخرة قد دنت . فأسرع نحوي الموكلون باخراجي من الوطن وأخذوا يودعونني وداع القالي وأوصوا بي الضابط ونزلوا . ثم صفرت الباخرة صفيرها وانبعث من جوفها زفيرها . ثم تمايلت ذات اليمين وذات الشمال . ثم دارت الى ناحية البحر الاسود فدارت دواليبها وقعقعت أضلاعها وتوالت هزاتها . فسألني صاحبي الضابط ان اصعد معهُ الى سطح الباخرة ووافق ذلك هوًى في النفس فصعدت . واذا نحن نسير بين منظرين ما تفتحت الأعين على أحسن منهما . شطي آسيا وأوروبا . يتناغيان بالمصابيح . عاشقان ضنت عليهما الاقدار بالتلاقي . مررنا بهما أم مرّا بنا . لا أعلم . صحائف أجاد الحسن فيها منمقةً . نشرت فانطوت . زلت عنها الأبصار

وضاقت عنها الفهوم . فرائيها متخيل وعارفهـا متوهم . ما شك ناظر الى السماء واليها ان تلك المصابيح كواكب سقطت عليها . عهدي بهـا في حالتيها . بينا هي عرين اذا بها كناس . يخالط فيهـا كل زئير ليث عندلة عندليب . تجاور بها مسارح آرام ومصارع كرام. تسقى من ماء معين ومن دم مهراق . تطالعها وجوه ضاحكة واخرى مجهشة . تقسمتها مواسم الصبا فهي تارة مشتى وآونة مصيف وحيناً مربع . جنـة يحرسها حارس جهنم . فتنتني يوم لقائها وتوشك ان تفضحني يوم فراقها . فروق ياظلوم . خذي روحي فما هبطت عليّ الاّ فيك واسترجعي من انحاء الفضـاء متفرقات انفاسي . أنت أولى بحسراتي منه . استبقي لي خاطراً احييك بهِ وشعراً انوح به عند فراقك . يا نعيمي الماضي وشقائي الحاضر . ألا يضطرب ماء هذا الخليج مجاراة لجوانحي . وددت لو ان ارتطم عبابهُ وترامت امواجهُ واغرقتنا قبل ان نجتاز ربوعك . كان بك مهدي . واريد ان يكون بك لحدي . هنيئاً يومئذٍ لحوتك ونونك ما ابقت الايام من لحم على وضم . ولتتصرف رياحك باخريات انفاسي ولترن في ارجائك نوحاتي . الوداع الوداع يا فروق . وسلام الله عليك وعلى بنيك كلهم . هذا طريد جديد . مظلوم يلحق بمظلومين . يخرجونني منك ليلاً لأراك في ثوب حدادك . أمن اجلي كل هذا . كلا . بل حدادك على اختك الغزالة . انا اضيع فيك من دمعـة على خد مهجور . انا اهون على الدهر من ذرة من ذراتك ضلت بين ثنيات الأثير . . . . .

اجتازت بنا الباخرة مرسى (بشكطاش) . فاطلع علينا من ورائها قصر (يلديز) على هضبته . وبينا نحن ننظر اليهِ ونستعيذ بالله منهُ .

اذا مدفع قد دوى ثم تلاه غيره . فعددنا المدافع فكانت سبعة . وهذه عادة فروق اذا حدث فيها حريق . فجعلنا نطالب بابصارنا مكان النار ثم لم نلبث ان لاحت قريبة من (يلديز) وكنت اعلم ان لن تصل اليها فحولت عنها بصري وجعلت امتعهُ بما يتجدد امامه من محاسن فروق . ظللنا على تلك الحال حتى دانينا باب البحر الاسود . فوقفت عنده الباخرة وألقت مراسيها قبيل الحصون . وكنا غلب علينا الاعياء وتواكلت اقدامنا من طول الوقوف . فاشار عليّ صاحبي بالنزول الى موضع نومنا فنزلنا جميعاً . وحين أخذنا مجلسنا للراحة اخبرني عن اسمه فاذا هو موسى كاظم بك واعلمني بوظيفته فاذا هي وظيفة ياور لناظر الضابطة ورتبته ملازم اول . وقد وجدت كلامه لا يشبه كلام رفاقه الذين تقدموا . فاستأنست به . وعرف مني ذلك فقال :

— سترى في الولايات حياة جديدة غير التي رأيتهـا في الاستانة . ويا ليتني كنت مكانك الآن . اقول لك ذلك لاني قضيت شطراً من عمري متنقلاً في مدن الاناضولي وما مرّت عليّ ساعة في تلك المواضع وشكوت منها أمراً

— كذا ينبغي ان تكون . كل موضع يبعـد عن (يلديز) يقرب من النعيم

— صدقت . وسترى مني خادماً مطيعاً وخلاً وفياً ولا أسألك من الجزاء الاّ ان تكون جلداً وان تجعل ما انت فيـهِ اليوم من محنة الدهر مغنماً من التجاريب لا مغرماً باليأس

— سترى مني حمالاً لأثقال النوائب . صبوراً على فادحات الكُرَب .

غير اني سائلك عن أشياء ارجو ان تصدقني في الاجابة عنها

— سل ما بدا لك

— الى اين يكون مصيري

— الى صامسون . واخال انك ستوظف وظيفة فيها

— وما تكون وظيفتي ؟

— لا أدري

— ألا أسجن فيها اياماً ؟

— لن تسجن فيها ولا ساعة واحدة

— ويحك . ما أدلك على طرق المكر . وما أغباني ساعة أملت فيك الصدق . قم عني الى لعنة الله . لن اكلمك مذ الليلة

— سيدي . أنت رجل كثير الوسواس . ولولا غلبة الجزع على ذات نفسك ما اتهمتني من غير تجربة . شهد الله اني ما كذبتك في شيء مما اخبرتك بهِ . وسواء عليَّ صدقت ام لم تصدق . لا احاول اقناعك . ثم اعلم انني صحبت قبلك كثيراً من الرجال الى الاقطار التي نفوا اليها . فما ذمني منهم احد . وهذا اسماعيل بك صفا الشاعر التركي الشهير . صحبتهُ الى سيواس . وغيره كثير لو شئت ان آتي لك على اسمائهم لقضيت الليل في عدها

— اذن أنا لا اسجن

— نعم . وبرئت من عثمانيتي ان كنت كاذباً

— لقد قامت حجتك . ولكن متى نفي اسماعيل صفا

— منذ عامين . أتعرفهُ ؟

— نعم اعرفهُ بآثاره . وكنت مولعاً بمجلته التي سماها (معارف) . ثم عرفني بهِ أحد الفضلاء في احدى ليالي السمر . وكان حديثنا غير طويل

وقد استطال حديثي مع كاظم بك الى ما بعد نصف الليل . فعلمت منهُ انهُ ابن اخي الحاج حسن حلمي باشا والي سيواس اذ ذاك وانه نفي وسجن وذاق أمرَّ طعم النوائب . وانه لولا استشفاع عمه لقامت عليهِ نوادبه . فلما اخذنا حظنا من الحديث مال كل الى مضجعه . فما انتبهنا الا على هزج الباخرة وضرب الامواج . فلم نرَ الاَّ الأسود الخضم في ازباده البيض وتحت سمائه المحتجبة وسحبها الداجية . شططنا عن المعاهد والرسوم ويممنا قصداً لا ندري متى نحن مدركوه . فقلت لكاظم بك :

— تُرى أيعلم اهل بيتي شيئاً من خبري ؟

— ذلك علمه عند الله . والقوم لا يخبرون الناس خبراً

— وما الحيلة في إخبار أهلي بأمري ليهدأ روعهم ويخف حزنهم

— ارى ان تصبر حتى تنزل بصامسون . اما الآن ونحن في عرض البحر فلا نستطيع شيئاً

هذا جواب حسن عنده سكوتي وفي النفس من برحائها ما لا ينهض به عزم . فبقينا في الباخرة خمسة أيام وما اتهينا الى صامسون الاَّ اصيل اليوم السادس . وما مرَّ بنا في سفرنا هذا ما يصلح للذكر سوى ان فرغ الفحم منا حين بلغنا (اركلي) وان الربان عانى الشدائد حتى حصل من (مورّده) ما يحتاجه . ولما بلغنا حصن (سينوب) أقبل علينا من الشط زورق يقل جماعة من الشرطة يتوسطهم رجل نحيف الجسم قصير القامة اصفر اللون ذو لحية سوداء تلوح عليه سيما أهل الفجور . فسألت كاظم

بك ممن الرجل فأخبرني انه مدير التحريرات في متصرفية (صامسون) وان أباه انيس باشا والي قسطموني عدو الأحرار الفاتك بمن نفي منهم الى ولايته . وانيس باشا كان اشد ظلماً من عبد الحميد وهو الذي غذا الاسواط من لحوم المظلومين الذين وقعوا تحت حكمه حتى لقد استعظم ظلمه عبد الحميد وبعث اليه يأمره بالتخفيف فلم يمتثل امره . كرهت لقاء ذلك القادم الثقيل فتنكبت طريقه . ولكنه سأل عني فقيل له اني منفي فدنا مني وحياني . فحييته تحية كلها تكلف . وكان صاحبي كاظم بك عرف بعض طباعي فتداركنا بحضره . ثم اشار الى الرجل وخاطبني معرّفاً :

— البك نجل صاحب السعادة انيس باشا والي قسطموني . وهو مدير تحريرات صامسون

— أهلاً بهِ

— لما سمع باسمك أسف لما أصابك

— شكراً له

فابتدرني القادم بكلامهِ . فقال :

— انما تعرف الرجال عند الشدائد . فلا تحزن لما أصابك . ان عفو سلطاننا مؤمل

— ما انا بحزين

— رأيت بقسطموني كثيراً من المنفيين . غير اني لم أحفل بأحد منهم . ما فيهم من فتى كريم . ولقد ادبهم والدي فأحسن تأديبهم . وانهم اليوم لأذل من العبيد

فما رددت على الرجل بحرف . بل رميتهُ بنظرة ادرك منها مرادي .

فاخذ كاظم بك بذراعه وتنحى به جانباً . وقد رأيته يؤنبه على كلامه ويحذره مني . غير انه لم يلبث ان عاودني واخذ يكلمني . فأعرضت عنهُ بوجهي وتركته يهذي وحده . فذهب الى الربان يحدثهُ بما قابلتهُ به من الاعراض فقال له الربان :

— ما علمنا بهِ الآ حسن الخلق . ولكنهُ مكروب والمكروب تضيق نفسه عن اشياء ربما اتسعت لها في ايام دعتها . فلا تؤاخذه بما رأيت منه وانا سائله الليلة عما انكره منك

وقد وفى الربان بوعده . فسألني عما انصرف بي عن مخاطبة ابن أنيس باشا . قلت :

— هو رجل اختلفت بيني وبينهُ الاهواء . ثقل على فؤادي اول ما سمعت من كلامهِ . فرأى الربان ان لا يزيدني سوآلاً . وكان ذلك آخر غرائب السفرة البحرية

صامسون

لما نزلت مع رفيقي كاظم بك الى البر استقبلنا رجال من الشرطة وغيرهم وكانوا على انتظارنا . فداروا حولي وابعدوا عني رفيقي واستبقوني وحدي في غرفة من الخشب . فمكثت فيها مدة . ثم عاد كاظم ومعه اربعة رجال من الشرطة . فاركبنا زورقاً سار بنا حتى قارب دار المتصرفية . وانما اركبوني الزورق ولم يسيروا بي في البر مجانبة لأعين الناس . فلما دخلنا المتصرفية صعدنا الى غرفة استرحنا فيها قليلاً وجاء بعد ذلك رجل صحبني الى غرفة المتصرف وكان اسمهُ حمدي بك . فاذا رجل حسن الوجه

طلقةُ . قام يتلقاني تلقي الصاحب لصاحبهِ . ثم اجلسني الى جانبهِ واظهر لي من الانس والاكرام ما لم يخطر على بالي . وسألني عن سبب نفيي . فأخبرتهُ بما انتهى اليهِ علمي . فقال :

— هذه سبيل سلكها كثيرون قبلك وليسلكنها كثيرون بعدك فلا تخف ولا تحزن . انت ذاهب الى مدينة سيواس وفيها يكون مقامك ما شاء ربك . ان طريقاً تؤدي بك الى النفي لتؤدي بك الى الخلاص منهُ . وانت في شبيبتك وميدان الامل اوسع للشبان منهُ للشيوخ . فكن جلداً واجعل املك في جانب الله ثابتاً . ولو كان في طاقتي خلاصك مما انت فيه لاغنيتك عن الصبر . غير اني استطيع ان استبقيك بصامسون ثلاثة ايام الى ان يشتد عزمك وادعك حراً تسير فيها كما تريد على ان يصحبك احد رجال الشرطة حيثما توجهت

فشكرته بما هو اهله . وقلت له : اني احب التعجيل بالسفر . فدعا بكاظم بك وكبير الشرطة وامرهما ان يفرجاني على البلدة . واوصى بي كاظم بك خيراً . فخرجت من عنده متحدثاً بمكارم اخلاقهِ

فذهبنا الى احد الخانات وطلبنا الى صاحبهِ ان يعد لنا غرفة نبيت فيها . وحين خلوت الى كاظم قلت له :

— أرأيت كيف ظهر كذبك

— اي كذب ظهر لك مني

— ألم تقل لي ونحن بالباخرة اني أُنفى الى صامسون . وقد اخبرني المتصرف اني انفى الى سيواس . ما حملك بالله على ان كذبتني . وهل صامسون احب اليَّ من سيواس . كلا البلدين انا فيهِ غريب

— لو عرفت منك ذلك لاخبرتك اليقين . غير اني خشيت عليك الكمد . فاخترت الكذب ولا فائدة لي فيهِ

— دع ذا . اني اريد ان اخبر اهلي بما انا صائر اليهِ

— لا سبيل الى ذلك . امرت أن لا ادعك تخط حرفاً على قرطاس وانت لا تحب ان يصيبني اذًى بورقة لا تعلم أتصل الى اهلك امَ لا تصل

— صبر جميل . ان لي في اسماعيل صفا لاسوة وان لي في قربه لسلوة

ثم اننا جلنا في البلدة ليلاً . وجيء برجلين من الجندرمة ناما معنا في الغرفة . فما انزاح نقاب الليل عن وجه النهار الاَّ وقد اعدت لنا عربة كعربة النعش يسمونها (يايلى) . جعلوا لنا بها ما نحتاج من فرش وغطاء فخرجت من صامسون تؤم سيواس

كتاب الى الصديق الأوفى

رفيق التلمذة

سيدي

اجلك ان يصيبك هذا القلم بسنانه . واجل هذا القلم ان يكمن في شقه الحقد او ان يثأر لي منك . لا آخذ الله من اجلي احداً . وليهنىء مبغضي ما اصابني من ضر . فهب لي من لدنك انصافاً يكون لك معواناً على قراءة كتابي هذا . لن اقاضيك الى الناس بل اقاضيك الى ذات نفسك . اما لتقضين لي عليك . حجتي عليك قائمة وما لك عليَّ من حجة انفذت فلاناً يأخذ كتاباً أنا بعثت به الى فلان . ثم جعلت ذلك

الكتاب سبباً لنفي سبعة اعوام . حتى شلت اناملي وبح صوتي وجفت ينابيع خاطري . فهلا ذكرت ان للمظلوم رباً يسمع انينه من اعماق السجون ويرى دموعه في ظلمات الليالي

هذا يراع ملكته ولا فضل عليّ فيه لغير الله الذي براه لاناملي وبراني لصريره . سيرته في خدمة امة باد اكثرها بظلم الظالم وباكيته على احرار اسكنوا الأجداث ولم يتمتعوا بالشباب . اكان عليّ في ذلك بأس ام انا صنعت ما ينبغي على الحر ان يصنعه

ليتك كنت طيب الشمائل فاحبك كما اريد ان احبك . وليت اساءتك كانت وقفاً عليّ ولم تتعدّني الى اخواني . اذن لاتخذت منك تلك الاساءة احساناً ولأقمت على ودك ما أقامت في جسمي الحياة . لست اشنأك . فاني لا اعادي انساناً . ولكن دلني على قلب احمله محبتك واكرهه على قبولك . عفا الله عنك وتجاوز لك عن حقي . ما اريد تأنيباً ولا اطلب لك شيئاً تبغضه . فلتجد عيناك بدموع تغسل عن قلبك حب الانتقام وليهدك الله مذ اليوم حتى تداوي بآتيك ما جرحت بماضيك

كاتب المعلوم والمجهول

الحمد لله كثيراً . نفست عن فؤادي هماً واغلاً . اذا صرت اقرن الى هذه النظائر العالية فقد عفوت عفو قادر . والقدرة بيد الله . لا منّ ولا سرف . غير اني ما كنت احسبني أحيا الى مثل هذا اليوم

الى سيواس

أيها الركب سر فان امامي   لبعاداً مرّاً وعيشاً أمرّا
غربة هذه وقد كنت ادري   أن سأرمى بها لدن كنت حرا
فالفحي يا رواسي الأرض ناراً   وافيضي فدافد الارض بحرا
وانفحي يا ريح الشمال سموماً   واقذفي يا سوائر الافق صخرا
أنا ارضى بذا لحب بلادي   وأرى في سبيلها الموت فخرا

ركب حثحث نجبه البين . يهوي المخارم هوي الاجدل . ويترقى الشم ترقي العقاب . تستوقفهُ الحوائل وتستطرده المسالك . ما يخلص من وحل الا يغوص في ثلج . لاخشابه صريف ولعجلاته دبيب . كذا مرّ يومنا حتى حللنا اول منزل في مكان يقال له (چقاللي) . فيممنا احد خاناته وأوينا الى غرفة من غرفه . فنزل كاظم بك ليستحضر عشاءنا . وكان الرجلان من الجندرمة صحبانا . فرأيت على حيطان الغرفة من الكتابة ما يملأ الكتب . فقمت لأقرأها . واذا هي مكتوبة بالتركية والافرنسية والرومية وغيرها من اللغات . كل من نزل ذلك الخان كتب على حيطانه شيئاً . فكلام يستعذب وكلام يمجه الذوق وكلام يضحك وكلام يبكي . ثم وقع نظري على بيتين للشاعر الجليل اسماعيل صفا . كتبا بيده بقلم الرصاص وتحتهما توقيعهُ . فخفق فؤادي طرباً ووقفت أنشدهما وهذا معناهما : مثل هذه الدار كمثل الدار الدنيا . ينزل اليها الناس ليرحلوا عنها . ما تأخذ منهم سوى زفراتهم . ولا يأخذون منها سوى حسراتهم . غير ان الراحل عن هذه قد يعاودها اما الراحل عن تلك فلن يعاودها ابداً

ثم رأيت تحت ذينك البيتين كلاماً منثوراً وهذا معناه : ما أعدى حوادث الايام . كنا نرجي ان يعيش لنا اسماعيل صفا ليكون خير خلف لنامق كمال . ولكن قضى الدهر ان ينفى الى سيواس مظلوماً وان يوسد التراب بين تلك الجبال . ولم استطع ان أقرأ توقيع الكاتب لانهُ بالغ في ابهامه

هنا ادركني من الحزن ما لا اقدر على وصفه . أ امني النفس بلقاء فاضل تحط دونه الاشباه والنظائر وحرّ كان في حريته قرة عين الوطن . ثم يقدر لي ان اسمع أنينه من الصخر الاصم ثم ينعاه اليّ من لم يعلم من امري شيئاً . ألا انني لعاثر الجد . كاذب الامل . ألا ان ريب المنون قد رمى فاصاب كبداً ما الى الحرية شيء أعز منها . ليت ذلك المكان أطت اركانه وتصدعت جوانبه وتساقطت عليّ احجاره ولم أتبين على صفحاته هـذا الخبر . جادك الغيث وأنبت ثراك اطيب الزهر يا مثوى اسماعيل صفا . وليدم ذكرك على افواه العثمانيين طيباً تتعطر بهِ الافواه وتطرب بهِ الاسماع . ان لك على الادب واهله لفضلاً . وان من حقك على ابناء وطنك ان يذكروا اياديك على وطنهم . رحمة الله عليك . رحمة الله عليك

تجلدت وكيف يتجلد من شجاه مثل شجاي . غربة وفراق أهل واولاد وروعة تستطير القلوب من الصدور . وبينا أنا في تلك الحال اذا كاظم بك داخلاً من الباب وخلفهُ الجنديان . فلما رآني مستعبراً وقف امامي باهتاً لا يدري ما يقول . فتداركتهُ بالجواب قبل سؤاله واعلمتهُ ما احدث في قلبي موت اسماعيل صفا . فقال :

— ان موت اسماعيل صفا ليس بالأمر القريب . بلى انه مات منذ عامين

— ما علمت ذلك الاّ الساعة . ولكن ناشدتك الله ما يدعوك الى كتمان الصواب عن الناس . ألم يجرِ بيننا ذكر الرجل ونحن بالباخرة . فما كان ضرك لو اخبرتني بموته اذ ذاك

— ما كان يجديك علمك بموته . اكنت قادراً على ان تبعثهُ حياً ؟ دع ذكر ما يشجيك واستبق عزمك . ان امامنا لطريقاً صعباً وسفراً بعيداً

قلت في نفسي ما اخبرني هذا الرجل خبراً الاّ ظهر لي كذبه . واخشى ان يكون كذلك ما اخبرني به عن مقامي بسيواس . هو يزعم ان لن اسجن . فاذا أنا سجنت فماذا أقدر ان اخجله به . وكان الجنديان فرغا من اعداد طعامنا . فجلسنا نتعشى وأنا صامت . وكأنّ كاظماً فطن لما أنا فيه فاختار ان يدعني وشأني . فاعجبتني منهُ فطنتهِ . وما فرغنا من الطعام والتدخين الاّ وقد اثقل النوم هاماتنا فنمنا . فما انتبهنا الاّ على اصوات المسافرين قبيل الفجر . فاخذنا اهبتنا وجاءنا جنديان غير اللذين صحبانا الى جقالي . اخذا منهما النوبة واخذنا كلنا في الطريق . وهذه اسماء المنازل التي نزلناها من لدن ان خرجنا من جقالي الى ان بلغنا سيواس . اذكرها مع طرف من تاريخ بعضها . وكنا نرحل عن المنزل الذي نبيت فيهِ قبيل الفجر ونبلغ المنزل الذي يليه اصيلاً او قبيل المغرب

(حوضة) بلدة صغيرة انيق منظرها متشاكلة بناياتها . بها حمام يستشفى بمائهِ الحار . بناه ممدوح باشا الذي كان ناظر الداخلية في اواخر ايام الاستبداد . فأجاد بناءه واحكم نظامه . ولقد دخلته واغتسلت بمائهِ .

غير اني لم أقدر على نزول حياضه لما في مياهها من الحرارة الشديدة . فانها تبلغ الدرجة الخمسين بميزان سنتيغراد

(اماسيه) هي مدينة في الشمال الغربي من سيواس . تبعد عنها خمسة وسبعين ومائة كيلومتر وفي الجنوب الغربي من صامسون . تبعد عنها اربعين ومائة كيلومتر . مكانها هو المرتفع الكائن في (٥ً ٣٩َ ٤٣) من العرض الشمالي وفي (١٥ً ٢٤َ ٣٣) من العرض الجنوبي . على يمين النهير المسمى (طوزانلي) بحيث يتلاقى به نهير (ترس آقان صو) . عدد اهلها خمسة وعشرون ألفاً . سبعمائة منهم من الأرمن ونحو المائة من الروم وما بقي فمن الترك

هذه مدينة آماسيا الشهيرة بفاكهتها وجودة ارضها وكثرة اطلالها ورسومها وآثارها ومعاهدها . وهي من المدن القديمة وفيها ولد (سترابون Strabon) وهو احد مشاهير الجغرافيين من قدماء اليونان . وولد بها السلطان سليم الثاني المعروف بياوز . وقد فتحها السلطان بايزيد الاول وانشأ بها جامعاً ومدرسة وجسرين على النهر . وكل ذلك باقٍ على جدته وروائه الى يومنا هذا . وتعلم في تلك المدرسة السلطان محمد چلبي والسلطان بايزيد الثاني

وفي اماسيا مقابر بعض الامراء من بيت الملك العثماني . ودفن بها من الملوك السلاجقة (قيلج ارسلان الاول) ومن وزرائهم (معين الدين بروانه) والشيخ حمزة والد (آق شمس الدين) وغير هؤلاء

ولما كانت اماسيا لا تبعد عن حوضة الا مسيرة ست ساعات بلغناها غير متأخرين . فكان لنا في الوقت متسع لمشاهدتها والالمام ببعض

محاسنها . على انني لم اجد فيها من المناظر ما يبعث على الطرب او يهيج ساكناً في الفؤاد . ذلك لاننا جئناها في اواخر كانون الثاني واشجارها مجردة من ورقها وارضها معراة من نبتها والوحل متراكم في طرقاتها . وكان متصرفها اذ ذاك العالم الكبير المرحوم كمال بك وهو غير نامق كمال بك الشهير . وكان منفياً اليها . فأحببنا زيارته ثم علمنا انه مريض . فزاره كاظم بك وحده

ومما اذهل عقلي اني رأيت نساء الارمن والروم في اماسيا متحجبات . يتهادينَ ساحبات مآزرهن كما تفعل نساء المسلمين . فايقنت ان المرأة العثمانية في تلك البلاد محرومة من نعم الدنيا . فتجددت لوعاتي وتضاعفت احزاني . وقلت ما قاله أبو الطيب المتنبي :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ثم عاودنا الخان الذي نزلناه فاذا جماعة من كبار المدينة جاؤا لزيارة كاظم بك لانه ابن أخي الحاج حسن باشا والي سيواس . فجعلوا يتنافسون في اكرامه والتقرب اليه . وفيمن جاءنا يومئذٍ ابناء طوبجي زاده وهم فروع بيت من بيوتات الحسب الزاكي في تلك البلاد . وقد أعدوا لنا مأدبة بلغت الغاية في بهجتها واهدونا من تفاح اماسيا المشهور شيئاً كثيراً وحملوا جانباً منه هدية للوالي . فسألني كاظم بك ان انظم بيتاً من الشعر التركي اكتبه على حائط الغرفة التي بتنا بها . فأجبته الى ما اراد وقرأه اناس كثيرون ممن قدموا بعدي سيواس واخبروني به . وكان يخيل اليّ ان سأرحل الى بلاد مثل اماسيا . هيهات . اخطأت الظن وخاب الأمل فما سارت بنا العربة الاّ بين صخور وعلى حجارة لا نستجلي عندها خضرة

ولا نرد ماءً الا كما قال الشاعر :

صرى آجن يزوي له المرء وجهه   اذا ذاقه الظمآن في شهر ناجر

(چنكل) هو منزلنا الرابع بعد خروجنا من صامسون . موضع تبصرت فيهِ فلم أرَ بيتاً ولا سكناً سوى الخان الذي نزلناه . وهو على سفح اكمة هناك . بئست دار المسافر تلك . قفر جرداء موحشة . لا يلم بساحتها طير ولا يبقل في مهادها نبت ولا يظلها سحاب ولا تهب عليها صبا ولا يسجع بها طير . بلغناها وقد بلغت الشمس مغربها . فلما فرغنا من الاستعداد لحاجات العشاء خرجت الى مكان بالطبقة العليا من الخان اريد ان اتمشى . وقد خلت ذلك المكان مستشرفاً . فاذا هو لا يشبه المستشرف فقلت : تظل انت يا عبد الحميد في قصر يلديز بين بنات الجركس . تقتل الامة وتضحك من عقول الناس وترمي بي في هذه الفجاج لأقيس لك جبال الاناضولي ووهادها . ألم تجد احداً أعلم مني بالمساحة . انك لقليل الخبرة بالهندسة

ثم دعاني كاظم بك الى المائدة ونفسي لا تشتهي الطعام . فجعلت آكل لا رغبة في الاكل بل ابقاء على قوة استعين بها على مواصلة الاسفار . فلما رفع من بين يدينا الطعام وملنا الى تلك المضاجع الخشنة طار نومي واعتادني أرق شديد . وما راعني الا جنود من البق تدب اليَّ من كل ناحية . بق غذي انواع الدماء حتى اتسع وانبسط وعادت كل واحدة منهُ كطابع البريد . تتبختر على الوسادة تبختر الفقيه في الجنازة . فقمت الى خوان في وسط الغرفة عليه مصباح ضئيل النور . واذا صاحبي كاظم قائم الى جانب النور . باحدى يديه قميصه وبيده الاخرى عود يحذف

به البق . قلت : مالك . يا رفيق الخير ؟ قال : دعني . ألا ترى ما أنا فيه ؟ قلت : لا عليك بأس . افسح لي مكاناً الى جانبك . قد صار القميص قميصين . ولئن دام لنا ما نرى خرجنا هائمين في جنح هذا الليل . ثم سكت كلانا واشتغل عن صاحبهِ بالتقاط الحشرات . ولبئس العقود عقود نظمناها تلك الليلة حتى آذنت برحيل . فما خفقت راية الشفق على قمة الجبل الاّ تبادرنا الى السائق نوقظه بالأيدي والأرجل . ثم نبهنا الجنديين الحارسين وخرجنا من الخان بعد ان دفعنا لصاحبهِ حقه . وما ادركتنا العربة الاّ وقد قطعنا شوطاً بعيداً وغصنا في الوحل والثلج الى الركب . وحين اعتدلت الشمس في عليائها تهاوت تلاع جنكل برؤوسها وحيل بينها وبين الشهود . وطاب بعد ذلك السفر فانطلقت بنا العربة تشتد في سيرها يوماً كله ميممة (توقاد) . فوافيناها في عتمة المساء

(توقاد) مدينة كائنة على مسيرة تسعين كيلومتراً من شمال مدينة سيواس وعلى الشاطئ الأيسر من نهر (توزانلي) . يبلغ عدد سكانها اربعين ألف نسمة . خمسة آلاف منهم من الأرمن وغيرهم من اخواننا المسيحيين . هذه المدينة جيدة التربة طيبة الهواء . عذب ماؤها جميم خصبها . تلتف حولها الحدائق المونقة والكروم الوافية وهي معروفة بكثرة فاكهتها وبقلها . منظفة الأسواق والشوارع . غير انها ليس بها من آثار السلف سوى حصن خرب فيه السجن المشهور في كتب التاريخ واسمه (جارطاق بدوي) . ويذهب اكثر المؤرخين الى ان توقاد من المدن القديمة وانها هي المدينة المسماة عند القدماء (بريسه) او (قومانة بونتيقة) وقد ذكر المستعصمي توقاد في معجمه . ولأهل هذه المدينة

مهارة في صنع الأواني النحاسية ونسج الحرير وتطريزه وبضاعتهم معروفة بالجودة

فلما نزلنا الخان واخذنا بعض الحظ من الراحة خرجت مع كاظم بك نريد زيارة المتصرف . وكان المتصرف رجلاً من خاصة الجراكسة اسمه بكير باشا . فاذا دار آهلة كل اهلها جراكسة وكلهم مقيمون على بدويتهم . فتلقونا على الرحب والسعة وادخلونا الى مجلس الباشا بلا استئذان . وكان بكير باشا يعرف كاظماً ولا يعرفني . فسماني له وقص عليه قصتي . فرفع الرجل موضعي واقبل يحادثني اطيب الحديث . ثم اخذ يقص على جماعة كانوا عنده بعض اخبار البيت اليكني الذي انا منه وهو في كل حديثه يثني اجمل الثناء . وقد قال للقوم . ايكون مثل هذ خائناً . ام يعاقب مثله بالنفي . فقال كاظم بك : ان والدة فلان جركسية ووالدة ابيه جركسية . فبسم لي وقال : أ صادق صاحبك قلت نعم . قال : فأنت تركي جركسي معاً . كفانا الله شرك . واخذ يلاطفني ويمازحني كأني كنت صديقه منذ القدم . ولما هممنا بالانصراف دعانا الى مأدبة اعدها لنا . كانت كأحسن ما يستطاع في ذلك المكان . وقال لكاظم بك : لن تبرحونا غداً . انكما ضيفاي . وقد اخبرت الوالي بذلك تلغرافياً فرضي . فخرجنا شاكرين . وكنت احب ان ابلغ سيواس غير متأخر لاجد حيلة في مراسلة اهلي . غير اني كرهت ان اخالف بكير باشا فأقابل احسانه بالكفران

وفي اليوم التالي طفنا توقاد وولجنا دورها ومشينا في ازقتها ورجعنا مساء الى بيت المتصرف مع رسول كان انفذه في طلبنا . فودعناه واثنينا

على بشره واكرامه . ثم اصبحنا فتوافى الوجهاء الى الخان يودعوننا ويظهرون الاسف على فراقنا . فقلت : يا عبد الحميد تريد ذلي ويريد الله عزي . دام انفك راغماً

فخرجنا من توقاد على عادتنا مبكرين والطير في وكناتها . فجعلنا نتسنم الهضاب لا يتخلل صعودنا انبساط ولا انحدار . حتى رفع لنا شامخ ذو هضبات . متصل الذرى بالسحاب . تعالتهُ تلال من الثلج كالقطن المندف . أشم . صعب المرتقى يقصر دونه الجهد وتخلّ في ترقيهِ العزائم . تتظالع فوقه الجياد والعربات كأنها تسبح في سحاب جامد . قلت لصاحبي : ما هذا الذي نرى ؟ قال :

— هذا (جاملي بل)

— ما زدتني علماً

— وما تريد ان تعلم منهُ . شاهق من شاهقات الاناضولي توسط بين (يكي خان) وبين توقاد . وستعلم ما هو حين نطلب ذروته

— وما حاجتنا الى هذا النصب . أعندنا سعة في الوقت فنضيعها بالتوقل فى هذه الجبال ؟

— ذاك ما لا بد منهُ . ففيهِ طريقنا الى (يكي خان)

وفيما نحن نتحدث اذ هبت علينا ريح صرصر نفذ بردها الى عظامنا . ثم علت في الافق غبرة حتى لخيل الينا ان ذلك الشاهق يحثو على رأسه الثلج بدلاً من التراب . فاستوقف السائق العربة ونزل عنها وراح يتأثر الطريق . فلما رجع سألناه عن الخبر . فقال : التبست المسالك ولا أدري أية أسير . فتقدم الجنديان اللذان كانا معنا بجواديهما أمام العربة

واشارا الى السائق ان يسير خلفهما . وما هي الاّ مسافة خمسين متراً في سفح الجبل . قطعناها في كد واعياء . فما راعتنا الاّ هزة كادت تستطير كل واحد من مكانه . فوثب صاحبي الى الارض وبقيت في العربة وحدي . فمالت الى جانب ميلة فتدحرجت بي الى حفرة هناك . وقد تعجلت بوثبة لم احسنها . فوقعت غائصاً برأسي في الثلج وبقيت رجلاي في الهواء . ولولا السائق والجنديان لمتُّ في موضعي مختنقاً . وما ادركوني الا بعد ان سففت الثلج سفاً . وحين فرغ رفاقي من انهاضي ونفض ثيابي اخذوا يعالجون العربة ليقيموها وهم لا يستطيعون ان يصنعوا شيئاً فتقدم الينا الجنديان يعرضان علينا جواديهما . فامتطى كاظم جواداً وامتطيت جواداً وسرنا نطلب ذروة الجبل . فلما انتهينا اليها رأينا خاناً واسعاً فيه جماعة من فرسان الجندرمة كانوا ينتظرون قدوم البريد وآخرين من المكاريين . فتلقونا وانزلونا في الخان وانطلق رجال منهم بالحبال وبالجياد الى الموضع الذي تركنا فيه رفاقنا . فجاؤا بهم وقد اضناهم ما كابدوا

اما أنا فقد سكرت بغير راح . حرارة الكانون بعد برد الثلج . هذا ما لا يطاق . وكان الذين في الخان يعلمون ما في ذلك من الضرر . فأجلسوني ورفيقي بعيداً عن الكانون . ثم اصبنا طعامنا واخذنا حظنا من الراحة ساعة او ساعتين واستأنفنا المسير . لم نستشعر ضنى ولا اعياء . شتان ما بين ارتفاع وانخفاض . أنبسطت لجيادنا الأرض وسهلت فقطعناها الى (يكي خان) وكأننا مشينا على الديباج . ولا انسى موقفي على ذروة (چاملي بل) . بين فسيل الارز وكأنه باقات زهر منتثرة على ملاءة بيضاء منشرة . نظرت الى ما حولي . تخيل اليَّ اني على روق

سحابة جامدة . ثم نظرت عند انحدارنا الى قرارة الوادي . فضاع رائد الطرف بين اختلافات الألوان والأشكال . الماء كالزجاج وجوانب الوادي كالطبق الصيني واخضر النبت واصفره كالنقش على ذلك الطبق . وقد برد الهواء حتى اصبح كقدح من البلور اكفئ علينا . فلما توارت عنا الشمس . تبدى لنا (يكي خان) . وهو قضاء اناف عليه جبل في شرقه . منعه مصابحة الشمس . صغير بارد ولكنه غير قبيح المنظر . فقضينا ليلتنا في حديث وسمر وتجددت فينا العزائم اذ كان منزلنا هذا آخر منازلنا الى سيواس . وقد شرد السرور النوم من الاجفان ولو نمنا لهنأنا نومنا ولاطمأنت جنوبنا . هنالك خانات نظيفة لانت مضاجعها وطابت حجراتها . فلا تقاس بالتي نزلناها من قبل

تطاول علينا الليل واشتد قاتمه . فأقمنا تحت سواده نتعلل بالأماني . ثم رق اديمه وخف حندسه فبدت تباشير الصباح . فنهضنا نهضة رجل واحد ورمينا بأبصارنا جادة سيواس وانطلقنا مسرعين . وبينا نحن في بعض الطريق اذ التفت صاحبي نحوي باشاً موآنساً . فقال :

— الحمد لله على السلامة . ادركنا دار المقام . وسترى من سيواس بلداً طيباً فلن تطيب لك مبارحتها . غير انني أبغض منها كثرة اشجارها . حيثما تسر في شوارعها تلق اشجاراً صفت على جانبيها حتى اشتجرت الاغصان بالاغصان واشتبكت الاوراق بالأوراق

— وتبغض مثل هذا الشكل . يا كاظم بك . أما انك لحائر القلب لا تدري ما تحب ولا ما تبغض

— أنا لا احب الشجر الكثير . على ان في سيواس اشياء تطربني

— وما هي ؟

— ملاعبها وحاناتها

— ومن اين لها ذلك ؟

— وما تعجبك ؟ ألا تعلم انك قادم على ولاية من الولايات العثمانية الكبرى ؟ ولسوف ترى من المحاسن ما يسرك . واني لخائف عليك منها ان تستهوي لبك . فخذ لها أهبتك منذ اليوم ولا تدع قلبك مجزءًا بينها

— لقد أنذرت فاعذرت . وما للشباب فيَّ بقية تنفق . ذهبت الايام بجدته ونضارته وان أنا في الحياة الا ضيف دنا أوان رحيله

والى هنا عاودنا السكوت فأخذ كل يفكر في شأنه الى ان دانينا الضيعة الحميدية المسماة (نمونه چفتلكى) وهي تبعد عن سيواس مسافة ثمانية كيلومترات . فلما رأيت باسقة الاشجار على جانبي الطريق أيقنت ان صديقي كان صادقاً في قوله . وما حاذينا مدخل الضيعة الا ألفينا عربة الوالي على انتظارنا ومعها جماعة من رجال بطانته مثل ياوره الخاص ملك افندي ومثل مأمور التلغراف الخاص . فدنوا منا وبلغونا سلام سيدهم وقدموا الينا العربة لنتحول اليها . فنزل صاحبي وآثرت البقاء مكاني اذ لم اكن على هيئة تصلح لركوب تلك العربة وسرنا ميممين سيواس . فبلغناها بعد سير استمرّ ساعة ونصفاً من الزمان

سيواس

استقبلتنا سيواس بوجه أربد . ما اجتزنا صفوف أشجارها المتكاثفة عند مدخلها الا تلقتنا أعشاشها الترابية وأزقتها الموحلة . فدارت العجلات فوق مهاد تراكمت عليها الثلوج والحجارة وتخطت حفراً لكل غوصة في احداها جهاد يستنفد الساعات ويذيب الهمم . وقد عرتني هزات ليست هزات تطرب ولا هزات تمل . انستني ما تقدم من مثلها في سفرنا كله . وكان دخولنا الى سيواس يوم الجمعة ١٤ فبراير سنة ١٩٠٢

فذهبوا بي الى مكان قالوا لي انهُ الخان . وافتقدت صاحبي فلم أجده . فامتنعت عن نزول الخان وقلت : بلغت الروح الحلقوم . لأن تقع السماء على الأرض أهون عليَّ من ان اطيعكم الى دخول السجن مرة اخرى . تكاثروا وغالبوني . لن تدخلوني حياً . فجعل القوم ينظر بعضهم في وجوه بعض ولا يفهمون ما اريد . ثم اقترب مني أحد ضباط البوليس متأدباً محتشماً وقال : ما لسيدي لا يتفضل بالنزول الى الخان ؟ قلت : ما هذا بخان . ان هذا الا سجن . قال : اذا كان هذا الخان لا يرضيك فاختر غيره ومرنا بما تريد . فنحن في خدمتك . وفيما نحن نتكلم هكذا اذ أقبل صاحب الخان واسمه (مانوق آغا) فحياني تحية تبينت فيها الصدق وعرفت من كلامه ولغته انهُ أرمني . فهدأ روعي ونزلت . وحين صعدنا الى الطبقة العليا أبصرت قوماً جلوساً يدخنون نركيلاتهم وسيكاراتهم وأمامهم كاسات القهوة والشاي . وفي صدر المكان فونوغراف يطرب

الجلوس بما يحاكي لهم من اصوات المغنين والموسيقات . ورأيت على رؤوس القوم نوعين من العمائم . واحدهما معصوب بشاش ابيض وثانيهما معصوب بشاش اسود . فسألت عن الفرق بين الشكلين . فقيل لي ان الابيض شعار المسلمين والاسود شعار الارمن . فتذكرت ما يروى عن اتخاذ بني العباس للشعار الاسود حين أظهروا دعوتهم في اواخر الدولة الاموية ولم أدرك سر هذا الفارق الجديد

وما استقر بي الجلوس على بعض تلك المقاعد الأَّ جاءني مدير البوليس (وكان يسمى سرقوميسيراً اذ ذاك) . فتلطف في التسليم وجلس الى جانبي مرحباً ومسلماً . فلما فرغنا من مطارحة الأكاذيب قلت له :

— ما شأني اليوم عندكم ؟

— أنت معاون مكتوبجي الولاية (مساعد ثان للسكرتير)

— غير انني منفي

— وما يضرك ان تكون منفياً . وانت حر غير مسجون ولا مقيد . تذهب اية شئت على شريطة ان لا تخرج عن حدود ولايتنا

فكاد فؤادي يثب سروراً واغتباطاً . وما كان سروري ولا اغتباطي الاّ بما بلغت من حريتي . فاحببت ان اظل بمكاني من الأمل ولم اشأ اكثار الاسئلة لئلا اسمع شيئاً جديداً يذهب بحلاوة ذاك الامل . وبينا انا احادث زائري واذا رسول من عند الوالي يدعوني الى داره . فكبر عليّ الامر واخجلني ما كنت مرتدياً من الملابس التي التبست طرائقها وغابت الوانها . فاعتذرت واظهرت التعب . ولكن اقبل عليّ مدير البوليس يستنشط نفسي الى الذهاب واخذ يثني على الوالي ثناءً جميلاً ويبين لي

ان عدم الاجابة يحدث بيني وبينه شراً عظيماً . فقمت مع الرسول متثاقلاً وما زلت اطوف تلك الاسواق الموحلة والناس يرمونني بأبصارهم حتى جئنا دار الوالي . فدخلناها واقبل الخدام يريدون ان ينزعوا حذائي ويقدموا لي نعلين لينتين مكانهما . فاجبت كارهاً . فلما رأوا جوربي ممزقين وقد تبدت منهما اصابع قدمي رثوا لحالي ودعوا على من رماني تلك الرمية . ثم أدخلت مكان الاستقبال وبقيت به حتى اعدت المائدة . فلما تقدمت اليها رأيت صاحبي كاظم بك ينتظرني . فجلس كلانا وجلس معنا جماعة من المستخدمين واخبرنا ان الوالي في بيته الآخر مع حرمه الصغرى وانه يريد ان يواجهنا بعد العشاء . وحين آن اوان الزيارة خرجنا وبين ايدينا الخدم بالانوار . ندع طريقاً ونأخذ في غيرها الى ان بلغنا البيت . فصعد بنا الخدم الى مجلس الوالي . فأقمنا في انتظاره . ولم يلبث ان اقبل علينا في ملابسه البيتية على عادة اهل الشرق . فتقدمت مسلماً . فعرفني بفراسته ثم التفت الى كاظم بك وقال :

— أظنهُ ضيفنا فلاناً

— نعم . هو ذاك

ثم أمرنا بالجلوس ومدَّ الينا علبته بسيكاراته . فتناولت واحدة واخذت ادخنها ساكتاً انتظر ان يبدأ بالكلام . واذا به مطرق . مفكر لا يكلمنا ولا ينظر الينا . وقد بدت على وجهه آثار الكآبة حتى لمحها كاظم ولمحتها . ثم رفع رأسه بعد استغراقتهِ واقبل يسألني عن سبب نفيي . ولما كان شرح القصة يحتاج زماناً طويلاً ويجدد شجناً كاد يتقادم لم أرَ بداً من اظهار التجاهل . فهز الرجل رأسه وقال : قاتلهم الله . وهل يقاس مثلك بمن

ينفونهم الى هذه الاقطار . ولكن لا ضير . لكل كارثة لطف من الله
يدرأوها . فاصبر وامتثل حكم ربك ما بعد الشدة الاّ الرخاء . واعلم بني انك
نازل بلداً اهله اهل دعة وسلام وايقن انني لست والياً عليك وانما أنا
ابوك . فشاورني في امورك وافزع الى الله ثم اليّ عند مخاوفك . ولا تكثر
مخالطة السفهاء من هؤلاء المنفيين الذين ستجدهم في هذا البلد . وجانب
فلاناً انه خدين الكأس . لا يعرف غيرها . وهو سيء التربية . لا يحبه
أحد من الناس . فوعدته طاعة وامتثالاً وخرجت من عنده راجعاً
الى الخان

فلما كان الغد بكر اليّ رسول الوالي . فتوجهت الى داره الأولى واذا
امين الصندوق واقف في انتظاري . فتقدم اليّ بورقة في يمناه ودراهم في
يسراه وقال : ضع توقيعك على هذا الصك واقبض هذه الدراهم . لقد
اتصل بدولة الباشا انك خالي اليد . ولكن كتب الينا من الاستانة
بتوظيفك معاوناً للمكتوبجي ولم يسموا لنا مبلغ مرتبك . فرأى الوالي ان
يصرف اليك سبعمائة قرش تنفقها في بعض حاجاتك الى ان يسمى مرتبك
في الاستانة . فوقعت للرجل على الصك وقبضت المال . وحين واجهت
الوالي امرني أن ابعث رسالة برقية الى أهلي ليعلموا مكانيَ . فكتبت الرسالة
وانتهت اليهم في غداة اليوم الثاني . واطمأنت بذا قلوبهم وعرفوا ما آل
اليه امري . وكنت اوصيت الخياط أن يصنع لي ملابس جديدة فصنع
ولبستها واصلحت من هيأتي ما امكن لي اصلاحه . فلما تهيأ لي
بعض ما اردت خرجت اريد دار الحكومة . فذهب بي الشرطة الى غرفة
السرقوميسير . فتلقاني الرجل تلقي الصاحب ونهض معي حتى ادخلني

على المكتوبجي وقدمني اليهِ . واذا رجل محبوب الطلعة باسم الوجه نحيف
الجسم ذو لحية سوادها غالب على صفرتها . فأحسن قبولي وبذل لي المودة
وأبدى لي جانب الانس والود . وبعد الاكتفاء بالحديث والتسليم قادني
الى غرفة الوالي وقدمني اليهِ على الطريقة الرسمية . وكان الى جانب الوالي
في غرفته رجل أسمر اللون أبيض الشاربين محبوب الوجه . استخبرت
عنهُ فقيل لي انهُ ارستيدي باشا معاون الوالي (هو بك اذ ذاك)

فعدنا الى غرفة المكتوبجي بعد مجلس لم يطل الا دقائق معدودة
ولحق بنا معاون الوالي . فتم التعارف بيننا على أحسن منوال . هذه
حالات توالت فيما دون الثلاثة أيام خلت بعد وصولي الى سيواس . أتت
ومضت ولا أدري ما هي . غير اني لا أجحدها فضلها . فقد كان لها
شأن يذكر في تخفيف لوعاتي . وانما سرني ان قيض الله لي مثل هؤلاء
المتحببين . افرج بهم غماء الهموم . ولو ألقت بي المشيئة بين اناس من
غلاظ القلوب وجفاة الطباع لطال شقائي . ولقد يتخلل ايام الشدائد
اويقات تكاد تنسي المرء ما يتجرعهُ من غصصها . وما ذاك الا انصاف
في الدهر يتغلب عليهِ احياناً . ولما هممت بالخروج من عند المكتوبجي
سألني ان اعاوده الى غرفته قبيل المساء اجابة الى مأدبة أعدها لي في بيته .
فأجبت شاكراً وخرجت

ما امسيت يومنا ذاك الاّ وانا في بيت المكتوبجي . فأراني ابنه
سليماً وبنته سوزان وهما كحمامي ايكة تدل نظراتهما على ذكاء موفر
وتهذيب مستمر . ثم جاء ارستيدي باشا معاون الوالي . فكنا ثلاثة على
مائدة واحدة . وكنت كلما زدت محادثة للرجلين زدت محبة لهما وأنساً بهما

وقد أُظهرا من الودّ مثل ما استشعر به فؤادي

وبينا نحن في مجلسنا وسمرنا اذا برجل له حدبة بين كتفيه كسنام البعير . تحمل رقبته رأساً كالليمونة اليابسة ركب فيها وجه كالجذع المنقلب . كله ختل بادٍ وشر كامن . قلت من هذا ؟ فقيل هذا ترجمان الولاية واسمه المسيو عمانوئيل برويستاكي . ومما زدت به علماً من صفات الرجل انه شديد الساعد مدمن للرياضة الجسمية كثير العجب بها وان الرجل كريدي الأصل وانه من ارذل الجواسيس . قلت ابعدبه . ولكن ماذا اخاف من تجسسه وانا رجل منفي مقصي . فجاء هذا الزائر غير المحبوب حتي جلس الى جانبي . غير اننا لم نلبث ان عرف كل ما سيكون له عند صاحبه . وقد سهرنا تلك الليلة سهراً طويلاً قضيناه في حديث طيب وانس قريب ثم تودعنا وخرج كل يريد منزله

وفاة الحاج حسن حلمي باشا

والي سيواس

انتبهت مبكراً غداة دعوة اسعد بك المكتوبجي . فما راعني الا أغوب خادم الاوتيل داخلاً غرفتي على غير عادته . قلت : ما وراءك ؟ قال مات الوالي . فبقيت واجماً باهتاً . لأن الرجل أمسى وليس به ما يشكيه . فزدت الخادم استيضاحاً . فأخبرني انه مات بالسكتة القلبية . قلت هذا رجل حمدت لقاءه ولم أعلم له سيرة تكسبهُ الحمد او الذم سوى ما كان يثني به عليهِ مقربوه وليس ذلك دليلاً . فان كان رجلاً أفاد الأمة خيراً

فوآسفاه على فقده وان كان امتحن جانبها بشره فالحمد لله على خلاصها منهُ . وليعوضها الله رجلاً ينهض بجناحها الكسير ويهبها من الانصاف والرأفة حاجتها

ثم أسرعت الى ثيابي فلبستها وخرجت اريد دار الوالي . فرأيت على بابها جماعات المساكين والمشائخ وغيرهم . كل فئة قائمة في انتظار ما يعنيها . فدخلت الدار واذا الناس كلهم متوافون متكاملون . وما دنا الظهر الاّ وخرجت الجنازة باحتفال لا يستحق الذكر . فشيعنا الفقيد حتى واريناه رمسه ورجعنا ونحن لا تحدث الاّ بحديث وفاته . فقص علينا الخبر من حضرها . قال انه فرغ من عشائه وجلس الى حرمه الصغرى يحادثها . ولما حان وقت نومه استلقى على مقعد هناك وسألها ان تبادر الى الخدم بطلب الطبيب . غير ان المنية سبقت ومات الرجل قبل ان يحضر

ولما كان المساء توجهت الى المأتم فجلست فيه ما استطعت ثم خرجت مع المكتوبجي وجماعة من الموظفين . فجعل بعض الحاضرين يذكرون من مساوئ الرجل ما لا يصبر حليم على سماعهِ . قلت : قد آن للكتاب المطوي ان ينشر

ثم أقبل على سيواس بكير باشا متصرف توقاد . فجعل وكيلاً للولاية وكثرت يومئذٍ الاقوال والظنون . فذهب اناس الى انه سيخلف الوالي المتوفى وزعم آخرون ان سيخلفهُ غيره . وتوالت الولائم والمأدبات احتفالاً ببكير باشا . فلم يبقَ في سيواس وجيه الاّ استقبله بدعوة الى بيته . وكنت أنا معه كالظل لا يتركني أفارقه الاّ بعد نصف الليل عند انصراف سائر رفقتهِ . وما يسفر الصباح الاّ تتسابق اليَّ رسله

ولقد لمحني يوماً مفكراً فالتفت اليَّ مزدجراً وقال لي والناس يسمعون:

— اي بني . لا تحمل نفسك هماً . انتظر حتى يقضي الله في امري بما يريد . فاذا أنا وليت سيواس احتلت لك في السعادة . فاما اخلصك من هذا النفي واما افتح في وجهك طريق الهرب الى مصر . فثقل كلامه على سمعي واوجست منهُ خيفة . ثم قدر الله ان ولي سيواس الرجل الشهم والعثماني الحر رشيد باشا عاكف ابن المرحوم عاكف باشا الشهير . فانتقضت آمال بكير وأقام يرتقب ان ينصب والياً على ولاية اخرى

وقد كثر المطالبون لحسن باشا بعد موته وتعدد المشتكون . فأبى بكير باشا ان يأذن لأهل الرجل بالسفر قبل ان يقضى دينه . وجاءت تركته بما لا يذكر من المال وظهرت في خزينة الحكومة وغيرها فضائح تداركها من عنى بها يومئذٍ . فعلمت ان هذا الوالي لم يرحم في استجلاب الكسب صغيراً ولم يوقر كبيراً . وقد بلغ من الجشع مبلغاً لم تقدر عليه وحوش الفلاة ولا نسورها

زعموا انه اشترى من بعض الفقراء قنطارين من البصل . فلما ذهب البائع الى الوكيل مقتضياً أخذ يماطله اياماً حتى عيل صبره . فلزم الغريم البائس باب الباشا الى ساعة خروجه . فتقدم نحوه ولثم طرف ثوبه ووقف خاشعاً خاضعاً يستعديه على وكيله ويطلب عطفه ورحمته . فتغير وجه الباشا واشار الى الرجل بعصاه قائلاً : ألا تستحي . ايها الرجل . ان تطالب واليك بثمن قنطارين من البصل ؟ امضِ لشأنك وتعلم التربية . ثم التفت الى من حضر من صحبه وقال : لي الله . ماذا اعاني من تقويم هذه الطباع وهي تأبى ان تقوم . وخرج بائع البصل مخزياً ومنكسراً . فاذا صحت هذه

المزاعم وما خالها الاّ صحيحة فالرجل ساقط المروءة . بعيد عن مواضع الشرف . لا يمنعني عن الشهادة له بذلك ما سبق اليَّ من تودده واكرامه . ان الخائنين يستدرجون بالمظلومين حتى يبلغوا بهم غايات التلف . ولا ثقة بود مفاجئ من غير وفي . اكثر العوادي يستنيم للفريسة وفي لهواتها دماء فريسات مضت وبين انيابها الحتف الكامن

ومما علمت من ماضي هذا الرجل انه كان والياً على الحجاز وان أهل البدو سطوا علي قناصل بعض الدول في جدة وقتلوهم وكان ذلك في ايام ولايته في نحو سنة ١٨٩٤ على ما اظن . وكانت تلك الدول وفي طليعتها الدولة البريطانية ارسلت يومئذٍ سفنها الحربية وطلبت محاكمة الباشا . ولكنه وجد سبيلاً الى الفرار ففر الى الاستانة . غير ان الحكومة العثمانية لم تجد بداً من محاكمته في مجلس خاص . فقامت عليه البينة وحكم عليه بان لا يستخدم في الحكومة ما دام حياً . ثم فرغ الى الرشوة فاستعملها فعين والياً على سيواس . وكان يأمل ان يصير ناظراً للداخلية اذا سقطت الوزارة واستغنى عبد الحميد عن ناظر الداخلية ممدوح وشيعته

زفرة من زفراتي

فؤاد دأبه الذكر وعين ملؤها عبر
ونفس في شبيبتها وجسم مسهُ الكبر
وآمـــال مضيعة ووقت كله هدر
وعيش عذبه مضض وعمر صفوه كدر
أما ياليل من صبح لمن سهروا فينتظروا

جفون الناس هاجعة   وجفني ضافه السهر
اذا سور تولت منك م   عني اقبلت سور
افانيها فتفنيني   واطويها فتنتشر
وحيداً فيك ذا حذر   يكاد يخونني الحذر
فلا كتب اسامرها   اذا ما شاقني السمر
ولا نظم ولا نثر   وقد نظموا وقد نثروا
سأقضي العمر في اسر   ويسعد بعد من اسروا
ارى سيواس تغمدني   كأني صارم ذكر
صدأت بها واحسبني   سأصدأ ما جرى العمر
أيخذلني واخواني   وينصر خصمنا القدر
فوا لهفي على سرب   تولى رعيه النمر
غدا في ارض مسغبة   جفاها النبت والشجر
قضى راعيه مذ زمن   وضلت بعده العفر

* * *

يقول احبتي صبرا   وهل في النار يصطبر
عداة الحق قد ربحوا   واهل الحق قد خسروا
ونحن امامنا وطن   نراه اليوم يحتضر
فمن يجزع فمعذور   ولكن قلّ من عذروا
فيا افق التهب حزناً   وجد بالدمع يا مطر

* * *

علام نلوم اعداء   على شر اذا قدروا

بلوناهم لدن شبوا   أننساهم اذا كبروا
نصحناهم فما انتصحوا   زجرناهم فما ازدجروا
لقد صلدت قلوبهم   كأن قلوبهم حجر

* * *

اذا ائتمروا على كيد   فانا سوف نأتمر
فمن نخشى وفوق ال   ـعرش مهما يغترر بشر
وفي الأيام متسع   وفي الاقدار مدخر
وفي الاحداث معتبر   لو ان الناس تعتبر
وهذا التاج منعفر   غداً والقصر مندثر
رويداً انها دول   تدول وبعدها أخر
يظل الحق منهزما   زمانا ثم ينتصر
سيوف الله ان سلت   فلا تبقي ولا تذر

ما كابده أهل بيتي في فروق

جاءت والدتي وامرأتي لتزوراني في السجن على جاري عادتهما . وكانت المرأتان لا تأملان ان يؤذن لهما في الوصول اليّ . ولكنهما قالتا نحتال في الأمر عسى ان نهتدي الى حيلة ننال بها طلبتنا واذا نفدت الحيل وسدت المسالك كلها فان فيما نستخبر عن حال الرجل وصحته لمقنعاً لنا . وانما وصلت السيدتان ساعة ارادت المتصرفية حملي الى الباخرة . فخشي رجال الشرطة ان يحدث من ذلك أمر يستلفت أنظار الناس . فرأوا اخراجي في غفوة من أهل بيتي . فتقدم رئيس القوميسيرية الى

السيدتين قائلاً : انتظرا المتصرف . ويوشك ان يحضر الساعة . اني لأرجو ان يأذن لكما اليوم في زيارة رجلكما . ثم رأى الخادمة حاملة ولدي البكر . فقال لها : لا تقفي في هذا المكان . اني اخاف ان يبكي الصبي فيسمع أبوه بكاءه ويعتريه حزن شديد . فذهبت الخادمة مع السيدتين الى مكان ينتظرنَ فيه قدوم المتصرف وبقين هنالك الى ان اخرجوني من سجني واركبوني العربة . وجاءت امرأة من قيمات السجن تخبر والدتي وامرأتي اني لست هناك وان الشرطة تقلتني الى باب الضبطية . فلا يسألنّ قارئ كتابي عن حال النسوة الثلاثة حين فاجأهم هذا الخبر . وقفن واجمات حائرات لا يدرين ماذا يصنعنَ

وبينا هنّ على تلك الحال من الخبال اذا احد الشرطة يتقدم نحوهنّ متخوفاً حذراً . فلما قارب مكانهنّ قال :

— ايتها السيدات . لا تضيعن وقتكنّ هدراً . بادرن الى نظارة الضبطية عسى ان تستطلعنَ خبراً او تهتدين الى طريق . ثم ابصر الشرطي رفاقاً له قادمين نحوه فاختلط بهم وانصرف عن السيدات . فلما يئسن من رحمة تتداركهنّ خرجنَ متوجهات الى الضبطية وبقين هنالك الى المغرب . ثم تكرم احد ملوك الارض فسألهنّ عما يلتمسن فلما أخبرنه ذهب عنهنّ وغاب ساعة ثم جاء يحمل دفتراً . فقرأ لهنّ اسماء كثيرة وليس بينهنّ اسمي وقال : هو لا يأتي الينا وابى ان يخبرهنّ بأكثر من ذلك . فلم يبق تدبير يحكم ولا أمل يرتقب ورجعت السيدات رجوع اليأس والحسرة

ولقد يخلق الله نفوساً تحب الخير وتستطيب مكارم الاخلاق .

وتعصف بها في هذه الحياة عواصف حتى ترمي بها في مهاوي الشقاء حيث تزدحم نفوس تعودت الشر فتبلى بتلك الصحبة الدنسة ثم تفسد جواهرها وينطفئ نورها . وهذه القرارات النارية هي بيوت الظلم التي ندعوها منازل الشرطة ودور الحكومات المستبدة . ومن كتب عليه النحس في الأزل بمخالطة هاته المواضع عرف كيف يكون الشقاء

اقامت والدتي وامرأتي خمسة عشر يوماً وهما لا تعرفان اين انا . كلما ولجتا باب كبير من الكبراء زعر منهما اهله وحاشيته . لم تجد المرأتان في عاصمة الملك ذا جاه من الرجال يحبوهما نصحاً او يعينهما على صبر سوى وفاء من بعض انصار الحرية اعلنوه بزياراتهم ومشاركتهم لهما في احزانهم . وكم من ذي رأي يومئذٍ بان الخطل في رأيه . قالوا : استعطفا السلطان . وهل يستعطف الذئب على فريسته ؟ قالوا قبلا الأيدي والاقدام . وهل مثل اهلي يشترون دمي بشرفي ؟ لقد اغناهما الله بالصبر ووهبهما الحكمة فامتثلتا امره واستنجدتا العبرات . وما أنا بعاتب على مقصر في نصرة ولا متحول عن ود . ان مواطن الهلكات لا تثبت فيها كل القلوب . ولولا اقتضاء الوصف لما كان للقارئ نظر في هذه السطور السود . اصف حال الجواسيس . بئست الخليقة تشاركنا في الحياة ولا تشاركنا في الاستشعار . اخذوا بطرفي الطريق وترصدوا باب الدار وتراؤا للزائرين في وجوه كأنها الحجارة . بردت فيها حرارة الحياة . فلا تحمر ولا تصفر بل تبقى غبراً كالحة لو ضربتها بصوانة لارتدت عنها الصوانة

وددت ان اصف بعض ما كابده أهل بيتي من الشدائد . ولكني لا اجرأ على ذلك . هذا أسف اخاف ان استعيد ذكره . اقر بالجبن عنده

وما جبنت عند خطر قبله . لقد باتت امرأتي وهي لا تجسر ان ترضع بنتنا .
تغير لبنها ومجته الرضيعة . فكانت لنا جارة من سيدات الأرمن تأتي ليلاً
فترضع الشقية بنت الشقي خلسةً ثم تعود . وكانت الباعة تجانب البيت
حذراً . ولم يبقَ محب على عهوده سوى من ذكرت في الفصول المتقدمة
وسوى الصديق الشهم حسن فؤاد باشا الجندي الحر الباسل ناظر الدروس
في المدرسة الحربيـة العثمانية وكذلك اهل بيته . غير انه لم يلبث ان اصابه
بعد ذلك ما اصابني . فنفي الى رودس وظل بها الى أن اعلن الدستور

ولما انفذت رسالتي البرقية الى أهل بيتي اطمأنت قلوبهم وعاودتهم
عقولهم فأخذوا اهبتهم وبادروا نحوي مسرعين . وكان بكير باشا لم يبرح
سيواس . فاذن لي في استقبالهم واصحبني بجندي ليكون في خدمتي . فلما
رأيت والدتي وامرأتي انكرتهما لما بدا عليهما من التغير والشحوب. ثم رجعت
معهما وبين يديّ ابني وبنتي اخفف بهما آلام الغربة . وكان هذا اللقاء
معواناً لي على احتمال النفي سبعة اعوام ولولا ذلك لم استطع تجلداً

قدوم رشيد عاكف والياً على سيواس

لما التقيت بأهلي واستصحبتهم الى سيواس ادللت على منزل للسكن
فنزلناه . بئس منزل الساكن ذاك . غرفتان في الطبقة العليا وغرفة في
الطبقة السفلى . وفي جوف ذلك البناء ظلام وهواء كله بلل . كالكهف
بل احسن منه الكهف . فما ولجنا الدار الاّ انقبضت صدورنا . غير اننا وطنا
النفوس على الصبر وقلنا : ما نحن بخالدين فيها . وعزمنا على ان نبدل عنها
بخير منها حين تستقيم الحال ونعلم مصيرنا . فامسينا وآن لنا ان نأوي الى

المضاجع . فوقفت الى جانب كوة تطل على الطريق وقد خلت من كل
عابر . فاستشعرت وجعاً في اسناني بدأ خفيفاً ثم اشتد حتى كدت اجن
به جنوناً . قلت : وهـذا هم جديد . كأن ما كابدناه لم يكن كافياً فزادنا
المرض لتتم المصائب . فاخذت قليلاً من الكونياك وجعلت اتمضمض به
تسكيناً لوجعي . فما زادنا الاّ شراً . وبقيت ليلتي تلك واقفاً او ماشياً أو
قاعداً او مضطجعاً الى ان اصبحت . فبادرت الى اجزاخانة تحت المنزل
اسأل صاحبها دواء يسكن وجعي . فأخذ يجرب عقاقيره في غير طائل .
فلما تجاوزت الشدة ذرع الصبر طلبت اليهِ ان يعطيني مقداراً من المورفين
وحقنة احقنه بها تحت اللثة . فامتنع اولاً ثم اجابني راضياً . فحقنت الدواء
وسكن الوجع واستلقيت سكران لا أحسن الكلام

هذه سكرة ما تجشمت لها سرىً ولا طرقت من اجلها حانة ولا
اجلت في طلابها كأساً . اتت عفواً حين اشتدت الحاجة اليهـا . وانها
لسكرة مات بحسرتها شيخ المعرة اذ قال :

تمنيت ان الخمر حلت لنشوة   تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فاذهل اني بالعراق على شفا   رزيء الأماني لا انيس ولا مال

اضطجعت في ناحية من الغرفة واقت استسمع شكوى من قعدوا
حولي . السيدتان في نحيب والطفلان في بكاء ولدينا زنجية كانت تشبثت
بالسيدتين ان لا تدعاها . وهي امرأة مثل زجاجة الحبر أخذت تتعهدني
بالقهوة . واني لساكت ساكن . تقع تلك الأصوات على اذنيّ وكأنها
تأتيني من جوف بئر . اسمعها ولا افهمها . وكنت اود ان لا افهمها . فتأمل
صحبي في وجهي فرأوا في الخد الأيسر ورماً يتزايد على توالي الساعات .

وما دنا المساء الاّ وأنا ذو وجهين . اشهد الله ما كنت كذلك فيما سلف من عمري . فلما تكامل الليل خف فعل المورفين واعتادني الوجع . فبادرته بحقنة ازالتهِ وأنامتني . وبقيت كذلك اياماً احمل على ايسر وجهي وجهاً ثانياً هو اكبر من الاصلي . حتى اذا كنا في بعض الأيام سمعنا اصوات الموسيقات وضجات العربات وضوضاء السوقة . فاطللنا من الكوى واذا جموع تتلوها جموع يؤمون دار الحكومة . ودار الحكومة قريبة من كهفنا نراها كل يوم ونتبين داخلها وخارجها . فانفذت آغوب الذي يخدمني في الخان وكنت استخدمتهُ عندي . فذهب ثم جاء يخبرنا ان الوالي الجديد قد حضر وان الفرمان السلطاني قرئ وان الوالي خطب الناس خطبة وعد فيها بالمساواة والعدل وان الناس مستبشرون به . قلت اهلاً به ان كان عادلاً وابعد به ان كان ظالماً . فكان وصول رشيد عاكف باشا الوالي الجديد الى سيواس بعد وصولي بشهرين على ما اذكره

فمكث هذا الأمير أياماً لا نسمع عنه بشيء جديد . وكنا نراه في بعض الأحايين يمر بباب دارنا ومعهُ اركان الولاية وخواصها . فاعجبنا ظاهر هيأته . فقد دلت على ادب غض ونفس ابية . أما ما انطوت عليه طويته فتلك مالا تكشفه الظنون ولا تصدق فيه النظرات

واني لعلى ما وصفت من السقم والسأم واذا رسول من ارستيدي باشا معاون الوالي يتعجل مصيري اليه . فاعتذرت بما أنا فيه من المرض والوهن . فقال : هو يعلم كل ما ذكرت ولابد من ذهابك معي ولو كلفك ذلك عناءً ومجهوداً . فلبست ثيابي وانطلقت مع الرجل حتى دخلت على المعاون . فلما رآني بسم اليّ واحسن لقائي . ثم اخبرني ان الوالي حدث

بحديثي . فساءه ان لم يرني وتمنى ان لو عرفني . وقال لي ادخل الآن عليه وارجع اليّ اذا خرجت من عنده . فاستأذن لي الحجاب فجاء الاذن فدخلت . فتلقاني الرجل بصدر رحب وانس قريب وود محض لا يشوبه رياء واجلسني قريباً منه . ثم اقبل عليّ يحادثني فقال :

— عز عليّ . يا فلان . ان أراك في حال تسوؤك . وقد اتاني عليك ثناء طيب ممن عرفوكِ هنا على قرب عهدك بهم وبلغت انك من بيت يكن . فنعم الحسب . أنا لا اعرف من بيتك أحداً ولكنني أجله وأحبه على الغيب . فهل لك ان تخبرني عما دعا القوم الى نفيك ؟

— هذا . يا سيدي . سر غامض لا علم لي به . بلاء دهمني ولم أكن له متوقعاً

— كلامك لا ينقع غلة المستخبر . لا تسيء بي الظن ان كنت لا تستطيع ان تحسنه . وما سألتك الاَّ لأنظر في أمرك . عسى ان أجد سبيلاً الى خلاصك وارجاعك الى ما كنت فيهِ

— ما كتمت سيدي شيئاً مما علمت . لقد دهاني خطب عرفت ورده ولم اعرف صدره

— اذن فالصبر بك أولى . واذا أنست في جانبي ثقة واطمأنت اليَّ نفسك فاطلبني تجدني عند أملك . واني لموصيك وصاة ارجو ان لا تغفل عنها . اياك والخوض في السياسة عند قوم لا تعلم حقيقتهم . ان في البلدة جواسيس رزقهم من هفوات المظلومين . لا أدري من هم اولئك السفلة . ولكنني سأحتال في معرفتهم وسأتدبر في ابعادهم من هذه الارض . واعلم انك اذا وشى بك أي واش ائمرت وشايته . وما بعد النفي

الاَّ السجن والاَّ الأغلال والاالموت . فاحذر ان تفجع بك محبيك وان تروع قلوب اهلك بمصرعك

فشكرت الأمير على هذا الكلام الذي ما أملت ان اسمعه من أحد في مثل ذلك العهد واستأذنت في الانصراف . فاذن لي . وحين ودعته بسم في وجهي وقال :

بلغني ان السيدة الوالدة معك . فقبل عني يدها ولترضني ولداً لها . فاعدت الشكر وخرجت من عنده متوجهاً الى غرفة معاون الوالي . فأجلسني وسألني عما جرى بين الوالي وبيني من الحديث . فاخبرته . فسر حتى بدا السرور على وجههِ وقال لي : اذا صدقت الفراسة فقد رزقنا خير والٍ . وكيف بك لو رأيت اعماله في الحكومة . اما لقد ملأ القلوب والعيون . أمس استدعى بعض المعممين من الموظفين فلما مثلوا بين يديه . خاطبهم وكأنه خطبهم فقال :

— دار الحكومة ليست تكية ولا مسجداً . فما هذه العمائم التي على رؤوسكم . لا انتم كالمشايخ ولا أنتم مثلنا . اثياب اوربية تعلوها عمائم ! ! هذا ما لا يكون . اما ان تستبدلوا العمائم بالطرابيش واما ان تستقيلوا . اني لا طاقة لي بمصاحبة اناس من الساقطين بين الجديد والقديم . غداً استدعيكم وأرجو ان لا أرى فيكم من يكرهني على ان أقسو عليه

قال ارستيدي باشا : فانصرف القوم وما جاؤا دار الحكومة غداً الا وعلى رؤوسهم الطرابيش . ثم ضرب الوالي ميعاداً لحضور الموظفين وتوعد كل من يتأخر منهم عن ذلك الميعاد بالعزل . فما رأينا بعد ذلك موظفاً يأتي متأخراً

قلت — يا سيدي . هذا شيء تنشرح له الصدور . فعسى ان تدوم هذه الحال وان لا يتغير لنا الرجل . فقد رأيت الناس يسمع اليهم التغير . فيصبح العادل ظالماً وينقلب المحسن مسيئاً

— ليس في الوجود محال . على ان طباع الرجل ثابتة ظاهر ثباتها . وكل اقواله وأعماله تدل على نفس حرة وشمم موروث . وما زلنا في مثل حديثنا حتى آن اوان الانصراف من الحكومة . فودعت المعاون وخرجت معاوداً بيتي . فدخلته وقد هاجت عليَّ اوجاعي وعاودني قلقي . فعمدت الى عدتي التي اسطو بها وهي حقنة المورفين . فشككت موضع الألم فسكن وسكنت وعاودني ما كنت فيه من الاستغراق . تلك حياة جديدة استفتحت بابها في سيواس ولكنها لم تطل كثيراً . فقد اتصل خبري بالوالي وارسل الى الاجزاخانات ينهاها ان تبيعني المورفين . وكان ما عندي منهُ قد نفد فامتنعت ان تبيعني شيئاً منه ولم يغنِ عني رجاء ولا اغراء بمال . فلما عاودت المنزل عمدت الى سلك من الصلب لففته على احدى ثناياي وما زلت اجذبها حتى اقتلعتها من اصلها واقتلعت معها قطعة من عظم الفك الأعلى . وقضيت ليالي ما احسبها مرت على غيري . ثم عملت عملية جراحية . فلم تنجح بل ضاعفت آلامي وزادتني وجداً على وجد

كنت دعوت طبيب الاسنان وسألته ان يتولى تلك العملية . فأخرج من جيبه سكينة مطواة غطاها الصدأ حتى لا يتبين الناظر نصلها . فتناولتها بيدي وشممتها فاذا بها رائحة الخيار . فنظرت في وجه الرجل وقلت :

— ألم تختر موضعاً تصنع فيه السلطة الأ بين فكي . فمسحها الرجل على سرواله وقال :

— هي نظيفة

— لا والله . لن ادعك تمس فمي او تدعني اطهر هذه السكين

— شأنك وما تريد

فاستحضرت قليلاً من الكحول اضرمت جانباً منه احرقت بهُ النصل ثم غسلتهُ بما بقي وامرت الرجل ان يغسل يديه امامي ففعل · ثم اسلمتهُ فكي وجلست بين يديه . فأسند رأسي على ركبتيهِ وخط على اللثة العليا بسكينهِ خطاً استشعرت به وهي تحفر في عظامي . فوثبت واقفاً دامي الثغر لا تحملني قدماي . واشرت الى الطبيب قائلاً : قم عني . لا عدت لي بعدها . فخرج من عندي الرجل متعثراً . ورأيت بعد ذلك ان انتقل من الدار التي كانت مأوى أحزاني . فا كتريت بيتاً رحباً خالص الهواء حسن المنظر وتحولت مع أهلي اليهِ . وهنالك جاءني ترجمان الولاية من قبل الوالي يخبرني بان قد جعل مرتبي خمسة عشر جنيهاً عثمانياً في الشهر . قلت : لا ضير سنصبر كرهاً اذا لم نصبر طوعاً

وقد رأى الترجمان ان يجعل هذه الزورة فاتحة للتجسس . فأخذ يقصّ عليَّ انهُ كان جاسوساً وهو تلميذ بالمدرسة وانه تجسس مراراً على عبد الرحمن بك مدير المدرسة السلطانية الكائنة في بيرا وان الرجل أحس منهُ ذلك فطرده وانه رفع أمر المدير الى السلطان مستشفعاً بعزت باشا العابد . فصدرت الارادة بقبوله في المدرسة حتى اكره المدير على ذلك اكراهاً

فقلت للرجل وقد فهمت ما يريد : وما يعنيني يا اخي . من حديثك هذا . اني امرؤ لا أحب الجواسيس ولا أجد لذة في استماع اخبارهم

— انا لست من الجواسيس الذين يتسلطون على الناس فيؤذونهم من غير داعية الى ذلك . ثم اني لا استرق احاديث أصحابي ولا اخفي عنهم شيئاً من امر تجسسي . ولكنني أوذي من يبادئني بالشر . هذا أمضى سلاح يحمله العاقل

— يا سيدي . ما بينك و بيني سابقة وداد ولا دالة . مالي انا ومهنتك وعادتك وسلاحك . انا رجل منفي مبغض الى السلطان والى كل مخلص له . دعني وما انا فيه والتمس لك غيري . فرحل عني الخبيث حاقداً واضمر لي الانتقام . و بينا انا في داري ذات يوم واذا رسول من الوالي يستقدمني اليه . فاجبت مسرعاً وادخلت عليه ساعة وصولي . فتلقاني بوجه لم آنس اليه واستدناني منه وامر ان لا يدخل علينا ثالث . ثم التفت اليَّ فقال

— ألم أقل لك . يا فلان · ان في البلدة جواسيس وان رزقهم موصول بقطع ارزاق الناس ؟

— بلى . قال سيدي ذلك

— اذن فما حملك على ان تجالس الى برويستاكي وتحادثه وتقول له : ان لديك جرائد مصرية تريد ان توزعها على الاحرار الذين بسيواس

— لم أقل شيئاً من ذلك

— انا أعلم انك لم تقل . لأن المراقبة على البريد شديدة . ولا تستطيع ان تستجلب عدداً من جريدة مصرية الا ويقع في أيدي المراقبين . ثم أعرف انك معتزل مطالعة الجرائد وانك رضيت لنفسك

العزلة عن الناس دفعاً لشرهم واتقاءً لمفترياتهم . فسرني ما عرفت من حالك ولكن ترجمان الولاية كذب عليك هذه الكذبة وقد صادفت اذناً مصدقة. فكتب اليّ بعض المقربين يسألنا عنك ويستخبرني عما زعمه الزاعم . واني سأدفع عنك كل ريب . غير اني لا أضمن لك النجاة كلما وقعت وقعة . فاحذرني ولا تقبل زيارة احد من هؤلاء

فأثنيت على مروءة هذا الامير بما استطاع لساني وخرجت من عنده وكل روحي معجبة به . وما بلغت المنزل الاّ وفي يد والدتي خطاب تقرأوه والى جانبه آخر أشارت بيدها ان خذه انه لك . فالتقطت الكتاب واذا هو من عند شقيقي يوسف حمدي يكن . فأخذت في قراءته فما راعني الاّ خطوط سود مدت على سطوره فأخفت كلماتها . فحاولت حل تلك الرموز التي نسجت عليها دار البريد نسجها الاسود . فما استطعت مضياً . فعن لي ان اضع الكتاب على لوح من الزجاج من الواح الكوى ففعلت . غير اني لم استخرج الاّ كلمات كقوله : بعض الباشاوات وعصابات مكدونيا وانهزمت العساكر . فعلمت ان شقيقي اراد اخباري بوقائع جرت في الروملي وان مراقبة البريد استطلعت ذلك فمحته . فأسفت على ما فاتني من العلم بتلك الوقائع ولكنني كتمت تأسفي وارسلت كتاباً ألوم فيه شقيقي على تعرضه لامور لا حاجة لي بها

كلمة في الاناضولي

ما اتخذت حوادث الأيام مستقراً لها مثل الاناضولي . عصفت عليها رياح الشدائد وفيها انتهت الى السكون . من عهد رمسيس او قبله . اشتدت فيها هم الفاتحين وتراخت . ما برحتها خيول الفراعنة الاّ اقبلت عليها جياد اليونان . ثم تعاقبتها الدول مثل الارمن والرومان ومن بعدهم الى ان قادت اليها المقادير بناة الملك العثماني . فانتشروا في ارجائها ولا يزال ملكهم بها قائماً

ارض ذات جبال وافلاء وكهوف واحقاف وبحار وانهار وعيون متفجرات . مترامية الاطراف لا يبلغ ذرعها ولا يسبر غورها . احدى حدائق آسيا . تفرد بالغرابة انسيها ووحشيها . منبت الغالبين والمغلوبين . مرتقى الحضارة ومهوى البداوة . تجاورت فيها شعوب مختلفات عادات والسنا . فلا كر الزمان ألف بينها ولا طول العشرة استحدث فيها توادداً . بل قطعت العصور متغايرة متنافرة حتى بات كل شعب وكأنه عدو لجاره

لم يفتحوا كنوز الأرض فيستخرجوا دفائنها ولم يستثمروها بحرث ولا بسقي فيؤتوا ارزاقهم منها . غفلوا عما يجب وانطلقوا يأكل بعضهم اكلاً

وقد كان من حق فاتحيها ان يعلموا أهلها لسانهم وان يدخلوهم فيما دخلوا فيه . فلا يأتي زماننا الاّ وقد استقر كل في قراره واصبحنا بعد ذلك وليس بيننا تنابذ بالدين ولا بالأصل . غير ان الأمر لم يكن كذلك . وليتهم اذ لم يدخلوا الايلاف بين تلك القبائل على ما ذكرت ألفوهم بتعليمهم

او بوصل الانساب بينهم . فكانت اواصر القربى أشد من الدين واللسان جذاباً . ولكنهم ما فطنوا لهذا الرأي ولو فطنوا له لقام في وجوههم جفاة المتورعين قومة رجل واحد

فاما وقد سها الماضون عن هذه الدقائق فكان على اعقابهم ان ينظروا فيها ويحكموا السياسة من وجهة أخرى . ولا ارى تدبيراً يفيد بلادنا مثل عدم المركزية . هذا رأي يفزع اكثر الساسة عند سماعه ولو اطالوا فيه النظر لبدت لهم محاسنه في أحسن الصور

سبعمائة عام مضت والاناضولي في ذمة العثمانيين . كل دولة قامت ثم وقعت تركت فيها أثراً . والدولة العثمانية وهي لا تزال قائمة لاأثر لها في بلادها . وما ذاك الاّ لان العز بالسيف عز لا بقاء لها . ولأن النجدة لا تسد خلة تحتاج الحكمة . والاسلاب والغنائم كسب المعتدي او كسب الناهب . فهي أقل بقاء من الظل . وانما يغتبط بها من اتخذ ساعده مشاوره ولم يرض صاحباً الاّ قائم السيف . واشهد اليوم اني من امة فاتحة ذات بأس ونجدة وليست بذات رأي وسياسة

لقد بلغت الدولة العثمانية في ايام سليمان القانوني اقصى غايات المجد والسؤدد . ولكنه لم يستكف له طماح . ما وقعت نظرته على بلد في الخريطة الاّ واشتهاها نفسه . ما حمله على ان يعبئ تلك الفيالق ويسير على اوروبا . قد كان له سيف ماضٍ وكان من حق ذلك السيف عليه ان لا يصدأ في غمده وكانت له كتائب تموج بصناديد الرجال وكان من حقهم عليه ان لا يتعودوا لين المضاجع . فجعل تاجه علمهم وسار بهم يطأ الخدود ويتخطى الرؤوس من معقل الى معقل ومن ساحة قتال الى ميدان ظفر

يلعب بالتيجان ويستريح في قصور الملوك حتى انثنى وفي كل شعرة من شعرات جسمه قطرة من دم

فما ضر هذا السلطان الفاتح لو اجهد هماته في اعمار بلاده ورفع المباني في مواضع الاعشاش والخيام واستنزل اهل الغارات من اعالي جبالهم واستدرج بهم في الحضارة حتى تزول عنهم جاهليتهم ويأنسوا الى الناس ويستلذوا اطايب الحياة

هذا مرام يصعب مناله على من تراخت عزائمه . اما اولئك الفاتحون ووراءهم ابطال نجدتهم والعيون ملأى منهم والصدور منطوية على هيبتهم . فلا يعجزهم طلاب ذلك . ولسنا نلومهم على ما قصروا فيه عن البلوغ مبلغ المتمدينين في ايامنا وانما نلومهم على ان لم يتأهبوا في زمانهم كمن تأهب من ملوك الغرب . ونذم من كانوا لهم مشاورين وعندهم مقربين من رجال لم يحدثوهم الاّ باحاديث الجنة والنار والحور والولدان ولم يشيروا عليهم الاّ بالجهاد وسبي النساء وجمع الاسلاب ولم يطربوهم الاّ بسير المتقدمين من جبابرة الفرس والعرب والهند واليونان . هزوا المعاطف في كبريائها وعتوها بالمدح الكاذب واعانوا على المبالغة في البذخ وعلى الافراط في التجبر . فظنت الملوك ان الرعية عبدان لهم وان ارواح الناس اليهم مرجعها وانهم اولى بالعباد منهم بأموالهم واعراضهم

وان من البلية ان تنشأ الذراري على حب الفتك والانتقام . فاذا كانت هدنة او تمادي سلم بدلوا من صهوات الجياد فرش النوم ومن بيض السيوف مترعة الاكؤس ومن مجالدة الأبطال مغازلة القيان . وان تصبح الامة كلها على ثقة من حوادث الايام . فتزعم ان لن تبدل حالها وان لن

يخلق الله غالباً لها . وان توئلف بين الكأس والدين ولا توئلف بين العقل والدين

ولاية آيدين . هي احدى ولايات الاناضولي . تستخرج في العام الواحد اكثر من الثلاثة ملايين كيلوغرام من القطن . يباع ربعه في البلاد ويرسل باقيه الى اوروبا . واكثر من المليون قنطار من العنب الذي لا بزر له والعنب المعروف بالرزاقي والعنب الاسود ويصنع من الكل الزبيب . ينتفع اهل البلاد بالقليل منه ويحمل جله بعد ذلك الى اوروبا . ويجني اهل ايدين من التين اكثر من الاربعة ملايين كيلوغرام ومن الزيتون الذي اهمل شجره ولم يلقح ما يربي ثمنه على الثلاثمائة ألف جنيه . هذا والزراعة في تلك البلاد لم يدخلها شيء من مستحدثات الفنون العصرية ولصوص (الزيبك) تقطع الطرق وتشن الاغارات على القرى والحكومة لا تحرك ساكناً والمتغلبون يسلبون كل ما وقعت عليه انظارهم

وكم بالاناضولي من بلاد كنوزها مقفلة ومفاتيحها بيد الحكومة . لا هي تفتحها ولا تأذن للامة بفتحها . هذه اركلي يستخرج منها الفحم الحجري ألوفاً من القناطير وفي طرابزون وارضروم معادن من الفحم والكهرباء الاسود (الكهرمان) لم تعمل فيها يد عامل . وفي كوشخانة وطرابزون وتوقاد من معادن الفضة والرصاص والحديد والنحاس ما لا يحصيه عد . لا تنتفع الدولة ولا ابناؤها الاّ بالقليل منها . وفي ولايتي قونيه وانقره مقادير من الملح الصخري وفي شواطئ البحر ملاّحات جمة لولا مصلحة (الديون العمومية) لاندثرت معالمها وخفيت آثارها

كان المسافر من منذ عشرين سنة سلفت يخرج في القافلة من

قيصرية الى صامسون . فيقطع في سفره اكثر من الستمائة كيلومتراً وهو في كل اوقاته مطأطئ الرأس من كثرة الأغصان . كل تلك الأرض كانت حراجاً انهارها دافقة وظلالها وارفة ووحوشها سارحة واطيارها متجاوبة . وقد اتيح لي ان أقطع نصف تلك المسافة يوم نفيت فما الفيت بين صامسون وسيواس خمسين شجرة في مكان واحد . خلا ما يعترض المسافر في مدخل توقاد وآماسيا وعلى (چاملي بل) . اصابت المعاول تلك الجذوع فأمالتها وكان منها وقود للناس وكان منها سقائف لهم . ولم يفكر أحد في غرس عود مكان شجرة اقتلعها . ولن يلبث سكان الكثير من الولايات الباردة مثل سيواس وغيرها ان يفنوا بقر الشتاء فلا يجدون وقوداً يحفظون بناره حر الحياة في اجسادهم

يعز على الحر ان تبيت هذه الاقطار الشاسعة على ما فصلت من الحال وان يظل أهلها وهم اكثر من الثمانية مليون وليس بينهم ما يزيد على المائتي ألف نفس ممن يعرفون القراءة والكتابة . وتلك معرفة لا تكشف عن البصر غطاء ولا تبعث في القلب نوراً . حفظ الناس امثالاً كقولهم القناعة كنز لا يفنى وسفينة التوكل لا تغرق وقام بينهم رجال يقولون لهم ان الدنيا دار غرور ومستودع باطل ولا عيش الا عيش الآخرة . وحببوا اليهم التواكل والخمول وبغضوا اليهم محاسن التمدين . فقالوا : هذه من اعمال الكافرين وهم أصحاب الدنيا ولا ينبغي لنا ان نتشبه بهم ولا ان نزاحمهم فيها وانهم لحاسدونا غداً في الجنة اذ نأوى الى نعيمها الخالد ويلقون هم في النار لعذاب خالد . وبذا فترت الهمم وصغرت النفوس وقلت الآمال . فترى جماعات من الناس جالسين الى اصل جدار او

مستظلين بظل شجرة يتثاءبون . حديثهم كله لغو وهذر وانسهم ذكر الغانيات وقصص الغرام وكل رجل منهم يحمل مسدساً او خنجراً وليس في بيت أحد منهم كتاب يستفيد منه

على ان اهل الاناضولي شداد شجعان اهل ذكاء يحبون الكرم وللاضياف عندهم منزلة السادة والغريب في ارضهم محمي الجانب مشفع لا يشتكي وحدة ولا يعاني هماً . وان خيرهم طباعاً واكثرهم دعة واجدهم عملاً لمن اهل القرى . اولئك يبخلون بالخبز على انفسهم ويضنون بالوثير من الفرش والغطاء على ابنائهم ويدخرون ذلك كله لضيف طارق . لا يقبلون منه اجراً ولا يسألونه شكراً ولا احدوثة عند الناس وانما يصنعون ذلك كرماً لا تكرما

كأن نوب الدهر التي تناوبتهم منذ العصور ابقيت فيهم بقية رمق حتى جاء عبد الحميد يستنفد تلك البقية . سل عليهم سيف البغي واستحل منهم كل ما حرمه شرع ولم يسمع منهم شكاية ولا انس ضجرة . بل علت من جوانب عرشه اصواتهم بالدعاء وكان منهم الجازرون وكانت منهم الاضاحي

كانت الحكومة تنفذ الفارس الواحد من فرسان الجاندرمة ليجبي لها المال من القرى فلا ينزل الاّ على ابسطهم يداً واحسنهم حياة . رجل لا يملك الاّ بقرة او بقرتين وليس له من الأرض الاّ فدان او فدانان . فيقول له : اشبع فرسي علفاً واطبخ دجاجات آكل منها ما يشبعني واتزود منها لسفري واسقني الخمر حتى اسكر وابغني مغنياً او مغنية وانظر هل عندك من المال فضلة فآخذ منها حاجتي . ثم يصبح فيطالب الرجل واهل

القرية بمال الحكومة فما يدفع له أحدهم الاّ استزاده وما يمتنع عليه احد خلة تكون اصابته الاّ ويطرحه ارضاً ويرفع السوط ويضعه من كاهله الى قدمهِ . ثم يأخذ فرشه وما ملكت يداه فيبيعهُ ويخرج من القرية خروج الملك الغالب من المعركة . ولولا اعتقاد في اولئك المساكين بان عاصي السلطان ملعون من الله والملائكة وانهم مأمورون بالطاعة له وان جار لكفت نفخة واحدة من افواههم يستطيرون بها ذلك الفارس وفرسه . ولولا هذا الجهل المخيم على عقول الأمة ما دام الحكم الحميدي ثلاثة وثلاثين عاماً

لا تزال بلاد الاناضولي الى يومنا هذا على باهليتها . لم يتغير فيها شيء . وكلما سنحت فرصة وشاءت الحكومة ان تستفيدها بمد خطوط الحديد او منح امتياز ينمي ثراء البلاد لعبت الجارات المجاورة لعبها . وحالت دون النجح . كما ظلت جارتنا العظيمة تعترض الحكومة في الخط الحديدي بين صامسون وسيواس . كل دولة تدعي لنفسها حقاً قبلنا ونحن لا نعترف بحق لواحدة منها . وربما جاء يوم تُقبل فيهِ الجموع المتغلبة علينا تطأ مقابر الآباء والاجداد وتتخذ منا عبيداً وإماء . فتقول لنا يومئذٍ انتم لا تصلحون لأن تسوسوا بل تصلحون لان تساسوا . هذه مكاتب أدخلوا فيها أبناءكم طوعاً والأ ادخلناهم كرهاً وها كم آلات الحرث والزرع فاعملوا طائعين قبل ان تعملوا مكرهين . تلك نعم يتصدقون بها علينا بعد ان ينالوا أعز شيء لدينا وهو الاستقلال . لا أحيانا الله الى مثل تلك الايام

أرض تكنفها القوقاس وبلاد التركستان والعجم وخليجهم والبحار

التي تجري فيها سفائن التجارة والاستعمار وترى منها اوروبا معقلاً في شرقها يكاد ينيف على غربها ويظل الحاكم والمحكوم مستغرقين في نوم لا تعقبهُ انتباهة ثم يدعوننا بسلام ! هذا ما لا يكون ابداً

جغرافية ولاية سيواس

سيواس هي احدى الولايات الجسام التي اختُطت في الاناضولي ينتهي شمالها الى طرابزون وشرقها الى أرضروم وجنوبها الشرقي الى معمورة العزيز وجنوبها الى حلب وأدنه وغربها الى انقره وغربها الشمالي الى قسطموني . فهي بين الدرجة الثامنة والثلاثين والدقيقة العاشرة وبين الدرجة الحادية والأربعين والدقيقة العشرين من العرض الشمالي . وشكلها شكل مثلث غير مستقيم الخطوط . وتبلغ مساحتها ٨٣٧٠٠ كيلومتر مربع . وعدد سكانها على ما جاء في احصاء سنة ١٣٢٥ هجرية هو كما يأتي

٩٦٨٧٨٦	مسلمون ومنهم الأكراد والمستوطنون من مهاجري القوقاس
١٤١٦٤٣	أرمن
٦٤٥٠١	أروام
٣٢٧٨	كاثوليك وأكثرهم من الأرمن
٤٣٣٦	بروتسانت وأكثرهم من الارمن
٢٢٩	يهود
٢١٧٣	أقباط
١١٨٥٠١٦	المجموع ستة عشر وخمسة وثمانون ومائة ألف ومليون

فاذا قسم هذا المجموع على مساحة الولاية اصاب كل كيلومتر ثلاثة عشر نفساً . وعدد الذكور ٦١٨٣٤٥ وعدد الاناث ٥٦٦٦٧١ واني لأتعجب ان يكون عدد الذكور اكثر من عدد الاناث في بلاد مثل بلادنا دائمة الفتن وشديدة الكلف بالتجنيد . وما ذاك الأمن حسن الطالع دام للأمة ابتسامه

جبال الولاية — أعظم جبال سيواس سلسلتان . احداهما تبتدئ من أدنه ممتدة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي فتقطع سيواس من جنوبها الشرقي حتى تنتهي الى جبال ارضروم . وكان القدماء يسمونها (انتي طاورس) . والاخرى تبتدئ من جبال أرضروم ممتدة غرباً بين طرابزون وسيواس . وتسمى (پونت) . وأعلى شامخات السلسلة الأولى هو جبل (قره بل) فعلوّ ذروته ٣٢٧٦ متر . أما سائر الذرى فعلوّها بين الالفين وبين الالفين والخمسمائة من الأمتار . وأشهر جبال السلسلة الثانية هو جبل (چاملي بل) وعلو ذروته ٢٥٠٠ متر وقد سبق ذكره في سياق الكلام على رحلتي الى سيواس

أنهار الولاية — في ولاية سيواس نهران هما أعظم أنهارها . اسم الاول (قيزيل ايرماق) ومعناه النهر الأحمر واسم الثاني (يشيل ايرماق) ومعناه النهر الاخضر . اما (قيزيل ايرماق) فينبع في جبل (قيزيل طاغ) الكائن بقضاء (قوچكيري) . فيجري في جنوب الولاية متجهاً الى الغرب الجنوبي منها حتى يدخل ولاية أنقرة . ثم يتدفق الى الغرب في مجرى كالقوس الكبير فيطوف حدود ولاية قونية وحدود ولاية قسطموني . ثم يعود الى الشمال الغربي لسيواس فيأخذ مجراه بينها وبين قسطموني وطرابزون.

ثم يدخل ولاية طرابزون ويظل بها باقي مجراه الى ان يختلط بالبحر . وطول (قيزيل ايرماق) ألف كيلومتر . أكثر من نصفها يجري بسيواس واما (يشيل ايرماق) فحاصل من تلاقي نهيرين . احدهما نهير (طوزانلي) ينبع في شمال جبل (كوسه) وطوله ٢٣٠ كيلومتر وثانيهما نهير (چيقريق) ينبع في (چاملي بل) وطوله ٢٢٠ كيلومتر . وانما يتلاقى النهيران بعد ان يجتازا (قاز اووه) . فيمر (يشيل ايرماق) بمدينة اماسيه فيتلاقى بالنهير المسمى (ترس آقان) ثم يقطع (طاش اووه) فيلحق به نهير (كلكيت) فيتدفق حتى ينتهي الى البحر الاسود مجتازاً بولاية طرابزون

وقد شاءت الحكومة الحميدية ان تطهر (قيزيل ايرماق) وتسير فيهِ السفن تسهيلاً للتجارة ولكنها استكثرت النفقات فرجعت الى العجز وسكتت

الهواء والصحة في الولاية — الأرض في ولاية سيواس كثيرة اختلاف المواضع صعوداً وصبوباً وماء وتربة وشكلاً وحالاً . وهذه الاختلافات تستحدث الاختلافات في الصحة . اذ لا يصح ان يكون اقليم مدينة سيواس وهي تعلو عن سطح البحر ثلاثمائة وألف متر مثل اقليم آماسيا وهي لا تعلو عن سطح البحر الا أربعمائة متر . وبعد فالولاية كلها جيدة الهواء خلا مواضع قليلة فيها . وتلك المواضع هي ولا ريب خير من ولايتي طرابزون وادنه . ولولا جهل المستوطنين وافلاس الحكومة الزائلة وخستها لخلصت البلاد من امراض كثيرة لازمتها ملازمة المستوطن . فان الحمى التيفوئيدية وحمى التيفوس لا تكفان عن الفتك . وتأتي بعدهما الحمى القرمزية ثم السل وضحاياهما قليلة ولله الحمد .

اما داء الحصاة فلا يغادر مدينة سيواس ابداً . على ان زيادة المواليد مضطردة عاماً فعاماً . فهي تزداد كل عام نحو العشرة آلاف مولود

أجل ان هنالك عظائم لا تفلح في مغالبتها المساعي . كتوالي التغيرات الهوائية في أيام الربيع وتمادي المطر اياماً كثيرة يقلع ليلاً ويغدق نهاراً ودوام الوحل والرطوبة في الطرق كلها : ولكن مضار هذه الاشياء لاتذكر اذا قيست الى ما يتولد من البرك والمستنقعات من الامراض . وتلك تسهل ازالتها بمال لا تعجز عنهُ الحكومة لو تكلفتهُ . هذا ودرجة الحرارة لا تجاوز الثمانية والثلاثين في الشتاء تحت الصفر ولا الثلاثين فوقه في الصيف

الزراعة في الولاية — ولاية سيواس هي من اكثر ولايات الاناضولي خصباً ومن اجودها تربة واحسنها مرعى . لا يجد الباحث المجد في جبالها الشامخة وسهولها المنبسطة موضعاً لا يصلح للزرع الاّ نادراً . وانما يختلف خصبها باختلاف ارضها . فما ينبت في توقاد وفي اماسيه لا ينبت في مدينة سيواس وفي (قره حصار) . تجود تلك الاراضي بما يغرس فيها من اعواد وما يلقى فيها من بذور سوى ما كان خاصاً منها بالبلاد الحارة كالتمر وما كان أليفاً بشواطئ البحار كأشجار الليمون والبرتقال والزيتون

غير ان الزراعة في سيواس مهملة اهمالاً . فلا اهلها يعنون بها ولا الحكومة ترغبهم فيها . وكم يرى السائر في أرجائها من ارض خصبة بالنبات البري تركها أصحابها عجزاً عن استثمارها . وفن الزراعة عندهم مفقود . وليس في تلك البلاد أثر للآلات التي استحدثها العصر الجديد . ولا بها شيء من معدات النقل يبعثون بهِ ثمرات أرضهم الى البلاد القاصية

على ان توقاد وآماسيه تجودان من الفاكهة بكل لذيذ طيب . فليس
على وجه الارض تفاح مثل تفاح آماسيا. وعنب توقاد مشهور يخمر نبيذاً
ويقطر عرقاً ويؤكل فلا يستنفد ولا يمل . وكرومها غاية في الحسن
والكثرة . ولكنها لم تمتع بيسير ما جاد بهِ الترقي العصري في اسلوبها

حيوانات الولاية ووحوشها واطيارها — البقر والغنم والماعز
وداجنات الطيور في الولاية كثيرة يقتنيها الموسر والمعسر . اشتريت فيها
بقرة حلوباً ومعها عجلها بثلاثمائة قرش . وفي ذلك دليل على الكثرة
والابتذال . والدجاجات والحمامات الداجنة والبرية لا يحصيها العد . لقد
كنا نبتاع الزوجين من الحمام البري بقرش واحد . وكذلك الحجل .
اما الدراج فكنا نذهب لصيده ونجهد في طلبه والبط والاوز وسائر اجناس
الطير اكثر من ان يعد . هذا مع تهافت الناس على الصيد في غير أوانه
ومع كثرة الطيور الخاطفة كالعقبان والصقور . وجبال الولاية كثيرة
الارانب والثعالب والذئاب . وانما تكثر ذئابها في الشتاء فهي تطوف
جماعات فيشتد فتكها ويعم ضررها . وفي حراج العزيزية ونيكسار من
الدب والوعل والخنزير البري ما لا يجهد قناصاً . ولأهل ولاية سيواس
كلف شديد باقتناء الخيل واكثرها من الجنس القوقاسي . وأشدهم
عناية بها وكلفاً هم المهاجرون من القوقاس (الجراكسة) . ففي قضاء
العزيزية وحده من الخيل نحو الثلاثين الف رأس . وهذه الخيل أصلب
من خيول العرب قوائم وأحمل ظهوراً واكثر صبراً على السير والجري
ولكن الخيول العربية احسن منها اشكالاً واكرم أحساباً وأسرع ركضاً
وأسلس قياداً وألين متوناً . وقلّ في الجركس رجل لا يملك جواداً او

جوادين . وقد يجد فرسان الجيش العثماني في سيواس حاجتهم من الخيل
غير انهم يجدون تربيتها صعبة المرام

التجارة والصناعة في الولاية — لو كانت ولاية سيواس متمتعة بما
تمتع بهِ بلاد الله من اسباب العمران لأفادت الدولة واستفادت . فان
أهلها ولا سيما الارمن منهم أهل جد واجتهاد لا يعرفون الملل ولا يعجزهم
شيء . وانهم مع ما بلوا بهِ من الحرمان من الآلات والادوات يصنعون
لانفسهم ما يكون لهم معواناً على الاستمرار في صناعتهم . عرفت صانعاً من
مهرة صناعها اسمه الحاج اوسكيهان . كان يصنع بنادق المارتيني والمسدسات
فتفوق ما تصنعه مصانع اوروبا . ضربت الحكومة الحميدية على يده
وقالت انت ارمني وربما أعنت قومك وأعددت لهم عدتهم من السلاح .
فكف الرجل عن البنادق والمسدسات واخذ يصنع الاقفال والكوانين
وغيرها . ثم اتهمتهُ الحكومة بضرب النقود الزائفة فصادرت آلاته
وادواته وتركتهُ يطلب قوتهُ فلا يجده . فلما أعيتهُ الحال فرّ مهاجراً الى
اميركا وبلغني بعد ذلك انهُ بات يلعب فيها بالذهب . وعرفت صانعاً آخر
اسمهُ نورادنجيان . كان لا يحتاج آلة من الآلات الاّ صنعها بنفسهِ . وله
من المصنوعات ما يتباهى بهِ كل محب للوطن . ولأهل سيواس مهارة
تذهل عندها الالباب في صنع الخناجر والمطاوي . فقد فاقوا في ذلك
على صناع شفيلد . غير ان مطاوي سيواس لا تشبه مطاوي شفيلد
حسناً ولا شكلاً . أما الخناجر الجركسية فليس في صناع الاقطار من
ينافسهم فيها

كذلك النجارة . فلقد اقتنيت من نفائس مصنوعات القوم ما لم

أرَ خيراً منهُ — ولو تهيأ لي استحضار بعضه لفعلت . ولو رأى القارئ الكريم مهارة الصياغ فيما يصوغون من الحلي ذهباً وفضة لتناهى في تعجبهِ . كل ذلك يبدعونهُ ويجيدونهُ بلا آلة تذكر سوى ما لا تخلو منهُ كف حداد شرقي من مبرد ومحفر وما ماثلهما

ومن جيد الصناعة السيواسية نسج الحرير . غير انهم لا يبدعون في اجزاءه وانماطه . اما النسيج فحسن دقيق واما الالوان فكثيرة زاهية . فلا تروج في اسواق الغرب . وأهل أماسيه وتوقاد متفردون بصناعة نسج الحرير

اما الطنافس والسجادات فقد فاقت ما يُصنع منها في بلاد الفرس جودة ورونقاً . وقلّت نسوة هنالك لا تحكمنَ نسج السجادات . هذه صناعة لا تكاد تجهلها فتاة سيواسية ولا يكاد يخلو منها بيت في سيواس . ولتلك المنسوجات منزلة في البلاد الغربية لا تسموا اليها بضاعة من بضاعات الشرق بأسره . ويبلغ عدد المصانع التي تصنع السجادات والطنافس في مدينة سيواس وضواحيها اكثر من العشرة آلاف مصنع . لا يعمل فيها الا النساء والبنات . وقد تجد نساء القرى في هذه الصناعة تسلية اذا اشتدت ايام الشتاء وطالت البطالات . والطنافس في جودتها وبهائها درجات . فالطنافس المسماة (رشوان) هي المتفردة بمنتهى الرونق . لا ينصل لها صبغ ولا يتغلب عليها القدم . ومثلها الطنافس المنسوجة بقضاء العزيزية وتسمى صارز وافشار . ودون هذه الاستار الكردية وتنسج بقرية (قرانلق) التابعة لقضاء (قانغال) وفي قرية (ايوالي دره) التابعة لقضاء (دارنده) . ودونها الطنافس المسماة (ايلبكلو) فهي وان

أشبهت نوع (رشوان) احكاماً ولكنها لا تماثلها حسناً . وهي تصنع في ناحية (ايلبكلو) ثم تأتي الطنافس المعروفة بالمشبك وتنسج في أكثر القرى التابعة (لقانغال) و (يلديز ايلي) وغيرهما

وتبقى هذه الطنافس الاخيرة منها اكثر من الخمسين عاماً . تطاؤها الاقدام وتستعمل في الخلوات على التراب وغيرها وهي لا تزداد الا جدة . وكلما تقادم عهدها كثرت قيمتها

وسجادات سيواس هي من بدائع الصنعة في هذا العصر . عرف ذلك الاجانب وادركوا رجحانها على سجادات الفرس . فاغلوا اثمانها وتنافسوا في اقتنائها وتسابقوا الى الاكثار منها . وفي سيواس مصنع اليوتي الشهير وهو شركة بين الموسيو آلبر اليوتي والموسيو بيكر والموسيو داندريا وتختلف قيمة ما يصنع من السجادت من عشرة الى خمسين جنيهاً ثمناً للسجادة الواحدة

ولا تقف المنسوجات السيواسية عند هذا القدر . بل هنالك انواع اخر من الصوف والكتان والقطن . ينالها الفقير ويعجب بها الغني ويتخذها المسافر تحفة وتهاداها الاحباب فيما بينهم . ويوم تمد خطوط الحديد بين سيواس وصامسون يسعد اهلها ويكثر رزقهم وتتجدد فيهم العزائم

المعارف في الولاية — اذا لم تكن سيواس اكثر ولايات الاناضولي جهالاً فهي من اكثرها جهالاً . ذلك بان المسلمين طبعوا على حب قديمهم فلا يريدون الجديد منه بديلاً . ولا تزال في خزانات بعض المتعصبين كتب طوت معارف هذا العصر لغوها . وينظر اولئك القوم الى ما كلف بهِ شباب هذا العصر من المعارف . فلا يجدون فيها لذة ويكرهون

تداولها بينهم . هذا شأن من في بيوتهم كتب يقرأونها : فما ظنك بمن ليس في بيوتهم الا المسدسات والا البنادق . اما المسيحيون فهم فريقان قليل من الروم وكثير من الارمن . ففريق الروم لا يفوق المسلمين في حال من الاحوال . ولا مشابهة بينهم وبين من عرفت من روم الآستانة وازمير وغيرها . وقل فيهم الغني ومن له جاه او منزلة تميزه عن غيره . وفريق الارمن بمثابة من العلم والصناعة والتجارة لا يساميهم فيها أحد . ولهم السبق في كل مضمار . ولولا ما دهمتهم به المذابح من نهب اموالهم وقتل سراتهم لبلغوا شأواً تقصر عنهُ الهمم

والأرمن قوم أولو جد ونشاط . كلفون بالعلوم لا يستكف لهم شوق ولا تفل لهم عزيمة . فهم يتسابقون الى مدارس اليسوعيين والبروتستانت والى مدارسهم الاهلية فيصيبون منها الحظ الاوفر . والمسلمون يصدون عن سبيل تلك المدارس خوفاً ان تفسد على ابنائهم دينهم . واذا خالفهم في رأيهم مخالف لجوا في الوقيعة بهِ وأطالوا اجتنابه . وكم يرى نزيل سيواس في أهل الحرف وابناء التجار من سكانها الارمن شباناً اذا تكلموا بالفرنساوية او بالانكليزية ما شك انهم تعلموها في مدارس اوروبا . وليس في ابناء الوجهاء من المسلمين خمسة يكتبون التركية ويؤدونها صحيحة . وليس في مدينة سيواس سوى مدرسة اعدادية واحدة وهي كأحسن ما رأيت من البنايات وأوسعها . وحظها من العلم كحظ الصخرة الصماء من النبت . والكتب التي تقرأ في هذه المدرسة كتب مهجورة لا يعرفها اكثر فضلاء هذا العصر . مثل كتاب المشذب في قواعد اللغة العربية . كله تصريف فعل نصر . فترى صحائفه حواشي

وانماطاً بنصر ينصر نصر منصورا منتصرا مستنصرا منصّرا متناصرا . واللغات الغربية لا يحسنها الاساتذة . والعناية بعلوم الدين بالغة منتهاها

سألت بعض المتقدمين من تلامذة تلك المدرسة أسئلة فيما يعاني من الفنون فبدا عليهِ العجز وبهت لا يجد جواباً . ثم سألتهُ عن اركان الصلاة والصوم فانطلق انطلاق الصقر من وكره . فأخذ مني التعجب . فقلت : ما بالك تحسن الجواب في هذه القواعد واذا بلغت الى غيرها غلب عليك الوجوم . فقال : هذه من امور الدين . لا يكون المسلم مسلماً الا بمعرفتها . اما تلك فليست من الدين في شيء . فاستشعرت في فؤادي حسرات على تلك الشبيبة وقلت : لقد بلغ بكم السفهاء مبلغاً لا يرجى بعده خيركم وأيقنت ان للبلاد العثمانية اياماً باقية من الشقاء لا بد لها ان تستوفيها

وفي سيواس جوامع عتيقة بها معاهد للعلم يسمونها مدارس . وهم يسمون المدارس مكاتب . وقد نحوت نحوهم في كثير من مواضع هذا الكتاب . وانما يجاور في تلك الجوامع اناس من أهل البطالة فراراً من الجندية واكتفاء من الرزق بما لا يتجشم له تعب . فاذا أفلح في علومهم أحدهم رأى في نفسه مفرد العلم وخرج في طلب الوظائف او جلس في المساجد يعظ الناس ويضل عقولهم ويميت نفوسهم بالتعصب . ولا يطهر الله البلاد العثمانية من هؤلاء القوم الا بعد سنين عديدة أقلها عصر واكثرها عصران

ومن تمام البلية ان نظارة المعارف تتخذ أساتذة مدارسها من رجال تشفع فيهم القرابات والوصايات وما يهبون لبعض رجالها من المال . فلا تختار ولا تمتحن . والتلامذة يذهبون الى مدارسهم ومعهم الاسلحة من

مسدسات وخناجر ينازل بعضهم بها بعضاً . وقد يكمنون في الطريق لمن يشدد عليهم العقاب من الاساتذة ولمن يخافونه عند الامتحان . فيخرجون عليه متوعدين ولا يفارقونه الا اذا حلف لهم الايمان المغلظة ان يراعي جانبهم . وهذه معايب ما أظن ان لها أشباهاً في سائر أقطار الارض

آثار القدماء في سيواس

سيواس هي احدى المدن التي كرت عليها العصور الخوالي وتعاقبت فيها الدول المختلفات . كل دولة قامت فيها او أقبلت عليها خلفت لنفسها آثاراً . فلما أتت دولتنا أخذت تمحو آثار سابقاتها غير مستحدثة شيئاً تبقيهِ للأجيال المنتظرة . قام آباؤنا وأسيافهم وأعنة خيلهم بايديهم يثلون العروش ويقلبون الممالك . فما ورثونا مما يورث الآباء أبناءهم الاّ اخبار وقائع خفقت بالنصر راياتها . وهذه مفاخرنا التي نساجل بها أمم الارض

ولقد مرّت بسيواس حوادث من الايام . فأقوت معالمها ودرست آياتها . تلك اغارات المتغلبين من أمم الارض . ما زالت تأتكل حتى أكلها الابد

وكان من حق سيواس ان يبقى بين أنقاضها بعض النفائس من الدمى والحجارة المنقوشة والادوات والآلات وما استعان به اهلها الاولون على مصانعة الحياة . ولكنها اليوم صفر من ذلك كله . وربما عثر المحتفرون في الارض وقطاع الصخور على تماثيل صغار من الرخام او النحاس . فيكسرونها ويفنونها . زعماً منهم ان تلك النفائس آلهة الكافرين عبدوها من دون الله . فهم يحطمونها انتقاماً منها اذ لم يتمكنوا ان ينتقموا

من أربابها . وهنالك بقايا اطلال من أيام الرومانيين مثل الجسر الروماني الكائن على مسيرة ساعة ونصف من شمالي سيواس الشرقي . وكالقبة التي في خارج المدينة على طريق صامسون وانا أحسبها بنيت بعد السيد المسيح عليهِ السلام . ومثلها الكنيسة المسماة (خوي كسان) وهي تبعد نحو الاربعة اميال عن تلك القبة . هذه آثار لم أهتدِ الى تاريخ اعوّل عليهِ في نقل اخبارها . شاهدتها مراراً في اقوائها ودثورها . فطأطأت الرأس عندها اجلالاً وأنشدت ما قال صريع الغواني

هاجت وساوسه برومة دور ... دثر عفون كأنهنّ سطورُ

ولو كانت هذه الآثار في غير بلادنا لجدد دارسها ولأعيد لها رونقها غير اننا رجال حرب ولسنا رجال عمران . ولما نظرت الى المساجد والجوامع رأيتها أقل خراباً وأبقى على حدثان الدهر . فعلمت ان الذين عنوا بها جعلوا عنايتهم للدين دون التاريخ . وها أنا ذاكر هنا بعض ما عرفت من أمر تلك المعاهد

المدرسة الشفائية — أنشأها كيكاوس الاول بن كيخسرو أحد الملوك السلاجقة . وقد جعلها مستشفى ومدرسة طبية . كما تدل عليهِ النقوش والكتابات التاريخية التي على بابها . والمدرسة بناء مستطيل الشكل في وسطه رحبة واسعة . قامت على جوانبها عمد من الصفاح تعلوها حنايا من الرخام المزين بانواع النقوش جعلت تحتها الحجرات . وقد نقش على باب المدرسة هذا الكلام بالعربية : « أمر بعمارة هذه الدار الصحية السلطان ظل الله في العالم ادام الله ايامه عز الدنيا والدين ركن الاسلام والمسلمين سلطان البرّ والبحر تاج آل سلجق ابو الفتح

كيكاوس بن كيخسرو برهان امير المؤمنين في تاريخ سنة اربع عشرة وستمائة » . وفي أعالي تلك العمد وأسافلها نقوش كأبدع ما رأته العيون . وعلى ابواب الحجرات نقوش وكتابات بأحرف بارزة تتضمن آيات قرآنية وأحاديث نبوية . وفي احدى تلك الحجرات ضريح كيكاوس بن كيخسرو باني المدرسة . قبتها ذات شكل مخروط يعلوها شيء كثير من النقوش الصينية والكتابات الكوفية . وعلى باب الضريح لوح من قطع الآجر طوله خمسة امتار وتسعون سانتيمتراً وعرضه خمسة واربعون سانتيمتراً . نقش عليه الكلام الآتي بالفسيفساء

(لقد اخرجنا من سعة القصور الى ضيق القبور يا حسرتاه ما اغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه تحقق الانتقال وتبين الرحال عن كل ما اوشك الزوال في الرابع من شهر شوال سنة سبع عشر وستمائة)

وبين هذا اللوح وأعلى الباب موضع فيهِ كثير من النقوش البارزة من الصفاح والفسيفساء . وعلى الجدار هذه الآية مكتوبة بالخط الكوفي (كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذي الجلال والاكرام صدق الله) وكتبت فوق الباب ايضاً في أقرب المواضع منهُ : (إنا لله وإنا اليهِ راجعون)

ثم ان على جهتي باب الضريح نافذتين كتب فوق اليمنى منهما (عمل استاد أحمد . . .) وهو ولا شك اسم الصانع الماهر الذي حلت يمينهُ ذاك البناء بتلك البدائع

وفي داخل حجرة الضريح أضرحة أحدها ضريح كيكاوس والأخر لا يعلم من فيها ولعلهم من أهل بيتهِ . وعلى صناديق تلك الاضرحة بقايا نقوش من الفسيفساء تدل على أنها كانت مزينة بها . ومن يدري اية يد

مدت الى هذه النفائس فاستلبتها . ولقد ذهب جماعة الى ان بأحد تلك الاضرحة جسد الأمير أوطغرل بك ابن السلطان يلديرم بايزيد خان ولكن ليس هنالك ما يؤيد ذلك

هذه المدرسة التي كان صاحبها اتخذها كلية للطب ومستشفى للمرضى حلّ بها البلاء من تيمورلنك . وقد استحفظ بما بقي منها على ما وصفت ملوك آل عثمان وجعلوها معهداً للعلوم الدينية من منذ عام ١١٨٢ وبها اليوم من الطلاب اكثر من الخمسمائة . ولها اوقاف في القرى والمزارع المجاورة لها ينفق عليها من ريعها

مدرسة چفته منـاره — اي مدرسة المنارتين . هي امام المدرسة الشفائية . وقد دلت حالتها والنقوش التي بقي قليلها على بابها وجدرانها انها كانت اعظم من المدرسة الشفائية . فان ما عليها من التجزيع والتزيين تحار فيهِ العقول . ما شئت من رونق وما شئت من محاسن . لقد رأيت من جمال ما خلف القدماء كل رائع وكل باهر . فما اجد في كل ما مرَّ بي شيئاً اقرنه الى هذه المعجزات الصناعية . شيد جانبا الباب في هذا الموضع بالاجر المرصوص احسن رصٍّ وتخلل ما بين كل آجرة وأخرى تطعيم بالصيني وبالفسيفساء وكذلك المنارتان القائمتان على جانبي الباب وصار اسمهما علماً للمدرسة

يروى ان هذه المدرسة انشئت لتكون منتجعاً لطلب رواية الحديث . وقد زين بابها بالزينة العربية وكتب عليهِ الآيات القرآنية والاحاديث بالخط الكوفي . وكتب معها هذا الكلام : (أمر بعمارة هذه المدرسة الصاحب الاعظم ملك الملوك الوزراء في العالم شمس الدنيا

والدين محمد بن محمد بن محمد صاحب الديوان خلد الله دولتهُ في سنة سبعين وستمائة) . ويؤخذ منهُ ان باني المدرسة هو احد وزراء الدولة السلجوقية

فاذا نظر المرء من الباب الى داخل البناء رأى ميداناً واسعاً فيهِ آثار غرف ودار رواية الحديث . آثار كان بعضها باقياً الى أوائل زمان عبد الحميد الثاني . ثم عفت فيما عفي في عهده . وكانت نظارة المعارف بدأت في انشاء مدرسة للصناعة بموضع من هذا الميدان ولكنها عدلت عن افتتاحهِ لاسباب لا يعلمها الاّ الله وبقي ما أنشأتهُ خاوياً على عروشهِ الى ايامنا

المدرسة البروجية — وهذه تقرب من موضع المدرستين السابقتين . وبابها مزين أحسن زينة ومحلى باجمل نقش . وعلى حيطانها آيات وأحاديث كتبت بماء الذهب ولم يتغير من بهجتها ورواُهـا شيءٌ الى اليوم . وفي داخل المدرسة ميدان رحب قامت على جوانبـه العمد الحجرية تعلوها آطار متسلسلة . يتخلل تلك الآطار مواضع الحجرات . والعمد كلها منقوشة بالآيات والاحاديث

أنشأ هذه المدرسة مظفر الدين الغازي . وضريحه على يسار الداخل من الباب . وعلى الضريح بقايا نقوش بالصيني وبالفسيفساء تدل على انه كان ملبساً بها . وهذه المدرسة هي مما أصابتـه معاول تيمورلنك . وقد كتب على الجدار القائم قبالة الداخل هذا الكلام : (بنى هذه المدرسة المباركة في ايام السلطان الاعظم غياث الدين وابو الفتح كيخسرو بن قليج ارسلان خلد الله ملكه العبد الضعيف المحتاج الى رحمة ربهِ الغفور المظفر .... غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين في شهور سنـة سبعين وستمائة)

هذا ويرى الداخل الى البناء دهليزاً صغيراً ينتهي الى رحبة هي في وسطه كما تقدم . وفوق الدهليز قبة صفت بالحجارة ثلاثة صفوف حلزونية على شكل هندسي يبهر الانظار

كوك مدرسة — ولعل المراد بلفظة كوك السماء . وهي أشد البنايات العتيقة بقاء على غير الايام ونوائب الحدثان . نقوشها ليست أدق من نقوش (جفتة مناره) ولا تقاربها رونقاً ولكنها اكثر جدة . على بابها منارتان كذلك كالتي قبلها . منقوش على أعلى بابهـا : (عمر في ايام دولة السلطان الاعظم شاهنشاه المعظم غياث الدنيا والدين كيخسرو بن قليج ارسلان خلد الله دولته) ونقش تحته : (أمر بعمارة هذه المدرسة المباركة في ايام دولة السلطان الاعظم شاهنشاه المعظم غياث الدنيا والدين كيخسرو بن قليج ارسلان خلد الله دولتـه الصاحب الاعظم الدستور المعظم أبو الخيرات والحسنات فخر الدولة والدين علي بن الحسين أحسن الله عاقبته في غرة محرم سنة سبعين وستمائة) . ونقش تحته (عمل استاد كالويان القونوي) . ويدخل الى المدرسة بدهليز تعلوه قبة بديع شكلها . ثم يتجاوز الداخل ذلك الى رحبة البناء . فيرى الجامع على يمينـه وكل حيطانه منقوشة أحسن نقش . ومحراب الجامع غاية في البهاء . والخطوط التي على الجدران مكتوبة كلها بالخط الكوفي

ان هذه المدرسة أصغر من اخواتها ولكنها أحفظ لجدتها . وكأن معاول تيمور نبت عنها فلم تحدث بها ضرراً بالغاً . وهي اليوم أعظم بنايات سيواس عمراناً

كوچك مناره — اي المنارة الصغرى . هذا اسم شائع بين العامة

لضريح عظيم هو من بقايا آثار السلجوقيين على ما يظن اكثر الناس . صلب . منيف ترتفع قبته عن الارض ستة عشر متراً . ليس عليه من النقوش والزينة ما يملأ العين . ولكنه محكم يدل ظاهره على جودة في الصناعة . ويروى ان المدفون هنالك هو من الرجال اولي الجاه والسلطان وانه نسل احدى بنات السلجوقيين واسمه (الشيخ حسن بك) . ولقد كتب على الضريح : (وفات مرحوم مغفور . . . . . سلطان شكوفة شجرة سعادت روضة مملكت شيخ حسن بك نور الله) . ولم يتسنَّ لأحد تحرير تاريخ الرجل

هذه آثار استصحبت تصاويرها معي حين غادرت سيواس . واستخرجت بيانها من التقويم الرسمي الذي وضع في ولاية الامير الحر رشيد عاكف باشا بن المرحوم عاكف باشا الشهير . وهنالك آثار جمة كالحصون التي على جبال آماسيا وتوقاد ونيكسار وغيرها . صمتت عنها كتب التاريخ . فلم اتمكن من ذكر شيء تكون فيه فائدة لقارئ هذا الكتاب

واردات ولاية سيواس ونفقاتها في سنة ١٣٢٣ مالية

واردات

غرش	نوع
٧،٤٣٥،٤٦٨	الويركو
١،٠٢١،٨٢٣	التمتع
٧،٥٧١،٠٥٣	البدل العسكري
١٦،٠٢٨،٣٤٤	المجموع

نفقات

باره	غرش	نوع
	٢،٦٢٩،٩٠٥	داخلية
	٢،٨٨٤،٥٣٧	مالية
٢٠	٤،٠٧٧،٨٧٨	ذاتية
٢٠	٩،٥٩٢،٣٢٠	المجموع

واردات

غرش	نوع
١٦،٠٢٨،٣٤٤	ما قبله
٧،٢٢٦،٥٩٠	الاغنام
٢١،٢٥٣،٩٩٣	الاعشار
٣٦،٨١٩	الاملاك الاميرية
٣٠٣،٧٨١	رسوم متنوعة
٣٦٧،٠٠٥	الحراج والاخشاب
١٠،٨٩٣	المعادن
٧٩٨،٥٥١	عوائد الطابو
٤٠٥،٧٠١	مصاريف المحاكم
٩٨٠،٩٦٣	حاصلات متفرقة
١١٧،٠٠٩	المعارف
٥٤،٩١٢	توقيفات الرواتب
٤٧،٥٨٤،٥٦١	المجموع

نفقات

باره	غرش	نوع
٢٠	٩،٥٩٢،٣٢٠	ماقبله
	٥،٠٤٦،٠٧٨	شرعية
	١١،٠٨٤،٢٤٩	عدلية
	٢،٠٧٢،٤٥٠	الويركو
	٣،١٥٣،٢٨٤	الجاندارمه
	٥٨٨،٤٣٧	البوليس
	٢،٣٤٢،٢٦٠	اسهم
	٧٥،٧٧٧	الحراج
٢٠	٣٣،٩٥٤،٨٥٥	المجموع

يتبين للقارئ الكريم اذا قابل واردات الولاية بنفقاتها ان النفقات تزيد على الواردات ١٣٦٢٩٧٠٥ غرش ونصف . وليس للمعارف في هذا القدر كله غرش واحد . هذا والدولة في أقاصي الحاجة . ووالي سيواس اذ ذاك رجل حازم شهم هو رشيد باشا عاكف . فقد وقف للسارقين والمختلسين بالمرصاد . فما وقع امرؤ منهم في يده الا أحل به العقاب الشديد . وكان لا يستثني في ذلك أحب الناس اليه . فلو نما اليه يوماً ان وحيده اختلس درهماً واحداً لما صده عن عقابه اشفاق ولا أخذته عليه رحمة

وكان رشيد باشا في اوائل ايامه قد استوثق من حكومة الآستانة

ان لا يضطرّ الى التضييق على موظفي الولاية في صرف رواتبهم . وقال ان الموظف لا رزق له الا ما يتقاضاه من أجر عمله . فاذا انقطع عنه هذا الرزق بقي حائراً بين ان يفتضح وعياله او ان يمد يده الى أموال الحكومة . واعلم رجال عبد الحميد انه لا يستطيع ان يسوس ولاية سيواس اذا لم يتقاضَ الموظفون اجورهم في اوقاتها . فاجيب الى طلبه شهوراً . ثم وضع عزت العابد طريقة المركزية . وهي ان لا تصرف الرواتب لاصحابها الا باذن يأتي الى كل ولاية من نظارة المالية . فاطال رشيد باشا شكايته ورفع الى المابين استقالته . فلم يجدِ ذلك نفعاً . وكانت الرسائل البرقية تأتي من الآستانة طالبة ارسال المال بمئات الالوف من القروش . فلا يجتمع في خزينة الولاية مقدار من المال الا ويسلم الى البنك العثماني فيحول من ساعته الى المالية . وقد خالف دفترداران في بعض الولايات أمر المالية وصرفا رواتب شهر واحد للموظفين . فعزلا لشقوتهما وحكم عليهما بان لا يوظفا في الحكومة ما عاشا . فاوقع هذا الحكم في قلب كل دفتردار رعباً لا مزيد عليه

ولقد رأت عيناي مشاهد كلما ذكرتها وجدت لها وجداً عظيماً . كنت اذا جاء آخر الشهر أذهب الى الدفتردار مطالباً بمرتبي . وكان الدفتردار صديقاً لي . فاجلسُ على كرسي أمامه وأظل أرى أفواج الداخلين والخارجين وهم يمرون بيني وبينه . بأيديهم صكوك تضاعفت متونها وحواشيها أرقاماً وتواقيع حتى أصبحت كالتمائم . يتقدم الرجل من الجماعة محتشماً متخضعاً . فيحيي الدفتردار تحية العبد لسيده ويضع صكه على المكتبة التي امام الدفتردار . فلا يلبث ان ينبذ للرجل صكه ويصيح في

وجهه : لم يأتني اذن المالية بصرف غرش واحد وقد أنفذنا طلباً ثانياً بالاذن ومتى جاء الجواب بالقبول تأخذون رواتبكم

— ومتى يأتي الاذن من المالية

— ذلك علمه عند الله

— نحن . يا سيدي . مضيقون . ديوننا كثيرة ونفقاتنا جمة . وقد مضى علينا ثلاثة أشهر لم نأخذ فيها درهماً واحداً من رواتبنا

— ان لغيركم اربعة اشهر وخمسة اشهر . وهم بعد ذلك صابرون . احمدوا الله على ما انعم بهِ عليكم . ان الموظفين في الولايات الاخرى لهم من الرواتب المتأخرة سبعة اشهر وثمانية اشهر . فانتم اليوم احسن منهم حالاً

وقد ينتهي الجدال بهذا القدر . وقد يتعداه الى الوعيد والشتم من الدفتردار والمطالب . فيتبادر الحجاب والجاندرمة . فيقودون المسكين الى الباب : وهنالك جموع من الرجال والنساء والايتام يتصايحون ويتباكون . لا يثنيهم نصح ولا يخوفهم وعيد . وكان رشيد باشا أمر بايثار هؤلاء وتقديمهم على غيرهم اذا جاء الاذن بصرف الرواتب . ولكم ازدحم فريق من الضباط عند باب الدفتردار فغلق دونهم . ثم دفعوه ودخلوا عليه يريدون ضربه . وعهدي به في ابانات تلك الشدائد يترك غرفته ويجلس في غرفة غيرها لا يظن أحد انه فيها . ولا يدل على مكانه يومئذٍ الا كل من يعرفون له ايثاراً عند الرجل

ومن غريب ما وقع لي مع هذا الرجل اني قصدت غرفته في أشد ايامي املاقاً . وكانت تأخرت لي عنده رواتب ثلاثة اشهر . فرأيت الى جانبه جماعة من كبار الموظفين يدخنون سجايرهم سكوتاً . يراقب بعضهم

بعضاً . فلما بصروا بي تناولتني اعينهم . فسلمت وجلست ناحية انتظر
تفرغاً منه . فكلمه أحد الحاضرين في راتبه . فتبسم في وجهه الدفتردار
والتفت اليّ وهو يقول :

— البك في أشد ما يعتاد المرء من الضيق . ولقد يأتيني فيرى ما
أنا فيه من الكرب فلا تطيب نفسه الى مخاطبتي في أمر راتبه . وها هو ذا
أمامك . أرأيته نطق بحرف ؟ لوددت ان يكون معي كذلك كل اصدقائي

فلما سمعت كلام الرجل أشرت اشارة الموافق على مضض . ثم
أقمت دقائق قليلة ودعته بعدها وخرجت من عنده وأنا أتعجب من
لطف حيلته في اعجازي عن المطالبة . وانما ذكرت هذه الاشياء بياناً لما
كان يأكله عبد الحميد واعوانه من مال الأمة والأمة في أشد الحاجة
اليه . وأرى ان اصلاح المالية العثمانية لا يتهيأ لنا الا بعد زمان مديد وذلك
على يد أهل العلم بالاقتصاد من الاوربيين . هذه النقائص التي استمرت
طوال الاعوام لا تغالب الا بكد ينفد فيه الصبر وتنحل فيه العزائم . ولو
التفتت الحكومة الزائلة الى حال البلاد وتبينت وجوه الفائدة لوجدت
منها كنوزاً تغني امم الارض . ولكنها عاشت تجني ولم تغرس ابداً

تلخيص الخلاصة

في تاريخ سيواس

نويت ان أتجاوز الكلام في هذا الباب الى غيره وأشرت الى ذلك
في احدى الفصول المتقدمة . ولكنني كرهت ان أخرج من كتابي
تاركاً فيهِ نقصاً لا يعذرني عليهِ من يقتنيه . وها انا اجرب سجيتي في
اجادة ما اعني بهِ . ان لديّ مظان جمة ارجع اليها في استقراء الاخبار
وبدء تاريخ سيواس لا يختلف عن غيره . ان عليهِ مسحة من الشك
لا يزيلها يقين . واني لأحاول ان اجعل منقولي اقرب الى اليقين منهُ
الى الشك

ان ولاية سيواس جانب من شمالي مملكة (قبادوكيا Cappadocia
او Cappadoce) اسمها القديم (قابيره Cabira) ولعله (كبيره) ثم
سميت (سباست Sébaste) في ايام الرومانيين . ومنه اسمها الحالي
سيواس . ذكر (استرابون) المؤرخ المولود في مدينة (آماسيا) ان
سيواس كانت في ايامه عاصمة (قبادوكيا) . وروى غيره ان (مهرداد
الثاني Mithridate II) لما فتح (قبادوكيا) انشأ لنفسه قصراً في
سيواس . وزعم بعض الرواة ان (بمبيوس Trogue Pompée او
Trogus Pompeius) القائد الروماني الشهير لما هزم مهرداد وقضى عليه
بالانتحار بدل اسم سيواس . فسماها (ديوسبوليس Diospolis) ولم اجد
ما يؤيد ذلك في كتب الثقاة

ثم تنقلت سيواس في ايدي الفاتحين من الرومانيين واليونانيين

والفرس . تمادى تنقلها على الدول من اوائل العصر الخامس قبل الميلاد الى اوائل العصر العاشر بعد الميلاد . اختارها (نيرون Néron) وتملكها (يوستنيانوس Justinien) . واستقرت في حكم طائفة من بقايا اليونانيين الى ان ظهر الغازي احمد دانشمند بن علي بن نصر في ايام الخليفة العباسي القائم بامر الله عام ١٠٤١ ميلادي . فاستأذنه في فتح بلاد الروم اي الاناضولي على شريطة أن يحكم هو كل ارض يفتحها . ففتح سيواس واتخذها عاصمة ملكه وأسس فيها الدولة الدانشمندية . وذلك في عام ١٠٤٣ بعد الميلاد

ولم أرَ في خطط سيواس ما يدل على انها (سباست) القديمة عينها ولا اظن ان المدينة الجديدة خطت مكان القديمة . فليس بها من الاطلال والرسوم ما يخبر عن القدم . واكثر الناس يذهبون الى ان مدينة (سباست) كانت على مسيرة ثلاث ساعات من شرقي سيواس على شط نهرها المشهور المسمى (قيزيل ايرمق) . وهذا القول يكاد ان يكون صحيحاً

وقد دامت الدولة الدانشمندية عصراً . وملوكها ستة . هذه أسماؤهم :

١ الغازي احمد دانشمند بن علي بن نصر (فاتح سيواس)
٢ الغازي محمد بن دانشمند
٣ ابو المظفر نظام الدين بن محمد المعروف بياغى بصان
٤ الغازي جمال الدين بن نظام الدين
٥ ابراهيم بن محمد بن دانشمند
٦ ابو الفداء اسماعيل بن ابراهيم

ولما ولي الملك ابو الفداء اسماعيل اقبل عليه عز الدين قليج ارسلان الثاني بن مسعود وهو الخامس من ملوك الدولة السلجوقية الرومية . فغزاه واخذ منه سيواس . ويروى انه جعلها عاصمة ملكه

وكان عز الدين قليج ارسلان ولى ابناءه العشر كلاً على بلد . فجعل ابنه قطب الدين على سيواس . ثم استقل بالدولة السلجوقية كيخسرو وسليمان شاه . وقد رأيت ان اذكر اسماء الملوك السلجوقيين الذين أظلوا سيواس بحكمهم . مبتدئاً بخامسهم لأنه فاتحها واول من حكمها منهم . وها هي اسماؤهم مع تواريخ ولاياتهم بالحساب الهجري :

		عام
٥	عز الدين قليج ارسلان الثاني بن مسعود	٥٥٨
٦	غياث الدين كيخسرو بن عز الدين	٥٧٨
٧	ركن الدين سليمان الثاني بن عز الدين	٥٨٠
	غياث الدين كيخسرو (ولايته الثانية)	٦٠٣
٨	عز الدين قليج ارسلان الثالث	٦٠٣
٩	عز الدين كي كاوس بن كيخسرو	٦٠٩
١٠	علاء الدين كي قباد بن كيخسرو	٦١٠
١١	غياث الدين كيخسرو الثاني بن كي قباد	٦٣٦
١٢	ركن الدين سليمان شاه بن كيخسرو الثاني	٦٤٤
١٣	غياث الدين كيخسرو الثالث بن سليمان الثالث	٦٦٤
١٤	غياث الدين مسعود الثاني بن كي كاوس بن كيخسرو الثاني	٦٨٢
١٥	علاء الدين كي قباد الثاني بن قرامرز بن كي كاوس	٦٩٧ الى ٦٩٩

وهذه الدولة السلجوقية هي التي نشرت النسل التركي في ارجاء

الاناضولي. وقد ظلت قائمة في سلطانها موالية للدولة (الايلخانية) . وعاش
ملوك السلجوقيين الذين ولوا الحكم من بعد غياث الدين كيخسرو الثاني
ينصبون ويعزلون بعهود الملوك الايلخانيين . حتى اذا ولي الملك علاء
الدين كي قباد الثاني بن قرامرز بن كي كاوس . خلع طاعة الايلخانيين .
فاقبل عليه جيش غازان محمود بن ارغون . فهزمه واعتقله في سجنه وكان
ذلك آخر العهد بالدولة السلجوقية الرومية . وبقيت آثارها من بعدها
تدل على مجد مؤثل وايام طيبة

ولما احتاز الايلخانيون سيواس رأى السلطان ابو سعيد وهو آخر
ملوكهم ان ينفذ الى سيواس والياً من ارومتهم . فاختار لها الامير الشيخ
حسن بن الامير حسين بن آق بوغا بن ايلكان بن جلاير . والشيخ حسن
هذا هو ابن اخت ارغون خان . وكان ذلك في عام ٧٣٠ . ثم توفي
السلطان ابو سعيد ولم يترك عقباً يرث ملكه . وقام امراء المملكة يقتسمونها
بينهم . فنهض الامير الشيخ حسن والي سيواس متوجهاً الى العراق
واصلاهم حرباً بعد حرب واقام الدولة (الايلكانية) او (الجلايرية) .
وكان استخلف على سيواس حين خرج في غزوته الامير (ارتنا) وهو
من امراء الجغتاي . فاحبه الناس واخلصوا له . وكان ذا رأي وسياسة .
فضم توقاد وقيصرية وارزنجان وبايبورد الى مملكة جعل سيواس
عاصمتها . ثم ولي الحكم بعده ابنه (محمد ارتنا) ثم تلاه حفيده علاء
الدين بن محمد . فدام حكمهم نحو ثلاثة وخمسين عاماً . ولما توفي علاء الدين
خطب امه وكانت ايماً رجل من متغلبي الطوائف الجنكيزية ومن علماء

التركمان اسمه احمد برهان الدين وكان قاضياً على ارزنجان . فبات حاكما
على سيواس وما يليها

ويروى ان قره عثمان وهو احد رؤساء التركمان كان مخيماً بمشتى
سيواس عام ٧٩٣ . وابى ان يدفع الخراج الذي كان يدفعه من قبل .
فسار اليه القاضي برهان الدين في جنوده وانجلى القتال عن قتل القاضي .
وقبره لا يزال على مقربة من شمالي سيواس . وله شرح سماه الترجيح على
احد الكتب العربية المسمى التلويح . وفي ابانات ذلك أخذ السلطان
(ييلديرم بايزيد) العثماني سيواس واصبحت ولاية عثمانية . فجعل ابنه
الامير ارطغرل بك والياً عليها وجعل (مصطفى بك مالقوج) محافظاً لها

فلما كان عام ٨٠٣ أقبل تيمورلنك التاتاري في خيله ورجله يطأ
العروش ويعبث بالتيجان ويقلب البلاد ويستطير الحصون . فاناخ بكلكله
على سيواس . وانها لفي روق شبابها ورونق جدتها . فصدمها صدمة
قلعت منها الأبواب ودكت الحصون وكادت ان تميد الرواسي . ولقد احتال
في فتح المعاقل حيلاً لا تخطر على فؤاد بشر . وكانت الجنود التي بها
دافعت دفاعاً أذهله . فلما صاروا في يده . قال : ليس من الرأي ان
يترك هؤلاء الشجعان . فأمر بهم فضربت أعناقهم . وقد التجأ اليهِ أكثر
من الستة آلاف من الصبيان يستأمنون وعلى جباههم المصاحف . فأمر
بهم فداستهم سنابك الخيل وهو ناظر . ثم اتصل بهِ ان بسيواس جماعة
من الكسالى . فقتلهم عن بكرة أبيهم . وقال ان الكسل مرض لا تؤمن
عدواه . وينبغي ان تطهر الارض ممن ضني بهِ . وحين فرغ من قتل
الناس وثلج بدمائهم صدره صرخ بجنده ان يوسعوا المدينة تخريباً . فا

رحل عنها الآَ وهي اطلال وأهلها ارمام

ثم طار هذا الخبر الى السلطان يلديرم بايزيد وعلم ان ابنه الامير ارطغرل بك قتل في تلك الوقعـة . فسار بجيشهِ يريد تيمور . وانهُ لفي سفره وقد خرج وحده ذات يوم يبترد بالنسيم . اذا راعي غنم ينفخ قصبة له . فهاجت لوعته وأنَّ فؤاده والتفت الى الراعي فقال : (أعد ايها الراعي أعد . أثكلت ابناً مثل طغرل . أم انهدَّ لك ركن مثل سيواس) . وحين التقى يلديرم بايزيد بتيمور . وغلبت كثرة التاتار على شجاعة العثمانيين . وقع السلطان العثماني اسيراً وفني جنوده قتلاً

ثم امتلك انقاض سيواس احد امراء الاكراد واسمه مزيد بك . وكان السلطان محمد خان چلبي فتح توقاد . فسير بايزيد باشا على مزيد بك فحاربهُ واتى السلطان بهِ اسيراً . ولقد أعجب السلطان بشجاعته وعقله . فعفا عنهُ وجعله والياً على سيواس على شريطة ان يعمرها ويستعيد رونقها . فتجددت المدينة في عثمانيتها . ودامت كذلك الى يومنا هذا

لقد حزن القلم وتجددت الشجون . فارجو القارىء ان يقيلني من الاستمرار . تلك خطوب لا اقدر ان اتولى وصفها الآَ مستعراً

اسماء الولاة والمتصرفين الذين ولوا سيواس

منذ عام ١١٩٨ بعد الهجرة

اسمــاء	تاريخ الولاية			مدة الولاية		
	يوم	شهر	عام	يوم	شهر	سنة
الوزير سيد محمد باشا	٦	م	١١٩٨	١١	٥	
الوزير سليمان باشا	١١	ج	١١٩٩	٢٢	٦	١
الوزير عبدالله باشا	١١	م	١٢٠٠	١٠	١٠	

اسمــاء	تاريخ الولاية			مدة الولاية		
	يوم	شهر	عام	يوم	شهر	سنة
الوزير عبدي باشا	١١	ذا	١٢٠٠	٢٢	١	
الوزير محمود باشا	٢٣	م	١٢٠١	٢	٣	
الوزير مقداد باشا	١٥	را	١٢٠١	٧	٧	٤
الوزير حسن باشا	١٢	ذا	١٢٠٥	٢٤	٧	١
الوزير السيد عثمان باشا	١٩	ش	١٢٠٧	١٤	١	٤
الداماد السلطانى الوزير السيد احمد باشا	١٧	ل	١٢١١	١٧	٧	١
الوزير رجب باشا	٢٢	جا	١٢١٣	١٢	٨	١
الداماد السلطـانى علاء الدين باشا ابن السيد احمد باشا	٥	ص	١٢١٥	٢٧	٢	
الوزير كوسه مصطفى باشا	٣	را	١٢١٥	١١	٧	٢
علاء الدين باشا (الولاية الثانية)	١٥	ل	١٢١٧	١٧	٩	
الوزير ابو المراق الحاج محمد باشا	٣	ش	١٢١٨	٢١	٤	
الوزير يوسف باشا	٢٥	ذ	١٢١٨	١١	١	١
الوزير محمد جلال الدين باشا	٣	ص	١٢٢٠	١٢	١١	٧
بابا ابراهيم باشا	١٥	م	١٢٢٨	٥	١	٢
محمد غالب باشا (صدر اعظم سابقاً)	٢١	ص	١٢٣١	١٤	٧	١
على باشا الجرخه جى	١٢	ن	١٢٣٢	١٤	٧	١
الوزير لطف الله باشا	١٧	ل	١٢٣٣	١٣	٦	١
الحاج محمد بهرام باشا	١	جا	١٢٣٥	١	١١	
الوزير الحاج سليمان باشا	١١	ر	١٢٣٦	١٧	٧	١
الوزير حسن باشا	٢٩	م	١٢٣٧	٣	٧	
الوزير اسماعيل حقى باشا	٣	ذا	١٢٣٧	٧	١٠	١
الوزير كوسه محمد باشا	١٢	ل	١٢٤٢	٢	٥	٤
اسماعيل باشا (الولاية الثانية)	١٥	ر	١٢٤٤	٢٦	٩	
الوزير عثمان باشا	١٢	م	١٢٤٥	١٨		
الوزير الحاج حسن باشا	٦	ص	١٢٤٥	٥		١

اسمـاء	تاريخ الولاية			مدة الولاية		
	يوم	شهر	عام	يوم	شهر	سنة
سعيد ابراهيم اغا احد بوابى المابين وكان عين محصلا	١٤	ر	١٢٤٨		١	٣
الوزير عثمان باشا (الولاية الثانية)	١٤	ر	١٢٤٨	٢٣	٩	
سعيد ابراهيم اغا محصلا (التولية الثانية)	٨	م	١٢٤٩	٥	٨	
رشيد محمد باشا (صدر اعظم سابقاً)	١٤	ن	١٢٤٩	١١	٢	
الوزير حافظ باشا	١٥	ش	١٢٥٢	١٧	٢	٢
الوزير اسعد محمد باشا	٣	ذا	١٢٥٤	٢٧	٧	١
الفريق محمـد حمدي باشا الميرميران سعيد ابراهيم باشا السيواسى (التولية الثانية)	١	ب	١٢٥٦		١٠	
الوزير عشقر باشا	١	ل	١٢٥٩		٨	
الميرميران محمد باشا	١	جا	١٢٦٠		١٠	
الوزير محمد شريف باشا	١٠	ر	١٢٦١		٨	
الميرميران محمد منيب باشا	١٠	ذ	١٢٦١	٢٦	٨	
الميرميران محمد باشا	١	جا	١٢٦٠		١٠	
الوزير محمد شريف باشا	١٠	ر	١٢٦١		٨	
الميرميران محمد منيب باشا	١٠	ذ	١٢٦١	٢٦	٨	
الوزير محمد اسعد باشا (التولية الثانية) الوزير عزت باشا	٧	ن	١٢٦٢	٢٨	٣	
الوزير عشقر باشا (التولية الثانية)	٢	م	١٢٦٣		٨	١
الميرميران عباس باشا	٣	ن	١٢٦٤	١٤	١	١
الميرميران محمد منيب باشا (التولية الثانية)	١٨	ل	١٢٦٥	١١	٨	١
الوزير محمد حمدى باشا	١	ر	١٢٦٧	٢٧	٤	٣
الوزير اسماعيل باشا	١٨	ذا	١٢٦٩	١٨	١١	
الوزير فيض الله باشا	١٧	ذا	١٢٧٠	٢١	٨	١
الوزير محمد باشا	٨	ش	١٢٧٢	١٠	٤	٣

اسمـاء	تاريخ التولية			مدة الولاية		
	يوم	شهر	عام	يوم	شهر	سنة
الوزير محمد خير الدين باشا	١٩	ذ	١٢٧٢		٥	
الميرميران الحاج احمد باشا	٢٤	جا	١٢٧٨	١٤	١١	١
الميرميران الحاج محمد زكى باشا	٩	جا	١٢٧٨	٧	٢	١
الوزير محمد رشيد باشا	٧	ل	١٢٧٩	٢٠	٦	١
الميرميران احمد باشا	٥	ر	١٢٨١	٤	٤	١
الوزير على رضا باشا	٤	ن	١٢٨٢	٢٩	٤	١
الوزير الحاج احمد عزت باشا	١	م	١٢٨٣	٢٠	٩	٤
الوزير محمد حالت باشا	٣	ن	١٢٨٨		٦	
المشير احمد اسعد باشا	٣	را	١٢٨٩	٧	٢	
الوزير محمد خورشيد باشا	٣	جا	١٢٨٩	٢٥	٨	
الوزير محمد تقى الدين باشا	٢٥	ص	١٢٩٠		١١	
الوزير الحاج احمد عزت باشا (التولية الثانية)	٦	ص	١٢٩١	١٦	١٩	٣
الوزير مصطفى ثريا باشا	٦	را	١٢٩٥	١٨	٦	١
عابدين باشا (من رجال روم ايلى بكلر بكى)	٩	ن	١٢٩٦	٢	٦	
حقى باشا ابن اسماعيل باشا من رجال رتبة روم ايلى بايه‌سى		را	١٢٩٧	١٢	١٠	١
الوزير خليل رفعت باشا	١	ر	١٢٩٧		٧	٣
الوزير عابدين باشا (التولية الثانية)	١	م	١٣٠٢	٩	٩	
الوزير سري باشا	٣	ش	١٣٠٣	١	١٠	١
الوزير سروري باشا	٣٠	ب	١٣٠٥	١٢		١
الوزير محمد ممدوح باشا	١٢	ش	١٣٠٦		١٠	٣
الوزير خليل باشا	١	ج	١٣١٠	٢٥	٥	٣
الوزير الحاج حسن حلمى باشا	٢٧	ل	١٣١٤	٣	١١	٤
الوزير رشيد عاكف باشا ابن عاكف باشا الشهير	٢٤	ذي	١٣١٩	الى ان اعلن الدستور العثمانى فعين بعد ذلك ناظراً للداخلية وهو اليوم عضو بمجلس الاعيان		

لقد استعنت في هذا التلخيص بمظان جمة اهمها (قاموس الاعلام) الذي وضعه المرحوم العلامة شمس الدين بك سامي وتقويم ولاية سيواس الرسمي الذي رتبه الفاضل الجليل رشيد عاكف باشا وقام بتحرير القسم التاريخي فيه صديقي الشاعر التركي المجيد سامح بك فتحي . وهو من احفاد علاء الدين باشا الداماد الذي تقدم ذكره في أسماء الولاة . وقد اعتمد سامح بك في اكثر رواياته التاريخية على (تقويم مسكوكات) وهو من الكتب التركية المعتبرة . وكنت أود ان ازيد هذا الفصل اسهاباً . ولكن خفت الخروج عن موضوع الكتاب

ومما أسفت له اني لم أجد كتاباً أعتمده لأنقل عنهُ شيئاً من تاريخ سيواس قبل الدولة الدانشمندية . فان الكتب الافرنجية لا تشفي غليل الباحث . وكل كلام تضمنته في سيواس موجز أشد الايجاز . والكتب العثمانية اكثر منها ايجازاً . فكان محصول الاستقصاء على قدر المستطاع لا على قدر الواجب

رجال الدين في سيواس

رجال الدين في كل أقطار الأرض حرب على الناس . فهم يبدون غير ما يخفون ويأمرون بما لا يعملون . ومنهم من صدق ايمانه وكانت سريرته كعلانيته وهم أقل من القليل . والذين اريد ذكرهم او الاشارة اليهم في هذا الفصل قوم فيهم فضل ومعرفة واوتوا فطنة ودهاء ولكن حظهم مما اوتوه أقل مما تعرضوا له من تهذيب الناس وتعليمهم . ثم غلب عليهم النفاق فاتخذوا ايمانهم ذريعة الى المال ورضاء للسلطان . والا فليست التقوى سبيلاً الى شقاوة المرء وجميل الظن بالخالق سبحانه وتعالى وعبادته لا يحملان على ايذاء خلقه . والبررة كالفجرة . لهم أنفس تشتهي وأفئدة تتطرب وأهواء تستأثر . وحسب التقي ان يكون تقياً وان يدعو الناس بلسانه الى انتهاج نهجه . لا مورطاً ولا ظالماً . والمتجاوزون حدود النصح مزاحمون للانبياء والمغالون في النسك مشاركون للمنافقين . والدين لا ينصر بالشطط ولا يخذل بالتهاون

عرفت من علماء سيواس رجلا اسمه امين افندي . هو عضو بمحكمة الجزاء الابتدائية . وكنت أغشى منزله مع صديقي وخالي امير باشا احد امراء الجراكسة بسيواس . فنأخذ في حديث الصوفية ويستعر بيننا الجدال . فكنت أجده رحب الصدر في مناظرته . صبوراً على شدائد البراهين . اذا انتهى بهِ الجدل الى العي امسك عن الاستمرار واستطرد الى ذكر ملح ونوادر يستطيبها السامعون . وكان يقول لي : ان ما بيني وبينك لمختلف جداً . أنا احاول ان أقرك على التصوف وانت تحتال في

اخراجي الى التفريج . وليس أحدنا بالغاً أربه . وكنا في بعض زياراتنا له
نستصحب علي افندي . وهو من علماء قونية . يأتي كل سنة مرة فينزل
بدار امير باشا اياماً ثم يرجع الى بلده . وكان علي افندي وعظ الناس في
الجامع . فنهاهم عن اتخاذ التماثيل والصور . وجعل يقول : ان الملائكة
لا تدخل داراً فيه صوَر . فلما حضر بعض مجالسنا عند امين افندي أصغى
الى كلامي اصغاء المتأمل . فكأن كلما انكر شيئاً سألني عليه برهاناً . حتى
اذا فرغنا وخرجنا نطلب منازلنا قال لي : لا عيب فيك سوى انك شديد
الانحراف عن السلف الصالح . فأقول اما السلف فنعم واما الصالح فلا

وقد زارني امين افندي ومعه علي افندي . فرأياني آخذاً آلة التصوير
اصوّر بها امير باشا . فقالا لي : أهذا دأبك الدهر . قلت : لا ولكنني
أتلهى بذلك حين لا أجد لهواً غيره . وسألتهما ان يجلسا معاً لأصوّرهما .
فأحجما ثم انصاعا وصوّرتهما . ولا تزال صورتهما عندي . ولما قال امير
باشا لعلي افندي أتدعه يصوّرك وانت تنهي عن اتخاذ الصوَر في البيوت ؟
قال : دعني . رأيت هذا الرجل أعرف مني بالحق . فلا يقولنّ مذ اليوم
شيئاً واخالفه فيه

ولأهل سيواس في امين افندي أقاويل يكذبونها . غيظة منه
وبغضاً له . وقد زعموا انه قال ان الله تنكر ذات ليلة . فدخل احدى
الكنائس . وأراد جبريل ان يدخل عليه في أمر عرض . فلما لم يجده
على عرشه اكبر ذلك وانطلق يفتش عليه . فرأى الله مختبئاً وراء صنم من
اصنام الكنيسة . وهذا قول لا يقوله أجهل الناس فكيف يقوله امين افندي

وقد حضرت مفتي سيواس يوماً في غرفة ارستيدي باشا معاون

الوالي . وكان ذلك في رمضان . فاخذ المفتي يقص علينا اخبار من
تقدم من الصحابة والتابعين والائمة والصالحين . ومعاون الوالي في شغل
بما بين يديه من اوراق الحكومة والمفتي يريد اليه ان يدع الاوراق
ويستمع اخباره . فقال ارستيدي باشا مازحاً : أتريد ان تضطرني الى
الدخول في الاسلام اضطراراً . فقال المفتي : كلا وانما أحب ان تسمع
هذه الملح . عسى ان تشرح صدرك للاسلام . قال ارستيدي باشا . لقد
كان الاسلام والمسلمون بخير اما اليوم فالاسلام وحده بخير . فضحك
المفتي وقال صدقت . صدقت

ومن علماء سيواس واصحاب الغلو من متعصبيها ضياء الدين افندي .
ذاك الذي كان ينهي الناس أن يزاوروني . زعماً منه ان دخول بيت فيه
تصاوير حرام . وله كتاب وضعه في تحريم الصور وتحريم اتخاذها .
وعدني اخوه ان يطلعني عليه ولم يفِ بوعده

ورأيت من علمائهم رجلاً اسمه راسخ افندي . هو احد معلمي
مدارسهم . وكان ذلك يوم تلي فرمان الوزارة التي قلدها رشيد باشا والي
سيواس . فوقف راسخ افندي بين الجموع في بهرة الحلقة التي تلي فيها
الفرمان وخطب الناس . وما زين له شيطانه الا ان يخطب بكلام
العرب . فما افتتحه بالبسملة الا رفعت الايدي وانطلقت الافواه صارخة:
آمين . آمين . فكان المشهد هكذا :

راسخ افندي — بسم الله الرحمن الرحيم
الجمع — آمين . آمين . آمين
راسخ افندي — الحمد لله

الجمع — آمين . آمين . آمين

راسخ افندي — الذي

الجمع — آمين . آمين . آمين

راسخ افندي — رفع

الجمع — آمين . آمين . آمين

راسخ افندي — السماء على

الجمع — آمين . آمين . آمين

راسخ افندي — أرضنا وأرضكم

الجمع — آمين . آمين . آمين

وكان في المستمعين رجل قريباً من موضعي . استغرقته تأملاته وتعالاه اعجاب حتى سال لعابه على لحيته . فجعل يهز عنقه هزاً عنيفاً حتى خشيت أن يقصفهُ . فقد كان عنقه رفيعاً جداً . واستمر الخطيب في خطبتهِ فاحش اللحن قبيح اللفظ سمج التأليف مشوّش الافادة اذا أومأ خلتهُ يتوعد واذا أشار خلتهُ يخطف . فلما انتهى قلت : الحمد لله

وعلماء سيواس أهل دعوى ولجاج . رأيت منهم رجالاً يزعمون انهم قرأوا (السعد) مكرراً وهم لا يعرفون من موضوعهِ شيئاً . وذهب رجل منهم الى انه يحرم على المسلم ان يدعو غير المسلم اخاه واحتج بآية (انما المؤمنون اخوة) . فقلت له أنا لا أجادل بالقرآن ولكنني اخالف الساعة عادتي وأثبت لك فساد دعواك وخطأك في تأويلك . قال

— هات ما عندك

قلت — ان في علم المعاني باباً اسمهُ باب القصر

— اعرفه

— وفي الآية قصر موصوف على صفتهِ . فهذا لا ينفي الاخاء من غير المسلمين . ولو كان فيها قصر صفة على موصوف كأن تكون انما الاخوة المؤمنون لنفي من غيرهم الاخاء

فغضب الرجل من كلامي وقال : أعوذ بالله ان يكون في علم المعاني شيء مثل هذا الكفر . وما هو الاّ اختلاق منك . وهب جدلاً ان دعواك صحيحة . أيحملني ذلك على ان أصدق علم المعاني وأكذب القرآن . فأيقنت يومئذٍ ان الرجل ممن أفرغ في رأسهِ عشرون قنطاراً قطراً . وآثرت اهماله وأنشدت قول أبي الطيب :

ومن البلية نصح من لا يرعوي   عن جهله وخطابُ من لا يفهم

هؤلاء الرجال يحللون من الأمور ما يوافق اهواءهم ويحرمون منها ما يخالف اهواءهم . يسطون على الناس بسيوف من الايمان الكاذب . فلا يثبت على لقائهم الاّ من

اذا همَّ ألقى بين عينيهِ عزمهُ   ونكب عن ذكر العواقب جانبا

فما تحكم عبد الحميد في الأمة الاّ بنصر هؤلاء . أما جنوده فاولئك منخدعون . ولقد فطنوا لذلك . فجعلوا صلواتهم وابتهالاتهم كلها وقفاً لظالم الأمة . استجلبوا له القلوب الخالية والنفوس الطامعة فوقفوا كلهم لقاء الأحرار . يكيدون لهم كيداً . وكانوا يدعون المنفيين في بلادهم اعداء الدين والدولة . وكانوا يذمون الشورى ويذمون من يدعو اليها . ولو امكنتهم غرة من الاحرار لاجتثوا اصولهم وأبادوا أعقابهم . فاذا طهرت البلاد من شر هذه الفئة راجعتها السعادة

اقيال سيواس وسراتها

اذا جلس المرء على ممر الناس وأخذ يتصفح الوجوه ويثبت الاشباه وينفيها . تهادت أمامهُ مواكب الاشباح . هنالك الصور المتحركة تبدو وتستسر . تكاد النظرات تنبو عنها . فاذا وقف القعود على جانبي الممر ورفعت الايدي الى الصدور والرؤوس . فثم سريٌّ يمر . وكل هذا التكلف اجلالاً له . والسري رجل مثلهم . وقد يكونون أجمل منه لباساً وأحسن تقويماً . يلج الجمع فيوسعون له مكان السيد . وفي خطواتهِ تثاقل ولقده تأود وكتفاه يقلهما كأنه يحمل بينهما كرة الارض . من سيدنا ؟ هو احد اعضاء مجلس الولاية . حضر الجلسة وخرج منها غير مشير برأي ولا ناطق بكلمة وهو مع ذلك يمر بالسوق ليتخير لنفسه ما اشتهت من اكل وفاكهة . فما يبلغ منزله الا ويتبادر اليـهِ الخدم يكرمون وفادته . وعلى الدواوين المرصوصة في داره أناس يشتاقونه ويعدون الساعات انتظاراً له . وبعد فتسليمة فاستراحة فطعام فكلام فتوديع فنوم . هذا احلى من قول شوقي بك :

نظرة فابتسامة فسلام   فكلام فموعد فلقاء

اذا عرف القارىء هذا السري فقد عرف كل السراة . وانما أستثني منهم آحاداً لو عاشوا في بلد غير سيواس لكانوا من الظرف والفضل بالمكان الأرفع . وهم مع ذلك لا يمل قربهم ولا يسأم حديثهم . منهم امير باشا . وقد تقدم ذكره في فصل سبق . هذا رجل داره محط رحال الكرام . سليل بيت له في المجد سابقات . وهو جركسي . ابوه المرحوم

ماهر بك . كان من امراء الاباظيين . لَحق بهِ ضيم من الحكومة فخرج عليها في جماعة من فرسانه . وقد سيرت الدولة عليهِ الجنود فهزمها وأعجزها طلبه وأخذ عليها الدروب والمسالك . فاذا لاح له البريد أقبل عليهِ في أعوانه فاستاقهُ وفرق ما غنمهُ على أهل القرى وعلى رجاله ولم يبقِ لنفسه منـهُ شيئاً . فلما عم اذاه واشتدت على الناس وطأته أرسلت عليهِ الدولة عدداً كبيراً من المقاتلة . فما زالوا يطاردونه الى ان دخل في ولاية قسطموني واختفى هنالك ولم يعلم من خبره شيء الى يومنا هذا . غير ان كثيراً من أشيـاخ الجركس يزعمون ان الجنود ظفروا به في بعض المواضع فقاتلهم حتى قتل وقتل معهُ اكثر رجاله وانهزم الباقون

ولامير باشا أشياع وأنصار جلهم من الجركس يفضون اليه بحاجاتهم ويتقاضون الى حكمـه في خصوماتهم . وله أعداء من قومه ومن غيرهم يترقبون الفرص لاتلاف نفسه وينصبون له حبائل المكايد . فحياته حياة حذر . اذا غفل عنهم طرفة حين حل به كيدهم

وكانت بين امير باشا وبيني مودة مؤكدة . ثم هو من أقارب والدتي وكنت اناديه ياخال فرأيت من اخلاصه ونصحـه ما لا أنساه مدى الدهر . أقمنا على ذلك سبعة أعوام لا نختلف في شيءٍ . سوى انه كان يزعم انهُ اسد مني رماية وكنت أزعم ضد ذلك . فنخرج الى حديقة له لا تبعد كثيراً عن البلد . فينصب لنا رجاله هدفاً على قمـة تل هنالك . فتارة أنا اكثر اصابة وتارة هو اكثر اصابة . هذا اذا كانت الرماية بالبندقية واذا هي كانت بالمسدس . فالفوز حليفي لا محالة . وقد عاهدني ان يهيئ لي أسباب الفرار من سيواس كما أبنته في غير هذا الموضع . ولولا ان

تداركنا الله باعلان الدستور في البلاد العثمانية لنجوت من سيواس على يده

ومن سراة سيواس رجل اسمه عبد الله بك . وهو ابن اغا قانغال . ما شئت من مال ومن نشب . مات رحمه الله في شبابه بمرض السل بعد ان قاسى منه ما لا يصبر عليه غيره . وكان على جانب من صغر الرأي . فصد عن نصح الاطباء الى ان أحس بدنو أجله . فهم بالسفر الى الآستانة ليتداوى عند كبار أطبائها ولكن أدركته المنية حين لم تبقَ فائدة للعلاج

ومنهم نوري بك بن الحاج علي بك . وهذا الرجل أشبه الناس بعبد الحميد . ومن مزاياه التي أمن فيها النظير انه ما لبس ثوباً نظيفاً ولا حمل صدره قميصاً افرنكياً . وهو من أعضاء لجنة المهاجرين وقد ترقى في مدارج العلى حتى بلغ المتمايز . ثم وقف به جده لا يتقدم قيد اصبع . ولا أعلم من حال الرجل ما يسوء ذكره . غير انه كان كثير النفاق

ومنهم خالد بك مدير الاوراق . رجل حسن الطلعة . كريم الطباع . طيب المجلس . ولكنني شممت من خلائقه رائحة الختل . فاتقيته

ومنهم الحاج نوري افندي . مميز قلم المحاسبة . لوددت ان اروع بلقاء الذئب أعزل على ان لا أراه . اني لأربأ بهـذا القلم ان يسفل حتى يلتقط معايبه . ولولا لجاجة سبقت في ذكر هؤلاء القوم لأمسكت القلم عن ان يخط اسمه . وها أنا فاعل

ومنهم ابراهيم بك . ناظر النفوس . هو من مهاجري ولاية الطونة . أتى سيواس مع المرحوم خليل رفعت باشا أحد الصدور العظام . حين وجه والياً عليها . فلما فارقها الباشا بقي ابراهيم في سيواس ورضيها لنفسه وطناً

ومنهم توفيق افندي باشكاتب مجلس الادارة وضياء الدين افندي مميز المكتوبجي . وكانا في التجسس والوشاية فرسي رهان . ولا أدري ايهما اشد تعصباً من صاحبه . وضياء الدين افندي زارني مرة في العيد . فأبصر بين الصوَر المعلقة على جدار الغرفة صورة شاب من فضلاء اخواننا الأرمن وهو المسيو باليوزيان . فاشمأز وبدا الغيظ على عينيه . ثم التفت اليّ وهو يقول : انزع هذه الصورة . لا ترفع صوَر الكافرين على جدار بيتك . ألا تعلم ان هذا الرجل هو أحد اعضاء الجمعية الارمنية السرية . فقلت : ليس ذا من شأنك . فخرج من عندي وهو يكاد يستعر غيظاً . اما توفيق افندي فلم يسلم عليّ ولا سلمت عليه وأبغضني الرجل وأبغضته من أول يوم اختلفت فيه بيننا النظرات

ومنهم حسين افندي . سر قوميسر الولاية واليوم بدل هذا الاسم الى مدير البوليس . رجل لا أعرف له سيئة . ولقد حمدت سيرته وكنت ازوره مستطيباً زيارته . والمنفيون كلهم يحبونه ولا يذكرونه الا بالخير

اخواني في النفي

كان عبد الحميد يتخذ من بعض الولايات ديارات للنفي . فما غضب على حر ولا غضب على غير حر الا أشخصه الى واحدة منهـا . وانما اختلفت عنده مراتب النفي باختلاف الاجرام واختلاف الاماكن . فمن نفاه من خاصته امتحاناً او عتباً اختار له الثغور او البلاد القريبة من العمران . ومن نفاه قالياً ناقماً رمى به في أبعد المرامي . وراء الجبال . حيث البداوة والعصبيـة والموت الاحمر والبلاء الاسود . وسيواس هي احدى مواطن النقمة الحميدية

ألفيت بها اناساً سبقوني اليها . اولئك اخواني من احرار العثمانيين . طائفة منهم كانت آوت الى مصر في ايام كرومر الجليل وحامي الاحرار . وطائفة كانت هاجرت الى اوروبا او كادت تهاجر . ما زالت الاقدار تسيرهم وتطوّفهم في الآفاق حتى رجعوا كلهم الى العش الذي استطيروا منهُ . فمغلوب على أمره بالحاجة ومنخدع بوعد ومستخف له الشوق . وكأن حوادث الصروف كانت مسخرة للرجل الظـالم . تحارب من يحاربهم . فما استقرت على ارض سيواس قدماي الاّ ولحق بي آخرون . فكنت انا صاحب الفترة بين البريدين

فتجدد جلدي وثبتت نفسي . وقلت المواطن اوطان اذا تجاورت فيها الاحبـة . وأقمت اياماً اترقب زيارتهم لي . فلم يطل ترقبي . فكانوا يتوافدون عليّ فرادى ثم مثنى . ولما اطمأنت قلوبهم عليّ وعرفوا اني غير محجوب عن الناس اكثروا الترداد في ود وصفاء لا انساها ابداً .

وها أنا ذاكر أسماءهم على ما علق في ذهني

الخوجه شكري . (هو الآن مبعوث سيواس)

الدكتور فائق

توفيق افندي

خالد افندي

صلاح الدين افندي

رضا بك

شوقي افندي

رجب افندي الالباني

فائق افندي

وهذه أسماء من نفوا الى سيواس على أثري

البكباشي المرحوم جميل بك

الملازم احمد بك

المرحوم حسن بك ويريون الالباني

نجله نزهت بك ويريون

المسيو لامبروس نيقولايدس

حكمت بك

وكان بسيواس منفيان . احدهما علي غالب بك . هو مدير الاوراق بنظارة المعارف . وثانيهما عادل بك وهو احد خزنة الكتب في مكتبـة عبد الحميد التي بقصره . لقد صددنا عن هذين الرجلين لأن المتقدم الذكر منهما احـد الجواسيس الذين فتكوا بالاحرار فتك الذئاب حتى

ضرب بالسيف الذي ضرب بهِ المظلومين . والثاني رجل مذموم الاخلاق مملول الود لا يدانيه احد من الناس . وقدم سيواس بعد ذلك منفيان احدهما البوز بك حمو عبد الحميد وثانيهما توفيق بك متولي زاده احد أشراف ازمير. وكان البوز بك يقبض كل شهر راتباً قدره ١٥٠ جنيه . وكان بسيواس منفيون غير الذين ذكرت اسماءهم وعددهم اكثر من الخمسين والمائة . غير انهم فرقوا في انحاء الولاية . فاسكن فريق منهم توقاد واسكن فريق آماسيا واسكن الباقون بلاداً اخرى داخلة في الولاية

وقد عنَّ لي في بعض ايامي رأيٌ . فدعوت بمن تقدم ذكرهم من الاخوان . وقلت لهم (هذه حياة لا لذة فيها . نظل في سيواس حتى تفنينا الايام ونرى الى وطننا وقد اشفى على الهلاك . كل يوم يموت منهُ عضو . والظالم الجبار سالمتهُ الايام . فما اظنهُ يموت وفي الوطن حياة ترجى) فقال قائلهم : وما رأيت لنا في الأمر . قلت : ما عندي رأي مختمر . وانما دعوتكم لنتشاور في الأمر جميعاً . ولكن ينبغي ان نعلم ان سبيل العمل فيما نتحدث فيهِ محفوفة بالمكاره . فمن أحس في نفسهِ ضعفاً فليتنكبها . اننا نريد انصاراً ذوي عزم . لو ان في قلبي أقل الريب في صدق احدكم ما خاطبتكم في مثل هذا الأمر . اطلبوا التدبر والتأمل . ثم انظروا ما ينبغي ان نبدأ فيهِ . اني اظن ان الرأي في تأليف جمعية سرية تكون على الطريقة الماسونية او تقرب منها . على ان لا تكون ثم رئاسة تستهوي القلوب ويتخاصم عليها الاخوان . انا قليلون والثبات يكثرنا عدداً . ولنتخير من اشراف سيواس من نأمن غدره ونثق بمروءته ومن هو جدير بنصرتنا او مشاركتنا في بلوانا اذا حم القضاء . هذا أمر لا يستطاع الفراغ منهُ في

مجلس واحد . والايام بيننا . وسنزداد في كل التئام نلتئمهُ رأياً جديداً

قالوا — من لنا بالسلاح والعدة ؟

قلت — السلاح والعدة لهما رجال غيرنا . وانما علينا ان نحكم تدبيرنا ونتولى استكمال جمعيتنا . فاذا اتت نوبة السلاح والعدة نظرنا في ذلك . ولن تأتي تلك النوبة الاَّ وحولنا رجال اولو بأس ونجدة

فرضي الاخوان رأيي ووعدوني بالنظر فيهِ . ثم توالت اجتماعاتنا . فكنا نتفق على اشياء ونختلف على اشياء حتى اتفقنا على ان لا نتفق . وسلك كل بعد ذلك طريقاً وانقسمنا جماعات وكنا أقل من ان نكون جماعة واحدة .. غير اني لم اعلم على احد من الاخوان ما يزري بحريته ولا ما يستحدث ريباً في نجدته . وقد فرّق الدهر بيني وبينهم بعد اعلان الدستور ونحن متوادون . لم يبدل احدنا بسياسته سياسة . صبرنا على مضض الايام ووقفنا في وجه الحكومة البائدة غير صاغرين . ولو كان والي سيواس غير رشيد باشا عاكف لقضينا الايام في ظلمات السجون . ولكن الوالي كان حرًّا شهماً وكان منفياً مثلنا . فهذا خفف ويلاتنا وجعلنا في مأمن من كيد الخائن . ولقد ذاق مرّ العذاب اخواننا الذين نفوا الى خربوط وقسطموني وغيرهما . وابتلوا بولاة لو سألهم عبد الحميد ان يقتلوا الأجنة في البطون لأطاعوا

كيف مرت ايامي بسيواس

العامة تقول : (الغريب أعمى ولو كان بصيراً) . هذا مثل يصدق فيّ . ان سيواس أرض عثمانيـة وأنا رجل عثماني . فهي اذن بلدي وأنا ابنها . غير ان الغربة غربة الدار واحدة . كل أرض لم يسبق للمرء علم بها هي دار اغتراب له . وقد كانت اوائل ايامي في سيواس ايام شدائد . ضقت ذرعاً حتى لا أدري اية اذهب والى من ألتجئ . ولولا اخواني الاحرار الذين تقدم ذكرهم لبلغ بي الحرج أقصى حدوده . وما لبثت ان استأنست بالدار وأهلها واتخذت لي رفقة صالحة من نازليها ومن أشرافها . ثم أخذت أجوب مسارحها وألم بساحاتها . فصرت بعد ذلك كأني بعض أهلها

ولقد علمت ان الحكومة في غنيـة عن خدمتي وان المراد من وظيفتي اسمها دون حقيقتها ورأيت الموظفين يخفون عني أوراق الحكومة التي تتضمن شيئاً من أسرارها . فاخترت ملازمة الدار . والقي في روعي ان قراءة الكتب قد تستحدث نسياناً لمصائبي وتفيدني ما لا أعلم . فجعلت أتحرى أسفاراً أقتطف فوائدها وأقتبس من معارفها . فاذا حظ البلدة منها قليل . فاشتريت من القصص الفرنساوية ما ادخلت في غفوة من أعين الرقباء . فجعلت أقرأوها وأستعين بها على مغالبة البطالة . وأعارني اخواني الاحرار مما عندهم من الكتب . فشفت داء صدري وطابت بها أوقاتي . وأحببت ان اقضي بعض ساعاتي في التأليف . ولكن خوفني الاصدقاء من شرّ ذلك . قالوا قد يتصل بالحكومة أمرك فتدخل الشرطة دارك وتروع أهلك وحسبهم ما لقوه بالآستانة . واذا ظهر شيء تكون

كتبتهُ حرفوه وزادوا على ما فيهِ ورموا بك رمية لا نجاة لك بعدها . فأقمت بسيواس ما أقمت لم أؤلف رسالة ولا كتبت فصلاً من رسالة سوى كتابين

وكان يجيش في صدري الشعر فأقول الابيات او القصيدة الطويلة واقيدها في كتاب لا اطلع عليهِ أحداً . وقد ضاعت اكثر تلك القصائد اذ تساقطت اوراقها كما ضاعت عدة من غرر قصائدي بين اوراقي التي أخذها الجواسيس بالآستانة . فتلك السوانح أتلهف عليها وابكيها ما دمت حياً

وما مضى عليّ الحول الاَّ ولي أصحاب كثيرون من الاجانب . اولئك قوم خففت موداتهم لواعجي . ألفيت منهم ودّاً لا يشوبه الهوى . ما نابتني نائبة من حدثان الدهر الا تسابقوا الى داري بوجوه كنت أقرأ على صفحاتها سطور الوفاء . فمن هؤلاء الدكتور جويت قنصل الولايات المتحدة الاميركيـة (هو الآن قنصل الولايات المتحدة في طرابزون) . فقد كان الرجل مني بمنزلة الأخ وكذلك عقيلته وشقيقتها المس باوس . ولما مرض اكبر انجالي بالحمى التيفوئيدية جعل الدكتور جويت يعوده كل يوم مرتين . وقد تولى معالجته مشتركاً مع صديقي الدكتور خسرف هكيميان . وكانت المادام جويت تأتينا صباح كل يوم . فتظل في خدمة المريض الى الظهر . ثم تذهب لتتغدى . ثم تعود فتمكث عندنا الى الليل . لم تنقطع يوماً واحداً الى ان شفى الله ذلك الطفل على يدي الطبيبين وعلى يدي هذه السيدة الفاضلة

ومنهم الموسيو لاپورت قنصل فرانسا . شاب لم يبلغ يومئذٍ الثلاثين من

العمر . كان كذلك مني بمنزلة الأخ . ولقد لمته ذات يوم على كثرة دنوه
من سرير ابني في أبان مرضـه . فابتسم في وجهي وقال : لا تخف عليَّ
شيئاً . أبواي لقيا ربهما وليس لي زوجة ولا ولد يهمني ما يصيران اليـه
بعدي . فقلت بل لك اخوان كلهم يفديك بحياته ويستزيد لك الصحة
والسلامة

ومنهم المسيو مونتي سانتو . ترجمان قنصلية الولايات المتحدة الاميركية
(هو الآن ڤيس قنصل الولايات المتحدة في طرابزون) ومنهم المرحوم
المسيو اصلان . رئيس حسابات البنك العثماني بسيواس . كان مثالاً في
صدق المودة . امتاز بالجرأة واستخفاف المهالك حتى اودى شهيدهما في
بعض مسيره الى الصيد . ولم يبلغ من العمر اكثر من الثمانية والعشرين
عاماً . ومنهم المسيو ساجاني مدير البنك العثماني والمسيو دوتوليدو أحد
الذين خلفوا المرحوم اصلان . ومنهم المسيو بون هنري قنصـل فرانسا
بعد المسيو لابورت وعقيلته . فقد قضينا معهمـا شتاءً كاملاً . في ليالٍ
نسينا بها اننا وراء جبال الاناضولي وخيل الينا اننا مقيمون بباريس .
بين محاسنها وبدائعها

اما الموظفون العثمانيون فمنهم صديقي الأوفى ارستيدي باشا معاون
الوالي (هو الآن عضو في مجلس الاعيـان) . وقد تخرَّجت عليَّ كبرى
بناته في اللغـة التركية . لن ينسيني كرور الايام ما لقيت من هذا الشهم
وآله من جميل الود . فما استحدثت الايام لي معضلة الا كان حلها بيده .
وارستيدي باشا رجل من نخبة العثمانيين فضلاً وأدباً . وله في وظيفتـه
آثار تشهد له بما اوتي من الحكمة والرأي

ومنهم اسعد بك رؤوف سكرتير الولاية . (ثم جعل متصرفاً لمرسين)
واظهر في المذابح الارمنية من الحرية والعدالة ما يتباهى بهِ العثمانيون

فكنا اذا جاء فصل الصيف . ننصب الخيام خارج البلدة . بالقرب
من مصنع الدقيق الذي اسسه خليل رفعت باشا . فهنالك بارض النبت
في ألوانهِ الزاهيـة وهنالك الاشجار المتكاثفة والينابيع المتفجرة والانهار
الدافقة والجبال الشاهقة والنسائم المعتلة . نقيم تحت تلك الخيام المتجاورة
شهراً او اكثر كسكان البادية . تصبحنا الشمس المشرقة ويماسينا البدر
المتكامل من وراء الاكمـة . ونحن نرتع في تلك المحاسن . فآونة نطوف
متصيدين انواع الطير وتارة نذهب الى منهل عذب نعلُّ صافيه ونصيب
عنده طعامنا . فلا ينتهي الموسم ونرجع الى البلدة الاَّ ممتلئين صحة وشباباً .
فنقضي ايامنا بذكر تلك الاوقات ونقيم على التزاور والتواد والصيد ونحوه
طول فصل الشتاء . وهو تسعة اشهر . حتى اذا عاد الصيف عدنا الى ما
كنا فيهِ

اني لكثير الحنين الى تلك الايام الطيبة . ولولا ما كدرها من ظلم
عبد الحميد واستبداده على الأمة لتمنيت عودتها مع اولئك الاصحاب . فذلك
العيش معلل جانبه . وهنالك الدعة والصفو كلاهما . هذه ذكرى طيبة
اوثرها في كتابي تشريفاً له بذكر اولئك الاخوان . وما في فوآدي
اجمل وأبقى

وقد وجدت لي اعمالاً تعينني على التخلص من شؤم البطالة .
فتعلمت حفر الخشب وتجويفه واكثرت من التمرن في التصوير الفطوغرافي
والتصوير باليد . فكنت اذا ضاق صدري اجد منها مفرجاً للكربة .

كذا مضت عليّ سبعة أعوام في تلك الارض . فلم اعدم من الحكومة
البائدة عدواً يكدر صفو الحياة . فقد عشت محروماً من صحف الاخبار
الاّ ما كنت اقرأوه عند اخواني الاجانب . وكانت ادارة البريد لا تدفع
اليّ الكتب التي يبعث بها شقيقي ومعارفي الاّ بعد ان تفض ظروفها
وتعلم ما فيها . لم يغنني لديها تظلم ولا استنصاف . وكان مدير البريد
والتلغراف من اكبر الجواسيس

اهل سيواس

تقدمت في فصولي الماضية اشارات الى أهل سيواس . فتلك
متفرقات لا طائل تحتها . وهذا الذي اذكره اكثر فائدة وأخص بياناً
ان للامصار من بنيها اعواناً على اتساعها وتعاظم شأنها وزيادة
رونقها وتوفر ثرائها . وما يصيبها من عناية الحكومات مجلوب برغبة
الاهلين وطلبهم . وسيواس كغيرها من سائر المدن العثمانية بقيت على
قدمها . وما بقيت عليهِ في تمام محاسنه بل قامت على انقاض لم تمسها يد
مجدد من ابنائها . فهي عنوان فطرتهم ودليل عجزهم

وبنو سيواس قوم تعودوا عيشهم فاستطابوه . ولئن قام منهم اناس
يشكون حالهم . فتلك شكاية لا استمرار لها . تبسامة من والٍ تنسيها
وزجرة من مدير البوليس تذهب بريحها . وان من آفات الجهل ان يعد
المرء شقاوته نعيماً وان لا يصدق ان في الحياة الدنيا عيشاً هو أطيب
من عيشه

ما اشتاق أهل سيواس شيئاً مما بأيدي غيرهم ولا تاقت نفوسهم الى
احراز مثله . فاذا حدثهم محدثهم بما في مدن الغرب من مظاهر العمران
وقص عليهم أخبار الناس ووصف لهم الكهرباء في نورها الوهاج وقوتها
التي تستخف الرواسي ضحكوا ضحك غير المصدق . وظنوا ان الرجل يحدثهم
باشياء لا مكان لها في الوجود . يتساوى في ذلك أشرافهم وسوقتهم .
هم يقولون أعلى هذه الأرض بلد هو أعظم من سيواس . ام فيها أقطار
أنهارها كأنهارنا ورياضها كرياضنا وخصبها كخصبنا . واذا جارك محدث
الى ما تعيب من سيواس . فانما يصنع ذلك تحبباً اليك . وفؤاده ينكر
عليك ما تقول

وما القوم بمحرومين من العقل ولا ذكاؤهم دون ذكاء الناس .
ولكن يغلب على قلوبهم بعدهم عن بلاد الله وحياتهم التي يتقضى اكثرها
على شاهقات آسيا الصغرى وجهلهم الذي لا يقف عند حد . فيبقى ذلك
العقل غير مستخدم ويظل ذاك الذكاء معطلاً وغير مستثمر . وبذا تتعود
النفوس عيش البطالة وتنشأ على العجز والذلة . ولئن كان الطمع مذموماً
فان من القناعة لشراً منهُ . وقد رأيت من فاقة السيواسيين ما لا أقدر
ان اصفهُ ولا ان أقارنه الى غيره . تلك فاقة منسوجة على غير منوال
وأشد ما فيها ان لا رجاء في زوالها . واذا اقتضى الكلام على المتمولين
الذين هناك . فقل ان فيهم الموسرين ولكنهم ليس فيهم الاغنياء . ومن
كان مجموع ماله الفي جنيه عدّ من كبار أغنيائهم . واكبر غني هناك هو
افيونيان وكل ماله لا يتجاوز العشرين ألف جنيه

وان من عجائب ما استقراه العقلاء ان اكثر الأمم غلواً في الدين

اكثرها تهاوناً في غيره . وما ذهب بمجد اليونانيين وأخر سبق الرومانيين
وأضعف سلطان الاسبانيين لجدير بأن يبلغ بالسيواسيين منتهى الشقوة .
وما غلوّ هؤلاء القوم في دينهم ظاهراً في نسكهم وعبادتهم بل هو بيّن في
صدّهم عن كل شيء يأتيهم من اوروبا . لقد كنت أخرج الى بعض
الخلوات مع رفقة لي . محمولين على الدراجات . فيرجمنا الشبان والصغار
بالحجارة وكم اضطررنا الى تهديدهم بالمسدسات رداً لأذاهم فرددناهم وما
كدنا . وهم يسمون الدراجة (شيطان عربه سي) اي عربة الشيطان .
ولما استمرّ اعتداؤهم وأعيتنا الحيل في اكتفاء شرّهم عمد كل منا الى
دراجته فباعها

وكانت السيدات الاوروبيات اذا خرجنَ للنزهة يصحبنَ معهنّ
رجالهنّ وخدمهنّ لكي يردوا عنهنّ الاولاد اذا رموهنّ بالحجارة .
وهذه الجرأة تجدها عند المسلمين كما تجدها عند الارمن . وصبيان
الارمن اذا رأوا سيدة اوروبية صاحوا بها : يا مادام . جيو بك ملؤها
الشياطين . وقد يغتفر المرء امثال ذلك من صبية نقصوا تربية وحرموا
علماً . ولكن ما يقول المرء اذ يرى امهاتهم يمشين محجبات ساحبات
فضول مآزرهنّ . كجماعات الاوز او كأقطاع الغنم . ولقد يبصرنَ بسيدة
اوروبية او سائرة بزي الاوروبيات فيسببنها في وجهها ويضحكنَ من
شكلها . هذا جهل لو انقلب علماً لأصبحت غربان سيواس فلاسفة .
ذاك والمدارس الاجنبية لا تضيع في سوى التعليم وقتاً من اوقاتها . فما
ظنك بها من قبل ان تدخل جنود العلم ارض سيواس

ولا يحسبنّ القارىء اني ارمي بما تقدم من كلامي الى ذم اخلاق

السيواسيين . فذاك بمعزل عن غرضي . بل ان أهل سيواس من أقرب
العثمانيين الى التقويم والتهذيب . وما اظن ان في الولايات العثمانية ولاية
تفاضل سيواس في دعة أهلها . ومن المستحسن من محاسنهم ان الجنايات
بينهم أقل من الأقل . فلقد يمضي الشهر والشهران ولا تقع في مدينة
سيواس جناية واحدة . ولقد كثرت في خارج المدن وفي بعض قراها
سطوات الصعاليك وقطاع الطرق واكثرهم من الجركس . ثم أبادهم
رشيد باشا عاكف في ايام ولايته فحل الأمن محل الخوف

واذا نظرنا الى اولئك الأقوام وحالهم حالهم من البؤس والشقاء وبقاء
اكثر شبانهم بغير شاغل لهم من حرفة يحترفونها او طريق كسب
يسلكونه وقارنا ذلك الى اعتصامهم بالصبر وغيرتهم على الأخلاق ان
ينتهي بها الفساد الى ما لا علاج له عرفنا لهم حق الأدب القومي
وأنصفناهم . فان الصناعات التي ذكرتها في فصولي المتقدمة قد انقطع اليها
ناس عرفوا بها ولم يترسم خطاهم غيرهم . وسائر الشبان يحيون حياة بطالة
ولهو لا طائل تحتها

الامة والشورى

من الناس من يذهب الى ان الامة العثمانية كانت تريد الدستور . هذا وهم لا حقيقة له . من اين للامة ان تدرك محاسن الشورى ولا عهد لها به . لقد أقرها عبد الحميد في اوائل ولايته اياماً ليخدع بها خصومه ويبث بها لهم حبائل الشر . ثم أخذ يرمي بهم واحداً بعد واحد حتى اباد جمعهم وافنى اكثرهم . ومدَّ بعد ذلك رواقاً من الظلم احتبى تحته الراضي والساخط وقضى ان لا يحاسب وان لا يعاتب فاشترى اقلاماً بذهبه وكسر اقلاماً بقوته . وحال بين الرعية وبين الحياة . فمن اين عرفت الشورى وكيف تاقت اليها نفوسها

ما اريد غضاً من جانب الامة ولا تجاهلاً لمناقبها . ولكن هو الحق الذي لا يتغلب عليه اللجاج . وليس في ادعاء غير الواقع فخر تناله الامة . ولا في ابطاله عار يلحق بها

ان الامة اشتدت عليها الاوجاع . فتجلدت وكرمت في تجلدها . وما كان ذلك عجزاً ولا ذلاً بل وفاء واعذارا . فكان منها من يحمل مصائبها على حكم القدر فيمتثل ايماناً وكان منها من يتهم حاشية السلطان باخفاء الامور عنه ومنع شكاوي الرعية ان تصل اليه وكان منهم من يقول ان مهب تلك الفادحات هو الغرب حيث عكف ساسته على الكيد لنا والانتقام لاسلافهم الذين وردت سيوفنا رقابهم وأذل سراتنا اعزتهم . ولم يتجاسر أحد من عامة الامة ان يتهم عبد الحميد في نجواه فما ظنك باعلان عصيانه وانكار سيئاته عليه وانما باح ببغضه له

وجاهره بالعدوان قليل ممن تعلموا وعرفوا . فهؤلاء هم اعوان الحرية وانصار الشورى

ان العامة تحب الشيء اذا حببهُ اليها زعماؤها وتبغضه اذا بغضهُ اليها زعماؤه . وزعماء العامة عندنا رجال الدين وهؤلاء لا يرغبهم في الشورى شيء مما هم منقطعون اليه . فهم يحبون ان يظلوا محتكمين على الرقاب وان يبقوا عيالاً على الامة وان يلم الناس ايديهم ويملؤا اكياسهم . ثم ان عبد الحميد اتخذ منهم شيعته وذادته . فما أقر هيبته في القلوب ولا ابتاع له المودات الا هذا الرهط . فصح اذن ان الامة لم تكن من العلم بالشورى على شيء

على ان فريقاً هو متوسط بين الخاصة والعامة أخذ يبدي ضجرته بعد ما طال اخفاؤها . فكان كلما اشتدت وطأة الجواسيس زاد بغضاً لرجال الحكومة . ظناً بان اولئك يخدعون السلطان ويخونون عهده لأمته . وكلما حاول فريق الاحرار حمل هذا الفريق على مؤآخذة السلطان أبوا وقالوا : « حاش لله . هو أعظم من ان يتهم في ذمته . انتم خاطئون . الذنب ذنب من حملهم الامانة فخانوها »

قلت يوماً لصديقي امير باشا : ألا يقوم رجل من نجباء هذه البلاد . فيجمع بعض الامة في داره ويعلمها بما هي صائرة اليهِ من الهلاك . ارجو ان يكون ذلك باعثاً لها على الانتباه . فقال : ان أهل الشرق لا ينبههم النصح وانما ينبههم الجوع . فاذا هم جاعوا طلبوا حقهم

قلت : هذا غلوّ منك

قال : بل هو الحق الذي لا يختلف فيه . وما كلمتك الا كلام مجرب

وقد أبدت الايام كلام صديقي . فحدث بسيواس غلاء . قبل اعلان الدستور بأشهر قلائل . وأخذ التجار يغلون الحنطة ثم لا يبيعون ما في خزائنهم الاَّ بعـد رجاء تيبس له الألسن في الافواه . فتظلم الناس الى الولاية والوالي اذ ذاك في حوضة ينتظر ما قدر له من غدر عبد الحميد . فلم يتمكن من الاسراع الى اغاثة الملهوفين . فأقبلوا ذات يوم في جموع يزاحم بعضها بعضاً حتى وقفوا على باب الحكومة . فانتهرهم الجندرمة والبوليس . فهاج انتهارهم غضب المتجمعين . فحملوا على الأبواب وعلى الاجناد حملة تزحزح الجبال عن مواضعها . فغلقت الابواب واعتصم حراسها بالقصر . وكان الدفتردار وكيلاً عن الوالي . فأبرق اليـه يخبره الخبر ولم يبين الأمر بياناً شافياً . فجاء أمر الوالي برد الناس الى منازلهم وضربهم اذا أبوا . غير ان الجنود أبت الامتثال وتركت اخوانهم ينهبون المخازن ولا يتعرضون لهم بشر . وما انتهت الفتنة يومئذٍ الاَّ حين نفدت الحنطة من المخازن

فأقبل عليَّ امير باشا باسماً وأخذ بيدي وهو يقول : نحن لا نجادلكم فيما تعلمون فما لكم تجادلوننا فيما نعلم . أرأيت يا ابن اختي كيف صدق يقيني وكذب ظنك . فأما وقد عرفت الأمة انها قادرة على مغالبة الحكومة وان صاحب الحق أقرب ما يكون من حقهِ اذا طلبه بساعده .. فان وراء ذلك لخيراً يرجى

قلت : حسبك . وعظت وعظاً ما خلت اني أسمعه وراء (جاملي بل) والله على كل شيء قدير

وكان أهل ارضروم ثاروا قبـل ذلك بأشهر على واليهم . فضربوه

حتى أماتوه . غير ان ثورتهم لم تكن من الجوع . فقد أراد ذاك الوالي نفي رجل من سراتهم . فاخذه من بيتهِ ليلاً . فخلصوا صاحبهم وعاقبوا المعتدي عقاباً اضطربت له جوانب يلديز . وجاءت اخبار غضبهم هذه نيـازي ورفاقه المجاهدين . فجددت عزائمهم وأحيت آمالهم

ولئن عرفت الحكومة العثمانيـة الناشئة ان تسترجع الشورى من غاصبها . فذلك فضل تزيده معرفتهـا باستدامته . ومتى ذاقت الأمة عذب طعم الحرية وفطنت لما تنال في أيامها من الصفو والرخاء . أمست وهي أشد غيرة عليها من الاحرار وباتت امة حرة بأسرها ووضحت لها خطيئات أهل الاهواء



فهرست الجزء الثاني

فهرست الجزء الثاني